

تأليف

عبد الحميد العبادي

الطبعة الثانية

١٩٩٣

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ ش محمد فريد

صور وبحوث من التاريخ الإسلامي

تأليف

عبد الحميد العبادي

العميد السابق لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ،
وعضو مجمع اللغة العربية ، وأستاذ التاريخ العربي
بمعهد الدراسات العربية العالية سابقا

الطبعة الثانية
١٩٩٣

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ ش محمد فريد

الى القارىء العـزيز

هذا الكتاب الذى يصدر اليوم هو فى الأصل كتابان ظهرا على التوالى فى عامى ١٩٤٨ و ١٩٥٣ ، وقد رأينا ضم الكتـابين فى مجلد واحد نظرا لاتحاد الموضوع ، مع الابقـاء على التسلسل على ماهو عليه • فالكتـاب الأول والذى كان عنوانه « صور من التاريخ الاسلامى ، العصر العربى » ، هو الجزء الأول من هذا المجلد • والكتاب الثـانى والذى صـدر بعنوان « صور وبحوث من التاريخ الاسلامى ، العصر العباسى والمغرب والأندلس » هو الجزء الثانى من هذا المجلد • وقد راعينا المحافظة على ذات النصوص وترتيبها كما كانت تماما دون أى اضافة أو تعديل •

وقد رأينا اعادة طبع هذين الكتابين فى مجلد واحد فى هذا العـام ١٩٩٢ بمناسـبة مرور مائة عام على مولد المؤلف المرحوم والدنا الأسـتاذ عبد الحميد العبادى •

وحفاظا على الشكل الذى ظهر به كل من الكتابين فاننا نورد فيما يلى الاهداء الذى كتبه المؤلف وقدم به الكتاب الأول يليه الاهداء الذى قدم به الكتاب الثانى يليها كلمة الجمعية التاريخية لخريجى كلية الآداب بجامعة الاسكندرية للأسـتاذ الدكتور محمـد عبد الهـادى شعيرة وكان موقعها فى الأصل فى صدر الكتاب الأول •

والله ولى التوفيق ؟

القاهرة فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٩٢

حسان عبد الحميد العبادى

الإهداء

إلى إخوانى وتلاميذى من خريجى مدرسة القضاء الشرعى ، ودار العلوم ، وكليتى الآداب بجامعة فؤاد الأول وفاروق الأول ، والأزهر الشريف ، ودار المعلمين العالية ببغداد ، أهدى الكلمات التى يشتمل عليها هذا الكتاب ؛ فهى ثمرة دروس وبحوث ألقيتها عليهم ، وكان حسن قبولهم لها ، وانتفاعهم بها أكبر باعث لى على أن أستخلص منها هذه الكلمات التى نشرتها من قبل مفرقة فى الصحف والمجلات ، والتى أعيد نشرها اليوم فى كتاب .

عبد الحميد العبادى

رمل الاسكندرية فى { ٩ ربيع الأول سنة ١٣٦٧
٢٠ يناير سنة ١٩٤٨

تقدمة وإهـــداء

من خمس سنوات مضت نشرت لى الجمعية التاريخية لخريجى كليات الآداب بجامعة الإسكندرية مجموعة من المقالات تتصل بالعصر العربى الإسلامى القديم ، وكان ذلك فى كتاب عنوانه « صور من التاريخ الإسلامى : العصر العربى » .

واليوم تنشر لى مكتبة الأنجلو المصرية مجموعة أخرى من مقالات و بحوث نشر بعضها مفرقاً و بعضها الآخر لم يسبق نشره ، وذلك فى كتاب عنوانه « صور و بحوث من التاريخ الإسلامى : عصر الدولة العباسية والمغرب والأندلس » .

والمقالات والبحوث المنشورة فى الكتاب الجديد يدور أغلبها على بعض أعلام الإسلام فى العصر المذكور فى العنوان ومسائل أخرى علمية ، إلا أن الناظر المتوسم لا يعدم أن يلمح فيها إشارات تكشف عن بعض جوانب الحياة الإسلامية القديمة من النواحى السياسية والاجتماعية والأدبية . فهى من أجل ذلك لا تخلو من الفائدة للجيل الجديد من طلاب التاريخ والتاريخ الإسلامى بوجه خاص . ولعل هذا المغزى هو الباعث الأول على جمعها ونشرها فى كتاب .

وقد جرت عادة كثير من الكتاب والمؤلفين أن يهدوا تآليفهم إلى بعض من يحبون أو يجلون ، فجريا على هذا السنن اللطيف والعرف المألوف أهدى هذا الكتاب إلى الذين أهديت إليهم كتابى السابق : أهديه إلى أصحابى من خريجى مدرسة القضاء الشرعى والأزهر الشريف ، ودار العلوم وكليتى الآداب بجامعة القاهرة والإسكندرية ، ودار المعلمين العالية ببغداد . فالحق أن الكتابين كليهما من وحى الدروس والمحاضرات التى سعدت بإلقائها عليهم ؟

رمل الإسكندرية فى { ١٩ سبتمبر سنة ١٩٥٣
١٠ المحرم سنة ١٣٧٣ }

عبد الحميد العبادى

كلمة الجمعية التاريخية

لخريجي كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

هذا هو الكتاب الثاني من الكتب التي تصدرها جمعيتنا التاريخية[1] ، وهو كتاب نعتز به كل الاعتزاز ، لا لأنه كتاب رئيس الجمعية ، بل لأنه كتاب علم من « المثاني » بين كتب التاريخ . وقد يحق لكثير من الجمعيات أن تتسابق في الانفراد بتقديمه إلى الشعوب العربية المختلفة التي عرفت المؤلف الجليل من مقالاته ومحاضراته فقدرت ذوقه التاريخي تقديرا لم يبلغه فيما نرى أحد من مؤرخي الإسلام في الشرق الحديث .

ولأستاذنا عبد الحميد العبادى بك فضل كبير على التاريخ الإسلامي تعرفه حق المعرفة أجيال تخرجت على يديه منذ ثلاثين عاما أو تزيد . فقد استمعت لدروسه القيمة أجيال من الشباب كثيرة ، فظلت تحتفظ بأجمل الذكرى لما سمعت ، وظلت على الأخص تحتفظ بصورة الماضي الإسلامي التي رسمها لهم ونقشها في أذهانهم رسما بسيطا ونقشا حيا ، حتى لم يجدوا عناء في حملها كأنما صاغوها من نفوسهم . بل قد لا نجاوز الحق في شيء إن زعمنا أن جيل المؤرخين الحاضر إنما يردد بعض صور الأستاذ أو يتخذها أساسا لدراسته الإسلامية . ولقد سمعت دروسه تلميذا ثم سمعت شيئا منها زميلا ، فخيل إلى أنني كنت أشد إعجابا بها وأعظم طربا لها حين أصبحت زميلا مني حين كنت تلميذا . ولكن هذه الدروس جانب مجهول مجيد لم يذعه الأستاذ الجليل على الناس بعد .

نعم ، فضل الأستاذ الجليل على التاريخ الاسلامي كبير الأثر ، لأنه نقله من

---

(١) الكتاب الاول « المجمل في تاريخ لوبيا » تأليف مصطفى بعيو الطرابلسي ، ١٩٤٧ .

عهده الأول إلى عهد جديد . كان التاريخ الإسلامى لايزال فى آخر القرن الماضى وأول القرن الحاضر من العلوم النقلية الصرفة . فكان المؤرخون فى الغرب الأوربى والشرق العربى أيضا يقتصرون على تمحيص الروايات التاريخية المختلفة بقدر ما تتيح لهم طرائقهم الرفيقة فى التمحيص ، ثم يسوقونها فى سرد متسق لا يحتاجون فيه إلا إلى اليسير من الربط . هكذا كان كوسان دى برسفال ودفرميرى وغيرهما فى فرنسا وموير فى انجلترا وفايل فى ألمانيا ، وهكذا أيضا كان ما كتب الشرقيون أنفسهم ، فنهم من كان يعمـــد إلى المصادر فيلخصها تلخيصا يتفاوت فى إيجازه قصرا وطولا ، مثل الشيخ عبد الله الشرقاوى . ومنهم محمد الخضرى بك ، بل لعل الخضرى كان يغالى فى الطريقة القديمة حتى ليحتفظ لرواياته بلفظها القديم . وكتابه هذا يعد من أصلح الكتب فى نوعه إذا اعتبرناه كتاب نصوص ، ولانزال إلى اليوم ننصح المبتدئين فى التاريخ بقراءته ليتعودوا أساليب المصادر . حتى أنشئت الجامعة المصرية القديمة فأنشأت جيلا جديدا كان خير شاهد بفضلها . من هذا الجيل أساتذتنا أصحاب المنهج العلمى الحديث : طه حسين بك فى الأدب ، وأحمد أمين بك فى الحياة العقلية ، وعبد الحميد العبادى بك فى التاريخ .

فهجر التاريخ الإسلامى طريقه القديم الذى سلكه قرونا طويلة ، وساير باقى فروع التاريخ الأخرى فى أوربا . وتجاوز الدور البسيط الذى مرت به كل الشعوب تقريبا ؛ ثم لم يقنع بالتقدم البراق الذى عرض له فى القرن التاسع عشر على يدى جيبون وفولتير من قبل ، لأن هذا التقدم لم يكد يغير إلا مظهره بما أدخل عليه من تنظيم الواقعات وتبويب بعضها بالقياس إلى بعض وترتيبها فى أسلوب جميل يختلف حظه من الإمتاع . وإنك لتقرأ المختارات من كتب التاريخ التى ظهرت فى فرنسا على هذا الأسلوب فتجدها قطعا رائعة من الأدب الخطابى

الرفيع ، تحدث فى النفس أروع الأثر . ولكنها على ما تقتسر من الروعة قليلة الحظ من الصفة التاريخية الصحيحة ، وخاصة حين تغلب عليها النزعة الغنائية .

وتمثل هذا الانتقال فى آثار الأستاذ الجليل . فإذا الأستاذ يقفز بالتاريخ الإسلامى فى مصر قفزة العملاق ، وإذا به يتتبع آثار جيبون ويبورى وغيرهم من عظماء المؤرخين ويعالج التاريخ الإسلامى كما يعالجه كبار المؤرخين المعاصرين فى أوربا بالقياس إلى فروع التاريخ الأخرى .

فالأستاذ الجليل طريقة علمية دقيقة أعانته عليها ملكاته : فإنه يجمع إلى قوة النقد وطرافة الاستنباط فطرة سليمة تجبله على السعى إلى فهم كل شىء ثم أسلوب أدبى رزين يعارض به الأساليب القديمة أحيانا ويبلغ به حد الإجادة لا عن طريق الأسلوب وحده ولكن عن طريق الرسم السهل الممتنع خاصة .

ومن وراء كل هذا أساس تاريخى عتيد مبنى على قراءات واسعة مستفيضة وافرة الحظ من الإجادة والإتقان ، أعانه عليها ذوقه الأدبى الممتاز ، فهو يحفظ بعضها عن ظهر قلب ويتمثل بعضها تمثيلا حيا . ولكن الأستاذ حريص دائما على أن لا يشغل بها القارىء ، وأن لا يثقل بها سرده التاريخى القوى البناء . ثم هو من أكثر المؤرخين حرصا على تجنب التفاصيل التى تملأ الصورة التاريخية أحيانا فتذهب برونقها ووضوحها ، وهو من أوسعهم نظرا أيضا : فلا يكاد ينتهى من تصوير الواقعة الخاصة حتى يضعها فى إطارها من التاريخ العام وضعا لا تنبو عنه. ولهذا كان مجيدا فى صوره التاريخية . فهى أشبه شىء بالتخطيط القوى فى دلالته. ولهذا كان عبد الحميد العبادى بك مؤرخا فنانا فـــذا صاحب طريقة خاصة ، فاستطاع أن يجمع بين الأدب وبين التاريخ فى آن واحد . له من التاريخ منهجه العلمى الدقيق ، وله من الأدب جمال الصورة وروعتها . فإن صح هذا الوصف

لطريقته فهو يعالج نوعين من العلم فى نوع واحد ، ويلقى على نفسه حملا كان حريا أن يثقله لولا أن ملكاته الوافرة تعينه عليه وتقدره على حمل لوائه ، وترفعه إلى منزلة جليلة .

وفى هذا الكتاب نوع خاص من أبحاثه : هو صور من التاريخ الإسلامى بعضها يدخل فى باب التراجم فيقفز بهذا الباب إلى مستوى رفيع ، والمفن لم يفطن إليه الأقدمون على كثرة تأليفهم فيه ، وبعضها إحياء رائع للأجواء التى كانت مواطن الإسلام الأولى مثل دار الندوة أو دار الأرقم المخزومى . وهو نوع من البحث تظهر فيه مواهب الأستاذ ظهورا يغنينا عن وصفها والإدلال على محاسنها . فهى غنية بذاتها عن الوصف والثناء . وما أردنا إلا أن نبين طريقة المؤلف الجليل ومنهجه التاريخى الدقيق المحكم . وقد كان من حقه علينا أن نشيد بآثاره ، لولا أن فى الثناء وقوعا فى الحرج ووضعا لأنفسنا فوق موضعها .

ولنسجل فى آخر هذه الكلمة شكرنا لأستاذنا على استجابة رجائنا ، وإذنه فى نشر هذه المقالات التاريخية القيمة ؟

عن الجمعية التاريخية

محمد عبد الهادى شعيره

الاسكندرية فى { ١٠ ربيع الأول سنه ١٣٦٧
٢١ يناير سنة ١٩٤٨ }

دروس من الصحراء

لقد أسعدنى الحظ فسافرت فى الصحارى وسلكت طرقها ومسالكها غير مرة.

تجولت فى صحراء مصر الغربية وتنقلت بين واحاتها العتيقة المتقادمة. وضربت فى صحراء مصر الشرقية مرتاداً شعابها وأوديتها وشم جبالها. وسلكت من جزيرة العرب ما بين جدة ومكة، وما بين مكة والمدينة، كما جزت بادية الشام وعبرت البرية المترامية الواقعة بين الشام والعراق. وأشهد لقد علمتنى هذه الأسفار من أمر الصحراء ما لم أكن أعلم، ووقفتنى من أسرارها ومكنون أمرها على ما لم أكن لأبلغه بالدرس والقراءة، مهما جهدت.

***

لقد كنا عند اعتزام السفر فى الصحراء تأخذ أهبتنا للأمر أشد الأخذ، ونستعد له أتم الاستعداد، تفاديا مما عسى أن يفجأنا فى سفرنا من نفاد الزاد أو الماء أو العتاد، وكنا فى ذلك إنما نعول على أنفسنا موقنين بأن التفريط والتهاون قد يكون وخيم العاقبة، وقد يفضى بنا إلى الهلاك المحقق وليس من شك فى أن التعويل على النفس والاحتياط للمستقبل أول سمات الرجولة الصحيحة وملاك أمرها، وهذا أول درس تلقيه الصحراء على من يغامر بنفسه فى مجاهلها.

***

ولكننا على الرغم من استعدادنا ومبالغتنا فى التوقى والاعتماد على

---

(١) الثقافة العدد ٤١٣ (٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٦)

النفس كنا لا نبرح يخالجنا شعور قوى خفى بأننا على شفا أمر مخوف ، وغيب مجهول ، وأننا ضاربون فى عماية لا نأمن بعثاتها وفجاآتها ، فمن يدرى ! فلعلنا لخلل فى تقديرنا وأمر لم يدخل فى حسابنا ، نمسى وقد انطوت علينا الصحراء انطواء اليم الخضم على من انخرقت به سفينته ، فإذا أجسادنا جزر سباعها وعقبانها ومدب حشراتها وهوامها .

من أجل ذلك كنا لاندع التوكل على الله والاعتماد عليه بعد الاعتماد على أنفسنا ، مسندين إليه سبحانه حولنا وقوتنا . ولا شك أن الإيمان بالله على هذا النحو هو الإيمان الصحيح ، وأن التوكل على الله على هذه الحالة هو التوكل المحمود ، وهذا درس آخر بليغ يستفيده المسافر فى الصحراء .

***

ثم إن للصحراء روعة أى روعة ، وجمالا أى جمال . وحذار أن تخدعك عن روعتها وجمالها رمالها الوعثاء ، وجبالها الجرداء ، وحرها اللافح ، وبردها القارس ، فما تلك لعمرك إلا بمنزلة أطمار على أقمار ، وأسمال على حسناء معطال .

ورويدك حتى يقبل الربيع ، ويرق الهواء ، وتضع الأرض حملها ، فترى عجبا من العجب ، فى الزهر المفوف ، والعشب الخضر ، والطيور الصادحة والظباء السارحة ، والإبل الراعية ، والشاء الثاغية ، والقوم يتصايحون جذلا وحبورا .

ورويدك حتى يقبل المساء ، ويطلع القمر ، وتتلألأ النجوم والكواكب ، ويخيم على الصحراء سكون يكاد لرهبته يحسه سمعك المرهف ، فترى ضآلة غير متناهية إزاء عظمة غير متناهية . فإذا غاب القمر ومد الظلام على البيداء رواقه ، وطرق سمعك عصف الرياح وهى تنسلك بين الجبال أو تهوى فى المهاوى السحيقة ،

وتراءت لعينيك أشباح غريبة وصور عجيبة ، وخيل إليك أنك تسمع عزيف الجن وصراخ السعالى ، وأنك تراها وتحسها ، وأنها تراوغك تارة عن يمينك وأخرى عن شمالك ، فلا ترع ، فجن الصحراء وسعاليها ليس الخبث والغدر من طبعها ، وقد عرفها قـــدماء العرب وعرفتهم ، وكان لهم معها ولها معهم شئون وشئون ، فتارة كانوا يصارعونها فيصرعونها أو تصرعهم ، وتارة كانوا يحبونها وتحبهم ، ويصهرون إليها فتلد لهم البنين والبنات ، وطورا كانوا يصادقونها ويحالفونها فتغنى لهم ويغنون لها ، وطورا كان يستلهمها شعراؤهم فتلهمهم عيون الشعر وروائع القوافى . فهل تدرى ماذا توحى الصحراء بكل ذلك ؟ إنها توحى معنى الفن الرفيع والعبقرية والجمال .

الصحراء تبعث فى نفوس أهلها وعشاقها الرجولة الكاملة ، والإيمان الصادق ، والعبقرية التامة . فان شئت على ذلك دليلا فعليك بأبطال العرب فى الجاهلية والإسلام ، فان أبيت إلا الطريق السهل ، والقول الفصل ، والحجة البالغة ، والمعجزة الدامغة : فعليك بسيرة نبى الهجرة عليه السلام .



« مصر القديمة » وآثارها [1]

مصر القديمة حى من أحياء العاصمة ، له من انفراده جنوبيها ، ومن صبغته الوطنية الخالصة ، ما يجعله أشبه شيء بمدينة قائمة بنفسها . وهو عريق فى المصرية ، ترى فيه المسلم إلى جانب القبطى فى المسكن والمتجر والمصنع ، وتعرف فيه الأثر التاريخى الإسلامى قريبا من الأثر التاريخى القبطى . ثم لا تجد فيه سلطان الأجانب الاقتصادى واضحا ولا عنصرهم ماثلا مثوله فى أحياء العاصمة الأخرى . والحى هادىء ساكن ، قد خلع عليه القدم ثوبا ضافيا من وحشة مقرونة بجلال . والسكان قارون وادعون لا يكاد يهيجهم حزن أو يستخفهم فرح ، كأنهم لطول ما تتابع على حيهم من غير الدهر وصروفه قد رسخت أحلامهم وصاروا إلى شيء من الاطمئنان الفلسفى غير قليل .

« ومصر القديمة » على ضيق رقعتها وتقارب أرجائها ليست بقليلة الآثار . وآثارها برغم ما أصابها من البلى والعفاء لاتزال ماثلات شواهد بكثير من حوادث التاريخ العظام . فإذا بكرت مرة أيها القارىء إلى مصر القديمة ، ووقفت فى هدأة الصبح وحين ادكار القلب ونشاط الذاكرة حيال « حصن بابليون » أو وسط « الجامع العتيق » أو بين خرائب « الفسطاط » فقد تؤدى إليك الذاكرة أنباء كثيرة من عبر التاريخ المصرى .

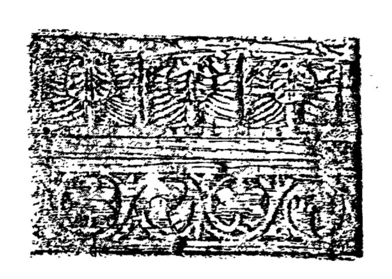
فهذا الحصن الذى تستنقذه الآن مصلحة الآثار من أيدى البلى يذكرك

---

(١) السفور ، العدد ١٨٢ ، ١٢ ديسمبر ١٩١٨ .

بقيام دولة فى هـذه البلاد على أطلال دولة تأذن الله باضمحلالها وذهاب ريحها .
وهذا الجامع العتيق يريك معنى للفتوح العربيـة الأولى قد يخفى على من يقـرأ التاريخ عجـلان غير متثبت . وتنطق بين يديك خرائب الفسطـاط بما قاسته الفسطاط من نيران « شاور بن مجير السعدى » وزير « للعاضد لدين الله » الفاطمى وقد زحفت إليها الجيوش الصليبية من فلسطين حتى أصبحت أثرا بعد عين .

فإذا تركت أيها القارىء تلك الآثار ، وأخذت فى سيرك ذات اليسار ، وجدت النيل لم يبرح كما كان أيام الفراعنة والفرس والبطالمة والرومان والعرب والترك ، يتدفق تدفق الزمن هيناً ليناً حثيثاً مطرداً ، لا يعبأ بما يتعاقب على عـدوتيه من الدول والأجيال . إنه يمثل القوة الباقية الخالدة ، كما تمثل الخرائب القـائمة على جانبيه القوة الزائلة الفانية ؟



دار النـــدوة (1)

كان العربى القديم ، ديموقرطيا بطبعه ، بمعنى أنه كان ينفر من الاستبداد ، ويؤثر الشورى ورأى الجاعة على رأى الفرد . وأقدم أخبار العرب تدل على توافر هذا الروح الديموقراطى عندهم . من ذلك ماورد فى القرآن الكريم حكاية عن بلقيس ملكة سبأ حين جاءها الهدهد بكتاب سيدنا سليمان ملك بنى اسرائيل ، « قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه باسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وائتونى مسلمين . قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وبأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين » ، ومحل الشاهد هنا استشارة بلقيس للملأ من قومها ، وقولها إنها لاتقطع أمرا قبل الرجوع اليهم ، ورد الملأ عليها . وقد فسر « الملأ » بأنه الرؤساء لأنهم ملاء بما يحتاج إليه ، وبالجماعة ، وأشراف القوم ووجوههم ومقدميهم الذين يرجع إلى قولهم . ويروى أن النبى ﷺ سمع رجلا من الأنصار وقد رجعوا من غزوة بدر يقول « ما قتلنا إلا عجائز صلعا» فقال عليه السلام « أولئك الملأ من قريش ، لو حضرت فعالهم لاحتقرت فعلك » ، ومن معانى « الملأ » « المشاورة » .

وفى حديث عمر بن الخطاب حين طعن : « أكان هذا عن ملأ منكم ؟ » ، أى مشاورة من أشرافكم وجماعتكم . وكأنهم لحظوا فى أشراف القوم صفة تلزمهم وهى حسن الخلق فجعلوا من معانى « الملأ » حسن الخلق وأنشدوا :

---

(1) حديث بالراديو فى ١٨-١-١٩٤٥ .

تنادوا يا لبهثة إذ رأونا　　فقلنا أحسني ملأ جهينا

أى أحسنى أخلاقا ياجهينة أو أحسنى الممالأة والمعاونة ، ومنه قول النبى ﷺ لبعض أصحابه وقد ضربوا أعرابيا بال فى المسجد : « أحسنوا أملاءكم » أى أخلاقكم ، فالملأ معناه أشراف القوم والجماعة والمشاورة ، كما يفيد أحاسن الأخلاق ومكارم الطباع .

وما جاء به القرآن عن وجود نظام للشورى عند اليمن القدماء قد صدقته الكتابات اليمنية القديمة التى عثر عليها العلماء الأوربيون الذين عنوا بتاريخ اليمن القديم ، فالخبر صحيح من ناحيتى الأثر السماوى والتاريخ البشرى .

* * *

ولا يقل عرب البوادى عن عرب الحواضر من حيث الروح الديمقراطى ، فكان سيد القبيلة أو شيخها كما نقول الآن ينتخب انتخابا طبيعيا ، على معنى أنه يصبح بالفعل سيد القبيلة إذا فاق أفرادها فى الفضائل التى تأتى عادة من قبل الطبع لا التطبع كالشجاعة والفصاحة والكرم ونضج العقل ووقار السن . ولما لم يكن من المؤكد أن تنتقل هذه الصفات من طريق الوراثة من الآباء إلى الأبناء والأحفاد لم تكن سيادة القبيلة منصبا وراثيا إلا فى النادر ، وإلى ذلك يشير عامر بن الطفيل أحد سادات العرب فى الجاهلية بقوله :

وإنى وإن كنت ابن سيد عامر　　وفارسها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة　　أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى　　أذاها وأرمى من رماها بمنكبى

وليس سيد القبيلة بالحاكم المستبد بقبيلته ، وإنما هو خادمها الأول ، يدل على

ذلك قولهم المأثور « سيد القوم خادمهم »، ويحد من سلطانه مجلس القبيلة الذى يتألف من أشراف القبيلة وذوى المكانة والرأى والسن فيها. يجتمعون للتشاور فى شئون القبيلة وليمدوا سيدها بالرأى، إذا حزب أمر أو ألم خطب.

لم يصل إلينا مع الأسف شىء يذكر من المناقشات التى كانت تجرى فى هذه المجالس القبلية كما يصح أن نسميها، وذلك لأن العرب كانوا أمة أمية لاتدون أخبارها. ومع ذلك ففى الشعر الجاهلى مايلقى ضوءا على حقيقة هذه المجالس.
ومن ذلك قول مهلهل فى رثاء أخيه كليب :-

نبئت أن النار بعدك أوقدت ... واستب بعدك ياكليب المجلس

وتكلموا فى أمر كل عظيمة ... لوكنت حاضر أمرهم لم ينبسوا

* * *

وأشهر المجالس القبلية عند العرب قبل الاسلام المجلس الذى كان لقريش بمكة، وكان يعرف «بدار الندوة».

كانت هذه الدار فيما يروون دار قصى بن كلاب الذى جمع بطون قريش وأنزلها مكة، وذلك قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة. وكانت الدار ملاصقة للمسجد الحرام من ناحية الجهة الشآمية من الكعبة. وكانت فسيحة وسيعة، وفيها كانت قريش تقضى فى شئونها العامة :

(١) ففى دار الندوة كانت تعقد قريش لواءها إذا خرجت للحرب.

(٢) ومن دار الندوة ترحل قوافلها للتجارة، وفى فنائها تحط هذه القوافل حمولتها إذا رجعت.

(٣) وإذا بلغ غلام لقريش عذر (أى ختن) فيها.

(٤) وإذا بلغت جارية لقريش جاء بها أهلها إلى دار الندوة فشق عليها قيم الدار درعها (أى قيصها)، ثم درعها إياه، ثم انقلب بها أهلها فحجبوها، والظاهر أن الغرض من الأمرين الأخيرين مجرد إحصاء وتسجيل للبالغين من قريش من الذكور والإناث.

(٥) على أن أهم خصائص دار الندوة أنها كانت دار مشورة قريش، فيها يجتمع ملؤها للتشاور فى أمورها، و«الندوة» الاجتماع والجماعة. ولم يكن يدخلها للمشورة من غير بنى قصى إلا ابن أربعين سنة، فى حين كان يدخلها بنو قصى

* * *

ولدينا نص عربى قديم يصح أن نعتبره مثالا لنوع المناقشات البرلمانية التى كانت تجرى فى دار الندوة، إذا حزب قريشا أمر أو ألم بها خطب. يصف هذا النص اجتماع قريش فى دار الندوة وحوارها عندما أرادت الحيلولة بين محمد ﷺ وبين الهجرة إلى المدينة. وما انتهى إليه رأيها فى ذلك. قال المؤرخ العربى القديم محمد بن اسحق «فاجتمعوا فى دار الندوة ... يتشاورون فيما يصنعون. واتعدوا يوما يجتمعون فيه، فلما كان ذلك اليوم اعترضهم إبليس (والمراد بالطبع زعيم المعارضة المتطرفة فى ذلك اليوم)، فى هيئة شيخ جليل عليه بت له. فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفا على بابها قالوا من الشيخ؟ قال شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأى ونصح. قالوا أجل! فادخل! فدخل معهم». ثم يسرد المؤرخ أسماء من

حضر فى ذلك اليوم من أشراف قريش فيقول « وقد اجتمع فيها أشراف قريش كلهم من كل قبيلة : من بنى عبد شمس شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب، ومن بنى نوفل بن عبد مناف طعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والحارث بن عامر بن نوفل ، ومن بنى عبد الدار ، النضر بن الحارث . ومن بنى أسد ، أبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام . ومن بنى مخزوم ، أبو جهل بن هشام . ومن بنى سهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج . ومن بنى جمح أمية بن خلف . قال واجتمع غير هؤلاء من لا يعد من قريش » . ثم يمضى ابن اسحق فى تصوير ما حدث فيقول : « قال بعضهم لبعض إن هذا الرجل قد كان من أمره ما كان وما قد رأيتم ، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا ! قال فتشاوروا . ثم قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله زهيرا والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه منه ما أصابهم ! فقال الشيخ النجدى « لا والله ما هذا لكم برأى . والله لو حبستموه كما تقولون لخرج أمره من وراء الباب الذى اغلقتموه دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم هذا ، ما هذا لكم برأى فانظروا فى غيره » !

ثم تشاوروا ، فقال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنا ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع ، غاب عنا أذاه ، وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت » .

فيقول الشيخ النجدى « والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة

منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، واقه لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ! أديروا فيه رأيا غير هذا ».

قال فقال أبو جهل بن هشام « واقه إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعدا قالوا « وما هو يا أبا الحكم ؟ » ، قال أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدون إليه ، ثم يضربونه به ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل كلها فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ورضوا منا بالعقل « اى بالدية » فعقلناه لهم . فيقول الشيخ النجدى : « القول ما قال الرجل ! هذا الرأى! لا رأى لكم غيره ! » فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له ». ونحن نعلم أن ما دبرته قريش فى ذلك اليوم لم يفلح وأن الرسول أتم هجرته إلى يثرب . وإلى هذا الذى جرى من اجتماع قريش واتمارها بمحمد يشير القرآن الكريم بقوله « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » وبقوله أيضا « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين » .

***

هذه دار ندوة قريش وبرلمانها فى الجاهلية وعند ظهور الدعوة الإسلامية . أما ما آل اليه أمرها بعد الإسلام فليس يهمنا كثيرا ، ويكفى أن نقول إنها بدخول قريش فى الإسلام انتهى أمرها من حيث هى دار مشورة وندوة ، فلما كانت خلافة

معاوية بن أبي سفيان اشتراها من صاحبها بمائة ألف درهم، وجعلها دار الإمارة بمكة، ثم أهمل أمرها وخربت، فلما كان زمن الخليفة المعتضد بالله العباسي أمر بهدمها وإدخالها في المسجد الحرام. وبذلك اندرجت دار الندوة القرشية الصغرى في دار الندوة الاسلاميه الكبرى.

* * *

أما بعد، فلعلنا نكون قد أوضحنا في هذا الحديث أن العرب القدماء كانوا مشبعين بالروح الديمقراطي على اختلاف عصورهم وتنوع درجات تحضرهم، ولقد أقر الإسلام نظامهم الديمقراطي فيما أقر من نظمهم وعاداتهم، وأمر الله رسوله بالأخذ به، فقال سبحانه وتعالى «وشاورهم في الأمر»، وجعله من صفات المؤمنين في قوله: «وأمرهم شورى بينهم». ثم زاد سبحانه هذا النظام تنويها بقدره وإعظاما لشأنه، فأنزل سورة من سور القرآن أسمها «سورة الشورى»؟



أحابيش قريش

هل كانوا عربا أو حبشا (*) ؟

يستعمل لفظ « الأحابيش » فى الدلالة على القوة العسكرية التى كانت قريش تستأجرها قبيل الإسلام ، للدفاع عن بلدها وقوافلها التى كانت تتردد بين الشام واليمن . ويؤخذ من صريح النصوص العربية ، لغوية كانت أو تاريخية ، أن هذه القوة كانت عبارة عن حلف قوامه أحياء من عرب كنانة وخزيمة اللتين كانتا تنزلان أغوار تهامة ، ومن خزاعة التى كانت تنزل بظاهر مكة . بهذه النصوص أخذ المستشرق الألمانى الكبير فلهاوزن ، فقال فى كتابه الذى ألفه عن الوثنية العربية [1] هذه العبارة : Die politischen Verbundeten den Quraisk sind die Ahabisch. ؛ ومعناها « الأحابيش أحلاف قريش السياسيون » .

ولكن الأب لامانس المستشرق اليسوعى المعروف نشر فى المجلة الآسيوية [2] مقالا ضافيا عنوانه : Les Ahâbis' et l'organisation militaire de la Mecque ، ذهب فيه إلى أن رواة اللغة العربية قد وهموا فى تفسير هذا اللفظ ، وأن الأحابيش كانوا كلهم ، أو جلهم على أقل تقدير ، زنوجا من بلاد

(*) نشرت في القسم الأول من المجلد الأول من مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (مايو ١٩٣٤)

(١) Reste des Arabischen Heidentums. 86.

(٢) Journal Asiatique ,viii, 1916, 425-182

الحبشة ، وأن رواة السيرة تعمدوا القول بأنهم عرب ، أنفة من أن يقولوا إن قريشا كانت فى الجاهلية تستعين السودان فى الدفاع عن حوزتها[1].

ومع أن الأب لامانس قد أنفق جهدا عظيما فى التدليل على صحة نظريته ، وأن أحدا ، فيما أعلم ، لم يتصد لمناقشة هذه النظرية ، فإنى أرى الموضوع لايزال مفتقرا إلى التحقيق . وأريد فى هذا البحث الموجز أن أثبت ثلاثة أمور :

(أولا) أن الأحابيش كانوا عربا .

(ثانيا) أن القول بعربيتهم هو المتفق مع تاريخهم .

(ثالثا) أن العبيد الذين كانت قريش تستعين بهم فى حروبها لم يكونوا من الأحابيش فى شىء .

(١)

لا شك أن بين كلمتى « حبش » و « أحابيش » تجانسا شديداً فى اللفظ واتحاداً فى المعنى من بعض الوجوه .

ولكن ثانى اللفظين ينفرد بمعان تعدل به فى أغلب أحواله عن مدلول اللفظ الأول عدولا تاما . جاء فى القاموس المحيط فى مادة « حبش » : — الحباشة كثمامة : الجماعة من الناس ليسوا من القبيلة كالأحبوشة . وجاء فى لسان العرب فى المادة المذكورة :- والأحبوشة جماعة الحبش ، ويقال هم الجماعة أيا كانوا ، لأنهم إذا تجمعوا اسودوا ، والتحبيش التجمع .... وفى المجلس حباشات وهباشات ، أى ناس ليسوا من قبيلة واحدة ، وهم الحباشة الجماعة والأحابيش ، وتحبشوا عليه اجتمعوا ... والحبشان الجراد الذى صار كالنمل

---

(١) Ibid, p. 457

اسوداداً . فالتفسير اللغوى يفيد أن لكلمة « الأحابيش » ثلاثة معان خاصة : (١) الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة . (٢) التجمع والتأشب ، ولا بأس أن نلاحظ بهذه المناسبة أن كلمة « حبش » و « حباش » و « تحبيش » تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية الدارجة . (٣) كثرة العدد ويكنى عنها بالسواد ، لأن العرب تنعت الشىء إذا كثر وتكاثف بسواد اللون .

وهذا التفسير اللغوى يتمشى مع مدلول الأخبار الواردة فى بيان أصل نظام الاحابيش . جاء في سيرة ابن هشام ما يأتى : قال ابن اسحق : والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والهون بن خزيمة بن مدركة ، وبنو المصطلق من خزاعة . قال ابن هشام : « تحالفوا جميعا فسموا الأحابيش لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة »[١]. ويقول صاحب معجم البلدان :- « حبشى . . . جبل بأسفل مكة بنعمان الأراك ، يقال به سميت أحابيش قريش وذلك أن بنى المصطلق وبنى الهون بن خزيمة إجتمعوا عنده وحالفوا قريشا ؛ وتحالفوا بالله : إنا ليد واحدة على غيرنا ما سجا ليل ووضح نهار ، وما رسا حبشى مكانه ، فسموا أحابيش قريش باسم الجبل ، وبينه وبين مكة ستة أميال. مات عنده عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق فجأة ، « فحمل على رقاب الرجال إلى مكة »[٢]. وجاء فى لسان العرب[٣] : « وحبشى جبل بأسفل مكة ، يقال منه سمى أحابيش قريش ، وذلك أن بنى المصطلق وبنى الهون بن خزيمة إجتمعوا عنده فحالفوا قريشا ، وتحالفوا بالله : إنا ليد واحدة على غيرنا ما سجا ليل

---

(١) سيرة ابن هشام : طبعة جوتنجن ؛ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .
(٢) معجم البلدان ـ مادة حبشي .
(٣) لسان العرب ـ مادة حبش .

ووضح نهار ، وما أرسى حبشى مكانه : فسموا أحابيش قريش باسم الجبل ».

ولا بأس فى هذا المقام أن نستدل بشعر السيرة ، فإنه على كثرة منحوله وقلة صحيحه ، شعر دون فى القرن الثانى الهجرى ويبين ما كان متعارفا إذ ذاك عن الأحابيش . قال هبيرة بن وهب المخزومى يفتخر بيوم أحد :[1]

سقنا كنانة من أطراف ذى يمن   عرض البلاد على ما كان يزجيها

قالت كنانة أنى تذهبون بنا ؟   قلنا النخيل فأموها ومن فيها !

فأجابه حسان بن ثابت فقال :-

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم   إلى الرسول فجند الله مخزيها

جمعتموهم أحابيشا بلا حسب   أئمة الكفر أغرتكم طواغيها

فهذه الأبيات صريحة فى أن المراد بالأحابيش هو كنانة . وقال حسان أيضا :

إذا عضل سيقت إلينا كأنها   جداية شرك معلمات الحواجب

أقمنا لهم طعنا مبيرا منكلا   وحزناهم بالضرب من كل جانب

فلولا لواء الحارثية أصبحوا   يباعون فى الأسواق بيع الجلائب

وعضل حى من بنى الهون بن مدركة[2]، فهى من الأحابيش . ومعنى البيت الأخير أنه لولا استقتال هذا الحى حول اللواء الذى رفعته يوم أحد تلك المرأة الحارثية لوقعوا فى الأسر فبعناهم بالأسواق كما تباع العبيد المجلوبة . من هذه النقول التاريخية نأخذ أن الأحابيش :

(١) كانت أحياء عربية شتى تنتمى إلى كنانة وخزيمة وخزاعة .

---

(١) سيرة ابن هشام ص ٦١٢ - ٦١٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ص ٦٣٨ .

(٢) أن هذه الأحياء تجمعت بواد يقال له الأحبش ، أو عند جبل يقال له حبشى ، وتحالفت فسميت الأحابيش .

(٣) أنها حالفت قريشاً على التناصر والتآزر فالمدلول التاريخي لكلمة « الأحابيش » متمش مع مدلولها اللغوى ، غير أنه يجعل مناط التسمية تحالف هذه القبائل ومحالفتها قريشا بمكان معين ، وهو أمر لا يؤثر بحال فى صحة النتيجة التى وصلنا إليها بهذه المقارنة : وهى أن الأحابيش عرب . والحق أنا بإزاء قبيلة عربية آخذة فى التكون ، بواسطة الحلف الذى كان سببا فى تكون كثير من القبائل العربية القديمة . ولولا مجىء الإسلام وحيلولته دون تمام المزج بين الأحياء المؤلفة للأحابيش لأصبحت هذه الأحياء قبيلة عربية صحيحة ، على نحو ما أصبحت البطون التى منها تألفت قبيلتا « تنوخ »[١] و « الرباب »[٢] .

(٢)

وجنسية الأحابيش العرب يؤكدها تاريخ حلفهم الذى نرجح أنه قام فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى وانتهى بفتح الرسول مكة سنة ثمان للهجرة . فإنا إذا رجعنا إلى تاريخ عصر النبوة وجدنا الأحابيش طوال ذلك العصر الخطير قوة عربية لها خصائص القبيلة ، من سيد يتزعمها ، وأرض تنزلها ، وراية تحف بها عند الحرب ، وأنها كانت من حيث علاقاتها السياسية بقريش تنزل منها منزلة الحليف من الحليف ، والند من الند ، وأنها كانت مسموعة الكلمة فى الشئون العامة لقريش ، وإلى القارىء النصوص التى تؤيد ذلك :

(١) كان سيد الأحابيش فى السنوات الأولى من عهد النبوة رجلا يقال له

---

(١) الطبرى ـ المجلد الأول ص ٧٤٦ .

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١١١ .

« ابن الدغنة » . فلما خرج أبو بكر من مكة مهاجرا للأذى الذى ناله من قريش لقيه ابن الدغنة فأجاره ورده إلى مكة . فلم تعرض قريش لأبى بكر بسوء ، احتراما لهذا الجوار . وظلت كذلك إلى أن خافت أن يفتتن أبناؤها ، فشكت أبا بكر إلى مجيره ، فما كان من أبى بكر إلا أن رد على ابن الدغنة جواره [1] .

(٢) يقول الطبرى فى كلامه على غزوة أحد ، رواية عن ابن إسحق : « وقد كان الحليس بن ذبان أخو بنى الحارث بن عبد مناة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، مر بأبى سفيان وهو يضرب فى شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول : ذق عقق ! فقال الحليس : يابنى كنانة ! هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحما . فقال : « ويحك اكتمها على فإنها كانت ذلة » [2] .

(٣) ويحدث الطبرى فى خبر الحديبية عن ابن إسحق عن الزهرى فيقول : « ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان . وكان يومئذ سيد الأحابيش ، وهو أحد بلحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه رسول الله ، ﷺ ، قال : « إن هذا من قوم يتألهون ، فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه . فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده ، قد أكل أوباره من طول الحبس ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ ، إعظاما لما رأى ، فقال : « يا معشر قريش ! إنى قد رأيت مالا يحل : صد الهدى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله » . قالوا له « اجلس ، فإنما أنت رجل أعرابى لاعلم لك . . . » ، فغضب الحليس عند ذلك ، وقال « يامعشر قريش ! والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أن تصدوا عن بيت الله من جاء

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٢) الطبرى - طبعة ليون ، المجلد الأول ص ١٥٣٧ .

معظما له . والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد » .

فقالوا له : « مه ! كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به »[1]

(٤) يروى الطبرى فى خبر الحديبية أيضا عن ابن إسحق أن النبى دعا خراش بن أمية الخزاعى ، فبعثه إلى قريش بمكة ، وحمله على جمل له يقال له الثعلب ، ليبلغ أشرافهم عنه ماجاء له . فعقروا به جمل رسول الله ، وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ[2].

وقد عرف الرسول كيف يفل قوة الأحابيش التى كانت تعتز بها قريش . وسلك إلى تلك الغاية طريق السياسة وطريق العنف معاً . فأما السياسة فأنه اجتذب إلى جانبه قبائل خزاعة وكنانة التى تنتمى إليها أحياء الأحابيش . فكانت خزاعة كما يروى ابن اسحق ، « مسلمهم ومشركهم عيبة نصح رسول الله ﷺ بتهامة ، صفقتهم معه ، لايخفون عنه شيئا[3] » . كما أن غفارا[4] وهى من كنانة ، وأسلم[5] وهى من خزاعة ، أخذتا جانبه ، ووردت فى الثناء عليهما أحاديث عدة . فلما كان صلح الحديبية أخذت خزاعة صراحة جانب الرسول ، ودخلت فى عقده ، كما دخلت بكر بن عبد مناة بن كنانة فى عقد قريش . وأما العنف فتتبينه فى غزوة بنى المصطلق سنة ٦ للهجرة . بهذه السياسة المحكمة انكسرت شوكة الأحابيش كما يرى من موقفهم فى صلح الحديبية .

---

(١) الطبرى ــ المجلد الأول ص ١٥٤٢ .
(٢) الطبرى ــ المجلد الأول ص ١٤١٨ .
(٣) سيرة ابن هشام ٥٨٩ .
(٤) الطبري ــ المجلد الأول ص ١٦٣٥ .
(٥) الطبرى ــ المجلد الأول ص ١٦٣٥ .

وفى يوم فتح مكة قاتلت الأحابيش خالد بن الوليد بأسفل مكة قتالا يسيرا (1).

واستعانة أهل الحواضر بأهل البوادى كانت ظاهرة سياسية عامة فى بلاد العرب قبل الإسلام . فكما كانت الأحابيش بالإضافة إلى قريش ، كانت الأوس والخزرج بالإضافة إلى يهود يثرب (2) ، وكانت بنو عامر بن صعصعة بالنسبة إلى ثقيف بالطائف (3) . ولقد عاقد يهود خيبر بنى فزارة على نصف غلة أرضهم إذا هم حاربوا معهم النبي ﷺ (4) .

(٣)

وبعد ، فلقد كان بمكة قوة من الحبش حقا . ولكن هذه القوة لم تكن من الأحابيش فى شىء ، بل كانت عبارة عن طبقة من العبيد مسلوبة الحقوق العامة ، ومسخرة لأشراف مكة فى حالى السلم والحرب ، وبعض هذه الطبقة قد شرى بالمال ، وبعضها كان من فلول حملة أبرهة الحبشى على الحجاز . . يقول الأزرقى (5) : « وأقام بمكة فلال من الحبش وعسفاء وبعض من ضمه العسكر يعتملون ويرعون لمكة » . ويقول صاحب الأغانى (6) : « وكان لعبد الله بن أبى ربيعة عبيد من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن ، وكان عددهم كثيرا . فروى عن سفيان بن عينة أنه قيل لرسول الله ﷺ : هل لك فى حبش بنى المغيرة

(١) الطبرى ــ المجلد الأول ص ١٦٣٥.
(٢) السمهودى : جـ ١ ص ١٢٥ (طبع مصر) .
(٣) ابن الأثير : جـ ١ ص ٢٥٣ (طبع مصر).
(٤) السمهودي : جـ ١ ص ٢١٤.
(٥) أخبار مكة للازرقى ص ٩٧.
(٦) الأغانى : جـ ١ ص ٣٢ .

تستعين بهم ؟[1] فقال لا خير فى الحبش : إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا. وإن فيهم لخلقين حسنين : إطعام الطعام والبأس يوم البأس » . فلما ظهر الإسلام بمكة أسرع عدد وافر من هذه الطبقة إلى اعتناقه ، فجـــر ذلك عليهم اضطهاد أوليائهم وقبائلهم ، كما كان من أسباب اشتداد الخصومة بين الرسول وقريش. من هـذه الطبقة المغلوبة على أمرها أبو رافع ، وبلال بن رباح ، وعامر بن فهيرة ، ووحشى قاتل حمزة يوم أحد، وصؤاب حامل لواء قريش فى ذلك اليوم. كل هؤلاء كانوا أرقاء قد نص فى كتب السيرة على ساداتهم وعلى طريقـة تحرر بعضهم من الرق .

ومما يدل على تمييز هذه الطبقة من الأحابيش قول الطبرى فى غزوة أحد[2]: فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر فى الاحابيش وعبدان أهل مكة، وعطف عبدان على ماقبلها هنا عطف نسق يفيد المغايرة ، وليس عطف توضيح وبيان كما يرى الأب لامانس[3] .

بهـــذه التفرقة بين أحابيش قريش وعبيـدها يستقيم قول النصوص التى أوردناها أن الاحابيش كانوا حلفاء قريش ، وقـول صاحب لباب النقول[4]: « واستأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين من الأحابيش » . فالمحالفة والاستئجار إنما ينصبان على الأحرار دون الأرقاء .

وعندما دون عمر بن الخطاب الدواوين أفرد لهذه الطبقة ديوانا خاصا ،سماه ديوان الحبش . يقول الماردى[5] : وذلك لمكان بلال منهم ؟

---

(١) وذلك عند مسيره الى هوازن

(٢) الطبرى المجلد الأول ص ١٣٩٩ .

(٤) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ١٢٥ من الطبعة المصرية .

(٥) الأحكام السلطانية (وضع الديوان)

دار الأرقم المخزومى

لقد أحصى مؤرخو السيرة عدة من دخلوا فى الاسلام فى السنوات الأربع الأولى من بعثة النبي، عليه السلام، فإذاهم بضع وثلاثون نفسا، جلهم ممن كانت تصل بينهم وبين محمد صلة قرابة أو صداقة. ولقد يعلل بطء الدعوة فى تلك السنين العجاف من حياة الأسلام بأن محمدا لم يكن يجد فيها من حرية القول وأمن المضطرب ما يمكنه من إيصال الدعوة إلى من هو مستعد لقبولها من خاصة قريش وعامتها. لقد كان أبدا بعرض أذى وإعنات، كما كان النفر الذين اتبعوه أبدا بعرض فتنة واضطهاد.

ولقد أحصى مؤرخو السيرة عدة من هاجروا إلى الحبشة فى العام السادس للبعثة، فإذا هم لايتجاوزون مائة نفس غير من تحمل معهم من ذراريهم. فيهم الرجل والمرأة، والحر والعبد، والصريح فى نسب قريش والدخيل. لشد ما أعقبت هذه السنوات الست العجاف من حياة الدعوة الإسلامية سنوات سمان؛ ففى نحو سنتين اثنتين بلغ عدد من دخل فى الإسلام مثلى من دخلوه من قبل، إذا قدرنا أن مهاجرة الحبشة كانوا، على أقل تقدير، على النصف من عدة الجماعة الأسلامية.

وليس من شك فى أن تلك النقلة العجيبة راجعة إلى أن محمدا أصبح يجد فى هاتين السنتين، من حرية القول وهدوء السرب مالم يكن يجده من قبل. ولقد وجد محمد الأمرين جميعا فى دار من دور مكة، لم تنب به، ولم يضق صاحبها به وبأصحابه ذرعا، كما ضاق كثير غيره، تلك هى دار أرقم بن أبى الأرقم المخزومى.

والأرقم بن أبي الأرقم سابع سبعة سبقوا الناس جميعا إلى الإسلام . وهو من بني مخزوم ، وكان بنو مخزوم ممن نصب للنبي العداوة ونفس عليه الرسالة . فقد فسروا قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » بقولهم : أي على رجل عظيم من أهل مكة ، كالوليد بن المغيرة المخزومي ، أو من أهل الطائف كعروة بن مسعود الثقفي . وكان خالد بن الوليد بن المغيرة هذا قائد خيل مشركي قريش في وقعة أحد ، وبتدبيره انكسر جيش محمد عليه السلام في تلك الغزوة المشهورة .

ولاشك أن سبق الأرقم المخزومي إلى الاسلام دليل على أن دعوة الرسول غزت من أول أمرها أمنع صفوف أعدائه وألدها خصومة . وقد هاجر الأرقم إلى المدينة ، وحضر مع رسول الله بدرا وأحدا والخندق وسائر مشاهده صلى الله عليه وسلم .

وقد عمر طويلا ، فقد توفي عام ٥٥ هـ عن سن عالية جاوزت الثمانين سنة .

وأما دار الأرقم فتقع شرقي الكعبة ، على منحدر جبل الصفا ، يمر بها الساعون في سعيهم بين جبلي الصفا والمروة جيئة وذهابا . ويؤخذ من فحوى الرواية القديمة أنها كانت فسيحة ، وثيقة البنيان ، محكمة الرتاج ، ثم هي مطلة على الكعبة والمسعى وغير بعيد من دار السيدة خديجة ، فكانت بكل هذه المزايا مركزا صالحا لنشر الدعوة الجديدة .

« دخل النبي دار الأرقم » في السنة الرابعة من بعثته « وجعل يدعو فيها » كما يقول مؤرخو السيرة . وقضى النبي فيها سنتين أو أكثر قليلا ، وقد حقق ، عليه السلام ، في هذه الدعوة غرضين عظيمين : أولهما تقريره أصول رسالته في نفوس أصحابه ، وثانيهما بثه الدعوة من هذه الدار في جميع آفاق المجتمع المكي . وفي

طاقة الخيال المحدود أن يتصور ما كان يجرى عادة فى تلك الدار أيام مقامه عليه السلام بها . فها هو ذا فى صدر فناء الدار بسمته ووقاره. وجاذبيته، وروحانيته، ومن بين يديه أصحابه ، وكلهم أوجلهم فى مقتبل السن وعنفوان الشباب .

ها هو ذا يتلو عليهم ما يتنزل عليه من الوحى من تلك السور المكية الأولى، بما اشتملت عليه من أمر بعبادة الله وحـــده ، وترغيب فى ثوابه ، وتحذير من عقابه .

وهاهم أولاء أصحابه يلقفون كل كلمة تنفرج عنها شفتاه الكريمتان وحيا كانت أو حديثاً .

وهاهم أولاء ينقلبون دعاة ينشرون الدعوة فى أنحاء مكة ، فيستجيب لهم من رأى فى الدين الجديد جمالا وخيرا . وهاهم أولاء الراغبون فى الدخول فى الإسلام يسرعون إلى دار الأرقم ليعلنوا إلى محمد دخولهم فى دينه وقبولهم لرسالته. فنهم من يأتى اليها تسللا وخفية، كما فعل صهيب وعمار ومصعب بن عمير. ومنهم من يأتى إليها فى وضح النهار ، كحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب . وهاهو ذا النبي يأخذ بمجامع رداء عمر وقد التبس عليه أمر مجيئه ويجبذه جبذة يتزلزل لها قلب ذلك الفتى المتعنت الجامح ، فلا يملك أكثر من أن يعلن إيمانه بالله ورسوله . وهاهو ذا النبي يكبر عندما يسمع إسلام عمر وهاهم أصحابه يكبرون من داخل الدار لتكبيره عليه السلام .

كان إسلام عمر بن الخطاب فى ختام السنة السادسة للبعثة . عند ذلك يرى النبي أن قد آن أن يبرح دار الأرقم ، فقد كثر أصحابه ورسخت فى قلوبهم دعوته ، فيبرحها ويواجه قريشا بأولئك الصحابة الذين أصبحوا من الخير كل الخير فى أن يعم الدين الجديد مكة ، بل الحجاز، بل جزيرة العرب ، بل العالم جميعا.

أما بعد، فقد عرف المسلمون فى مختلف عصورهم لدار الأرقم عظيم حرمتها وشرفها، فأولوها عناية بالغة .

اشترى أبو جعفر المنصور حق حفدة الأرقم فيها بمال كثير . والظاهر أنه أراد أن يضاهى بعمله هذا ما عمله معاوية بن ابى سفيان من شرائه دار الندوة . ثم صيرها المنصور لولى عهده المهدى. وصيرها المهدى لزوجه الخيزران. ولما حجت الخيزران سنة ١٧١ هـ وسعتها بأن ضمت إليها الدور المجاورة لها. بعد شرائها من أصحابها . ويظهر أنه فى ذلك الوقت أصبح مكان اجتماع النبي بأصحابه فى تلك الدار مسجداً أقيمت عليه قبة عالية ، وأن الدار كلها أصبحت تسمى بدار الخيزران ، بعد أن كانت تسمى بدار الإسلام . وقد جددت الدار غير مرة بعد ذلك ، وأشهر من عمرها عمارة حسنة الوزير أبو جعفر الأصفهانى فى سنة ٥٥٥ هـ كما يؤخذ من كتابة لا تزال محفوظة بها .

وانتقلت الدار من يد إلى يد، حتى صارت إلى السلطان العثمانى مراد الثالث. وكان السلطان سليم الثانى قد أراد أن ينشىء فيها مبرة عظيمة لفقراء مكة ، فصرفته عن ذلك شواغل الملك .

فليت القائمين بأمر الحجاز يعنون بأمر هذه الدار العظيمة ، فينشئوا فيها مدرسة تعلم فيها أصول الدين الأسلامى، فلعمرى! لقد كانت أول وأعظم مدرسة فى الأسلام ، ومنها سال السيل وانبثق النور ؟

أم المؤمنين

خديجة بنت خويلد[1]

كم يود صاحب هذا المقال لو كان شاعرا وثاب الخيال ، مطلق العاطفة ، جزل الألفاظ ، سرى المعانى ! إذاً لاستطاع أن يصوغ للقراء من سيرة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد قصيدة عصماء يضمنها مناقب تلك السيدة الجليلة ، وما مناقبها إلا مناقب المرأة الكاملة من جمال ، وطهر ، وعفاف ، وزوجية بارة ، وأمومة صحيحة ، ومواساة فى أشرف معانيها .

ولكن صاحب هذا المقال ، وا أسفاه ! ليس شيئا من ذلك الشاعر الذى يتمنى أن يكونه . إن هو الا مؤرخ يعرض لوقائع الحياة العامة من ناحيتها الوضعية جهد طاقته ، ويشد خياله الراكد إلى تلك الوقائع ، فلا يأذن له ولا بمحاولة التطاير والتحليق ، ويكتم عاطفته حتى لا يطغى عليه سلطانها فيتنكب سبيل المؤرخ الذى همه البحث والتحقيق ، ثم العرض البسيط للأشياء ، فليقنع القارىء الكريم بالصورة المجملة التى أرسمها فى هذا المقال ، حتى يتأذن الله بظهور شاعر عظيم ينظم الألياذة العربية ، فيطالع فيها إذ ذاك فصلا عن تلك السيدة يكون من أبلغ ما خطه يراع شاعر وأروعه .

* * *

كانت جزيرة العرب فى القرن السادس الميلادى قد أخذت تتهيأ للأحداث

---

(١) الرسالة ٦ ٢٠ ابريل ١٩٣٦ .

الجسام التى تمخض عنها القرن السابع ، وقد بدا ذلك النهوض فى جميع مناحى الحياة العربية العامة ، سياسة كانت أم اقتصادية أم اجتماعية ، ويهمنا منها بصفة خاصة نظام الأسرة .

كان نظام الأسرة قد أخذ يتحول فى حواضر الحجاز عامة ومكة خاصة إلى النحو الذى أقره فى جملته الإسلام فيما بعد ، فأخذت تتلاشى ضروب الأزدواج القديمة التى اعتبرها الإسلام سفاحا ، ويحل محلها نظام الزواج القائم على التراضى والتعاقد .

وصاحب هذا التطور الخطير فى بناء الأسرة تطور خطير مثله فى مكانة المرأة الاجتماعية ، فبعد أن كانت المرأة العربية ليس لها حق التملك ولا حق الأرث ، بل بعد أن كانت هى نفسها تملك وتورث فى بعض الحالات ، أصبحت تستمتع بحق الملكية وحق الميراث وحق التصرف فى مالها ، وحق مفارقة الزوج عند اللزوم ، هذه الحرية المستحدثة جعلت المرأة العربية عاملا فعالا فى الحياة المكية العامة قبيل الإسلام وفى عصر النبوة .

* * *

ولدت خديجة بمكة حوالى منتصف القرن السادس المذكور . وهى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وكان خويلد ممن قاد قريشا فى حرب الفجار ، ثم هى ابنة فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بنى عامر بن لؤى ، ولا نعرف عن فاطمة شيئا ، غير أن الذهبى يقول فى جدها عمرو بن خنثر المزنى أنه كان من أبطال الجاهلية . فنسب خديجة لأبيها وأمها يدل على أنها تنتمى إلى بيت من أعز بيوت قريش هو بيت عبد العزى بن قصى ، وإلى قبيلة من أعز قبائل مضر هى عامر بن لؤى ، واكتنفت عمود هذا النسب الجليل

فروع وحواش زاهية زاهرة ، نعد منها عمّ خديجة عمرو بن أسد وكان سيدا من سادات قريش ، وأبناء عمومتها حكيم بن حزام ، وورقة بن نوفل وأخته قتيلة بنت نوفل ، فاما حكيم فكان صاحب مروءة وعاطفة طيبة تتجلى فى صنيعه لبنى هاشم والمطلب عندما حصرتهم قريش فى الشعب ، وأما ورقة بن نوفل فكان معدودا فى تلك العصبة المستنيرة التى يعرف آحادها باسم « المتحنفين » قد ترك الوثنية ، وتنصر وقرأ التوراة والأنجيل ، وكتب العبرانية ، وشاركته أخته قتيلة فى ميوله الأدبية والدينية ، فكانت « ممن ينظر فى الكتب » على حد تعبير القدماء ، ومن هذه الفروع أخو خديجة العوام بن خويلد ، وكان من رجالات قريش ، وهو والد الزبير بن العوام حوارى رسول الله .

لخديجة من أوسط نساء قريش نسبا ، كما يقول مؤرخو العرب ، وإذا جاز للمؤرخ أن يلحظ عمل الوراثة فى هذا المقام ، فإنا نقول إنها ورثت عن أبويها مزايا السؤدد العربى ، من نبل وكرم خلق ، ووفاء وشجاعة ، كما لقفت عن عمومتها تلك الأستنارة العقلية ، وذلك السمو الروحانى الذى أعدها لتقدير الدعوة الإسلامية وقبولها عن طيب نفس وطواعية خاطر .

* * *

تزوجت خديجة مرتين فى مقتبل حياتها وقبل تزوجها من محمد بن عبد الله . تزوجت للمرة الأولى من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم ، ثم مات عنها عتيق فتزوجت بعده أبا هالة هند بن زرارة التيمى . ثم توفى ابو هالة فغدت أيما . وقد ورثت على ما يظهر عن أبويها وزوجيها ميراثا قيما رأت أن تقوم على استغلاله فى التجارة التى كانت مرتزق قريش فى ذلك الزمان . فكانت كما يحدثنا الرواة تستأجر الرجال فى الأتجار لها بمالها لقاء نصيب تسهمه لهم من الربح .

لكن خديجة الحسيبة النسيبة ، الثرية الوسيمة ، لم تزل بعد نصفا فى النساء ، عوانا بين الشباب والكهولة . قد شارفت الاربعين ولما تعدها ، وهى سن لها عند بعض النساء جمال وروعة ، وملاحة وأخذة ، وكان غير واحد من كبار قريش حريصا على خطبتها ، ولكن خديجة كانت تتأبى على الخطاب ، لا رغبة منها فى العزوبة ، فهى أعمر قلبا وأنضر شبابا من أن ترغب فيها ، ولكن لأن الأيدى التى كانت تمتد لخطبتها ليست من الطراز الذى يعجبها . لقد نضج عقلها ، وكبر قلبها ، وأصبح كل منهما ينشد الكفء والمثيل ، ومن لها بالعقل الراجح ، والقلب الكبير فى مجتمع خشن ، كثيف غليظ ؟ أصبحت لا يروقها ذلك السؤدد العربى الجاهلى بما ينطوى عليه فى واقع الأمر من بداوة واعرابية ، لا يمكن أن تنوء منهما إلى ظل ظليل .

وبينا خديجة تروض النفس على احتمال الحياة الجديدة اذا بقلبها قد أخذت تنطبع عليه شيئا فشيئا صورة نجم شارق فى أفق المجتمع المكى ، ويوشك أن ينكشف عن كوكب وقاد يملأ الكون نورا هاديا . وحرارة تبعث فيه الحياة قوية بعد أن لم يبق له منها الا الذماء . لقد كانت تلك الصورة منتزعة من الحقيقة لا من الوهم ولا الخيال . أنها كانت صورة فتى لا يزال مغمورا ، ولكن كل مخايله كانت تؤذن فى نظر خديجة بأنه سوف يأخذ بزمام العالم ويوجهه وجهة جديدة . ذلك الفتى هو محمد بن عبد الله .

كان محمد إذ ذاك شابا قد ناهز الخامسة والعشرين من عمره ، سوى الخلقة ، مشرق الطلعة ، نبيل المظهر ، كريم المخبر . وكان يحيا حياة لعله لم يكن يحياها بمكة أحد غيره . كان زاهـدا فى الناس ، عزوفا عنهم ، الا ما اقتضته ضرورة المعايشة والمساكنة ، نزوعا إلى التفكير ، محبا للعزلة ، قادعا للشهوة رادعا

للنفس ، فأوشك بذلك أن يستغنى بنفسه عن غيره . وغـــدا أنسه فى وحشته، وانبساطه فى انقباضه ، وغناه فى اقلاله ، قد حد ما بينه وبين الناس بحد واضح المعالم . ثم لم يأذن لعلاقته بهم ان تتجاوز هذا الحد فتنغص عليـــه نعمة باله ، وتفسد عليه هدوء سر به .

لقد كان قلب خديجة يخفق خفقانا شديدا عنـــدما كانت تلمح هذا الفتى العجيب ، يروح لطيته ويغدو فى طرق مكة وأسـواقها وأنديتها ، وأدركت من فورها أنه حاجة قلبها ومهوى فؤادها . ولـكن كيف تفضى إليه بدخيلة نفسها ، وتبثه لاعج حبها ؟ ان الحسب والنسب ، والخفر والحياء ، كل ذلك كان يمنعهـا أن تـكون هى التى تخطو فى الأمر الخطوة الأولى وتقول فيه الـكلمة الأولى .
لقد كان الموقف دقيقا كل الدقة ، حرجا كل الحرج فلتسر فى الأمر بحـذر واحتياط محافظة على نسبها وحسبها ، وتوفيرا لخفرها وقنية لحيائها .

انها كانت تستأجر الرجال فى الأتجار لها بمالها وتساهمهم بنصيب مسمى من الربح ، فلم لا تستأجر محمـــدا وتضاعف له الجعل الذى كانت تجعـله لغيره ؟ وانشأت من فورها تجيب عن هذا السؤال ، فوسطت إلى محمد من عرض عليه رغبتها . فقبل محمد ما عرض عليه ، وسافر إلى الشام فى صيف عام ٥٩٤ متجرا فى مال السيدة ، وسافر معه ميسرة غلام خديجة ليرقبه عن كثب وينهى إلى السيدة عند عودته جملة حاله فى السفر ، فلم بجملة حاله فى السفر والحضر . وباع محمد ، واشترى ، ولقى الرهبان ببادية الشام ، وتحدث إليهم ، وتحدثوا إليه . ثم عاد وقد ربحت التجارة ربحا وفيرا . وقص ميسرة على السيدة ما رأى من محمـد فى السفر من رقة الشمائل ، وسهولة الخلق ، وصدق المعاملة ، فعلمت السيدة عند ذلك أن قلبها لم يكذبها ، فقطعت كل تردد ، وأجمعت أن تخطو هى الخطوة

الأولى ، وتقول هى الكلمة الأولى . وكانت لها صديقة تثق بها اسمها نفيسة بنت منبه ، فدستها إلى محمد لتلوح له بالأمر وتعلم رأيه فيه :

نفيسة - يا محمد ! ما يمنعك أن تزوج ؟

محمد - ما بيدى ما أتزوج به !

نفيسة - فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاية ، ألا تجيب ؟

محمد - فمن هى ؟

نفيسة - خديجة !

محمد - وكيف لى بذلك ؟

نفيسة - على !

محمد - فأنا أفعل !.

لا شك أن محمدا لم يقل مقالته الأخيرة الا بعد أن أصبح يشعر نحو السيدة خديجة بمثل شعورها نحوه ، وبعد أن أصبح يبادلها عطفا بعطف ، وتقديرا بتقدير . نعم إنها أسن منه ، ولكن ذلك ليس شيئا بالقياس إلى محاسنها وفضائلها الكثيرة التى جعلته يرى فيها رغبة نفسه وطلبة قلبه : وعرض محمد الأمر على عمومته كما عرضته خديجة على عمها ، فكل وافق ، وبنى محمد بها بعد أن أصدقها عشرين بكرة كما يروون .

* * *

كان هذا الزواج لمحمد وخديجة فاتحة حياة زوجية هادئة وادعة هنيئة ، كأهدأ ما تكون حياة زوجية وأودعها وأهنئها ولم لا تكون كذلك ؟ وكانت تقوم على الكثير المتبادل من الحب والإخلاص والتقدير . كانت خديجة تقدر

فى محمد كرم الخلق ورقة القلب، وروحانية النفس، وكان هو يقدر فيها رجاحة العقل وكثرة العطف عليه، والاعجاب به، والتوفير لأسباب راحته فى منزله. ومطابقته فيما يجب ومالا يجب.

ولا ننس ان محمـــدا لم يكن كسائر الرجال يعيش كيفما اتفق. فهو رجل كثير العناية بأمر نفسه، ليس كل الطعام يطعم. ولا كل الشراب يشرب، ولا كل الملبس يلبس. ولا بكل الزينة يزدان. ثم هو ميال بطبعه إلى العزلة مؤثر للصمت، مطيل للفكر. فعلى جليسه وعشيره أن يعرف فيه كل ذلك ويرعاه له، وقد عرفت ذلك خديجة ورعته له أتم رعاية، فلا شك أنها كانت تعد له مايستطيبه من الدباء والعسل والتمر المنقوع فى اللبن المخلوط بالقثاء أحيانا، ولا شك أنها كانت تقل فى طعامه من البصل والثوم الذين كانت تعاف كثرتهما نفسه. كما كانت تعنى بنظافة ثيابه وأدوات طيبه وأدهانه. فقد كان محمد يحب أن يبرز للناس عطر الجسم، نظيف الملبس. ولا شك أنها كانت توفر له الهدوء فى المنزل. وإذا جنح إلى الخلوة أو التحنث فى الغار لم تقطع عليه سكونه. بل أعانته على ذلك بإعداد الزاد الذى يحتاج اليه. فإذا طالت غيبته افتقدته من غير ازعاج له. ولاتكدير لصفو نفسه.

وكما كانت خديجة مثال الزوجة الحفيه بزوجها. فإنها كانت مثال الأم المعنية بأولادها. لقد رزق محمد منها كل أولاده غير ابراهيم. رزق منها القاسم وبه كان يكنى. ثم ولدت له زينب ورقية. وفاطمه وأم كلثوم. وكل هؤلاء ولدوا قبل النبوة. ثم ولد له فى الأسلام عبد الله الذى عرف بالطيب والطاهر. وقد مات الغلامان صغيرين.

أما البنات فكلهن أدركن الإسلام. وتزوجن، وهاجرن. وقد انضم إلى

هؤلاء على بن أبي طالب . ضمه النبى إلى أولاده تخفيفا عن عمه أبي طالب وكان فقيرا كثير العيال ، وليس بأيدينا مع الأسف نصوص نعرف منها كيف كانت خديجة تعول أولادها وتنشئهم ، غير أن ماورد من الأخبار على قلته لا يخلو من الفائدة . روى ابن سعد عن الواقدي قال : « وكانت سلمى بنت صفية مولاة عبد المطلب تقبل خديجة فى ولادها ، وكانت تعق عن كل غلام بشاتين ، وعن الجارية بشاة ، وكان بين كل ولدين لها سنة ، وكانت تسترضع لهم . وتعد ذلك قبل ولادها ، وكما كانت خديجة تعنى بولادة أولادها ، ورضاعتهم ، وتنشئتهم ، فقد كانت تتخير الأزواج لبناتها . فهى التى أشارت على النبى بأن يزوج أبا العاص بن الربيع من بنتها زينب . فلما زفت إليه أهدتها خديجة قلادة كان لها شأن فيما بعد سيرد ذكره . ولما أرادت قريش حمله على أن يطلق زينب نكاية فى محمد أبى أن يفارقها مع أنه لم يكن قد أسلم بعد . وقد تزوج عثمان بن عفان رقية فلما توفيت ورآه النبى حزينا مهموما لهفان زوجه أختها أم كلثوم وكانت فاطمه عند زوجها على بن أبي طالب بالمحل الرفيع والمكان الممتاز

* * *

لكن فضل خديجة الأكبر وفخرها الخالد خلود الزمن ، انما هو فى موقفها من زوجها عندما نبىء ومن الدعوة الإسلامية التى أخذ يدعو اليها بعد خمس عشرة سنة من زواجه منه

لقد أصبح محمد بعد تزوجه من خديجة هادىء السرب ناعم البال ، وأصبح له منزل يأوى اليه وأهل يسكن اليهم ، فانصرف إلى ما كانت تصبو إليه نفسه من الخلوة وإطالة الفكر فكانت خديجة تعينه على ذلك دون أن ترى فى مسلكه

بابا . فلما فجيء الوحي محمدا ، وأصابه ما أصابه أول الأمر من الذهول والحيرة ، ورجع إلى منزله رعبا حائرا ، وقال لخديجة : « لقد خشيت أن يكون بي جين! » لم يكن منها ألا أن ثبتت فواده ، وسكنت خاطره بمقالتها المشهورة : والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، ...وتؤدى الأمانة،وتحمل الكل، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر... الخ » ثم أنها انطلقت من فورها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل . وقصت عليه خبر زوجها . فبشرها ورقة بأن الذى رآه محمد إنما هو الناموس الأكبر الذى نزل على عيسى وموسى. وقد أثلجت تلك المقالة فؤادها وغدت من ذلك الوقت مؤمنة بدعوة زوجها. فكانت بذلك أول من صدقه وآمن به . روى الطبرى بإسناده إلى عفيف الكندي أنه قال : « كنت امرءا تاجرا ، فقدمت أيام الحج ، فأتيت العباس . فبينما نحن عنده إذ خرج رجل يصلى معه . فقام تجاه الكعبة ، ثم خرجت امرأة فقامت معه تصلى ، وخرج غلام فقام يصلى معه . فقلت . ياعباس ما هذا الدين ؟ قال . هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به ، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه ، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به ، وهذا الغلام ابن عمه على بن أبي طالب آمن به ، قال عفيف . فليتنى كنت آمنت يومئذ ، فكنت أكون ثالثا » .

ولم يزدد إيمان خديجة مع الزمن إلا رسوخا . ولا يقينها إلا قوة،ولا تعلقها بزوجها إلا شدة ، فكانت فى سنوات العشر الأولى للبعثة « وهى السنوات التى توالت فيها الأرزاء والمحن على محمد وأصحابه ، واضطهدت فيها الدعوة أيما اضطهاد » كانت خديجة فى تلك السنوات إلى جانب زوجها تريش بتأييدها جناحه ، وتأسو بعطفها جراحه . روى ابن الأثير بإسناده قال : « وكانت

خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن رسوله لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله عنه بها ، إذا رجع إليها تثبته ، وتخفف عنه وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس».

ولم تتردد خديجة عندما جد الجد ، أن تشرك زوجها فى محنته ، وتقاسمه مر العيش كما قاسمته حلوه ، وتعمل لنصرة دعوته صابرة محتسبة . فعندما اشتدت قريش على بنى هاشم والمطلب وحصرتهم فى الشعب ومنعتهم حتى الماء والزاد ، كانت خطابجة فى الشعب تقاسى ما يقاسيه زوجها وأقرباؤه على كبر سنها واضمحلال بنيتها : فلما فاءت قريش إلى صوابها وخلت سبيل أولئك المجاهدين المجهودين . كان طول الحصار قد أضر بخديجة واخترم المرض جثمانها فلم تعش إلا قليلا . وقضت لعشر خلون من رمضان من العام العاشر للبعثة . بالغة من العمر خمسة وستين عاما . وقد دفنها الرسول بالحجون . وسوى عليها التراب بعد أن نزل قبرها وألقى عليها النظرة الأخيرة .

وقضى الله أن يفقد الرسول بعد خديجة وفى نفس العام عمه أبا طالب . وهو الذى كان ينافح دونه ويتولى حمايته من عدوان أعدائه . فاجتمع على محمد فى وقت واحد خطبان فادحان . ورزآن بالغان . ولكن لا شك فى أن داخل رزئيه كان الأفدح : وباطن جرحيه كان الأدمى . لقد تهدم صرح سعادته المنزلية . وغدت الحياة مشغلة له فى الداخل والخارج ، على كثرة ما أعطاه الله فى الداخل والخارج .

* * *

كان محمد اكبر من أن ينسى لمحسن إحسانه . وأكرم من ألا يفى لحبيب صدقه الحب . وأصفاه الود . ولو باعدت بينه وبينه طباق الثرى . وكذلك

كان شأنه مع خديجة بنت خويلد ، لقد وفى لها فى حال الحياة والموت ، أحبها ولم يتزوج عليها فى حياتها ، فلما لحقت بربها لم تبرح صورتها خاطره ، ولا فارق تذكرها لسانه . وهم يرون فى ثنائه عليها ودوام تذكره لها اخبارا كثيرة ، يرون أنه فضلها هى ومريم بنت عمران على نساء العالمين ، وأنه بشرها ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب . وأنه عندما أرسلت إليـــه ابنته زينب بقلادة قلدتها إياها خديجة ، لتفتدى بها زوجها أبا العاص بن الربيع وكان قد أسر ببدر رق النبي لذلك رقة شـــديدة ، وطلب إلى أصحابه أن يطلقوا لزينب أسيرها ومالها ففعلوا . وأنه كان إذا ذبح شاة تتبع صديقات خديجة يهدى إليهن منها ، وأنه كان لا يكاد يخرج من منزله حتى يذكر خديجة ويثنى عليها ، والحق أن دوام تذكره لها هاج غيرة عائشة وهى بعد آثر نسائه لديه ، وأجملهن ، وأصغرهن سنا . روى بن الأثير بإسناده إلى عائشة أنها قالت : « كان رســول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكـــر خديجة فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوما من الأيام ، فأدركتنى الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزا فقـد أبدله الله خيرا منها . فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ما أبدلنى الله خـــيرا منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتنى وكذبنى الناس ، وواستنى فى مالها إذ حرمنى النـاس ، ورزقنى الله منها أولاداً إذ حرمنى أولاد النساء ، قالت : فقلت فى نفسى لا أذكـرها بسيئة أبداً .

* * *

تلك بالإختصار سيرة أول امرأة مسلمة ، وخير امرأة مسلمة ، يعرف فيها القارىء المثل الاعلى للمرأة ، زوجة ، وأما ، وعونا على جلائل الأمور فى غير خروج على طبيعة الجنس ومواضعات الناس منذ صار الإنسان إنسانا ؟

الهجـــرة[1]

كان من أثر الإتجاه المادى الحديث فى فهم حوادث التاريخ وتعليلها أن أصبح المؤرخون أشبه شىء بالفلاسفة الكلبيين القدماء الذين كانوا يجردون الإنسان من عاطفة الخير، ويعتقدون أنه أنانى بطبعه، لا يصدر عنه الخير إلا رياء ونفاقا، ولكن من حسن حظ الحقيقة والفضيلة أن بعض أحداث التاريخ يكذب هذه الدعوى وينقضها نقضا صريحا. ولست أجد فى التاريخ الإسلامى أنقض لتلك الدعوى وأشد تكذيبا من حديث الهجرة التى وقعت زمن النبوة، سواء أكانت هجـــرة الحبشة أم الهجرة إلى المدينـة، فنى كلتا الهجرتين تجد الإخلاص للعقيدة مجسما محسوسا والتنزه عن حطام الدنيا واضحا ملموسا. وإلى القارىء أسوق المقال الآتى توضيحا لهاتين الهجرتين فى ضوء الحياة العامة التى ابتعثتهما وأدت إليهما.

* * *

لقد حمل الإسلام من أول الأمر على ما كان لقريش من نظم بالية عتيقة حملة عنيفة لا مواربة فيها ولا هوادة. فكان محمد يقرع أسماع قومه بما يتنزل عليـه من القرآن ناعيا عليهم وثنيتهم المنحطة، ونظامهم الإجتماعى الذى فرقهم أغنياء وفقراء وسادة وعبيـدا، مهجنا تكثرهم بالأحساب والأنساب، مقبحـا طرقهم الملتـــوية فى المعاملات. من تطفيف الكيل والميزان وأكل أموال

---

(١) الرسالة العدد ٤٢، ٢٣ أبريل ١٩٣٤.

الناس بالباطل . محـــذرا لهم إن هم أصروا على عتوهم واستكبارهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم عندما أعرضت عما بعث به إليها الرسل من أسباب الهداية والإصلاح .

لم يجب هـــذه الدعوة التى تكفلت بخيرى الدنيا والآخرة إلا فريق قليل العـدد وسـيط المكانة فى المجتمع القرشى . أما الملأ من قريش فرأوها دعوة صريحة إلى الفوضى وقلب الأوضاع . ورأوا فى محمد ثائرا يريد هـــدم النظم التى درجت عليها الجمهورية المكية من قـديم . ثم من يدريهم لعلهم إن هم اتبعوه التأف عليهم الأمر واضطرب الحبل ، فإن الهدم عادة أيسر من البناء . تلك كانت حجتهم فى عـدم متابعته ، وهى حجة الجامدين على المصلحين فى كل زمان ومكان .

وكان موقف قريش من محمد أول الأمر سلبيا محضا . ولـكـن محمدا كان النشاط واللباقة والفصاحة وقوة الخلق مجتمعة . فوجـدت قريش نفسها بإزاء رجل لا كالرجال وخصم ليس كغيره من الخصوم ، فهى إن لم تعاجله عاجلها ، وإن لم تقض عليه قضى عليها . لذلك أخذت تنهج فى مقاومته خطة إيجابيـــة تدرجت فيها تدرجا . فكانت أول الأمر تستهزىء به وبدعوته وبمن اتبعه ، فهو شاعر وساحر ومجنون ، ودعوته إنما هى محض خداع وغرور ، وأتباعه ليسوا إلا أرذالها وسـفلتها ، ثم جعلت تحاول إعجازه ومعاياته . إن يكن صادقا فيما يدعى فليحول جبال مكة جنانا وأنهارا ، أو فليكن له بيت من زخرف ، أو ليرق فى السماء ، أو فليسقط عليهم كسفا ، أو فليأت بالله والملائكة قبيلا . ثم انتقلوا من هذه المعاياه الدالة على قصر عقولهم إلى التعريض له بالمال والسلطان . فلـما أعيتهم فيه الحيل ورأوا وقوف عشـيرته دونه أخذوا يفتنون أصحابه بالأذى

والعذاب ، فمنهم من كان يثبت على رأيه وعقيدته ، ومنهم من كان يفتتن من شدة البلاء .

عند ذلك أمر الرسول أصحابه بالهجرة التى هى آخر ما يلجأ إليـــه الحق الضعيف فى مقاومة المبطل القوى . أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة فهى أرض قديمة الصلة بمكة . وبها ملك نصرانى رشيد لا يضام من يلجأ إليه ويحتمى بحماه.

فخرج من مكة فى شهر رجب من سنة خمس للنبوة زهاء مائة مسلم ومسلمة، وكلهم جاز البحر الأحمر من الشعيبة إلى بر الحبشة فتلقاهم النجاشى لقاء حسنا وأذن لهم فى المقام بأرضه آمنين على دينهم وأنفسهم . وقد أبى أن يخفر ذمته لهم عندما أرسلت إليه قريش فى رد اللاجئين إليـــه . فلما تبدلت الأحوال بالحجاز وعلا شأن الإسلام به جعل هؤلاء المهاجرون يعودون إلى الحجاز وكانت عودة بقيتهم إلى المدينة سنة سبع للهجرة أى بعـــد أن لبث بأرض الحبشة نحو خمسة عشر عاما ، وقد جزت الرواية الإسلامية النجاشى عن صنيعه هذا بأن اعتقدت إسلامه ، وبأن النبى ﷺ قد صلى عليه عندما بلغته وفاته .

ولما رأت قريش خروج من خرج إلى الحبشة من أصحاب محمد أرادت أن تحسم مادة الخطر فاجتمعت كلمة ملئها على حبس محمد وعشيرته من بنى هاشم والمطلب فى بعض شعاب مكة ، وعلى أن يقطعوا كل أسباب الاتصال بينهم وبين جمهور قريش . وقد انفذت هذا الحـــكم ، وقضى بنى هاشم والمطلب فى الشعب نحو ثلاث سنين قاسوا فيها جهدا جاهدا حتى لقد كان يسمع صوت صغارهم من وراء الشعب وهم يتضورون جوعا. وأخيرا قام فى قريش من عطفته عليهم عاطفة الرحم والقرابة فسعى فى اخراجهم من الشعب فأخرجوا .

على أن الرسول لم ينعم بتلك الحرية التى سيقت إليـــه طويلا ، ففى السنة

العاشرة للنبوة أصيب بفقد عمه أبي طالب وزوجه خديجة ، فخلا الميدان من النصير الزائد ، وخلا البيت من الحبيب المؤنس ، وأصبح محمد وجها لوجه أمام عدو حنق عليه كان يترقب فيه الفرصة ، فلما أمكنت استغلها استغلالا . فجعل يأخذ عليه المذاهب ويغرى به السفهاء يتعمدونه بالأذى والهوان .

عند ذلك أخذ الرسول يفكر فيما كان قد أشار به على أصحابه منذ سنين عندما اشتد تحامل قريش عليهم : أخذ يفكر هو أيضا فى الهجرة . لقد دلته تجارب سنوات عشر على أن دعوته توشك أن تذهب بمكة صرخة فى واد ونفخة فى رماد ، وإذا ففيم المقام بواد غير ذى زرع حقيقة ومجازا ؟ فليهاجر ! ذلك ما قر عليه رأيه . ولكن على ألا يتخطى حدود بلاد العرب فهو مبعوث إلى العرب أولا وإلى سائر الناس أخيرا . فليخرج إلى أقرب قرية عربية من مكة : إلى الطائف ، لعل ثقيفا تجيره حتى يبلغ رسالته . ولكن ثقيفا لم تكن أبر به من قريش ، فقد أعرضت عن سماع دعوته ، وضنت عليه بجوارها ، ثم زادت فأغرت به سفهاءها ، فما زالوا يتعقبونه حتى ألجأوه هو ومولاه زيد بن حارثة إلى حائط من حوائط ثقيف وهنا ـ وقد خلا إلى نفسه وربه ـ فاضت أشجانه واعتلجت فى صدره همومه ، فانبعث يناجى ربه « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ! يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ثم نهض من مكانه يريد مكة فلم يدخلها إلا فى جوار سيد من سادتها هو المطعم بن عدى . وكف محمد مؤقتا عن توجيه الدعوة إلى قريش واكتفى يعرض نفسه على قبائل العرب فى مواسم الحج لعل كل قبيلة تصغى إليه فينتقل إليها ويبلغ دعوته فى ظلها وسلطانها . فكانت القبائل ترد عليه بأنه لوكان صادقا لاتبعه قومه ، الا ما كان من أمر أهل يثرب . فنى عام ١١ للنبوة لقى النبى عند العقبة ستة نفر من الخزرج فعرض عليهم الإسلام فآمنوا وصدقوا ، ووعدوه أن ينشروا الدين الجديد فى قومهم . تلك بيعة العقبة الأولى . فلما كان العام القابل وافى الموسم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلا ، لقوا النبى عند العقبة أيضا فبايعوه على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يشرع القتال ، على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف . فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذب ، تلك بيعة العقبة الثانية ، وبعث الرسول معهم صاحبا من أصحابه دينا لبقا فطنا ليفقه القوم فى الدين ، وفى الوقت نفسه ليخبر أحوال يثرب العامة ويسبر غورها وينهى إلى النبى ما يصل إليه من ذلك . ذلك هو مصعب بن عمير . وقد أدى مصعب بن عمير واجبه أحسن أداء وأتمه ، ثم عاد إلى مكة فأطلع الرسول على حال يثرب ومقدار نجاح الدعوة الإسلامية بها . فلما حل موسم الحج وافى مكة جم غفير من الأوس والخزرج ، مسلمهم ومشركهم . فواعد المسلمون منهم رسول الله أن يلقوه عند العقبة ليلا ، وقد لقيه منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ، فبايعوا الرسول بيعة العقبة الكبرى المشهورة وهى تقوم على تعهد الأوس والخزرج بالدفاع عن الرسول والحرب من دونه ، يقول الطبرى

« فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة وأعطوه عهودهم ، على أنا منك وأنت منا ، وعلى أنه من جاءنا من أصحابك أو جئتنا فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، وبهذه البيعة أصبح للرسول بيثرب أنصار يؤوونه ويذودون عنه.

* * *

لكى ندرك السبب فى مسارعة الأوس والخزرج الى قبول الدعـــوة الإسلامية ومبايعة الرسول على الدفاع عنه، ينبغى أن نلم بحال يثرب فى السنوات السابقة على الهجرة من الناحيتين الدينية والسياسية ، فمن الناحية الدينية كانت اليهودية قد حرثت المدينة وأعدت الأنصار لقبول الدعوة الإسلامية ، لأنهم أهل كتاب منزل ودين مشروع . وكان الأوس والخزرج يلقفون منهم معنى النبوة والرسالة والوحى ونحو ذلك من المصطلحات الدينية . ثم إن اليهود كانوا كدأبهم يتوقعون ظهور نبى منهم يجمع شملهم ويعيد إليهم سلطانهم ويقهر بهم أعداءهم ، وكانوا لا يعدمون أن يبوحوا بشيء من ذلك لمواطنيهم من الأوس والخزرج . قال ابن اسحق عند كلامه على استجابة الأنصار لدعوة النبي فى بيعة العقبة الأولى : « وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام أن يهود كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم . فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم إن نبيا مبعوث الآن ، قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلموا ، والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام » .

قد يكون تصوير حالة المدينة السياسية قبيل الهجرة أبلغ من تصوير الحالة

الدينية فى فهم قبول الأنصار دعوة النبي والتزامهم الدفاع عنه ببلدهم . لقد كانت الحياة العامة بالمدينة مضطربة أشد الاضطراب من جراء حرب الأوس والخزرج التى سببها ما كان بين الفريقين من دماء وثارات . وكانت الغلبة بوجه عام فى تلك الحرب للخزرج على الأوس ، حتى لقد همت الأوس حوالى السنة العاشرة قبل الهجرة أن تجلو عن المدينة جملة ، وأخذت تفاوض قريشا فى أن تأذن لها بالنزول عليها بمكة، ولكن قريشا كانت أحرص من أن تأذن بذلك ، فلما طلبت إليها الأوس أن تحالفها على الخزرج أبت أن تتورط فى شىء من ذلك أيضا . فعادت الأوس تلتمس الحلف من يهود يثرب وخاصة قريظة والنضير . وكان اليهود قد وقفوا من تلك الحرب موقف الحياد المطلق ، فلما بلغ الأمر الخزرج أرسلت إلى اليهود تحذرهم عاقبة هذا الحلف إن تم ، فلما أكد اليهود أنهم غير محالفى الأوس عادت الخزرج تطلب منهم رهنا أربعين غلاما من غلمانهم يكونون بأيديهم ضمانا لهذا الحياد . فلم يسع اليهود إلا أن يسلموا إليهم الضمان الذى طلبوا . ولكن الخزرج كانت قد قرمت الى أرض قريظة والنضير وكانت أغنى بقاع يثرب فأقبلت تتجنى على اليهود وتخير قريظة والنضير بين أمرين كلاهما شر : فإما أن يجلوا عن يثرب وينزلوا لهم عن أرضهم ، وإما أن تقتل غلمانهم . فلما رأت " . د أن الخزرج قد لجت فى طغيانها ، وأن حيادها لن يجر إليها خيرا ، عند ذلك خرجت من حيادها وحالفت الأوس صراحة ، فقتلت الخزرج الغلمان وعقدت حلفا مع القبيلة اليهودية الثالثة بالمدينة قبيلة بنى قينقاع ، وبذلك استحالت يثرب عسكرين تشحذ فيهما السيوف وتراش النبال استعدادا للواقعة الفاصلة .

وقد وقعت الواقعة الفاصلة فى يوم بعاث الذى كان قبيل الهجرة بنحو خمس سنين. فى ذلك اليوم أديل للأوس وحلفائها، من الخزرج وحلفائها، وقتل

من الفريقين يومئذ عدد كبير من سادات الناس وأشرافهم. جاء فى صحيح البخارى عن عائشة: «كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى دخولهم فى الإسلام، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم». ويفسر السمهودى هذا الحديث بقوله «ومعناه أنه قتل فيه من أكابرهم من كان لا يؤمن أن يتكبر، ويأنف أن يدخل فى الإسلام، إلى أن يقول «وقد كان بقى معهم من هذا النمط عبد الله بن أبى بن سلول... وكذلك ابو عامر الراهب... فشقيا بشرفهما».

ورأى أهل يثرب غداة يوم بعاث أن الحرب مهلكة النفوس متلفة الأموال، وأنها يشقى بها الغالب والمغلوب جميعا، وأنه أولى بهم أن يقيموا بيثرب حكومة تزع القوى وتأخذ بناصر الضعيف. وكان عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجي قد رأى غدر قومه فى الحرب فلم يخض غمارها معهم وامتنع من قتل من كان بيده من غلمان اليهود، ولذلك اتجهت إليه أنظار القوم وهموا أن يملكوه على يثرب، وأقبلوا ينظمون له الخرز، وكان ذلك شارة الملك عندهم. ولكن يظهر أنه لم تكن هناك رغبة صادقة فى تمليكه. أما الأوس فكانت تكره أن يصير الأمر إلى خزرجى مهما تكن فضائله، وأما الخزرج فقد كبر على كثير من أحيائها أن تولى رجلا وسمها بالغدر وخذلها عند الحرب، فكان بذلك مسئولا إلى حد ما عن هزيمتها. وأما اليهود فلا شك فى أنها كانت تستنكف أن يلى أمرها مشرك ولو كان ابن أبى نفسه.

فلما لقى حجاج الأوس والخزرج الرسول بموسم الحج واطلعوا على سيرته وحالته وجدوا فيه ضالتهم المنشودة. فهو وحده الرجل الذى تستقيم على يده حالهم المختلة، وتجتمع على حكومته آراؤهم المختلفة، هو نبى عربى يتنزل عليه الوحى

من السماء ، وبذلك يحتجون به على اليهود . نعم إنه من الناحية السياسية يعتبر أجنبيا عن يثرب ، ولكن حكومته لن تكون أجنبية . أليس الأنصار هم الذين سيكونون عدته ومادته ؟ فأى حكومة ليثرب يمكن أن تفضل هذه الحكومة ؟ إذن فليعدلوا عن تمليك ابن أبي ، وليبايعوا محمدا ، وليكن ذلك فى غيبة ابن أبى، وليكتموا ذلك الأمر عنه كتمان النبي إياه عن قريش .

تلك كانت الحال المعنوية للأنصار عندما بايعوا النبي بيعاتهم الثلاث بمكة. قال ابن اسحق عند كلامه على العقبة الأولى « . . . وقالوا له « للنبى » إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم . وروى ابن اسحاق أيضا عند كلامه على بيعة العقبة الكبرى « . . . فاعترض القوم أبو الهيثم بن التيهان فقال يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها . يعنى اليهود ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال فتبسم رسول الله ﷺ . ثم قال بل الدم الدم ! والهدم والهدم ؟ أنا منكم ، وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » فالمسألة من ناحية الأنصار لاتعدو أن تكون حلفا سياسيا قوامه الفكرة الدينية . أما من ناحية الرسول فلم تكن كذلك . فالرسول إنما كان يريد إذ ذاك بلدا يأمن فيه على دعوته وأصحابه ، وقوما يحمون ظهره حتى يبلغ رسالته . وقد أصبح ذلك مكفولا له بالبيعة الأخيرة ، وإذن فلم يبق إلا الرحيل من مكة إلى المدينة .

* * *

ورأى الرسول اغتنام الوقت فأذن لأصحابه فى الخروج إلى يثرب فى أواخر ذى الحجة من السنة الثالثة عشرة للنبوة . فجعلت جماعاتهم عند ما استهل المحرم تخرج من مكة أرسالا وتنزل على الأنصار فى دورهم . فخرج فى نحو شهرين زهاء المائتين. وقد أقفرت دور برمتها بسبب الهجرة ، من ذلك دور بنى مظعون وبنى جحش وبنى البكير . قال ابن هشام «فغلقت دار بنى جحش هجرة ، فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام بن المغيرة.. وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها ... يوما ستدركها النكباء والحوب

ثم قال هذا عمل ابن أخى هذا ، فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا ، ولم يبق بمكة من المسلمين إلا النبى وأبو بكر وعلى وإلا من كان مفتونا أو محبوسا أو مريضا أو ضعيفا عن الخروج .

وأحست قريش الخطر الذى أصبح يتهددها من جراء تلك الهجرة وذلك الحلف الذى عقده محمد مع أهل يثرب . فأجتمع ملؤها فى دار ندوتها ليقلب الأمر على وجوهه ويصدر فيه رأيا حاسما . وهنا افترقت بها الآراء وتشعبت المذاهب ، فمنهم من رأى أن يحبس محمد حتى يموت ، ومنهم من رأى أن ينفى من البلد ، ومنهم من رأى قتله . والظاهر أن الرأى الأخير هو الذى اجتمعوا عليه آخر الأمر . وإلى هذه القصة كلها يشير القرآن بقوله «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» ثم رأوا أن يقتلوه بحيث تمتنع عشيرته المطالبة بدمه فأمروا فتيانا من بطون قريش أن يضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل ويرضى

بنو هاشم بديته.

ولكن رسول الله كان قد نذر بذلك فأسرع الى الخروج خفية من داره الى دار صديقه أبي بكر، وكان قد أعد عدة السفر إلى المدينة ، دليلا وظهرا وخادما وزادا . وخرج الرسول وأبو بكر إلى غار بجبل ثور بقيا به ثلاثة أيام اهتاجت فيها قريش اهتياجا شديدا وجعلت لمن يأتى بالنبي حيا أو ميتا جعلا سنيا . وإلى حادث الغار يشير القرآن بقوله « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن ،إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز ذو انتقام ».

توصف الأرض التى بين مكة والمدينة بأنها حزنة وعرة موحشة ، ليس بها ما يرفه عن المسافر فى بلاد العرب من ماء أو خضرة ثم هى يشقها طريقان : إحداهما شرقية محاذية لنجد ويجاوز طولها الثلاثمائة ميل بقليل ، والأخرى غربية محاذية لساحل البحر الأحمر ويقرب طولها من مائتين وخمسين ميلا . وقد آثر الدليل الذى اتخذه أبو بكر هاديا له وللرسول أثناء السفر سلوك الطريق البحرية . غير أنه كان ينحرف يمنة ، ويسرة تضليلا لمن عسى أن ترسله قريش فى إثرهم . فخرج بالجماعة من جبل ثور أسفل مكة فبلغ عسفان وهنا أدرك [illegible] راقة بن [illegible] طامعا فى قتل الرسول وأخذ جعل قريش ، ولكنه وجد نفسه أمام أربعة أشداء فكان قصاراه أن نجا بنفسه بعد أن أعطى الرسول وأصحابه موثقا ألا يدل عليهم . ثم سار الدليل بهم إلى أمج فقديد ، فلما قارب بدرا مال بهم يمنة إلى العرج، ثم هبط وادى العقيق الذى يؤدى إلى المدينة. ولكن النبي أمر بأن يكون المسير أولا إلى قباء قرية بنى عمر بن عوف . فبلغها ظهر يوم

الاثنين ١٢ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة وذلك بعد مسير ثمانية أيام.
وأقام النبي ثلاثة أيام بقباء وثق فيها من حسن استقباله بالمدينة. فلما كان يوم الجمعة خرج من قباء إلى المدينة يحف به ملأ بنى النجار. وقد لحقه بقباء على بن أبي طالب بعد أن أدى عن الرسول ما كان للناس عنده من الودائع. ولما اطمأن الرسول بالمدينة أنفذ إلى مكة من حمل إليه أهل بيته.

* * *

ليس يسيرا على المؤرخ أن يصور مقدار المشقة التى لاقت المهاجرين الأولين من جراء هجرتهم من وطنهم إلى بلد ناء ومعشر غرباء. لقد كان أول مظهر لهذه المشقة أن تأثروا بجو المدينة الوخم لأول قدومهم فاعتلت صحتهم وأصابتهم الحمى وعراهم داء الحنين إلى وطنهم القديم، حتى لقدكان بعضهم يهذى بذلك إذا أخذه دوار الحمى. روى البلاذرى بإسناده عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت «لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة مرض المسلمون بها فكان ممن اشتد به مرضه أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة. فكان أبو بكر يقول فى مرضه:

كل امرىء مصبح فى أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال يقول:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بفخ وحولى أذخر وجليل!

وهل أردن يوما مياه مجنة ... وهل تبدون لى شامة وطفيل!

وكان عامر بن فهيرة يقول:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرىء مجاهد بطوقه ... كالثور يحمى جلده بروقه

قال فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: اللهم طيب لنا المدينة كما طيبت لنا

مكة وبارك لنا فى مدها وصاعها ».

وتتمثل هذه المشقة كذلك فى الفاقة الشديدة التى صار إليها المهاجرون بسبب الهجرة. فقد خلف أكثرهم أمواله بمكة فعدت عليها قريش فاغتصبتها تشفيا من أصحابها. روى صاحب أخبار مكة «إنه قيل للنبى ﷺ يوم الفتح (فتح مكة) ألا تنزل منزلك بالشعب؟ قال وهل ترك لنا عقيل منزلا. قال وكان عقيل بن أبى طالب قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنازل إخوته من الرجال والنساء بمكة حين هاجروا ومنزل كل من هاجر من بنى هاشم، فقيل لرسول الله ﷺ فانزل فى بعض بيوت مكة فى غير منزلك فأبى رسول الله ﷺ وقال لا أدخل البيوت، فلم يزل مضطربا بالحجون، وكان يأتى المسجد من الحجون». ويروى ابن هشام أن عبد الرحمن بن أبى بكر عدا على مال أبيه بمكة بعد هجرته، فلما كان يوم بدر خرج عبد الرحمن مع قريش لقتال المسلمين فناداه أبوه: أين مالى يا خبيث؟

فأجابه عبد الرحمن:

لم يبق غير شكة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب

ويروى ابن هشام كذلك، أن صهيبا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش أتيتنا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذى بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب. أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى؟ قالوا نعم! قال فإنى جعلت لكم مالى. قال فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ربح صهيب! ربح صهيب!، ويروى ابن اسحق أنه «لما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة ... فلما بلغ بنى جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم، ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ

ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها دارا خيرا منها فى الجنة ؟ قال بلى ! قال فذلك لك . فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة ، كلمه أبو أحمد فى دارهم فأبطأ عليه رسول الله ﷺ . فقال الناس لأبى أحمد يا أبا أحمد ! إن رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا فى شىء من أموالكم أصيب فى الله عز وجل ، فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ (فيها)» ، ومما يدل على شدة فقر المهاجرين لأول عهدهم بالمدينة أن الرسول عندما خرج بهم إلى وقعة بدر فى السنة الثانية للهجرة دعا الله فى رواية الواقدى فقال : «اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، وعراة فاكسهم ، وجياع فأشبعهم ، وعالة فاغنهم من فضلك» .

من أجل تلك الفاقة كان المهاجرون فى السنوات الأولى من الهجرة عالة على الأنصار . وذلك مظهر ثالث للحوق المشقة بهم - نعم إن الأنصار أكرموا وفادتهم كل الإكرام وواسوهم أتم المواساة ، ولكن تلك الحال ليس من السهل على كرام النفوس احتمالها . يروى البلاذرى أن النبى عندما أراد قسمة غنائم بنى النضير قال للأنصار : «ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال ، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعا ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة . فقالوا بل أقسم هذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا ما شئت . فنزلت الآية (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فقال أبو بكر : جزاكم الله يا معشر الأنصار خيرا ، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوى :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت ... بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا ... تلاقى الذى يلقون منا لملت
فذو المال موفور وكل معصب ... إلى حجرات أدفأت وأظلت

من اجل تلك المشقه التى نالت المهاجرين الاولين فى سبيل الله اعتبر القرآن هجرتهم هجرة إلى الله ورسوله، ومن أجلها جعل أولئك المهاجرين أرفع طبقات المسلمين درجة وأجزلهم مثوبة، وفرض مثل هجرتهم على كل مسلم عند خوف الفتنة ولحوق الضيم، قال تعالى «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا: إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا. ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما».

* * *

أما بعد فلقد وفق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كل التوفيق عندما اتخذ هجرة الرسول من مكة إلى المدينة تاريخا يحسب منه المسلمون سنيهم وأيامهم ويؤرخون منه أحداثهم ووقائعهم. إنه لا شك قد لحظ فى الهجرة أنها بدء رسوخ الإسلام، ولكنا نلحظ فيها فوق ذلك أنها كانت مظهرا رائعا لعناصر الحياة القوية النبيلة: حياة الألم والتضحية والإخلاص؟



مسجد قباء

كيف كان الرسول يسوس أصحابه[1]

لقد تحدث المؤرخون فأكثروا عن قدرة الإسكندر قديما ونابليون حديثا على اختيار الرجال واجتذابهم واصطناعهم ؛ فوصفوا صبر أصحاب الإسكندر على أهوال حروبه المتلاحقة ، ومشاق أسفاره البعيدة المترامية ؛ وبينوا كيف بلغ من إخلاص أصحاب نابليون له أنهم عندما سيرهم لويس الثامن عشر لقتاله بعد فراره من جزيرة إلبا ، لم يسعهم إلا ترك صفوفهم والإنضمام إلى نابليون ، فاضطر لويس الثامن عشر إلى الخروج من فرنسا جملة .

ولكن هؤلاء المؤرخين أنفسهم يذكرون مع ذلك أن الإسكندر عندما طوحت به فتوحه إلى أقاصى المشرق وأراد التوغل فى بلاد الهند ، امتنع عليه جنده وحملوه على أن يعود بهم أدراجه ، وأن رجال نابليون لم ينتصروا لقضيته بعد كسرته فى واترلو ، بل إن قائدا من أعظمهم هو المارشال ناى الذى لقبه نابليون بأشجع الشجعان قد اضطرب فى ولائه بين آل بوربون ونابليون ، فجر بذلك على نفسه البوار .

ليت أولئك المؤرخين اطلعوا على سيرة محمد بن عبد الله ! إذا لعلموا أن الرسول العربى قد بز الأولين والآخرين فى اختيار الرجال واجتذابهم واستخلاص طاعتهم له ولدعوته فى حياته وبعد مماته . ذلك بأن محمدا لم يكن يتنزل من أصحابه منزلة فاتح مغامر ، ولا منزلة جبار يريد علوا فى الأرض

---

(١) الثقافة ، العدد ٥٩ ، ١٣ فبراير ١٩٤٠ .

ولكن منزلة الأب الشفيق ، والمعلم الحكيم . والطبيب العالم بأدواء النفوس وأساليب علاجها ، وكان عليه السلام يروضهم ويسوسهم على هذا الاعتبار وحده ، ونحن نقص على القارىء من سيرته عليه السلام مع أصحابه بعض ما يوضح هذه الرياضة ويجلو تلك السياسة .

* * *

عندما هاجر الرسول وأصحابه من قريش إلى المدينة رأى أن يحكم أسباب المودة بين المهاجرين والأنصار ، فعمد إلى المؤاخاة بين الفريقين ، فكان يؤاخى بين المهاجرين والأنصار ، مرتبا على تلك المؤاخاة وجوب التناصر والتعاون فى الحياة ، والتوارث بعد الموت . وقد ظل التوارث جاريا على هذا النظام إلى أن شرعت أحكام الميراث ، فصار التوارث يجرى على مقتضاها .

إلا أن فريقا من أهل المدينة يتزعمهم عبد الله بن أبى وقفوا من الدعوة الإسلامية وصاحبها موقف العناد والمعارضة ، ونظروا إلى الرسول والمهاجرين نظرهم إلى قوم دخلوا عليهم بلدهم وزاحموهم فيه ، واستبدوا به دونهم ، فكانوا يتطلعون إلى الإفلات من النظام الجديد والعود إلى الحال السابقة بالمدينة .

هؤلاء هم المنافقون كما سماهم القرآن وعرفتهم السيرة . وقد لقى الرسول منهم عنتا شديدا ، ولكنه كان يداريهم ويحتاط منهم فى أناة ورفق يستثيران منتهى الإعجاب ! من ذلك ما حدث فى غزوة بنى المصطلق سنة ٦ للهجرة . فإنه لما فرغ الرسول من قتال بنى المصطلق أقبل المسلمون على ماء هناك يستقون منه ويسقون ، فازدحم على الماء واقتتل عليه رجلان أحدهما يقال له جهجاه الغفارى كان أجيرا لعمر بن الخطاب ، ويقال للآخر سنان بن وبرة الجهنى كان حليفا للأنصار ، وصرخ جهجاه : يا للمهاجرين ! فغضب عند ذلك عبد الله بن أبى ،

وطفق يلوم من كان حاضرا من قومه لأنهم أحلوا المهاجرين ديارهم ؛ ولج به الغضب حتى قال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » وهى المقالة التى سجلها القرآن الكريم . وبلغت مقالة ابن أبى رسول الله . فاغتم لذلك غما شديدا ، وكان عمر بن الخطاب عنده ، فأشار عليه بقتل ابن أبى ، فأجابه الرسول : « فكيف ياعمر إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه ؟ » ولكى يشغل الرسول الناس عن التحدث فى هذا الأمر أمر من فوره بالرحيل ، وذلك فى ساعة لم يكن من عادته أن يسير فيها . وراح عليه السلام وأصحابه يطوون المراحل ويصلون النهار بالليل سيرا وسرى حتى بلغوا المدينة ، وإذا بالحال قد تغيرت من جميع وجوهها . فهذا عبد الله إبن أبى قد أتى إلى الرسول يحلف له أنه ما قال ما بلغه عنه ، وهذا ابنه يطلب إلى النبى إن كان لا بد آمرا بقتل أبيه أن يتولى هو ، أى الإبن ، قتله ، فيقول له الرسول : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » ، وهؤلاء رهط عبد الله بن أبى قد استخذوا لسلوك ابن أبى ، وأصبحوا كلما أحدث حدثا هم الذين يعنفونه ويؤنبونه .

هنالك أقبل الرسول على عمر بن الخطاب وقال له : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى أقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . فقال عمر : « لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى » .

* * *

وإلى القارىء مثلا آخر قد يكون أبلغ مما تقدم فى بيان ما نحن بصدده .

رووا أنه لما فرغ الرسول من صلح الحديبية ، رأى أكثر من كان معه أن الرسول أعطى فى هذا العهد أكثر مما أخذ ، فهم لم يدخلوا مكة فى عامهم ذلك بل سيعودون من حيث أتوا ، وقد قبل الرسول أن يرد على قريش كل من أتى

إليه منها بغير إذن وليه . وان لا ترد إليه قريش من يأتى إليها من مع محمد ، وفوق ذلك قد رد الرسول إلى قريش أبا جندل بن سهيل بن عمرو ، وهو رجل مسلم انفلت إلى جماعة المسلمين بعد تمام عقد الصلح ، وساور الناس غم شديد أشرف بهم على الهلاك حتى أنهم عند ما أمرهم النبي أن ينحروا بدنهم ويحلقوا رؤوسهم لم يطعه منهم رجل واحد . فدخل الرسول على زوجه أم سلمة ، وذكر لها ما لقى من الناس ، فقالت له ... أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك . فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى القوم ذلك تواثبوا ينحرون ويحلقون .

وفى رواية ابن اسحق عن ابن عباس أنه حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون. فقال رسول الله ﷺ : « يرحم المحلقين » قالوا والمقصرين يارسول الله . قال «يرحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يارسول الله. قال : «والمقصرين» فقالوا يارسول الله ، فلم ظاهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال : « لم يشكوا ».

* * *

ويروون أنه كان عليه السلام قد خص المؤلفة قلوبهم من قريش وقبائل العرب من قبائل هوازن بعطايا جسام لم يعط مثلها أحداً من الأنصار ، فوجد الأنصار فى أنفسهم حتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله قومه ، ودخل عليه سعد بن عبادة وأبلغه رأى قومه ، فقال له الرسول : « فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ » قال : ما أنا إلا رجل من قومى قال « فاجمع لى قومك فى الحظيرة » فلما جمعهم سعد أتاهم رسول الله ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « يامعشر الأنصار ! لقد بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها علي فى أنفسكم ! ألم آتكم

ضلالا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم؟».

قالوا: بل الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: «ألا تجيبونى يامعشر الأنصار؟».

قالوا: بماذا نجيبك يارسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل. قال: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم، أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألاترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحابكم؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا، وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا ثم انصرف رسول الله وتفرقوا.

* * *

من هذه المثل تتبين الأسس التى كانت تقوم عليها سياسة الرسول أصحابه. كانت تقوم على جمع الكلمة والحلم والرفق، بذلك كان عليه السلام يقتاد العصى، ويتألف النافر، ويحمل المحسن على أن يزداد إحسانا. على أن الأمر لم يكن مجرد تأليف وحلم ورفق، بل كان من وراء ذلك كله الأسوة الحسنة والروح المتدفق والقلب الرحيم، والخلق العظيم، والعلم بطبائع النفوس وأسرارها الذى لا يدرك كنهه، ولا يسبر غوره؟

من ذكريات الحج[1]

أما بعد ، فقد سافرت كثيرا ، وطوفت فى الآفاق شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ؛ فكنت فى كل أسفارى السابقة أشعر ، من شدة تعلق بأهل بيتى وأولادى وخواص شئونى ، كأنى غادرت قلبي ورائى ، فكنت دائم التلفت كثير التذكر لمن خلفت وما خلفت . ولكنى عندما يسر الله لى العام الماضى حج بيته العتيق . وزيارة قبر نبيه الكريم ، كان شأنى عجبا من العجب ! فقد شعرت كأن قلبي أمامى ، إذا صح هذا التعبير ، فلا تلفت إلى الوراء . ولا تذكر لأهل ولا ولد ، ولا شئون خاصة ، ولكن توجه إلى الأمام ، واندفاع ، بل انجذاب نحو الغاية التى تركت من أجلها من أحب وما أحب . بل لقد أنسيت نفسى ، وكنت مريضا موعوكا ، وكان الطبيب قد رسم لى بما أتداوى به ، فنسيت الداء والدواء ، وكان الخير والحمد لله فى ذلك النسيان .

* * *

سارت بنا السفينة تشق عباب البحر متياسرة نحو المشرق ، وما هى إلا أن تراءت سواحل الحجاز ، ورفعت لنا قمم جباله ، حتى عرا الركب نوع من الوجد والهيام يعرفه العشاق المعاميد ، ويعرفه المقربون الواصلون من الصوفية .

وحاذت بنا السفينة رابغا ، فأذن مؤذنها أن أحرموا أيها الحجاج ، فما هى إلا سويعات قلائل حتى خيل إلى أن أهل السفينة قد استحالوا ملائكة أطهارا :

---

(1) الرسالة عدد ١٨ ، ٢ مايو ١٩٣٩ .

أشباح قد اشتملت عليها ثياب بيض ساذجة ، ونفوس مطمئنة راضية ، ووجوه وضيئة مستبشرة ، وألسنة بالتلبية والدعاء منطلقة لاهجة . وكان لذلك المنظر فى الركب جمال أى جمال ، فأما الشيب فقد خالط فيهم وقار السن جمال التقى فزادهم روعة ومهابة ، وأما الشباب فقد امتزج فيهم برد اليقين بحرارة الصبا ، فعلتهم مسحة من التوقر والاطمئنان اللطيف !

• • •

وما برح الركب على تلك الحال حتى بلغنا جدة واستقللنا السيارات نؤم مكة أم القرى . فبلغناها فى الهزيع الثانى من الليل ، دون أن نشعر بتعب أو نحس نصبا ، على بعد الشقة ، واتصال الحركة ، وامتناع النوم إلا غراراً فوق متن السفينة أو تهويما على ظهر السيارة . وراح صحبي وقد شارفنا البلد الأمين ، يتذاكرون الحديبية ، وذا طوى ، وغار حراء ، وغار ثور ، وغير ذلك من المعاهد التى أثارت فى أذهاننا ذكريات الإسلام إبان ضعفه ونأنأته ، وذكريات ذلك النضال العظيم الذى كان بين محمد وقريش ، بين الإسلام الهادى والوثنية الضالة ، بين الحق الأبلج والباطل اللجلج ، نعم وذكرى ما احتمله الرسول وعصابته القليلة فى سبيل الدعوة ، من تكذيب ، واضطهاد ، وعدوان ، وانزعاج آخر الأمر عن الأهل والوطن والمال .

وبلغنا النزل الذى أعد لمقامنا بأعلى مكة ، فقذفنا فيه بمتاعنا ، ثم أسرعنا نؤم الحرم لنطوف بالكعبة ونسعى بين الصفا والمروة . وإن أنس لا أنس مشهدنا وقد انتظمنا موكبا واحداً وأخذنا ننحدر من المعلاة فى جوف الليل البهيم ونسير رويدا رويدا ، ومطوفنا بين أيدينا يهتف مليا بصوته الأجش ، فنردد نحن التلبية بأصوات منبعثة من أعماق قلوبنا ، فتجاوب بأصدائها جنبات

الطرق وتمضى صعداً فى السماء . لقد كان المشهد رهيبا رائعا ، ومنه عرفت كيف تسمو الروحانية فى الإنسان على المادية متى استغرقته الفكرة السامية وتولاه الإيمان العميق .

ثم يقف المطوف ويقف الموكب لوقوفه ، فإذا بنا قبالة باب عظيم من أبواب الحرم الكثيرة . وتحتبس الأنفاس ، وتجب القلوب ، وتمتد الأبصار ، كأنما تريد أن تلقف بنظرة واحدة منظر ذلك المسجد الرحب الذى كان يضم فى تلك الساعة من الليل عشرات الألوف من الطائفين والقائمين والركع السجود . وكنت قد قرأت فى بعض الكتب وصف الحرم المكى فلم يشق على أن أتبين معالمه لأول مثولى فيه . فهذه الكعبة مؤتزرة بالسواد ومحتلة قرارة المسجد ووسطه . وهذا الحجر الأسود يتزاحم الناس على استلامه ، وهذا حجر اسمعيل ، وهذا المطاف من حول الكعبة يتدافع الطائفون فيه تدافعا ، وهذا مقام إبراهيم ، وتلك بئر زمزم يردها الطائفون ويشربون منها عللا بعد نهل . وهذا سائر المسجد من حول ذلك كله . والمسجد فى جملته مسقوفة حواشيه ، وأما سائره فسقفه السماء وفرشه الحصباء ، وتطل عليه جبال أبى قبيس وقعيقعان والصفا والمروة .

وإنها لك بقعة عجيبة قد احتشدت فيها قوى الطبيعة احتشاداً ، واحتفلت فيها مظاهرها الرائعة احتفالا ! قد تمثلت فيها السماء بنجومها وكواكبها ، والأرض بسهلها وجبلها ، والجو بأحواله المختلفة وتقلباته المتباينة ، فآنا حر لافح ، وآنا برد قارس ، وآونة جفاف تتقلص منه الشفاه ، وأخرى سيول دافعة تنحط من أعالى الجبال وتستقر حول الكعبة نفسها ، وآنا سماء مصحية وجو طلق ، وآنا سحاب مركوم ، ورعد مجلجل وبرق خاطف .

كم التعبد فى هـذه البقعة بعينها من معانى التوجه المباشر إلى الواحد القهار المسخر لقوى الطبيعة ، والمصرف لها على هـذا النحو الذى لا يحتمل جدلا ولا مراء ! وكفى بهذا التعبد باعثا للعبد على الإنابة والإخبات والخشوع ، وكفى به مشعراً لقلبه بحقارة الإنسان وضعفه وعجزه ، وبأنه إنما هو ذرة فى محيط هذا الوجود الذى لا يسبر الوهم غوره ، ولا يدرك الخيال مداه . هنا يجد الإنسان نفسه وجها لوجه أمام ما يعرف فى الفن الرفيع والأدب العالى بالعظيم والجليل حسا ومعنى .

* * *

إذا كان الحرم المكى يوحى إلى النفس معنى ما هو قوى ورائع وجليل ، فإن الوقوف بعرفة — وهو أم مناسك الحج — وحيا آخر ومغزى عظيم الشأن .

وعرفات جبل يبعد عن مكة بنحو عشرين كيلو متراً . ويشرف على هضبة مترامية الأطراف ، ينزلها الحجيج فى مضاربهم وخيامهم ، معهم أزوادهم ورواحلهم وسياراتهم التى تقلهم . فإذا كان عصر يوم الوقوف بعرفة أخذ الحجاج يخرجون من خيامهم فيصعدون فى الجبل ويدعون الله ويضرعون إليه ، ويستغفرونه لذنوبهم وخطاياهم ، ثم يعودون وقد طفلت الشمس للغروب مطمئنين واثقين من أن ذنوبهم حطت عنهم وأنهم استقبلوا صفحة جديدة من حياتهم يـ [illegible] يرجون ألا يكتب لهم فيها إلا كل ما هو خير لهم . ولقد وقفت بعرفة مع الواقفين ، ودعوت الله مع الداعين، وأشهد أن المنظر رائع ، بل هائل ! وأى منظر أشد هولا من أن ترى نفسك على ساحل بحر ليس من الماء ولكن من خلائق يموج بعضها فى بعض ، فتحس لها همهمة البحر المحيط أو

الجيش اللهام؟ ومع ذلك فكل ملق السلاح ، وكل مقر بالضعف ، معترف بالعبودية ، وكل قد تجرد من زخرف الدنيا وباطلها ، فلا فاضل ولا مفضول ، ولا سيد ولا مسود ، ولا رفيع ولا وضيع . لقد جاءوا الله كما خلقهم ، وكما يقبضهم ، وكما ينشئهم النشأة الآخرى . لقد ردوا أنفسهم فى ذلك اليوم المشهود إلى الأصول التى يتساوى فيها الناس جميعا ، وعلموا أن ما سواها متاع الغرور .

* * *

وإذا كان الحج بركنيه العظيمين من طواف بالكعبة ووقوف بعرفة يوحى معانى الجلال والبساطة ، فإن فى الحجاز مشهدا ثالثا ليس من الحج ولم يفترضه الشارع على الناس ، ولكن شهوده واجب على المسلم فى شرعة الذوق السليم على أقل تقدير . ذلك زيارة قبر الرسول بالمدينة المنورة . ولقد قصدنا الزيارة بعد أن قضينا مناسك حجنا ، وكنت طوال الطريق من مكة إلى المدينة يهزنى شوق يختلف عن ذلك الذى كانت تضطرم به جوانحى عند توجهنا إلى مكة . لقد كان الشوق الأول شوقا إلى المجهول غير المعلوم إذا صح هذا التعبير . أما الثانى فكان شوقا إلى المعلوم غير المجهول ، إلى إنسان أثير حبيب .

ولقد صدق من أطلق هذا الوصف الجميل على الثاوى بالمدينة عليه السلام ، فهو حبيب إلى الله الذى اصطفاه لتبليغ رسالته ، وهو حبيب إلى الإنسانية بما أسدى إليها من صنيع باق على الزمان .

شارفنا المدينة فتواردت على الذاكرة أحداث ذلك البلد الذى يعد فى مقدمة البلدان التى أثرت فى تاريخ العالم أبلغ التأثير . ألا إنه إذا عدت أثينا عظيمة بما بعثت من نهضة فكرية وفلسفية رائعة ، وعدت روما عظيمة بما بعثت فى عالم السياسة من دولة نخمة ، فإن المدينة عظيمة بالأمرين جميعا ،

وكفاها فخراً أنها مهد المدنية الإسلامية والدولة العربية، ومثوى محمد بن عبد الله.

وطفقنا نتجول فى خطط المدينة وطرقها الضيقة الملتوية ونتشوق فيها ريح القدم وعظمة الماضى ونتعرف معالمها ومعاهدها . هنا بركت ناقة الرسول لأول قدومه المدينة ، هناك السنح الذى نزله أبو بكر ، تلك آطام اليهود ، هذا أثر الخندق ، ذلك جبل أحد ، تلك سقيفة بنى ساعدة ، هذا البقيع ، وهذا مهوى الأفئدة ومحط الرحال ، هذا مسجد محمد بن عبد الله وموضع قبره الشريف . ألا لقد رأيت فى أسفارى قبور كثير من عظماء الشرق والغرب ، وأشهد أنى لم يأخذنى شىء من الرهبة والهيبة التى أخذتنى عندما وقفت حيال قبر الرسول العربى . إن عظمة أولئك العظماء محدودة مقيدة بقيود الزمان والمكان . أما عظمة محمد فطلقة ليس للمكان ولا للزمان عليها سبيل . أولئك وردوا وشلا تحت أقدامهم وفى متناول أيديهم ، أما محمد فورد بحر الحقيقة الطامى وسر الوجود الخافى فنهل وعل ، أولئك بادوا وأصبحوا أحاديث ، أما محمد فاستحال قوة فى هذا العالم كقوى الطبيعة باقية مابقيت الأرض والسماء .

والمسجد النبوى تحفة فنية رائعة تعرف فيه خفة الروح والوقار والهيبة . وقد لزمه الطابع الذى كان له على عهد الرسول ، طابع منزل الرسول ، ومجلس الرسول ، ومسجد الرسول ، فأنت إذا استقر بك المقام فيه أحسست أنك فى منزل صديق حميم أو أخ كريم . كل شىء فيه يبعث فيك الأنس وينفى عنك الوحشة ، وأنت فى منزلك ، على حد تعبيرنا المألوف ، تلك السقوف العالية تتدلى منها الثريات الوهاجة ، وتلك البسط الوثيرة ، وتلك النقوش المذهبة تغشى الجدران ، وتلك المحاريب الأثرية النفيسة ، وتلك القبة الذاهبة فى السماء ، كل ذلك فيه معنى اللطف ومعنى الأنس ، وإن شئت فقل فيه معنى الإنسان

الصادق والإنسانيـــة الصحيحة . الحرم المكى يريك معنى الإله والألوهية ، والحرم المدنى يريك معنى الإنسان والإنسانية .

كل ما فى المدينـــة جميل : جمال فى الطبيعة تعرفه فى الماء والزرع والسهل والجبل ، وجمال فى الخلق تعرفه فى دعة أهل المدينة ، الذين رضى أسلافهم الأنصار برسول الله قسما وحظا فى حياته وبعد مماته ، ثم جمال ثالث فى المسجد وفى الذكرى التى يثيرها ، جمال فى جمال فى جمال .

* * *

أما بعد فإن الجلال بمكة ، والبساطة بعرفة ، والجمال بالمدينة . ولست أعرف قطرا آخر أجمع لهذه المعانى الثلاثة من الحجاز ؟



رسالة الحج[1]

تأليف الأستاذ ح. ع.[2] (دبلوماسى)

الأستاذ ح. ع من خيرة رجالنا العاملين فى السلك الدبلوماسى، مثل مصر ولايزال يمثلها فى ممالك الشرق العربى، فأفاد من ذلك خبرة نادرة بأحوال البلاد العربية فى الوقت الحاضر، وأنشأ لنفسه بخلقه وإخلاصه ونشاطه مكانة عالية عند ملوك العرب وساستهم وأدبائهم وعلمائهم. وإنى لسعيد بأن أقول إنى اطلعت على ذلك بنفسى فى بعض تجوالى فى ربوع الشرقين الأدنى والأوسط.

وقد واتى الحظ الأستاذ ح. ع. وساعفته ظروف عمله الدبلوماسى فأدى فريضة الحج ثلاث مرات استطاع أن يدرس فى أثنائها على هدى التاريخ وفى ضوء الواقع حال ذلك النظام الإسلامى الجليل المعدود خامس أركان الإسلام. ثم صاغ خلاصة دراسته فى رسالة لطيفة الحجم عظيمة الفائدة، يعرف فيها من يطالعها بلاغة الأديب، وفكرة الفيلسوف، ونزعة المصلح المؤمن برسالة الإسلام وبإمكان إنهاض المسلمين من عثارهم بالرجوع بهم إلى كثير من نظمهم وسنتهم الأولى. فجاءت الرسالة من أحسن ما كتب عن «الحج» ومن خير ما أخرجته المطابع المصرية فى هذا العام.

* * *

---

(١) نشرت بالعدد ١٢١ من الرسالة (السنة الثالثة) بتاريخ ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٥.

(٢) هو المرحوم الطيب الذكر الاستاذ حافظ عامر بك.

ينعى الأستاذ على المسلمين فى صدر رسالته إهمالهم أمر الحج حتى كاد هذا النظام العتيق يفقد من الناحية العملية الحكمة التى قصـــد إليها الشارع من تشريعه . فهو يقول :

« أما بعد فقد أديت فريضة الحج ثلاث مرات ، وشاهدت الحجيج من جميع الأجناس ، وخالطت منهم طوائف كثيرة ، وحادثت كبارهم وذوى العقول منهم ، ودرست بفكرى وعينى وقلبى ، فكنت أرى وأفكر وأبحث وكنت أستلهم كل شىء حكمته وكل مكان وحيه ، وكل عمل سره ، فظهر لى أخيرا أن الحج لا يزال مجهولا فى حقيقته ، وأن الذين يحجون إنما يؤدون عملا فرديا محضا ، ولا يعرفون إلا ظاهراً من الأمر .. »

* * *

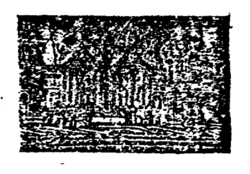
والرسالة تنقسم ثلاثة أقسام ، أولها فى أن الإسلام دين إنسانى عام ، وأنه دين المساواة التى تظهر فى شكلها المادى المحسوس فى الحج ، وأن الكعبة من العالم الإسلامى بمنزلة القلب من الجسم ، فالتوجه إليها فى الصلاة والحج ذو حكمة بالغة . والقسم الثانى يتناول الكلام على « مقاصد الحج » ، وفيـــه يرى الأستاذ أن الحج كفيل بتحقيق مبدأ الرجوع إلى طهارة الطبيعة الذى دعا إليـه الفلاسفة أمثال روسو ولكنهم عجزوا عن تحقيقه ، وأن الحج يستوفى مزايا نظام الكشافة ويربى عليها ، وأن الحج رمز للجهاد الإسلامى فى أسمى وأشرف معانيه ، وأن موسم الحج جدير بأن يصبح مؤتمرا عاما لنشر الثقافة بين المسلمين لو حرصت كل أمة إسلامية على أن تحج كل عام نفرا من صفوة رجالها يبادلون نظراءهم من حجاج الأمم الأخرى الرأى والمشورة ، والأستاذ يرى أن هـذه المقاصد كلها مما يندرج تحت مدلول قوله تعالى : « ليشهدوا منافع لهم » .

على أن الجديد الممتع فى هذه الرسالة هو قسمها الثالث ، هو تلك الفصول التى عقدها الأستاذ لمناسك الحج وأسرارها التى خفيت على كثير من بحاث المسلمين حتى ذهب بعضهم إلى أنها أمور تعبدية توقيفية لا مجال لتفكير العقل البشرى فيها ، فالأستاذ يتناولها منسكا منسكا : من الإحرام ، إلى الطواف حول الكعبة ، إلى السعى بين الصفا والمروة ، إلى الوقوف بعرفات ، إلى رمى الجمار عند العقبة ، إلى تقديم الهدى ، إلى إستلام الحجر الأسود والإهلال بالتلبية ، فإذا هذه المناسك قد أفصحت عن سرها ، وأبانت عن مكنون حكمتها . والحق أن هذا البحث ليكشف عن ناحية روحانية جميلة من نفس الباحث القدير .

* * *

ثم يختم الأستاذ رسالته بمقترحات عملية يتقدم بها إلى الحكومات الإسلامية عامة والحكومة المصرية خاصة ، راجيا الأخذ بها حتى ينتفع المسلمون بنظام الحج .

وإن الذى يفرغ من قراءة هذه الرسالة ليتمنى أمرين : أن تجد دعوة الأستاذ ح.ع. من أولى الرأى فى العالم الإسلامى آذانا صاغية ، وقلوبا واعية ، وألا يحرم الأستاذ الشباب المتعلم المثقف من نفثات يراعه ، فهو يراع يصدر عن فكر ناضج وعاطفة نبيلة ؟



عمر بن الخطاب فى عام الرمادة[1]

(١)

عرف الناس عمر بن الخطاب فى الجاهلية فتى فى خلقه جفاء وشدة . وعرفوه فى عهد النبوة صحابيا من أمضى الصحابة عزيمة ، وأغلظهم على معاندى الدعوة الإسلامية من الكفار والمنافقين ؛ وعرفوه فى خلافته فاتحا عظيما ومنظما قديرا . ولكن الناس لم يعرفوا عمر راعيا رءوفا برعيته كل الرأفة ، وأبا لأمته شفيقا عليها كل الشفقة ؛ وإن يكونوا قد فعلوا فهم لم يعرفوه من هذه الناحية الإنسانية حق معرفته ، ولا قدروه حق قدره .

ونحن نجلو على القراء من تاريخ الفاروق صحيفة بيضاء مشرقة ، تصوره لنا حاكما شديد الشعور بالمسئولية عمن ألقيت إليه مقاليد حكمهم ، حتى لقد أنزلهم من نفسه منزلة دونها منزلة النفس والولد والأهل والعشيرة . تلك صحيفة سيرته فى الشدة التى نزلت بجزيرة العرب فى العام المعروف بعام الرمادة .

ويسمى أخباريو العرب بعام الرمادة : العام الذى بدأ من منصرف الناس من الحج فى سنة ١٨ هـ ، وامتد إلى موسم الحج من سنة ١٩ هـ ؛ وسمى بعام الرمادة لأن الأرض كلها صارت سوداء فشبهت لذلك بالرماد .

* * *

ولقد دهم عمر بن الخطاب من أمر الناس فى ذلك العام شىء عظيم . فنظرة

---

(١) الثقافة ، العدد ٢٥٩ ، ١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

الحاكم الإنسانى الشفيق كانت تمثل له هول القحط وفتك الجوع بالناس ؛ ونظرة السياسى الرشيد كانت تؤدى إليه أن قلب الدولة العربية الناهضة يوشك أن تلم به سكتة يكون فيها انهيار تلك الدولة وذهابها .

ولكن عمر تجرد للأمر تجردا . وعلم أن في إنكار الذات ، ومضاء العزيمة ، وسرعة المبادرة ما يكفل تهوين الشدة على أقل تقدير . فأنشأ يأخذ الناس بالاقتصاد فى معيشتهم ، وجعل يخلطهم بنفسه ويعيش كواحد منهم . فكان يطعمهم أول الأمر الثريد من الخبز مأدوما بالزيت ، وربما نحر لهم فى أيام معينة جزورا يجعل لحمها على الثريد ، ويأكل مع الناس مما يأكلون . ويروى أنهم غرفوا له ذات مرة أطايب الجزور ، فإذا قدد من سنام وكبد ؛ فقال : بخ ! بخ ! بئس الوالى أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها ، ، وأمر مولاه بأن يرفع هذا الطعام ويحمله إلى أهل بيت مقفرين ، وأن يأتيه هو بخبز وزيت .

على أنه لم يلبث أمام اشتداد الحال أن حرم على نفسه وأهل بيته لذائذ العيش من سمن ولحم وفاكهة . ولذلك قصص يروونها عنه ؛ منها أنه أتى مرة بخبز مفتوت بسمن ، فدعا رجلا بدويا فأكل معه . فجعل البدوى يتتبع الودك فى جانب الصفحة ، فقال له عمر : إنك مقفر من الودك ؟ فقال : أجل ! ما أكلت سمنا ولا زيتا ، ولا رأيت آكلا له مذ كذا وكذا قبل اليوم . فحلف عمر لا يذوق لحما ولا سمنا حتى يحيا الناس . وكان بطنه ربما تقرقر من أكل الزيت المطبوخ على النار ، فكان يقول : تقرقر ! لا والله لا تأكله حتى يأكله الناس . وكانت لابنه عبيد الله بهمة ، فجعلها فى التنور ، فخرج ريحها على عمر وهو فى نفر من أصحابه ، فقال : ما أظن أحدا من أهلى اجترأ على هذا ! وقال لمولاه أسلم : اذهب فانظر من أين هذه الريح ، قال : فوجدت البهمة فى التنور ،

فقال عبيد الله : استر على سترك الله ! فقلت : قد عرف حين أرسلني أني لا أكذبه . قال : فاستخرجها ، ثم جاء فوضعها بين يديه واعتذر إليه من أن يكون علم بها . وقال : أنا كنت اشتريتها لابني فقرم إلى اللحم ، فذبحت له وشويت .

ونظر يوما إلى بطيخة في يد بعض ولده ، فقال : بخ ! بخ ! تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى ؟ فخرج الصبي هاربا يبكي ، فسأل عمر عن أمر تلك البطيخة فقيل له : اشتريت بكف من نوى . فسكت عمر .

***

وتشتد المجاعة في داخل الجزيرة ويهجم الشتاء ، وتعصف ريح الموت بأرجائها فتتحمل القبائل من بواديها إلى الحواضر عامة ، والمدينة خاصة ، على عادة أهل البدو في النوائب والأزمات ، فأنزلهم عمر بأرضها فيما بين رأس الثنية ، إلى بني حارثة ، إلى بني عبد الأشهل ، إلى البقيع ، إلى بني قريظة . وأنزل منهم طائفة ببني سلمة ؛ وكان عمر يتعاهدهم بنفسه . قال أبو هريرة : يرحم الله ابن حنتمة ، فقد رأيته عام الرمادة وقد حمل على ظهره جرابين ، وفي يده عكة زيت ، وإنه ليعتقب هو وأسلم . فلما رآني قال : من أين يا أبا هر ؟ قلت قريبا ، قال : كن معنا . فحملنا ذلك حتى انتهينا إلى حرم نحو عشرين بيتا من محارب . فقال عمر : ما أقدمكم ؟ قالوا الجهد ! وأخرجوا لنا جلد ميتة مشويا كانوا يأكلونه ، ورمة عظام مسحوقة كانوا يستفونها . فرأيت عمر طرح رداءه ، ثم ائتزر . فما زال يطبخ لهم ويطعمهم حتى شبعوا . ثم أرسل أسلم إلى المدينة ، فجاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة ، ثم كساهم وكان يختلف إليهم حتى رفع الله ذلك .

ورأى عمر أن الأقطار المفتوحة إن يكن فيها خير فذلك وقته . فكتب إلى عماله عليها يستعينهم ويستنجدهم . وإلى القارىء نص المراسلة التى دارت بينه فى هذا الشأن وبين عمرو بن العاص عامله على مصر : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى بن العاص: سلام عليك . أفترانى هالكا ومن قبلى ، وتعيش أنت ومن قبلك ، فياغوثاه ! ثم ياغوثاه » . فكتب إليه عمرو : « سلام عليك، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فقد أتاك الغوث . فلأبعثن إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى والسلام » . ويظهر أن عاملى الشام والعراق ردا بمثل هذا المعنى . فأما أمداد مصر فوردت فى البحر الأحمر فى عشرين سفينة تحمل الدقيق والودك . وبعث عمرو فى البر بألف بعير تحمل الدقيق والزيت . وبعث بخمسة آلاف كساء . وبعث معاوية من الشام بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق ، وثلاثة آلاف عباءة . وبعث سعد من العراق بألف بعير عليها الدقيق . وندب عمر من ثقات رجاله من استقبل المدد الوارد فى البر من مصر والشام والعراق ومال به إلى البادية . وأمره أن يجعل الظروف، أى الأوعية ، لحفا يلبسونها ، وأن ينحر لهم الإبل يأكلون من لحومها ويحتملون من ودكها . وبعث إلى الجار ، وكانت إذ ذاك مرفأ المدينة ، من حمل ما بعث عمرو فى البحر إلى تهامة فأطعمه الناس .

وقد نظم عمر توزيع الطعام على الناس توزيعا ساذجا ، ولكنه واف بالغرض المطلوب . فكون لجنة تتولى ذلك مؤلفة من أربعة نفر ، هم : ابن أخت النمر ، والمسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن عبد القارى ، وعبد الله بن عتبة بن مسعود . وكان كل رجل من هؤلاء الأربعة على ناحية من المدينة . واتخذ عمر موائد عامة يحضرها من شاء ، وينحر لها كل يوم من أيام معلومة

عشرون جزورا من جزر بعث بها عمرو من مصر . ومن لم يحضر العشاء العام من العيالات والصبيان والمرضى أرسل إليهم طعامهم فى منازلهم . هذا فى الأيام التى يباح فيها أكل اللحم . أما فى الأيام الأخر : فكان عمر يأمر بالزيت فيصير فى القدور الكبار على النار حتى يذهب حره ، ثم يثرد الخبز ويؤدم بذلك الزيت . وكان منادى عمر ينادى : من أحب أن يحضر طعامنا فيأكل فليفعل . ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله فليأت فيأخذ !

وكان النفر الذين سمينا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر فأخبروه ما كانوا فيه. فسألهم عمر ليلة وقد تعشى الناس : أحصوا من تعشى عندنا ! فأحصوهم من القابلة فوجدوهم سبعة آلاف رجل ، وأحصوا من أرسل إليهم الطعام فى منازلهم فوجدوا أربعين ألفا . ثم أحصوهم بعد ليال فوجدوا من تعشى عند عمر عشرة آلاف ، ووجد الآخرون خمسين ألفا .

* * *

غير أن ذلك الجهد كله لم يزد على أن خفف من وطأة المجاعة ، فلقد كان متعذرا أن ينقل إلى الجزيرة فى تلك الأيام من المؤن ما يكفى لسد حاجة أهلها دفعة واحدة ، كما كان مستحيلا ألا تتأثر الصحة العامة بهذا النوع من الطعام الخشن الجشب، الذى اضطر إليه الناس اضطرارا ، وحملوا عليه حملا. فوقع الفناء فى الناس ، حتى قيل إنه هلك فى تلك السنة من العرب الذين نزلوا بأرض المدينة نحو ثلثيهم . وكانوا يزيدون على مائة ألف . هذا عدا من هلك فى داخل الجزيرة .. وكان عمر يأتى بنفسه فيصلى على الموتى . ولقد رؤى مرة وهو يصلى على عشرين جميعا .

فلما تناهت الشدة إلى تلك الحال لم يعى عمر بالأمر ولا ضاق به ذرعا . بل نهج فى تفريج الكرب وتهوين الخطب منهجا جديدا هداه إليه فكره السليم وقلبه الكبير؟

عمر بن الخطاب في عام الرمادة[1]

(٢)

لقد كان عمر بن الخطاب أكبر قلبا وأصح تفكيرا من أن يقف فى مكافحة الشدة التى نزلت بالجزيرة عام الرمادة عند الناحيـة المادية وحدها . لقد عـلم أن الناس اذا صار أمر بطونهم شغلهم الشاغل ، وهمهم الناصب ، فربما انقلبوا سباعا عادية وذئابا ضارية يأكل بعضهم لحم بعض ، كما وقع عند بعض الأمم فى مثل تلك الحال . فينبغى إذا أن يعصموا من الكفر والهلاك ، أو من التدهور والانحطاط بعاصم الدين ووازع العقيدة . ينبغى ، وقد خوت بطونهم ، أن تعمر قلوبهم بذكر الله ، وأن يتوجهوا إليـه سبحانه فى الشـدة كما يتوجهون إليه فى الرخاء . ولعمر الحق ! لولم يكن من وراء ذلك إلا أن يبرءوا إلى خالقهم وإلى أنفسهم من معرة الفزع والهلع ، ويستقبلوا الموت راضـيـة نفوسهم ، مطمئنة قلوبهم ، لكفى ؛ فكيف والصبر على المحن والشدائد من صفات المتقين دلائل الايمان الصادق الصحيح ! !

ومن ثم جرد عمر لمنازلة ما حل بالناس من آفات الجوع والعرى والمرض قوة الدين ووسائلها من دعاء وصلاة وابتهال وأخذ بالصـبر على ابتلاء الله وتمحيصه . وهى نفس القوة التى نازل بها من قبل ومن بعد عوامل الفساد الاجتماعى والاضمحلال السياسى فى أملاك الفرس والروم .

* * *

(١) الثقافة ، العدد ٢٦٠ ، ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

وبدأ عمر بنفسه على عادته فى المنهج الجديد الذى نهجه والخطة التى اختطها، فكما جعل نفسه المثل والقدوة فى الاقتصاد وعفة النفس، فكذلك أحب أن يكون المثل والقدوة فى صحة الدين وصدق التضرع إلى من بيده الأمر كله.

روى الواقدى بإسناده إلى ابن عمر قال: «أحدث عمر فى زمان الرمادة أمراً ما كان يفعله من قبل. كان يصلى بالناس العشاء، ثم يدخل إلى بيته فلا يزال يصلى إلى آخر الليل. ثم يخرج فيأتى الأنقاب فيطوف عليها، وإنى لأسمعه ليلة فى السحر وهو يقول: اللهم لاتجعل هلاك أمة محمد على يدى وفى ولايتى».

وحدث ابن سعد بإسناده إلى من رأى عمر عام الرمادة قال: «قال رأيت عمر رضى الله تعالى عنه يصلى فى جوف الليل فى مسجد رسول الله ﷺ عام الرمادة وهو يقول: اللهم لا تهلكنا بالسنين، وارفع هذا البلاء عنا: يردد هذه الكلمة».

ثم يلجأ إلى دعاء الاستسقاء وصلاته، وهى صلاة يصليها المسلمون عند امتناع المطر واشتداد الجدب. روى البلاذرى بإسناده إلى السائب بن يزيد، قال: نظرت إلى عمر يوما فى الرمادة وقد غدا متبتلا متضرعا، عليه برد لايبلغ ركبتيه، يرفع صوته بالاستغفار وعيناه تهرقان على خديه وعن يمينه العباس بن عبد المطلب، فدعا يومئذ وهو مستقبل القبلة رافع يديه إلى السماء، وعج إلى ربه ودعا ودعا الناس معه».

ورأى عمر أن يكون دعاء الاستسقاء عاما يشمل عرب الجزيرة جميعا، فكتب إلى عماله على نواحى الجزيرة وقبائلها أن يخرجوا للاستسقاء بالناس يوم كذا وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه رفع هذا المحل عنهم. وخرج عمر لذلك اليوم وعليه برد رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى المصلى فخطب

الناس فتضرع، وجعل الناس يلحون، فما كان أكثر دعائه إلا الاستغفار، حتى إذا قرب أن ينصرف رفع يديه مدا وحول رداءه كما يفعل المستسق لجعل اليمين على اليسار ثم اليسار على اليمين، ثم مد يديه وجعل يلح فى الدعاء ويبكى بكاء طويلا حتى اخضلت لحيته. « وخرجت العرب فى ذلك اليوم عنه يستسقون فلم يبق منهم إلا غبرات أى بقايا. فخرجوا يستسقون كأنهم السنور العجاف تخرج من وكورها يعجون إلى الله ».

* * *

وأخيرا يتأذن الله بالفرج بعد الشدة، وباليسر بعـــد العسر. حدث ابن سعد بإسناده قال: « قال عمر للعباس بن عبد المطلب، يا أبا الفضـل! كم بقى علينا من النجوم؟ قال العواء! قال كم بقى منها؟ قال ثمانيـة أيام! فقـال عمر، وعسى الله أن يجعل فيها خيرا ».

والعواء بالتشـديد نجم يظهر فى أفق الجزيرة فى فصـلى الخريف والشتاء، وطلوعها يكون لاثنتين وعشرين ليلة من أيلول، وسقوطها لاثنتـين وعشرين ليلة تخلو من آذار.

قال ساجعهم: إذا طلعت العواء وجثم الشتاء، طاب الصلاء.

وقد جعل الله فى تلك الأيام الثمانية خيرا كما رجا عمر. حدث محمد بن سعد بإسناده إلى زيد بن أسلم عن أبيه قال: « قال كنا فى الرمادة لا نرى سحابا، فلما استسق عمر بالناس مكثنا أياما، ثم جعلنا نرى قزع السحاب، وجعـــل عمر يظهر التكبير كلما دخل وخرج، وجعل الناس يكبرون، حتى نظر إلى سحابة سوداء جاءت من ناحية البحر، ثم تشاءمت فكان الحيا ».

وأرسل الله السماء على الجزيرة مدرارا، فاعتمت الأرض الهامدة السوداء

أن دب فيها دبيب الحيـــاة ، فاهتزت وربت وأنبتت الـكلأ والعشب ، فتغنى الطير ورتعت الآرام ، وثغت الشاء ، ورغت الإبل، وحمحمت الخيل ، وبدت معالم الربيع العربي فى جميع أرجاء الجزيرة .

هنالك رأى عمر أن قد انتهى واجبه ، فأمر أولئك النفر الأربعة الموكلين بمن فى نواحيهم بأرباض المدينة أن يخرجوا الأعراب إلى البادية ويعطوهم قوتا وحملانا ، وكان عمر ربما تولى العمل فى إخراجهم بنفسه .

* * *

ورب سائل يسأل ، ماذا كان عمر فاعلا لو تمادى القحط عاما آخر ، أو لم تتوافر عنده المؤن الكافية ؟ ويجيبنا عمر نفسه عن هذا السؤال . روى البلاذرى بإسناده إلى ابن عمر أن عمر بن الخطاب قال عام الرمادة : « لو لم أجد للنـاس من المال ما يسعهم لأدخلت على كل أهل بيت عدتهم فقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتى الله بالحيا ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم » . ولعل من هنا نشأت عند عمر خطة المقاسمة التى اتخذها بعد بإزاء العمال الذين كانوا يثرون على حساب مناصبهم ، فكان يقاسمهم أموالهم على النصف ، فيأخذ النصف لبيت المال ويدع لهم النصف الآخر .

وكم كان عمر بليغ الرفق بالناس عندما أخر تحصيل الزكاة عام الرمادة ، فلما كا[illegible] القا[illegible]ل مبعث السعاة ، وأمرهم أن يحصلوا زكاة عامين ؛ وأن يوزعوا [illegible]سفها على الفقراء ويقدموا عليـــه بالنصف الآخر . وقـد بين عمر لموزعى الصـدقات من يعطون ومن لا يعطون . فأمرهم أن يعطوا من أبقت له السنة غنما وراعيا ، ولا يعطوا من أبقت له غنمين وراعيين ، وكذلك واسى عمر

الفقراء فى تلك الشدة فى غير ما عنف بالأغنياء ولا إعنات لهم .

* * *

ولقد لقى عمر فى عام الرمادة نصبا شديدا ، ونال منه الجهـد والإعياء . حدث ابن سـعيد بإسناده إلى عياش بن خليفة قال : « رأيت عمر رضى الله تعالى عنه عام الرمادة وهو أسود اللون ، وعهدته قبل ذلك أبيض ، فقلت ، « لم اسود ؟ » فقيل إنه كان يأكل السمن واللبن ، فلما أمحل الناس حرمهما حتى يحيوا ، فأكل الزيت ، فتغير لونه وجاع فأكثر » .

وحدث ابن سعيد بإسناده إلى أسامة بن زيد عن أبيه عن جده ، قال : « كنا نقول لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هما بأمر الناس » .

* * *

رحم الله عمر ، كما رحم عمر الناس ؟



عمـــر الفاتح[1]

(الروح الذى وجه المسلمين إلى النصر الباهر)

مهما بعد العهد فليس ينقضي عجب المؤرخين وعشاق البطولة من فعال قواد العرب القدماء ، أمثال المثنى بن حارثة ، وخالد بن الوليـــد ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، وحذيفة بن اليمان . فهم الذين قوضـــوا ملك كسرى ، وزلزلوا عرش قيصر . وهم الذين شادوا فى مدى من الزمن لا يتجاوز عشر سنوات ملكا ضخما انتظم الجزيرة والعراق وفارس والشام ومصر . ولـكن ينبغى ألا ينسينا لألاء هذه الفتوح ، وما انعقد على مفارق هؤلاء الأبطال المغاوير من أكاليل المجد ، أنهم ما كانوا يفعلون ما فعلوا ويبلون ما أبلوا لولا روح فياض غمرهم ، وعقـل جبار سيطر عليهم ، وعزيمة ماضية صرفتهم ، هى روح عمر بن الخطاب وعقله وعزيمته .

ولعلنا لا نـكون مسرفين إذا قلنا إنهم جميعا لم يزيدوا على أن يكونوا أعوانا وجنودا لعب بهم عمر لعبة الحرب الرهيبة مع كسرى وقيصر ، وإنه فى حقيقة الأمر هو الفاتح الذى فتح الممالك ودوخ الأمصار ، وأقام الدولة العربية عالية الذرى ، ثابتة الأساس ، متينة البنيان. ورعى الله أبا الطيب حيث يقول :

الرأى قبـــل شجـاعة الشجعان ... هو أول وهى المحـــل الثـانى

---

(1) الهلال ، نوفمبر ١٩٣٧ ص ٤٠ ـ ٤٤ .

وربما طعن الفتى أقرانه بالرأي قبل تطاعن الأقران

لم يكن عمر قبل الخلافة بالجندي البارز بروز من ذكرنا من القواد. وتعليل ذلك الخمول الظاهري غير عسير. لقد كانت سنه فى الجاهلية أصغر من أن تأذن له بغشيان الحرب. أما زمن النبوة والخلافة الأولى فكان سداد رأيه وشجاعته الأدبية آثر عند الرسول وعند أبي بكر من شجاعته الحربية. فكان عندهما أظهر فى مقام الرأى والمشورة منه فى مشاهد الجلاد والطعان. على أن عمر كان من غير شك ذا كفاية حربية ممتازة اكتسبها من حضوره المشاهد مع رسول الله ومن تدبيره قتال الردة مع أبي بكر. وقد أدرك أبو بكر تلك الكفاية وود لو أنه انتفع بها انتفاعا مباشرا. فيروى أنه قال وهو على فراش الموت: «وددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام. كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت يدى كلتيهما فى سبيل الله». فقد عده أبو بكر عدل «سيف الله» وضريعه. وكفى بذلك دليلا على رسوخ قدمه فى فن الحرب وكفايته فى شئون القتال. فلما ولى عمر الخلافة ظهرت تلك الكفاية أيما ظهور وأثمرت أيما ثمر.

كانت كفاية عمر الحربية من ذلك الطراز العالى الذى يقوم على قوة التصور، وسلامة الإدراك، والإحاطة بطبائع البشر أفرادا كانوا أو جماعات، وعلى معرفة الفرص عند سنوحها والعلم بطرق افتراصها، ومواجهة الأزمات والطب لها. هذا إلى نشاط جم، وعزيمة صارمة، وذهن نفاذ. وهى صفات لم تجتمع بعد رسول الله لواحد من المسلمين غير عمر بن الخطاب.

وكان لعمر مظهر ومخبر ويا بعد ما كان بين مظهره ومخبره! فهو بادى الرأى رجل من أهل المدينة، ساذج العيش، يأكل أجشب الطعام، ويلبس

أخشن الثياب ، وينام حيث يدركه النوم . وسلاحه درته ، ومطيته قدمه ، يروح ويغدو كأحد الناس ، لا يفضلهم إلا بأنه أول خدامهم ، وأشبه سادتهم بعبدانهم. بيد أنه إذا تأمله المتأمل وقد نصب نفسه لحرب الفرس والروم لرأى دون ذلك المظهر، أحوذيا مشمرا ، قد استحضر فى ذهنه ميادين القتال فى الشرق والغرب . فهو ينتخب الرجال ، ويعبىء الجنود ، ويرسم المواقع ، ويختط الخطط ، ويبعث رجلا بعينه إلى العراق وآخر إلى الشام وثالثا إلى مصر ، ويأمر بالإقدام تارة وبالإحجام أخرى ، وينقل الأمداد من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ، لا يكاد يتأخر حسابه فى ذلك أو يستقدم يوما واحدا . فإذا ما أحكم الخطة وأعد العدة قال لأصحابه فى هدوء الواثق بنجح مسعاه : « قد رمينا ملوك العجم بملوك العرب . فانظروا عم تنجلى ! » ، فإذا ما أفلح سعيه ، وأثمر غرسه ، وجاءه نبــأ الفتح والظفر تلقاه فى خشوع وإخبات وتواضع تزيده روعة وعظمة وجلالا .

ويطول بنا القول لو ذهبنا نقيم البينة على صحة تلك الدعاوى فى جميع ميادين القتال الذى نشب فى أيام عمر بين العرب وبين الفرس والروم . فنكتفى بالتدليل على صحتها فى مقام واحد : هو وقعة القادسية (١٤ هـ) المعدودة أعظم وقائع العرب مع الفرس .

لما اشتد الأمر على العرب بالعراق بعد وقعة الجسر (١٣ هـ) التى أودت بقائدين عربيين هما أبو عبيد ثم المثنى بن حارثة ، وصمم الفرس على طرد العرب من بلادهم ، قام عمر للأمر وقعد واهتم له غاية الإهتمام فكتب[1] إلى عماله على قبائل العرب وكورهم : « ... ولا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة

(١) الطبرى ج ٤ ، ص ٨٢ .

أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى . والعجّل العجل ! » . فلما توافت إليه النجدات حارفيمن يؤمره عليها وهم أول الأمر أن يسير فيها بنفسه إلى العراق، ولـكن ذوى مشورته ثنوه عن ذلك . ثم وفق إلى رجل لحظ فيه أصالة الرأى وتمام الشجاعة ويمن النقيبة فأمره عليها . روى الطبرى [1] قال : « وكان سعد على صدقات هوازن ، فبعث إلى عمر بألف فارس وكتب إليه كتابا بذلك . . . فوافى كتابه مشورتهم ، فقالوا قد وجدته ! قال : من ؟ قالوا : الأسد عاديا ! قال : من ؟ قالوا : سعد ! فانتهى إلى قولهم . فأرسل إليه فأمره على حرب العراق وعقد له على أربعة آلاف معهم ذراريهم ونساؤهم . وأتاهم عمر فى عسكرهم فأرادهم جميعا إلى العراق ، فأبوا إلا الشام ، وأبى إلا العراق ، فسمح نصفهم فأمضاهم نحو العراق ، وأمضى النصف الآخر نحو الشام » .

« فلما نزل سعد بشراف كتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس فيما بين غضى إلى الجبانة . فكتب إليه عمر : إذا جاءك كتابى هذا فعشر الناس ، وعرف عليهم ، وأمر على أجنادهم ، وعبهم ، وواعدهم القادسية ، واضمم إليك المغيرة بن شعبة فى خيله . واكتب إلى بالذى يستقر عليه رأيهم » [2]

ثم يكتب عمر إلى سعد بالمنازل التى ينزلها وبخطة الحرب وبميعاد تحركه ، قال الطبرى [3] : « وقدم على سعد وهو بشراف كتاب عمر... أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين . . فإذا انتهيت إلى القادسية . . وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر ، على حافات الحجر وحافات المدر

(١) المصدر نفسه ص ٨٥ .
(٢) « ص ٨٧.
(٣) « ص ٨٧ .

والجراع بينهما . ثم الزم مكانك فلا تبرحـــه ، فإنهم إذا أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم . فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لـكم مثلهم أبدا ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن تـكن الأخرى كان الحجر فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضـهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها أجرأ وبهـا أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح ... فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوادس ، وشرق بالناس وغرب بهم » .

ثم كـتب عمر إلى سعد يستوصفه المنازل والبقاع ويستخبره عن أحوال العدو(١) : « ... واكتب إلى أين بلغك جمعهم ، ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم ، فإنه منعنى من بعض ما أردت الـكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه والذى استقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها واجعلنى من أمركم على الجلية » .

فكتب إليه سعد: «القادسية بين الخندق والعتيق، وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر فى جوف لاح إلى الحيرة بين طريقين ، فأما أحدهما فعلى الظهر ، وأما الآخر فعلى شاطىء نهر يدعى الحضوض يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة. وإن ما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيوض مياههم، وإن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلى إلب لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا. وإن الذى أعدوا لمصادمتنا رستم فى أمثال له منهم . فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم . وأمر الله بعد ماض ، وقضاؤه مسلم إلى ما قدر

(١) الطبري ، ص ٨٩ – ٩٠

لنا » . فكتب إليه عمر : « قد جاء فى كتابك وفهمته ، وأقم بمكانك حتى ينغض الله لك عدوك ، واعلم أن لها ما بعدها . فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن » .

« ووضع سعد بالعذيب خيلا تحوط الحريم ... ونزل سعد القادسية ،فنزل بقديس ، ونزل زهرة بحيال العتيق فى موضع القادسية اليوم ... وبعث سعد إلى عمر بنزوله قديسا ، وأقام بها شهرا ... ثم كتب إلى عمر : « لم يوجه القوم إلينا أحدا ، ولم يسندوا حربا إلى أحـــد علمناه ، ومتى ما يبلغنا ذلك نكتب به . واستنصر الله فإنا بمنحاة دنيا عريضة دونها بأس شديد »[1].

« وبعث سعد عيونا إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا ليعلموا له خبر أهل فارس فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولى رستم بن الفرخذاذ الأرمنى حربه وأمره بالعسكرة . فكتب بذلك إلى عمر . فكتب إليه عمر « لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يؤتونك به ... وابعث إليه رجالا من أهل المناظرة والرأى والجلد يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم وفلجا عليهم . واكتب إلى فى كل يوم » .

« .. ولما عسكر رستم بساباط كتبوا بذلك إلى عمر »[2]. « ثم إن سعد بن أبى وقاص حين جاءه أمر عمر جمـــع نفرا عليهم نجار ولهم آراء ، ونفرا لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء .. فبعثهم دعاة إلى الملك » وكان من أمر هـذا الوفد العربى ما رواه الطبرى من مفاوضتهم لرستم أولا ويزد جرد أخيرا . وهى مفاوضة صورية بطبيعة الحال ؛ وقد انتهت بأن زحف رستم من

---

(١) المصدر نفسه ج ٤ ، ص ٩١ .
(٢) « « « ص ٩٢ .

ساباط إلى القادسية فلقاه سعد[1] فى المحرم عام ١٤ هـ ».

كانت كفة الفرس هى الراجحة فى اليومين الأولين من أيام القادسية، ثم كان من صنع الله للعرب، ولطف تدبير عمر أن قدم المدد من الشام فى اليوم الثانى وقد زلزل العرب زلزالا شديدا، فقويت عزائمهم وانتصفوا من الفرس فى اليوم الثالث، وهو المعروف بيوم عماس. قال الطبرى[2]: « وكان يوم عماس من أوله إلى آخره شديدا، العرب والعجم فيه على السواء، ولا يكون بينهم نقطة إلا تعاورها الرجال بالأصوات حتى تبلغ يزدجرد فيبعث إليهم أهل النجدات ممن بقى عنده، فيقوون بهم.. فلولا الذى صنع الله للمسلمين بالذى ألهم القعقاع فى اليومين وأتاح لهم بها ثم كسر ذلك المسلمين ».

واتصل القتال ليلة اليوم الرابع، وهى المعروفة عندهم بليلة الهرير. فلم يتنفس صبح ذلك اليوم إلا وقد انتصر العرب على عدوهم انتصارا عظيما.

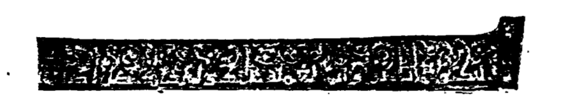
قال الطبرى[3] « وكتب سعد بالفتح ... وكان كتابه: أما بعد فإن الله نصرنا على فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها، فلم ينفعهم الله بذلك، بل سلبهموه، ونقله منهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفى الفجاج. وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم، الله بهم عالم، كانوا يدوون بالقرآن إذ جن عليهم الليل دوى النحل، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود، ولم يفضل

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٠٠.
(٢) « « ص ١٢٦.
(٣) « « ص ١٤٤.

من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم ».

ولما أتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله . قال فلما لقى البشير سأله : من أين ؟ فأخبره . قال يا عبد الله ! حدثنى . قال : هزم الله العدو ! وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة، فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين. فقال الرجل : فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟ وجعل عمر يقول : لا عليك يا أخى ! »[1].

ويمكن القارىء أن يدرك الدور الذى قام به عمر فى تلك الواقعة الفاصلة، فهو مدير رحاها وبطلها على الحقيقة . وقد أدرك الفرس ذلك من فورهم . فيروى أن رستم لما ضرسته الحرب بنابها ووطئته بمنسمها ، نادى فقال بالفارسية ما تعريبه : « أتانى صوت عند الغداة ، وإنما هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل. أكل عمر كبدى ، أحرق الله كبده »[2]، ولما أم الأعاجم المقيمون بالمدينة أن ينتقموا من فتح بلادهم لم يعمدوا إلى خالد ولا إلى سعد ، وإنما عمدوا إلى عمر ابن الخطاب فاغتالوه . ولعمرى لقد كان رستم وأبو لؤلؤة ومن آمروه على قتل عمر أصرح وأشجع ممن جاء بعد من روافض الشيعة وغلاتهم الذين أسسوا رفضهم عمر على استئثاره بالخلافة ، كأن لم يكن هناك سبب آخر أدعى إلى الرفض وأجل خطرا ؟



(١) الطبرى ج ٤ ، ص ١٤٤ .
(٢) » » ص ١٤ : ١١٤ - ١١٥ .

دولة الأكاسرة[1]

٢٢٦ - ٦٥١ م

لقد شهدت إيران فى تاريخها الطويل دولا إيرانية كثيرة : شهدت فى الزمن القديم دول عيلام ، ومادى ، والكيانيين ، والأشغانيين ، والساسانيين . وشهدت فى عصورها الحديثه دول الصفويين والزنديين والقاجاريين إلا أن الدولة الإيرانية التى يعظمها الإيرانيون أشد التعظيم ويفخرون بها الفخر كله ، ويرونها عنوان المجد الإيرانى والقومية الإيرانية بكل معانيها ، هى الدولة الساسانية ، أو دولة الأكاسرة التى قامت سنة ٢٢٦ م ، وعبرت من الزمان أربعمائة عام تزيد قليلا .

* * *

والساسانيون ينسبون إلى رجل يسمى ساسان ، كان قيما على بيت نار مدينة اصطخر بإقليم فارس . وقد ولد له ابن يسمى بابك ، نشأ جلدا هماماً ، حريصا على بعث القومية الإيرانية التى أماتتها أوكادت غارة الإسكندر المقدونى على فارس فى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، راغبا فى استعادة المجد الذى كان لإيران على عهد الدولة الكيانية العظيمة ، والذى قضى عليه الفاتح المقدونى فى عشية وضحاها. وما زال بابك يسعى وتواتيه المقادير ، حتى أنشأ لنفسه ملكا كانت قاعدته

---

(١) الثقافة ، العدد ١٤ ، ٤ ابريل سنة ١٩٣٩ .

مدينة (خير) الواقعة شرقى شيراز . فلما توفى خلفه ابنه أردشير (٢٢٦ - ٢٤١) فاقتفى أثر أبيه ، ونزع منزعه فى السياسة ، فصار يوسع رقعة ملكه على حساب مجاورية من ملوك الطوائف ، حتى فطن لمآربه كبيرهم أردوان الأشغانيين ، فنهض لحسم الأمر قبل استفحاله ، ولكن أردشير ساجله الحرب حتى قضى عليه فى واقعة عظيمة جرت سنة ٢٢٤ م ثم دخل بعد عامين المدائن مظفراً منصورا . فكان ذلك الفتح ختام عهد الفوضى السياسية التى نشأت عن الفتح المقدونى ومبدأ لعهد مجيد حافل بالأحداث العظام ، هو عهد الدولة الساسانية .

* * *

والمتصفح لتاريخ الدولة الساسانية من أول قيامها إلى أن تضعضعت أمورها واختلت أحوالها فى أوائل القرن السابع الميلادى يلحظ فيه ظاهرة ماثلة كل المثول ، هى ظاهرة الحروب المتلاحقة ، بل المتصلة ، التى وقعت بينها وبين الدولة الرومانية . وليس من شك فى أن تلك الوقائع الجسام ، والخطوب العظام ، إنما هى فصل من فصول تلك المأساة التاريخية الكبرى مأساة الصراع بين مايسمى على سبيل الاصطلاح شرقا ومايسمى غربا .

ولقد كانت كفة الدولة الساسانية ، هى الراجحة على وجه الإجمال فى ذلك الصراع العنيف . فلم يوغل الروم قط فى الهضبة الإيرانية ولاقاتلوا خصومهم فى عقر دارهم وصميم ملكهم ، بل كان قصاراهم أن يرددوا الغارة على أرمينية ، وأن تنساح كتائبهم فى سهول العراق ، لا يكادون يزيدون على ذلك ، فى حين أن الفرس على عهد كسرى أبرويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) أمكنهم أن ينتزعوا من الروم آسيا الصغرى والشام وفلسطين ومصر ، وأن يرابطوا فى البر الأسيوى تجاه القسطنطينية نفسها ، وأن يحملوا بعض الصليب الأعظم من بيت المقدس إلى

عاصمتهم المدائن . وإلى هذا النصر أشار القرآن الكريم فى أول سورة الروم بقوله : « آلم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » الآية. ولقد يكون أروع حوادث ذلك الصراع الحاد العنيف وقوع الإمبراطور الرومانى وليريان أسيرا فى يد سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢) وذلك عام ٢٦٠م وقضاء ذلك الإمبراطور التعس بقية حياته أسيرا ذليلا. لقد رج هذا الحادث الجلل العالم الرومانى رجا عنيفا، كما كان سبب فخر لاحد له للفرس الساسانيين.

ولقد استظهر الساسانيون فى حروبهم مع الروم بالعرب فأذنوا لهم أن ينزلوا بادية العراق ، ويستقروا بالحيرة فى القرن الرابع الميلادى ، وينشئوا بها مملكة الحيرة المشهورة التى نفعت الدولة الساسانية نفعا مزدوجا ، فكانت عونا لها على الروم ، كما أنها بسطت نفوذها على شرقى الجزيرة العربية وجنوبيها . ولقد نهج الروم منهج الفرس فأقاموا من عرب بادية الشام مملكة الغساسنة ، وكان موقفها من الروم موقف الحيرة من فارس سواء بسواء .

على أن المظهر الحربى للدولة الساسانية لم يكن مقصورا على مجالدتهم الروم وحدهم ، فلقد كانوا عرضة لهجوم القبائل البدوية الهمجية التى تنزل حدودهم الشمالية الشرقية ، ولكنهم استطاعوا أن يدرءوا ذلك بانتصاراتهم العديدة على التتار المعروفين بالهياطلة أولا وعلى قبائل الترك أخيرا ، وأن يبسطوا سلطانهم على رقعة واسعة من الإقليم الذى عرف بعد بما وراء النهر .

وإذا صح أنه لا يوجد فى هذا العالم خير محض ولا شر محض ، فيمكن القول بأن هذه الحرب على كثرة ما أزهقت من نفوس ، وخربت من بلدان ، وأكلت من مال ، لم تكن شرا محضا ، بل لقد نتجت خيرا كثيرا للفرس أنفسهم وللروم والعرب والترك. فأما الفرس فقد كان من سياستهم بإزاء عدوهم الرومانى

أن يفتحوا أبواب بلادهم للمخالفين على الدولة الرومانية من رعاياها . فانتجعت أرض فارس نساطرة النصارى الذين اضطهدتهم الدولة الرومانية ، ونزلوها آمنين مطمئنين ونشروا فيها العلوم والآداب السريانية المستمدة من علوم الأغريق وآدابهم ، فكان لذلك أثر كبير فى رفع المستوى العلمى والثقافى للدولة الفارسية الساسانية .

ولما أمر الامبراطور جستنيان (٥٣١ - ٥٧٨ م) بإغلاق مدارس الفلسفة بأثينا وإخراج الفلاسفة من ملكه ، لم يكن لهؤلاء العلماء من ملجأ سوى فارس، وقد تقبلهم العاهل الساسانى العظيم كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) بقبول حسن وأذن لهم فى نشر علومهم فى بلاده ، فنشروا فيها مذهب الأفلاطونية الحديثة الذى امتزج بالعقلية الإيرانية والخيال الإيرانى ، فكان لذلك الامتزاج أثر قوى فى ظهور التصوف الفارسى المشهور فى آداب الفرس قديما وحديثا .

ولقد أخذ الروم عن الفرس الساسانيين أن دينا رسميا واحدا خير للدولة من أديان متعددة ، فاتخذوا النصرانية ديانتهم الرسمية وهجروا الوثنية ، فكان ذلك بدء اعتزاز المسيحية وانتشارها فى الأرض .

ثم أن اتصال العرب بالفرس الساسانيين وقف العرب على أساليب الفرس والروم فى الحرب . كما أظهرهم على معارف ومعلومات دينية لم يكن لهم بها عهد من قبل ، فعلا مستواهم الثقافى ، وتهذبت نواحى حياتهم الخشنة الساذجة إلى حد بعيد . وما يقال عن العرب يقال مثله عن الترك فإنهم تأثروا بالمدنية الإيرانية تأثرا كبيرا إلى حد أن غير واحد من فلاسفة الإسلام الذين نبغوا بما وراء النهر لا يدرى أصله على التحقيق : أفارسى هو أم تركى ؟ .

* * *

قد يخيل إلى القارىء أن الساسانيين لكثرة خوضهم غمار الحرب مع الروم تارة والترك أخرى ، قوم لا هم لهم إلا الحرب والجلاد ، وأن شأنهم فى ذلك شأن الآشوريين والأسبرطيين والترك العثمانيين . ولكن الواقع ليس كذلك ، فإن عظمة الساسانيين الحقيقية تتجلى زمن السلم أكثر مما تتجلى زمن الحرب .

لقد كان لهم سياسة داخلية مقررة محكمة تدل على أن ملوكهم كانوا رجالا موفورى الحظ من الخبرة العملية بشؤون الناس وعلى علم تام بطبائعهم . فمن أسس هذه السياسة عملهم على التمكين للنظام الملكى فى إيران وجعله لا مجرد نظام معرض لعواصف السياسة العاتية وأعاصيرها الهوج ، ولكن عقيدة تملك على الشعب الإيرانى لبه وقلبه على السواء . فألقوا فى نفسه أنهم سلالة الملوك الكيانيين العظام الذين كانوا يحكمون فى الأرض بتفويض من إله النور آهورامزدا ، وأنهم ورثة ملك الكيانيين وأنهم إنما يحكمون بهذا التفويض الإلهى ، وأن عليهم وحدهم سمة الملك وطابع الحكم لا ينتقل ذلك عنهم إلى غيرهم أبدا . وقد عززوا هذه الدعوة بأن أحاطوا الملك بسياج من المهابة والأبهة والعظمة ، يتمثل فى تاجه المتألق وسريره العالى وإيوانه المنيف ، وفى احتجابه عن الشعب ، وفى تلك المراسم الدقيقة التى كان يؤخذ بها كل من يسعده الحظ بالمثول بين يدى كسرى ملك الملوك .

ومن الأسس التى عنى بها الساسانيون لمصلحة الملك والرعية على السواء الدين . والدين الفارسى القديم هو الزرادشتية التى ظهرت قبل الدولة الساسانية بأزمان طويلة . والزرادشتية ديانة رمزية تؤله الخير والشر وتأمر بالخير وتنهى عن الشر . والخير والشر عندها أمران ماديان محسوسان إيجابيان ، فهى تأمر بالعمل والإنتاج والزراعة والتجارة ، وتحث على الزواج والنسل وتعد ذلك خيرا ، وتنهى عن أضداد ذلك وتراها شرا .

ولقد أدرك الساسانيون القيمة العملية للديانة المذكورة فعملوا من أول أمرهم على مناصرتها وجعلها الديانة القومية للأمة الإيرانية، وأنشأوا فى كل مدينة، بل فى كل قرية، بيوت النار حيث يعبد الناس النار، مبعث النور الذى هو رمز الخير وطاردة الظلمة التى هى رمز الشر. وقد أدتهم تلك العناية بالدين الزرادشتى إلى رفع شأن رجاله المعروفين بالموابذة على سائر رجال الدولة.

فلما ظهر مانى ودعا إلى مذهبه، وكان مذهبا عدميا سلبيا يرى الخير فى الزهد، وعدم الإنتاج، والامتناع من الزواج والنسل. فإن بهرام الأول (٢٧٣ - ٢٧٦ م) تجرد لمحاربته فقتل مانى ونكل بأصحابه شر تنكيل. وقد قابل رجال الدين الزرادشتى هذا الصنيع من الساسانيين بأن أيدوا سلطانهم السياسى بما لهم على الشعب من نفوذ روحى عظيم.

ومن المبادىء المقررة فى سياسة الساسانيين الداخلية المحافظة التامة على النظام الاجتماعى الإيرانى القديم القائم على الأسرة والملكية، فلما ظهر مزدك فى أوائل القرن الخامس، ودعا إلى نحلته الشيوعية الهادمة لنظامى الأسرة والملكية، وافتتن بها العامة، فإن كسرى أنوشروان تجرد لمحاربة نحلته، فقضى على مزدك وأتباعه، كما قضى من قبل بهرام الأول على مانى وأصحابه.

وأجل الفضائل السياسية التى كان يتوخى أكاسرة الدولة الساسانية التحلى بها فضيلة العدل. وهى ملحوظة فيهم من أولهم إلى آخرهم. فقد ورد فى عهد أردشير الأول إلى ابنه قوله: «لا ملك بغير جند، ولا جند بغير مال، ولا مال بغير زراعة، ولا زراعة بغير عدل» فالعدل عنده أساس الملك. وكان أنوشروان يلقب بالملك العادل، وعلى هذه الفضيلة العظيمة جروا فى نظامهم

التى تتصل بالحقوق والواجبات بوجه عام .

* * *

ونعود فنقول إن أعمال الناس مزاج من الخير والشر . فإذا كانت سياسة الأكاسرة تنطوى على خير كثير فإنها للأسف كانت تحمل فى ثناياها العناصر التى أدت فى النهاية إلى انتقاض أمرهم وضياع ملكهم . فإن حملهم الشعب على اعتقاد أنهم يحكمون بتفويض من الله على حسب تصورهم له كان لا بأس به إبان قوة الأسرة الساسانية ، فلما اضمحلت ، وعراها الوهن والهرم من بعد كسرى أنو شروان لم يكن ممكنا أن يقوم رجل قوى فينتزع منهم السلطان ، وينقله إلى أسرة أخرى فتية ناهضة . فإذا حدث أن رجلا قويا حدثته نفسه بذلك لقى الخذلان من الشعب ، على نحو ما حدث لبهرام جوبين فى أواخر القرن السادس . ثم إن انتصار الدولة للزرادشتية والمبالغة فى رفع أقدار رجالها قد أدى فى نهاية الأمر إلى قيام طبقة كهنوتية متعصبة مستبدة لا تعرف الرفق بالناس فى مسائل الدين ، ولا التسامح نحو أهل الديانات الأخرى الذين كان منهم بإيران خلق كثير .

ثم إن التمسك بنظام الأسرة والملكية على النحو الذى كان عليه دون تعديل يطابق الظروف ، أدى إلى قيام طبقة أرستقراطية قليلة العدد واسعة الثروة كثيرة الامتيازات ، كما قسم الشعب طبقات متحاجزة تحاجزا تاما أوغر قلوب الناس بعضهم على بعض . والواقع أن شيوعية مزدك إنما كانت احتجاجا عمليا على ذلك النظام بصورته التى أصبح عليها فى القرن السادس الميلادى .

وكان اجتماع هذه العوامل فى نهاية القرن السادس مما أوقع الدولة فى الفوضى والارتباك ، وهى فوضى يكفى للتدليل عليها أن اثنى عشر ملكا جلسوا

على سرير الملك فيما بين عامى ٦٢٨ و ٦٣٢ م ، أى فى نحو أربع سنوات . ومن الاتفاقات العجيبة أنه فى تلك السنوات عينها أخذ العرب يخرجون من جزيرتهم غزاة فاتحين ! فلم يقو صرح الأكاسرة المتداعى على صدماتهم العنيفة فى ميادين القادسية وجلولاء ونهاوند . وقضى آخر الأكاسرة وهو يزدجرد بن شهريار بقية أيامه شريدا مطردا إلى أن اغتيل على يد رجل من أحقر رعيته عند مدينة مرو عام ٣١ هـ (٦٥١ م) ، فذهب بمصرعه على هذه الصورة المؤلمة مثلا واضحا لجحود العامة وغرور الحياة .

* * *

على أن الدولة الساسانية لم تذهب إلا بعد أن أدت واجبها من حيث هى دولة عظيمة . لقد أقامت بإيران معالم حضارة رائعة ، لاتزال آثارها شاهدة بروعتها ، كما أنها ثقفت الشعوب المجاورة لها ، وبخاصة العرب والترك ، وهيأتهم للقيام بدورهم التاريخى العظيم . وهى التى علمت الروم أن وحدة الدين خير فى السياسة من تعدده ، وقد علم الروم ذلك وعملوا به ، فكان من وراء ذلك الخير كل الخير للنصرانية . وأخيرا فإن دولة الأكاسرة الساسانية بنظمها وسياستها وإدارتها وحياتها العامة ، كانت المثل والقدوة للمسلمين فى عصرهم العباسى العظيم ؟



فتح العرب لمصر(١)

تاليف الدكتور ألفرد ج. بتلر

وتعريب محمد فريد أبوحديد

سمعت مرة أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد بك يقول ما معناه: أننا الآن فى دور النقل والتعريب من حياتنا العلمية، وهو قول لاغبار عليه، فإن زمن الإقتصار على تراثنا العلمى والأدبى القديم قد انقضى منذ عهد بعيد، وزمن الابتكار فى العلم والأدب لم يأت بعد، وينبغى أن يتقدمه زمن نتوفر فيه على نقل أصول العلوم والفنون والآداب الغربية إلى لغتنا العربية إقتداء بما فعل السلف الصالح فى صدر الدولة العباسية.

إننا بهذا التوافر نبث فى حياتنا العلمية روحا جديدا، ونكسبها مادة جديدة وأسلوبا فى البحث والعرض العلمى جديدا، ونكون قد مهدنا للحياة العلمية المستقلة وأعددنا لها أساسا قويا راسخا لا يخشى عليه من تطاول البنيان ومرور الزمان، ونكون قد أدينا واجب العلم والوطن والإنسانية جميعا.

لكن الترجمة الصحيحة عبء ثقيل مضن يقتضى كثيرا من الجهد والتضحية. فهى من ناحية المترجم تطلب غزارة علم وأدب وإنكارا شديدا للذات، يستعذب معه المترجم أن يكون أسيرا للمؤلف الذى ينقله، وقليل من الناس

---

(١) نشرت بالعدد الخامس من الرسالة (السنة الأولى) ١٥ مارس ١٩٣٢

من يصبر على مثل هذا العناء . ثم هى تقتضى من ناحية الناشر ، وبخاصة فى بلدنا هذا ، أن يوطن نفسه على الخسارة المادية التى تصيبه بما ينشر ، فإذا إستطاع أن يخرج من الأمر كفافا لا عليه ولا له فحسبه ذلك .

والناشر بعد تاجر يقيس قيمة الكتب بالفائدة المادية المرجوة منها ، فماذا يحمله على أن يعرض ماله للضياع ؟

من أجل ذلك كسدت سوق الترجمة فى بلدنا . وتأثرت حياتنا الأدبية بهذ الكساد تأثرا شديدا ، حتى أصبحت لا شرقية ولا غربية ولا قديمة ولا حديثة. ولكن الحمد لله ، فقد أخذت هذه الحال تؤذن بالتحول والزوال . وآية ذلك ما نسمعه عن التفكير فى وضع قاموس عربى جديد يجمع شتات اللغة التى أصبحت إلى حد بعيد سماعية غير مدونة . ومن آيته أيضا ماترجم فى السنوات الأخيرة من غرر أدب الغرب وعلمه ، نذكر من هذه الغرر على سبيل المثال : كتاب الجمهورية لإفلاطون ، وكتاب الأخلاق ، وكتاب الكون والفساد ، ونظام الأثينين وآلام فرتر لجوتة ، وفاوست له أيضا ، والشاهنامة للفردوسى ، وأصل الأنواع لداروين . ثم كتاب فتح العرب لمصر وهو الذى سقنا هـذه المقدمة تمهيدا للتعريف به أصلا وترجمة .

* * *

ألف كتاب « فتح العرب لمصر » منذ ثلاثين عاما بحاثة إنجليزى هو الدكتور ألفرد ج . بتلر . ونقله إلى العربية منذ عام صديقنا الأستاذ محمد فريد أبوحديد ، ثم نشرته فى هذه الأيام لجنتنا المباركة لجنة التأليف والترجمة والنشر . والكتاب يقع فى قرابة ستمائة صفحة مكسورة على ثلاثين فصـلا وبضعة ملحقات . فى الفصول الأربعـة الأولى يعرض المؤلف الحال السياسية للدولة الرومانية فى

أوائل القرن السابع الميلادى . ويتكلم عن الثورة التى انتهت بأن أصبح هرقل عاهل الدولة المذكورة ، وفى الفصل الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع يتكلم على غزو الفرس الشام ومصر ، فنهضة هرقل واسترداده الإقليمين المذكورين ، وعقده مع الفرس صلحا أعاد إلى الروم شرفهم العسكرى ، فالحال الادبية للإسكندرية خاصة لذلك العهد . وفى الفصل العاشر والحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر يتكلم على ظهور الإسلام . وفتح العرب الشام ومصر ، واضطهاد قيرس البطريَرك الملكانى للأقباط فى السنوات العشر السابقة على الفتح.

ومن الفصل الرابع عشر إلى الثالث والعشرين يفصل المؤلف الكلام على حوادث الفتح العربى لمصر. فيتكلم على زحف عمرو بن العاص على مصر وبلوغه مدينة مصر، فغزوة الفيوم ، فواقعة عين شمس ، لحصار حصن نابليون وأخذه، فالزحف على الإسكندرية والاستيلاء عليها ، فأخذ المدن الساحلية الشمالية ، فانتهاء السيادة الرومانية على مصر . ومن الفصل الرابع والعشرين إلى الثلاثين يتكلم المؤلف كلاما ممتعا موضوعه حال الإسكندرية وقت الفتح ومكتبتها المشهورة ، وحريق هذه المكتبة المنسوب إلى عمرو ، وغزو عمرو لبرقة وطرابلس ، والنظام الإدارى الإسلامى الذى وضع لمصر عقب الفتح . ثم يتبع المؤلف هذه الفصول بملحقات حقق فيها بصفة خاصة ، شخصية المقوقس ، والترتيب الزمنى لحوادث الفتح العربى ، والكتاب إلى جانب ذلك مزود بخرائط ورسوم تعين على فهم موضوعه

من هذا العرض يتبين القارىء أن المؤلف قد أحاط بموضوع الفتح العربى لمصر أتم الإحاطة ، واستوعب وقائعه كل الاستيعاب ، والحق أن الدكتور بتلر قد جلا موضوعا من أوعر موضوعات التاريخ الإسلامى ، وحل كثيرا من

ألفازه : أوضح شخصية المقوقس ، وكانت غامضة ، ورتب حوادث الفتح ترتيبا أوفى إلى الصحة منه فى أى مصدر قديم . وأتى بالقول الفصل فى حريق مكتبة الاسكندرية ، وبين وجه الخلاف القديم فى فتح مصر . أصلحا أم عنوة ؟ على أن الكتاب يؤخذ بنقص جوهرى واحد . ذلك أن المؤلف عنى بالجانب السياسى والدينى فقط من حال مصر قبيل الفتح وأغفل شئونها الإدارية والإقتصادية ، على ما كان لها من أثر قوى فى سهولة انتقال مصر من حكم الروم إلى حكم العرب . ولقد ظهر فى هذا الموضوع فى العشرين سنة الأخيرة بحوث قيمة كنا نود لو أن الكتاب طبع طبعة ثانية تضمن نتائجها . من هذه البحوث : « النظام العسكرى لمصر البيزنطية » لجان ماسبرو . و « الإدارة المدنية لمصر البيزنطية » لجرمين روبارد .

ثم أننا لا نوافق المؤلف على تصويره لغارة عمرو على الفيوم ، فهو يرى أن عمرا عندما بلغ رأس الدلتا ورأى قلة من معه من الجند وحرج موقفه بين جنود الروم جنوبا وشمالا ، أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستمده ورأى فى الوقت نفسه أن يشغل جنده ويستنقذهم من الخطر ريثما يصل المدد ، فتكلف عبور النيل إلى شاطئه الغربى ، وأغار على الفيوم ثم عاد فعبر النيل ثانية ، فوجد المدد قد قدم من المدينة . لاشك أن هذه طريقة غريبة جدا فى الخلاص من المواقف العسكرية الحرجة ، ثم هى لا تأتلف بحال مع ما عرف عن عمرو من شدة الدهاء وبعد المكيدة . يضاف إلى ذلك أن المصادر العربية من حيث هذه الغزوة نوعان : فنوع لايعرفها بالمرة ، ونوع يعرفها ، ولكنه يوردها على صورة تجعلها أقرب إلى المعقول من الصورة المذكورة ، ومع ذلك لم يعتمد عليها المؤلف واكتفى بمتابعة يوحنا النقيوسى بحجة أنه أقدم عهدا من كل المصادر

العربية ، ولكن القدم وحده لا يكون دائما دليلا على صحة المصادر التاريخية . كذلك يؤخذ على المؤلف حكمه فى الفصل الحادى عشر بأن غزوة تبوك المشهورة كانت فشلا لأنها لم تؤد إلى ما كان الرسول يرمى إليه بها من مصادمة الروم ، والحق أنها أدت إلى ما كان النبى ﷺ يرمى إليه من شد سلطانه السياسى على شمال الحجاز . بقيت ملاحظة يسيرة : لقد توهم المؤلف أن مسيلمة المتنبىء ظهر باليمن (١٣١) والصحيح أنه ظهر باليمامة .

ومع ذلك فهذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الكتاب العلمية وحسب القارىء أن يعلم أن الدكتور بتلر قد أقام فى كتابه تاريخ الفتح العربى لمصر على أساس على متين ، وأنه إلى الآن لم يظهر فى ذلك الموضوع كتاب آخر يدانيه ، فضلا عن أن يفوقه .

أما الترجمة العربية لكتاب فتح العرب لمصر فأحب قبل كل شىء أن أهنىء صديق فريدا على توفيقه فيها أخلص التهنئة ، فقد جاءت صورة صادقة للأصل مطابقة له فقرة فقرة ، وجملة جملة ، هذا مع سهولة العبارة وسلاستها ووضوحها ، مما يشهد للأستاذ فريد بالبراعة فى صناعة الترجمة ، ولكن ليت شعرى أي مترجم ولو كان الأستاذ فريد نفسه يترجم زهاء الستمائة صفحة ثم لا يهفو قلمه ولا ينحرف عن الأصل الذى ينقل عنه يمنة أو يسرة ؟ على هذا الاعتبار أهدى إلى الأستاذ فريد هذه الملاحظات اليسيرة .

جاء فى صفحة ٢٥ هذه العبارة . (النذر اليسير) وصوابها (النزر) بالزاى المعجمة ، وفى ص ٢٧ عرب اسم المستشرق المشهور De Goeje بـ (دى جويجة) وصوابه (دى غويه) ، ووردت فى صفحة ٢٧ أيضا كلمة (المونوفيسية) وأحسن منها أن يقال (المذهب اليعقوبى) ، وجاء فى ص ١٢٣ (هزيمة تبوك) بدلا من

(فشل غزوة تبوك) وهو المقابل للأصل . وفى ص ٨٣ ترجمت Theology (بالفقه) وصوابها (اللاهوت) ؛ وجاء فى ص ٢١٨ تسور الزبير إلى الحصن والصواب أن يحذف حرف الجر . وفى ص ٢٢٨ ترجمت Drawbridjes بـ (قناطر) وأصح من ذلك (جسور) ، لأن العرف جرى بإطلاق اللفظ الأول على البناء الثابت الذى يعقد فوق الأنهار، وهو غير المراد من اللفظ الانجليزى . وجاء فى ص ٢٥٥ : وكانت « مسلحة » المدينة بدلا من : وكانت « حامية المدينة » . وفى ص ٤٠٦ : وقال عن (النواوى) وصوابه (النووى) بدون ألف المد .

على أن هذه الملاحظات أيضا لا تضر الترجمة شيئا : وإذا كان الكتاب مثالا يحتذى من حيث دقة البحث العلى فترجمته العربية مثال ينسج على منواله من حيث أمانة النقل وصحة التعبير ؟



على ساحل بحر الروم[1]

إن عهدى ببحر الروم بعيد ليس بالقريب ، فلعشرات من السنين خلت أذكر أنى كنت بمدينة الاسكندرية ، وأنى كنت طفلا عليل الجسم رمد العينين ، قد أعيا نطس الأطباء علاجه ، وحار فى أمره والداه أشد الحيرة . وأخيرا وصف الواصفون لوالديه رحمة الله عليهما ماء البحر المالح ، وقالوا لهما أنه ينفع طفلهما المريض . فكان أكبر إخوتى يقتادنى كل صباح إلى ساحل البحر من « حى الأنفوشى » فيدفعنى فى الماء إلى حيث تغمر لجته ساقى الناحلتين ، ثم يجعلنى أنضح وجهى بالماء الملح بحيث يتخلل جفونى الرمدة . وربما تجرد هو بعقب ذلك من ثيابه فعبث فى الماء بعد أن يكون قد استكتمنى ذلك عن والدى . وربما قضينا بعد ذلك كله بعض الوقت نعبث بالرمل أو نلتقط من صخور الساحل بعض ما علق بها من الأصداف .

ثم تأذن الله بذهاب المرض عنى وعود الصحة إلى . ولست أشك فى أن الفضل فى ذلك يرجع إلى ماء البحر ، وهوائه ، وشمسه ، وإلى الحرية التى كنت أنعم بها على ساحله . ومهما يكن من الأمر فقد نشأت على حب البحر ؛ وأعتقاد أنى مدين له فى صحتى وعافيتى وحياتى كلها . وهما حب واعتقاد لم تزدهما الأيام إلا رسوخا فى نفسى وتمكنا من قلبى .

***

---

(١) مجلة الرابطة العربية ، العدد ١٢١ ، اكتوبر ١٦٣٨ .

ودارت الأيام ، فإذا أنا تلميذ بمدرسة رأس التين ، أغدو إليها كل صباح وأروح منها كل مساء . فكنت أجعل طريق غدوى إليها ورواحى منها على البحر ، لا أكاد أعدل عنه إلا مضطرا وإن أنس لا أنس ما كانت تجتلى عيناى فى تلك الأيام من البحر فى مختلف حالاته وتنوع منظره فتارة هو ساج ساكن كصفحة المرآة ، وتارة هو هائج مضطرب يرمى بموج كالجبال ، وأخرى هو بين بين ، فليس بالساكن الساجى ولا الهائج المضطرب . ولقد كان البحر فى تلك الأيام يهدى بتعدد صوره وتنوع منظره إلى فكرى الغض وخيالى الناشىء ضروبا من معانى الروعة ، والقوة ، والحركة ، واللانهائية .

كان مبلغ حظى من البحر فى ذلك العهد أن أسير وساحله ، وأن أنعم بالنظر إليه ، لا أتجاوز منه غير ذلك . فقد كان أبواى يحذرانى الدنو منه فضلا عن التورط فى لجته . وكانا يلقيان فى روعى أن فى البحر كائنات مخيفة تختطف الأطفال الذين يجرءون على نزوله . فلما ترعرعت بعض الشيء كانا يقصان على نبأ التيارات الخفيـة التى تذهب بالأولاد المجازفين إلى حيث لا يعودون .

ولم يكن يعمر ساحل البحر فى ذلك الزمان إلا طوائف من الناس يعملون فى البحر ، من سفانى السفن ، وصيادى السمك ، ونساجى شباك الصيد ، وإلا أوزاع من الشبان العاطلين من العمل ، يغشون ساحل البحر لتزجية الوقت ، أو للتشاجر على عادتهم أيامئذ ضربا « بالبونيات والروسيات » وتطاعنا بالمدى والسكاكين أحياناً .

* * *

ثم دارت الأيام دورة أخرى ، فإذا بى قد أتممت دراستى ، وبلغت مبلغ الرجال ، وارتفعت عنى رقابة والدى ، وإذا بسواحل الاسكندرية قد قامت على

حافاتها المصايف والحمامات والملاهى والمقاهى .

وكنت لما قدمت من الأسباب لم أتعلم السباحة بعد . فوطنت النفس على استدراك ما فاتنى من ذلك زمن الطفولة . وأردت الإستعانة فيما قصدت بكتاب انجليزى فى فن السباحة ، ولكن الكتاب لم يسعفنى، فاستعنت بصديق كريم عليم بذلك الفن . وما هى إلا أسابيع معدودة حتى حذقت أن أمسك جسمى فوق سطح الماء ، ثم أن أحرك أطرافى جيئة وذهابا ، ثم أن أقذف بنفسى فى الماء من عل ، وأن أغوص تحت لجته أخيرا . ومن ذلك الوقت صار البحر متعة نفسى وبهجة قلبى وبخاصة زمن الصيف . فكنت أغشى الحمامات مقيدها ومطلقها . ففى الحمامات المقيدة حيث لا يباح اختلاط الجنسين فى مكان واحد كنت أعنى بتقوية جسمى وتقويمه ، وتشذيبه وتهذيبه ، عملا بالحكمة الفرنسية القائلة إن كل مجهود ينفقه الشاب فى تقوية جسمه يكسبه قوة أدبية . وفى الحمامات المطلقة حيث يباح استحمام الجنسين فى مكان واحد كنت أروض عينى على تعرف مواقع الحسن والقبح من جسم الإنسان . وكان رائدى فى ذلك ما لقفته إبان الدراسة من كتب الفن والأدب . فكنت وأصدقائى عند كل مناسبة نتمثل شيئا مما أثر فى الغزل والنسيب عن امرىء القيس ، وابن أبى ربيعة ، وأبى تمام ، والبحترى وغيرهم . وقد نتذاكر آلهة الجمال عند اليونان والرومان ، وتماثيل فدياس وشخصيات شكسبير ، وصور ميشيل انجلو وغيره من أئمة الفنانين .

والحق أنى لم أدرك إلا على ساحل بحر الروم جمال الجسم الإنسانى الذى هو أصل الفنون وملهمها وموحيها ، وبدايتها ومنتهاها .

* * *

ثم مضت أيام ، وتقضت أعوام ، فإذا بي أعلم فى بعض الجامعات ، وإذا بي زوج ورب بنين وبنات . وإذا العاطفة المشبوبة قد هدأت ، والعين الخائنة قد ارعوت ، وإذا العقل هو الآخذ بالزمام ، وعليه المعول وإليه الاحتكام .

جلست فى يوم من أخريات صيف هـذا العام على سيف البحر من رمل الاسكندرية . فلم يستهونى هذه المرة ما كان يستهوينى من قبل ، من جسوم شبه عاريات كالدمى ، مرموقات كالمنى ، آنا تصافح الموج وتلاعبه ، وآنا تخوضه وتخالطه . وطوراً ينتظمها الرمل ، فلولا الحياة لخلتها تماثيل من عاج مكفوءة ، وطورا يتوزعها الصخر ، فكأنما هى قطع الرياض الممطورة ، وآناً هن بين الحالين ، يخطرن رائحات غاديات ، آنسات نافرات ، قريبات بعيدات .

كلا ! ولم تأخذنى هـذه المرة روعة البحر ، وهو الذى طالما فتنت روعته خاطرى وسحرت لبى ، والذى له على من الفضل ما أنا عاجز عن شكر بعضه فكيف بشكره كله ! وإنما عرانى ما يعرو الأساتذة المحنكين ، وإن شئت فقل الكهول المجربين ، من ميل إلى التفكير ونزوع إليه عند كل مناسبة وحين لا مناسبة . فذهبت أفكر كأنما أنا وحدى بذلك الساحل ، وكأنما الساحل قد خلا من أسباب الفتنة ودواعى الهوى .

سبحانك اللهم ! هذا بحر الروم مهد الملاحة عند آبائنا الأولين . هذا بحر الروم الذى قامت حوله حضارة مصر ، وبابل ، وفينيقية ، واليونان ، والرومان ، والعرب ، وهى الحضارة التى ترتكز عليها حضارة العالم الحديث وإن جحد الخالف فضل السالف . هذا بحر الروم أجل بحار الأرض شأنا وأبعدها أثرا فى التاريخ ، قديمه ، ووسيطه ، وحديثه ، ومعاصره .

هذا البحر يقال إن مصر تملك من سواحله ما يقدر ذرعه بمئات الأميال ،

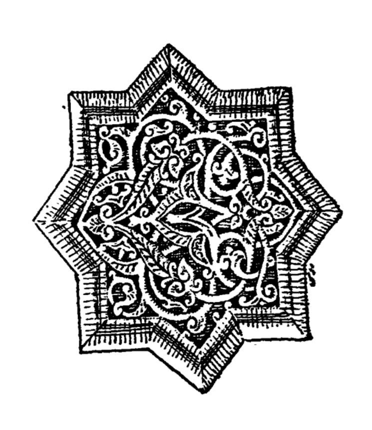
ومع ذلك فليس لها فيه سفن تجارية تحملها زمن السلم، ولا أسطول حربي ينافح عنها إذا جد الجد، وعظم الخطب .

ولا يظن ظان أن تلك الحال طبيعيـــة ، بل هي مقصودة متعمدة . فإن البحر باب عظمة الأمم وطريقها ، وما من أمة عظم شأنها وعلا نجمها إلا كان البحر سلمها إلى المجد وسبيلها إلى النبـوغ . وحذاق المؤرخين يرون البحر قسيم البر في تنشئة الدول ورفع عمادها . ولئن خفيت تلك الحقيقة على محدثي المشارقة فقد أدركها مستعمرو بلادهم فحرصوا على أن تـكون مفاتيـح الشرق بأيديهم ، وتركوا لأهل البلاد ما وراء ذلك من رمال يتمرغون عليها وأوحال يضطربون فيها . وإن نظرة عجلى يلقيها القارىء على خريطة الشرق لـكفيلة بأن تثبت له صحة هذه الدعوى . فما من مرفأ منيع ولا مرسى أمين ، من لدن طنجة بأقصى المغرب إلى سواحل الصين بأقصى المشرق ، إلا وهو بأيدى المستعمرين الغاصـبين .

لقد غدوت يابحر الروم لا تقترن في أذهان شبابنا إلا بذكـر الحمامات والملاهي ، والمصـايف والمقـاهي ! فمتى ياترى تصبـح مقترنا بذكر الأسفـار الطـوال ، والوقائع الجسام ، إن كان ولا بد من وقائع جسـام ؟ متى تضعـون أيهـا المصريون أيديكم على سواحلـكم حقا وتستغلونهـا حقـا ، فتصبحوا أمة ملاحين ، إلى جانب كونـكم أمة فلاحـين ؟ لقد استرهنكم المستعمر الأرض ووضع في أعناقكم أغلالا وفي أقدامكم قيودا . ولا خلاص لـكم من ذلك الرق المضروب عليـكم إلا بركوب متن البحـار . هنـالك تنشقون فوق ثبج المـاء ريح الحرية الصحيحة ، وتبرأون من علل وأدواء أورثكموها لزوم البر أحقابا طوالا ، هنالك تنبعث مصر الحرة حقا ، مصر الحديثة حقا ، مصر العظيمة حقا .

ولقد كنت أسترسل فى تفكيرى هذا لولا أن قطعه على ابنى الصغير بقوله : لقد ابترد الجو ، وكادت الشمس تغرب . فهيا إلى المنزل ! وانتبهت ، فإذا الافق الغربى قد أحالته الشمس الغاربة لهبا مضطرما ، وإذا الأفق الشرقى قـــد أخذ يتلفف فى غلالة سوداء . ثم جعلت ظلمة المشرق تشتد وتمتد حتى استحال الأفق كله ظلاما فى ظلام . وتألف من ظلام الجو وهدير البحر منظر يبعث فى النفوس الوحشة والرهبـة . هنالك نهضت فاقتـدت أولادى نحو المنزل وأنا أردد قول القائل :

للدهر لو كنت تدرى هول منطقه لحن تردده الآصال والبكر



شعراؤنا وسيدنا عثمان [1]

أبت الأقدار إلا أن يشقى بالخلافة سيدنا عثمان فى حياته وأن تشقى بها ذكراه بعد مماته. فقد تولى الخلافة بعد عظيم من عظماء الأمة العربية فاستقامت له الأمور ست سنين ثم اضطرب بحر السياسة وهبت أعاصير الفتنة من كل جانب، فلبث يغالبها وتغالبه ست سنين أخرى، ثم طأطأ لها من هامته ومضى مقتولا شهيدا، فكان أول خليفة سفك دمه جهارا، وانصدع بمقتله شمل الأمة الإسلامية انصداعا لم يلتئم حتى يومنا هذا.

عابوا عليه لينه وإيثاره مع هنات أخر، ولو أنصفوا لعدوا عثمان من أولئك الرجال الذين لطف مزاجهم الأخلاقى وترقرق ماء الحياء فى وجوههم وأصبحوا بعيدين عما تتطلبه مآزق السياسة ومحرجاتها من جراءة وإقدام. وإن كان لين الرجل لم يكن عن جبن فى النفس وخور فى الطبيعة: فقد نصر النبى فى كثير من المواقف الحرجة وثبت يوم الدار والموت يتوثب عليه من كل جانب وما رعدت له فريصة ولا اضطرب له جنان.

فلما مضى لسبيله كان خلفه بطلا من أبطال العرب ذا فصاحة وشيعة تتعصب له وتنمى على مخالفيه. والناس عامة يتعجبون بالمتهجمين من الساسة والمشهورين من أبطال الحروب ومساعير القتال ويتشوقون سماع أخبارهم وقراءة سيرهم، ولكنهم لا يحرصون كثيرا على مطالعة سير الأنبياء والقديسين والعلماء

(١) السفور، العدد ١٧٦، ٣١ اكتوبر سنة ١٩١٨.

والأخلاقيين وكأن ذلك نزوع منهم إلى معيشة آبائهم الأولين أيام كان للشجاعة الطبيعية الشأن الأكبر فى حياة الإنسان .

من أجل ذلك نرى أن عثمان الحيي الوجه، الرقيق الطبع، الدمث الخلق، قد أصبح بينه وبين سابقه ولاحقه تباين فى نظر الجمهور كبير . فلا هو فى شدة عمر وصرامته ، ولا هو فى جراءة على وإقدامه، فكان كواد بين جبلين تتخطاه أنظار المتحمسين من المؤرخين، كما تتخطاه أنظار المتحمسين من شعرائنا . وإن كان واديا يجرى فيه الماء العذب وينبت على جانبيه غض الزهر ويانع الثمر .

قرأنا « البردة » و « نهج البردة » و « كشف الغمة » و « العمرية » و « البكرية » ولبثنا حينا نتوقع قراءة « العثمانية » فإذا بنا فى شهر وبعض شهر نقرأ ثلاث « علويات » طوال ، فعجبنا من متابعة شعرائنا للرأى العام حتى فى اختيار الموضوعات الشعرية .

إذا كان التاريخ يخطىء عثمان فإن الشعر يعطف عليه العطف كله . وإذا كان المؤرخ يستخلص العبرة من عصر عثمان فإن الشاعر يجد فيه كثيرا مما يهمه خاصة من محرك للعواطف ومستفز للقلوب؛ ولعلنا لا نجد فى التاريخ كله موضوعا أروع وأدعى إلى أن يكتب فيه الشاعر الفلسفى والكاتب التمثيلى والعالم الإجتماعى من موضوع الثورة التى انتهت بمقتل عثمان بن عفان . ولو لنا ارتجعنا الأيام الخوالى وألقينا نظرة تنفذ قلوب الناس أيام تلك الثورة وتستقرىء وحى غرائزهم لرأينا منظرا عجبا :-

فهذه روح الجاهلية الأولى، روح الخلاف والشقاق، ترفع من رأسها مناهضة روح الدين الجديد، روح التضامن والاتحاد . وهذا الباطل يتغلب حينا على الحق. وتنجم رؤوس الفتنة فى الكوفة والبصرة ومصر، ثم تندفع من هذه النواحى

الثلاث شطر حاضرة الخلافة فتستحكم حلقتها بالمدينة حول دار عثمان . وهذا التخاذل يدب إلى قلوب النصراء كما يؤلف التناصر بين قلوب الاعداء . وهذا عثمان نفسه يطل على الثوار وينصح لهم، ولكن أنى لصوته الخافت الضعيف أن يعلو ضوضاء الجماهير وقعقعة السلاح . ثم يشتد الخطب ويعظم البلاء ويمنع خليفة الإسلام الماء . ولكن القوم الذين بلغوا من التدنى والنذالة مكانا قصيا أبوا إلا أن يذهبوا إلى أبعد منه . لقد اشتمت الذئاب الضارية ريح فريستها وهيهات أن تنصرف أو تلغ فى دمها وتطعم من لحمها . هاهم أولاء يحرق بعضهم على عثمان باب داره، فى حين أن بعضا آخر يتسور الجدران ويقتحم الدار . وماذا يرون ؟ يا لله ! يرون شيخا فات السبعين من عمره ، أعزل من السلاح قد انتحى مكانا من غرفته الهادئة يقرأ القرآن ، وبالقرب منه زوجه « نائلة بنت الفرافصة » تؤازره فى بلواه . فما يتخشع المجرمون لذلك المنظر الساذج المهيب ، بل يتقدمون إليه بأقدام ثابتة ويعملون فيه سلاحهم . حتى إذا همت الزوجة البارة بالذود عن زوجها لم يتحرج أحدهم أن ينفح يدها بالسيف نفحة أطنت أصابعها . وهكذا احتسى القوم كأس النذالة حتى الصبابة . ثم آبوا شر مآب؛ على أن الرواية لم تتم فصولا : فالحروب الطاحنة التى انتشبت بعد بين المسلمين إنما كانت انتقاما عدلا للخليفة المظلوم . لقد تفرقت جماعة الأمة ، ويد الله إنما تكون مع الجماعة ما دامت مجتمعة ، فإذا تفرقت فيد الله عليها تذيقها وبال تفرقها .

تلك عظة بالغة ومجال للشعر قد لا نجد له مثيلا غير مقتل يوليوس قيصر فى الزمن القديم ، ومقتل قيصر روسيا فى أعماق سيبيريا فى أيامنا هذه ؟

أبو ذر الغفارى(١)

العربى القديم من أبسط الناس طبيعة ، وأوضحهم سريرة ، وأصرحهم لسانا ، وأشدهم استمساكا بما يراه الحق ، وأعظمهم حمية أن يجرى عليه ذل أو ضيم . ثم هو من أكثر الناس قناعة ، وأرضاهم من حطام الدنيا بالكفاف.

ذلك الخلق ، الذى قد لا ترضى عن بعض نواحيه النظريات الأخلاقية الحديثة ، يرجع إلى البيئة الطبيعية والاجتماعية التى نشأ العربى فى حجرها وصيغ على مثالها . فالبادية محدودة الحاجة ، ونظام القبيلة الاجتماعى إنما هو نظام الأسرة مكبرا . وكم للناس من فضائل هى وليدة بيئتهم ، وإن شئت فقل : كم من فضائل الناس ما هو مرزوق غير مجلوب ، وموهوب غير مكسوب .

ولقد جاء الدين الإسلامى مطبوعا فى جملته بالطابع العربى ، موسوما بسمته ، قد سلك إلى الحقيقتين الدينية والإجتماعية أقرب السبل ، وعبر عنهما أوجز تعبير وأبلغه . فهو من ناحية يأمر بالتوحيد المحض ، ومن ناحية أخرى يأمر بالتسوية بين الناس فى الحقوق العامة ، وبالأخذ من الدنيا بحساب .

ولكن شاء الله أن ينبعث العرب من جزيرتهم غزاة فاتحين ، وأن يحروا مواريث أمم التبس عليها أمر الحقيقتين المذكورتين ، فلم يلبث العرب أن تأثروا بتلك الأمم وانتقلت إليها أدواؤها وأصابهم ما أصابها من لبس واضطراب . فأما الحقيقة الدينية السهلة فقد صيرها غلاة الفقهاء والمتكلمين ، وأهل الأهواء

---

(١) الرسالة ، أول فبراير سنة ١٩٣٣ .

والنحل ، أمرا صعبا مستصعبا ، له ظاهر وباطن ، وقريب وبعيد .

ليس من موضوعنا أن نفيض فيما طرأ على الحقيقة الدينية فى صدر الإسلام ، ولكن موضوعنا مقصور على ما عرى الحقيقة الإجتماعية فنقول إن هذه أيضا قد ضل عنها رجال السياسة ضلالا بعيدا . فأفسدوا بضلالهم النفس العربية الساذجة ، وأبدلوها بالزهد فى الدنيا شغفا بها ، وتهالكا عليها . نعم إن أبا بكر وعمر أنفقا جهدا غير يسير فى سد ذرائع هذا الخطر ، وبدءا فى ذلك بأنفسهما . فكانا مضرب المثل فى القناعة والزهد وخشونة العيش . وحاول ثانيهما أن يحمل الناس على القصد والاعتدال ، فلم يقسم بينهم الأرض المفتوحة عنوة ، ثم زاد فمنع قريشا من الخروج إلى البلدان المفتوحة إلا بإذن وإلى أجل. فلما شكوه خطبهم خطبة قال فيها تلك المقالة التى تفيض قوة وتصميما :.. ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات من دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ! إنى قائم دون شعب الحرة فآخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار . فلما ذهب عمر لسبيله وولى عثمان تنفست قريش وسرى عنها، وأقبلت تستغل لين ذى النورين وحياءه الجم ، فانطلقت إلى الأمصار تقتنى المال الوافر والعقار الواسع والإقطاعات المترامية على ضفاف دجلة والفرات والنيل، وتتملك أرضا هى بحكم نظام عمر وقف على عامة المسلمين يشتركون جميعا فى غلته . فأثرت قريش وربلت ، وصارت إلى رفاغة عيش لم تلمها من قبل بخيال. يحدثنا أبو الحسن المسعودى فيقول: « وفى أيام عثمان أقتنى جماعة من أصحاب النبى الضياع والدور ، منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة وهى المعروفة فى هذا الوقت ... وابتنى أيضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية ، وما علم من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين

ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة وخططا بحيث ذكرنا من الأمصار . وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمى ، ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت، المعروفة بالكناسة بدار الطلحتين؛ وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك (!) وبناحية سراه (؟) أكثر مما ذكرنا ، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج ؛ وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهرى ابتنى داره ووسعها، وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ؛ وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ما له أربعة وثمانين ألفا . وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار . وابتنى المقداد داره بالمدينة فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك » . ثم يقول المسعودى « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال فى أيامه ، ولم يكن مثل ذلك فى أيام عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة » .

مهما يكن من المبالغة فى هذا النص فهو لا ريب يشير إلى حال كانت لا بد مثيرة لمعارضة جادة غير هازلة ، فالعهد بصاحب الشريعة الإسلامية وبالشيخين كان لا يزال قريبا ، ومبادىء الإسلام الديمقراطية لم تنمح بعد من الأذهان ، وقد وجد نوعان من المعارضة لهذه الحال: نوع يستند إلى العنف والقوة المادية، وكان بالأمصار الكبرى حيث الجند الذين شادوا الدولة بسيوفهم والذين أصبحوا يرون قريشا استأثرت بحقهم فى الفىء ، وبلسان هؤلاء يقول شاعر

من أهل الكوفة :ـ

يلينا من قريش كل عام أمير محدث أو مستشار
لنا نار نخوفها فنخشى وليس لهم فلا يخشون نار

ومن هذا القبيل معارضة أهل المدينة . ولكنها كانت ذات صوت خافت مجمج، لأن المدينة لم تعد محل القوة المادية فى الدولة العربية، فقد خلفتها فى ذلك الأمصار المذكورة . والحق أن الأوس والخزرج قد أدوا الواجب الذى من أجله لقبوا « بالأنصار» ثم أخذ نجم مجدهم السياسى فى الأفول .

وأما النوع الآخر من المعارضه فكان يستند إلى الدليل الشرعى وإلى مبدأ الحق والعدالة . وهذا كان يحمل لواءه عاليا رجل قوال اللسان ، ثبت الجنان صريح فى الحق كل الصراحة : ذلك أبو ذر الغفارى .

* * *

كانت غفار من القبائل الضاربة بين المدينة ومكة ، وكانت فى الجاهلية تحترف قطع الطريق واعتراض القوافل التى تمر من أرضها . وهى حرفة لم يكن بها بأس فى عرف ذلك الزمان . فنشأ أبو ذر نشأة أعرابية ، واتصف بما يتصف به الأعراب عادة من صدق اللهجة وصراحة القول ، ومرن على حياة البادية بما فيها من خشونة وسذاجة . ويقال إنه بقوة عقله وصفاء ذهنه أدرك ما عليه قومه من فساد العقيدة فاطرح الأوثان ووحد الإله ، وذلك قبل أن يبعث النبي ﷺ بثلاث سنين . فلما نبىء عليه السلام وبلغت أبا ذر دعوته ، وجد مشاكلة قوية بين هذه الدعوة وبين ما كانت نفسه اطمأنت إليه من قبل ، فرحل إليه من فوره وما هو إلا أن لقيه وسمع منه القرآن حتى أسلم ، وكان خامس خمسة هم الجماعة الإسلامية وقتئذ . ولقد أبى إلا أن يجهر فى مكة بدينه الجديد

فتعمدته قريش بالأذى، ثم ذكرت أنه من قوم تمر عيرها من أرضهم، فكفت عنه.

وعاد أبو ذر بعد ذلك إلى البادية فدعا قومه إلى الإسلام فأسلم بعضهم، ثم أسلم سائرهم عندما هاجر الرسول إلى المدينة. وبذلك أصبحت غفار من القبائل التي ظاهرت الرسول فى محاربته قريشا. وقد لبث أبو ذر فى قومه إلى أن تمت الهجرة وانقضت أيام بدر وأحد والخندق، ثم قدم المدينة وخرج مع الرسول فى غزوة تبوك، ولزم صحبته إلى أن توفى عليه السلام فكان بذلك من أكبر رواة الحديث.

وقد وردت أحاديث تشير إلى أخلاق أبي ذر: فيروى أن النبي سمعه يقول لآخر «يابن الأمة» فقال عليه السلام «ماذهبت عنك أعرابيتك بعد» وتخلفت بأبى ذر راحلته عن الجيش فى غزوة تبوك فتركها وأدرك الجيش ماشيا وحده. فقال الرسول «يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده» وورد فيه أيضا «ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر».

وأقام أبو ذر بعد وفاة الرسول بالمدينة، فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ألحقه عمر فى العطاء بأهل بدر تشريفا لقدره وإن لم يكن منهم، ففرض له خمسة آلاف درهم فى السنة. ثم خرج إلى الشام وغزا مع معاويه أرض الروم سنة ٢٣ هـ وجزيرة قبرص سنة ٢٧ هـ.

* * *

فلما وقف تيار الفتوح العربية منتصف خلافة عثمان أقام أبو ذر بالشام فرأى ما آل اليه المسلمون من الحال التى سبق وصفها: رأى رجال الدولة تسمى الفيء مال الله توصلا بهذه التسمية الخادعة إلى الاستئثار به، أو التصرف

فيه كما يشاءون، ورأى المجتمع قد استحال فريقين متباينين: أغنياء مترفين وفقراء معدمين . فأثارت تلك الحال حفيظة أبي ذر وهو الذي شهد دورة الفلك كاملة، ورأى العرب في جاهليتهم وما صاروا إليه في خلافة عثمان ، فنصب نفسه لمكافحة تلك الحال مهما جر عليه ذلك . وأعلن برنامجه في الإصلاح . فأما الفيء فيجب أن يسمى (مال المسلمين) لا (مال الله) وأما الأغنياء فيجب أن يرد فضل أموالهم على الفقراء ، وذهب أبو ذر إلى أن المسلم « لاينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفعه في سبيل الله أو يعده لكريم » ، أخذ ذلك من ظاهر قوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ، وبذلك البرنامج أصبح أبو ذر داعية اشتراكيا صريحا . وقد شاعت دعوته في فقراء الناس ومحاويجهم فثاروا بالأغنياء وطالبوهم أن يشركوهم في أموالهم ، فتوجه الأغنياء بالشكوى إلى أمير الشام لذلك العهد : معاوية بن أبي سفيان .

أحب معاوية قبل كل شيء أن يختبر صدق أبي ذر فيما يدعو إليه ، فبعث إليه في جنح الليل بألف دينار ، ولما كان الصبح أرسل إليه يستردها بحيلة احتالها ، فوجد أبا ذر قد فرقها كلها ، فعلم معاوية أن الرجل يفعل مايقول . وأقبل يجادله فيما يدعو إليه ، وعلى سبيل الترضية له قبل أن يسمى الفيء (مال المسلمين) بدلا من (مال الله) ، ولكن أبا ذر أصر على أن ينزل الأغنياء عن فضل أموالهم للفقراء ، وعبثا حاول معاوية أن يقنعه بأن الآية التي يستدل بها إنما نزلت في أهل الكتاب وحدهم . وأعيا معاويه أمر أبي ذر ، فجنح إلى أخذه بالشدة ، فنهى الناس عن مجالسته وتهدده بالقتل ، فلما لم يجد كل ذلك رفع أمره إلى عثمان فأمره بإشخاصه إليه ، فأشخصه إليه على شر حال .

لم يكن أبو ذر فى المدينة بأسعد منه فى الشام، فقد حاول عثمان أن يصرفه عن دعوته، ويريه أنه لا يملك أن يجبر الناس على الزهد وعلى أن يؤدوا غير فريضة الزكاة، وأن كل الذى يملك هو أن يدعو المسلمين إلى الاجتهاد والاقتصاد، ولكن أبا ذر كان يريد برنامجه كاملا، وولع به أهل المدينة والتفوا حوله. فرأى عثمان آخرة الأمر أن يحصر الخطر فى أضيق نطاق ممكن، فنفى أبا ذر إلى الربذة، وهى مكان فى البادية ناء عن المدينة؛ والظاهر أن عثمان لم يرد أكثر من إبعاد أبى ذر عن الناس، فالروايات تقول أنه أجرى عليه رزقا يناله كل يوم، وأنه لم يمنعه من الاختلاف إلى المدينة من حين لآخر حتى لا يرتد أعرابيـــا.

لم يكن أبو ذر ثائرا ولكن طالب إصلاح أرتآه. ومما يدل على عـــدم نزوعه إلى الثورة أنه وهو فى منفاه مر به ركب من أهل الكوفة ممن كان منحرفا عن عثمان، فطلبوا إليه أن ينصب راية يلتف حولها كل من كان على شاكلته وشاكلتهم، فأبى ذلك بتاتا ونهاهم عنه. وأما مذهبه فى الإصلاح فلا شك أنه ابن بجدته، فالإسلام لا يحظر الثروة ولا الملكية، ولا يوجب على المسلم حقا فى ماله غير الزكاة، وكل ما ينهى عنه الإسلام فى هذا الصدد إنما هو أن تجعل الثروة غرضا مقصودا لذاته.

وعندى أن حركة أبى ذر الاشتراكية تمت بسبب قوى إلى حركة مزدك الشيوعى الذى ظهر بفارس على عهد قباذ وكسرى أنوشروان، والذى كاد يقلب نظام المجتمع الفارسى رأسا على عقب لولا عزم أنو شروان وحزمه. فإذا عرفنا أن اليمن خضعت لفارس قبيـــل الإسلام، وأن يهوديا من أهل صنعاء يعرف بابن السوداء ادعى الإسلام فى خلافة عثمان وجعل يطوف الأمصار

الإسلامية داعيا إلى الثورة ، وأنه هو الذى حرك أبا ذر لما آنس فيه من الميول الاشتراكية ، إذا عرفنا ذلك كله فقد وضحت الصلة بين الحركة الشيوعية الفارسية القديمة وبين الحركة الاشتراكية التى أوشكت أن تقع فى الدولة الإسلامية على عهد ثالث الخلفاء الراشدين .

* * *

لبث أبو ذر فى منفاه نحو ثلاث سنين يعانى ألم الوحشة وكبر السن وخيبة الأمل ، فلما أدركه الموت فى سنة ٣٢ هـ كانت وفاته مؤثرة ودالة على شدة ثباته على مبدئه حتى النهاية ، وعلى أنه حقا قد مشى وحده ومات وحده ، يروى ابن سعد فى طبقاته أنه عندما حضرت الوفاة أباذر حارت امرأته فى أمرها لتوحدها فى تلك الفلاة ، فكانت تشد إلى كثيب تقوم عليه فتنظر ثم ترجع إليه فتمرضه ثم ترجع إلى الكثيب ، فبينا هى كذلك إذا هى بنفر تخدبهم رواحلهم كأنهم الرخم على رحالهم ، فألاحت بثوبها فأقبلوا حتى وقفوا عليها ، قالوا مالك ؟ قالت أمرؤ من المسلمين يموت تكفنونه . قالوا ومن هو ؟ قالت أبو ذر . ففدوه بآبائهم وأمهاتهم ، ووضعوا السياط فى نحورها يستبقون إليه حتى جاءوه . فقال لهم .. لو كان لى ثوب يسعنى كفنا لم أكفن إلا فى ثوب هولى ، أو لامرأتى ثوب يسعنى لم أكفن إلا [illegible] بها ، فأنشدكم الله والإسلام ألا يكفننى رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو نقيبا او بريدا . فكل القوم قد كان قارف شيئا من ذلك إلا فتى من الأنصار قال أنا أكفنك فإنى لم أصب مما ذكرت شيئا ، أكفنك فى ردائى هذا الذى على وفى ثوبين فى عيبتى من غزل أمى حاكتهما لى . قال أنت فكفنى ..... فكان ذلك الفتى الأنصارى هو الذى تولى تجهيزه ، ثم دفنوه جميعا .

وهكذا انطفأ سراج هـــذه الشخصية الفذة العجيبة . إنها لاشك من تلك الشخصيـات التى يقدمها الزمن عادة بين أيدى الأحداث الخطيرة إنذارا للناس وإقامة للحجة عليهم إذا لج بهم الغرور فلم يرعووا ولم يزدجروا .

على أن روح أبى ذر لم يكن ليغيب مع جثمانه فى تلك الفلاة البلقع ، فقـد ظل صوته داويا إلى أن تحقق ما أنذر به المدينة من « غارة شعواء وحرب مذكار » ووقعت الفتنة الكبرى التى يقال إنها انتجت كل فتنـــة حدثت فى الإسلام . ولقد كانت غمار ممن نهض فيها وألقى فى نارها حطبا ؟



العتبات المقدسة[1]

كان يوم الجمعة الماضى من أيام ربيع العراق ، فالجو باسم طلق والهوى ندى رخاء ، وجوانب الأفق كاسية حالية بالماء والخضرة والزهر .

خرجنا فى صبيحة ذلك اليوم لنؤدى واجب الزيارة للعتبات المقدسة بكربلاء والنجف الأشرف . وكنا رفاقا أربعة ، كلهم عارف بشروط الصحبة وأدب الطريق : ثلاثة مصريون وواحد عراقى هو فى الحقيقة داعينا وهادينا فى طريقنا ، هو الشاب الأديب محمد كاشف الغطاء النجفى ، سليل آل كاشف الغطاء الغنيين بفضلهم وإفضالهم عن التنويه والتعريف .

* * *

وانطلقت بنا السيارة تطوى المنازل والمراحل طيا عجيبا ، فكأنما عراها ما عرانا من الشوق والحنين ، فهى تعدو غير متأبية ولا مستعصية ، فأذكرنى أمرها قول الشاعر العربى القديم :

لقد زارنى طيف الخيال فهاجنى   فهل زار هذى الأبل طيف خيال ؟
لعل كراها قد أراها جذابها   ذوائب طلح بالعقيق وضال
تلون زبوراً فى الحنين منزلا   عليهن فيه الصبر غير حلال
وأنشدن من شعر المطايا قصيدة   وأودعتها فى الشوق كل مقال .

---

(١) الغري ، السنة الثالثة العدد ٩٣ . النجف الأشرف ، الثلاثاء ٤ ربيع الثاني سنة ١٣٦١ و ٢١ نيسان سنة ١٩٤٢ .

وإذا بنا فى أقل من ساعتين من الزمان نسير بين صفين من بساتين مونقة متصلة الظلال ، فإذا بنا فى ضواحى كربلاء .

فإذا بنا فى شوارع كربلاء ، فإذا بنا قبالة مسجد الحسين بن على ، عليهما السلام .

كل شىء فى كربلاء فيه مشابه من سيد شباب أهل الجنة : مياه جارية ، ورياض ناضرة ، وبلدة آمنة مطمئنة ، ومسجد خفيف الروح ، وجيران أريحيون كرام ، ولكن ذلك الجمال كله ملفوف فى غلالة سوداء لا تبين إلا لعين الناظر المتوسم ، فإذا تبينتها هاجت به لواعج أسى دفين لم يملك معها حسرة النفس وابتدار الدموع .

* * *

ومال ميزان النهار وأخذت أشعة الشمس الفضية تتحول خيوطا عسجدية اللون زادت معالم كربلاء جمالا كاسفا حزينا . فاستأذنا مضيفينا الكرام فى متابعة السفر إلى النجف الأشرف فأذنوا .

وراحت السيارة تعدو بنا عدو الظليم، فى قفار يابسة جرداء قاحلة ، ليس بها من أنيس سوى الضباب وكأنها ريعت من دبيب السيارة فهى تسرع إلى أجحارها مستعيذة بالله من بغى الإنسان وعدوانه. وبينما نحن تتقاذفنا تلك المهامه الفيح إذ رفع لنا على حافة الأفق الجنوبى ما يشبه أن يكون نجما متوقدا ، فسألنا عنه دليلنا الخريت ، فقال : تلكم قبة مسجد الإمام .

وما أسرع ما أسلمتنا البيداء إلى مقبرة النجف الأشرف ، فإذا نحن عند ربوة عالية يقوم عليها مسجد أمير المؤمنين وضريحه وقبته المذهبة الذاهبة فى السماء . هنالك ترجلنا وسعينا على الأقدام إلى المسجد، فدخلناه مخبتين خاشعين .

« السلام عليك أبا حسن ! طبت حيا وميتا ! أما والله لست أعلم ميتا غيرك لم تنل يد الموت من شمائله ونفحاته قليلا ولا كثيرا ! ها أنت ذا منفرد وحيد بذلك الفقر ، ولقد كنت كذلك منفردا وحيدا فى حياتك، شأن كل قوال للحق عمال به فى هذه الدنيا ! ها أنت ذى على تلك الربوة عال على لحظ العيون ، كذلك كنت فى حياتك عاليا بإيمانك وتقاك وزهدك على نقد الناقدين وتنقص المتنقصين ! وها هى ذا رياض الفرات وغياضه تتراءى لك من بعيد كما كانت الدنيا تتراءى لك بزخرفها وبهرجها، وها أنت ذا كأنك تصدها كما كنت تفعل قائلاً : يا دنيا غرى غيرى ! وها هى ذى نفائس الأعلاق وكرائم الأموال قد سيقت إليك وكدست عند قدميك تقدمة لك من مواليك ومحبيك ، وها أنت ذا كأنك تنحيها عنك بلطف وتقول كما قلت يوم دخلت بيت المال : ياصفراء ويا بيضاء غرى غيرى ! وها هى ذى جموع الوافدين حولك كأنهم ينصتون إلى خطبة من خطبك الجليلة الرائعة . وكأنما أنت تخطبهم كما كنت تخطب فى الحياة لك فتدمى القلوب وتبكى العيون . وحتى علمت وفصاحتك وجودك ولطفك لم تزل منها أثارة فى جيرانك الأحياء الذين اختاروا جوارك والنزول فى رحابك .

وانتبهت من أحلامى على دعوات الداعين وحفاوة المحتفين من أهل النجف الأشرف، فخرجنا من حضرة أمير المؤمنين، وما زلنا ننعم بلطف أهل النجف ونقتبس من علمهم وأدبهم حتى لم يبق من الليل إلا قليل .

* * *

وانحدرنا فى الصباح إلى الكوفة فوقفنا على ديارها البلاقع وأطلالها

الدوائر فتلوت قوله تعالى « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » .

* * *

وبرحنا الكوفة نريد بغداد ، فلم نعرج فى طريقنا اليها إلا على الحلة الفيحاء، تلبية منا لدعوة فاضل من فضلائها أبى إلا أن نطعم من زاده، ثم استأنفنا السفر فبلغنا بغداد وقت الغروب فألفيناها كعهدنا بها : هائجة مائجة ، ساحرة فاتنة ، فقلت لأصحابى : رجعنا إلى الدنيا ؟

بغداد فى ١٦ نيسان سنة ١٩٤٢



الأب لامانس[1]

والحكومة الإسلامية الأولى

إن الأيام بل الساعات القلائل التي مرت بالمسلمين عقب وفاة النبي ، عليه السلام ، هي لا شك أدق ظرف مر بهم في تاريخهم ، على كثرة ما شهد ذلك التاريخ من ظروف دقيقة عصيبة ، ذلك بأنه في تلك الساعات المعدودة كانت الشريعة الإسلامية التي ظل الرسول سنين طويلة يعمل على تثبيت قواعدها وإدخالها على قلوب العرب ، معرضة لأشد الاخطار، كما كانت الوحدة السياسية التي قضى النبي طوال العصر المدني من حياته يعمل على تكوينها وإحكامها ليمكن لدعوته الدينية ، هي أيضا معرضة لخطر التفكك والانتقاض . ولكن ما هي إلا تلك الأيام أو الساعات القلائل حتى نجحت من الضياع قضية الإسلام وقضية الدولة الإسلامية ، وافتتح كل منهما عصرا جديدا لا يزال إلى اليوم إحدى أعاجيب التاريخ ومن دواعي حيرة المؤرخين . تلك الأيام أو الساعات هي التي عبرها المهاجرون والأنصار بسقيفة بني ساعدة بالمدينة والتي اشتد أثناءها الخلاف بين الفريقين حتى خيفت الفتنة ، ثم آل أمرهما جميعا إلى إنتخاب أبي بكر خليفة لرسول الله على المسلمين ، وإلى قيام الخلافة الإسلامية بشكلها الديمقراطي المعروف .

---

(١) الثقافة ، العدد ٨ ، السنة الأولى ٢١ فبراير سنة ١٩٣٩ .

* * *

وبعد فللأب لامانس المستشرق اليسوعى المعروف بسعة اطلاعه على آداب العصر الجاهلى وتاريخ العصر الإسلامى الأول نظرية[1] غريبة تتعلق بشكل الحكومة الإسلامية التى قامت يوم السقيفة واستمرت طوال عهد الشيخين .

فهو يرى أن تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية من طراز النظام الثلاثى المعروف Triumvira فى التاريخ الرومانى فى طور الانتقال من الجمهورية إلى الامبراطورية ، وأن قوام هذه الحكومة ثلاثة من كبار الصحابة : هم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وأن هؤلاء إجتمعت كلمتهم فى أواخر حياة النبى على أن يحتكروا الحكم بعد وفاته عليه السلام ، ويتداولوه واحدا بعد واحد ، وأن اثنتين من أزواج النبى ، هما عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، مهدتا لهم السبيل إلى ذلك ، وأن هذه المؤامرة قد نجحت إلى حد بعيد . إذ أيد عمر وأبو عبيدة أبا بكر يوم السقيفة ، وفاز أبو بكر بالخلافة ، وقد عاونه صاحباه فى الحكم . فكان عمر على القضاء وأبو عبيدة على الفىء . فلما حضرت الوفاة أبا بكر عهد إلى عمر من بعده . ثم إن عمر رشح أبا عبيدة للخلافة من بعده ، بأن ولاه القيادة العليا لجيوش الشام . غير أن أبا عبيدة توفى فى حياة عمر ، فخبط مشروع الحكم الثلاثى ، وكان من وراء ذلك أن رجع المسلمون إلى الشورى التى حرموا منها فى استخلاف أبى بكر وعمر !!

* * *

(١) انظر المجلد الرابع من المجلة المسماة Mélange de la Faculté Orientale Beyrout.

ونحن مع احترامنا لعلم الأب لامانس واطلاعه نقول إن نظريته هذه لا تقوم على أساس تاريخي متين .

أولا — لأن المصادر القديمة الموثوق بها لا تذكر شيئا من هذا القبيل، فالطبري والبلاذري اللذان استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة بقيام الخلافة العربية ، لا يأتيان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية الأب لامانس .

ثانيا — إن الأحاديث التي يستشهد بها الأب لامانس أغلبها من الأحاديث المروية في مناقب الصحابة وخصائصهم. وهذه ينبغي أن تؤخذ بتحفظ تام ، وربما كان من واجب الباحث ألا يستشهد بها في مقام البحث العلمي الصريح ، ذلك بأن معظمها لا شك موضوع ، وأن السبب في وضعه يرجع إلى حالة الأحزاب السياسية إبان العصر الأموي وصدر العصر العباسي .

ثالثا — إن الأب لامانس يهمل كل الإهمال الرواية التي تشير إلى الذهول الذي أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبي ، وقد لحظ صديقنا الدكتور السنهوري بك في كتابه (الخلافة) قيمة هذه الرواية، ولكنه لا يعلق عليها الأهمية التي نعلقها نحن . ولبيان هذه الأهمية نثبت نص الرواية كما ساقها ابن اسحق :

قال ابن اسحق : «قال الزهري وحدثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال لما توفى رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى ، وإن رسول الله ﷺ ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع

موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات ، وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس ، يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة ، ورسول الله ﷺ مسجى فى ناحية البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسو الله ﷺ ، ثم أقبل عليه فقبله . ثم قال : بأبي أنت وأمى ! أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا . قال ثم رد البردة على و. رسول الله ﷺ ، ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك ياعمر أنصت ! وأبي إلا أن يتكلم . فلما رآه أبو بكر لاينصت أقبل على الناس ، فلما سم الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت قال ثم تلا هذه الآية : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجز الله الشاكرين » . قال فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حت تلاها أبو بكر فإنما هى فى أفواههم . قال فقال أبو هريرة : قال عمر : « فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملن رجلاى ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات » .

فالقارىء يرى أن هذه الرواية العالية الإسناد من الأهمية بمكان ، فهى تتعلق بإثبات نص من نصوص القرآن . وهى من أجل ذلك بعيدة عن أن تكون مختلقة ، والمناسبة التى وردت فى صددها لا شك صحيحة .

إذا كيف نوفق بين عمر المؤتمر ، على رأى لامانس ، وعمر الذاهل لموت

الرسول كل هذا الذهول كما تدل الرواية المذكورة ؟

***

وبعد فإن القول بائتمار أبي بكر وعمر قديم غير حديث ، فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكلها التاريخي في صدر الإسلام ، فزعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان ، لا أبا عبيدة كما يرى لامانس ، قد ائتمروا ببني هاشم وغصبوهم حقهم في الخلافة . ولا أدل على حدوث هذا الزعم من شعر السيد الحميري الذي يفيض مدحا لبني هاشم وذما للخلفاء الثلاثة الأوائل . روى صاحب الأغاني[1] قال : جلس المهدي يوما يعطي قريشا صلات لهم وهو ولي عهد ، فبدأ ببني هاشم ثم بسائر قريش ، فجاء السيد فرفع إلى الربيع رقعة مختومة ، وقال إن فيها نصيحة للأمير فأوصلها إليه ، فأوصلها فإذا بها :

قل لابن عباس سمي محمد ... لا تعطين بني عدي درهما
واحرم بني تيم بن مرة إنهم ... شر البرية آخرا ومقدما
إن تعطهم لا يشكروا لك نعمة ... ويكافئوك بأن تذم وتشتما
وإن ائتمنتهم أو استعملتهم ... خانوك واتخذوا خراجك مغنما
ولئن منعتهم لقد بدأوكم ... بالمنع إذ ملكوا وكانوا أظلما
منعوا تراث محمد أعمامه ... وبنيه وابنته عديلة مريما
وتأمروا من غير أن يستخلفوا ... وكفى بما فعلوا هناك مأثما
لم يشكروا لمحمد إنعامه ... أفيشكرون لغيره إن أنعما ؟
والله من عليهمو بمحمد ... وهداهم وكسا الجنوب وأطعما
ثم انبروا لوصيه ووليه ... بالمنكرات فجرعوه العلقما

(١) ج ٧ ص ٩

قال : وهى قصيدة طويلة حذف باقيها لقبح ما فيه . قال : فرمى بها إلى
أبي عبيد الله ثم قال : اقطع العطاء ! فقطعه ، وانصرف الناس ، ودخل السيد
إليه ، فلما رآه ضحك وقال : قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل ! ولم يعطهم شيئاً .

وقال الشهرستاني في الملل والنحل في كلامه على المغيرية إحدى فرق غلاة
الشيعة : إن زعيمها المغيرة بن سعيد العجلي كان يزعم أن أول ما خلق الله هو
ظل محمد وعلي قبل ظلال الكل ، ثم عرض على السموات والأرض أن يحملن
الأمانة ، وهي أن يمنعن علي بن أبي طالب من الإمامة ، فأبين ذلك ، ثم عرض
على الناس ، فأمر عمر بن الخطاب أبا بكر أن يتحمل منعه من ذلك ، وضمن أن
يعينه على الغدر به . على شرط أن يجعل الخلافة له من بعده ، فقبل منه ، وأقدما
على المنع متظاهرين ، فذلك قوله تعالى « وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا »[1]

فالأب لامانس لم يزد على أن أخذ نظر روافض الشيعة وغلاتهم إلى قيام
الخلافة ، وبنى عليها بحثه الخاص بشكل الحكومة الإسلامية الأولى ، وهي بعد
وجهة نظر ليست لها قيمة علمية على الإطلاق ؟

(١) ابن حزم ج ٢ ، ص ١٤ .

زياد بن أبى سفيان[1]

(١)

إذا عد رجال الدولة العربية من أهل السياسية ، كان زياد بن أبى سفيان من غير شك علماً من أعلامهم وقطباً من أقطابهم ، بل لعل زياداً الرجل الوحيد الذى أخذ عن عمر بن الخطاب مبدأ القوة فى غير عنف واللين فى غير ضعف ، وحاول العمل به بقدر ما وسعت ذلك الظروف القاسية التى عاش فيها . وإذا عد رجال الإدارة الذين نقلوا الدولة العربية من حال السذاجة الإدارية التى كانت عليها زمن الخلفاء الأربعة ، وأعطوها طابع الدولة المستقرة المنظمة ، فزياد لايكاد يلحق به رجل آخر فى ذلك المضمار .

* * *

ولد زياد بالطائف فى السنة الأولى للهجرة من أب قرشى هو أبو سفيان على المشهور المتعارف ، ومن أم فارسية الأصل تسمى سمية كانت مولاة الحارث بن كلدة المعروف بطبيب العرب . وتعلم فى كتاب من كتاتيب الطائف القراءة والكتابة والحساب ، فنشأ قارئا كاتبا حاسبا . ثم اعتنق الإسلام فى أغلب الظن عند ماأسلمت ثقيف برمتها فى سنة تسع للهجرة ، وإن كان بعض الروايات يجعل إسلامه سابقاً على ذلك . فلما كانت سنة ١٤ للهجرة ووجه عمر عتبة بن غزوان إلى الأبلة وجنوبى العراق ليكون ردءاً لسعد بن أبى وقاص ، كان الفتى زياد

(١) الثقافة .

فيمن انتدب للخروج معه وكان هو الذى يقسم لهم الغنائم ، وأجروا عليه كل يوم درهمين . ثم ولى لسعد ديوانه فكان هو الذى يكتب الناس ويدونهم، فلما فتحت جلولاء سنة ١٦ بعث سعد بأخماس الغنائم إلى عمر وبعث بالحساب مع زياد وكلفه استئذان الخليفة فى الانسياح فى أرض فارس . فلما قدم الوفد المدينة كلم زياد عمر فيما جاء له ، وأعجب الخليفة الكبير بذكاء الفتى الناشىء وفصاحة لسانه ، وقوة جنانه ، وأحب أن يستزيد من اختباره فسأله : « هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به » . فأجاب الفتى . والله ما على وجه الأرض رجل أهيب فى صدرى منك ، فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك ؟ » فلما كان الغد قام فى الناس فتكلم بما أصابوا من الغنائم وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح فى بلاد فارس، فازداد عمر إعجابا به وقال: « هذا الخطيب المصقع» ولم يكن الإعجاب قاصرا على عمر ، بل لقد أعجب بزياد من سمعه يومئذ من أكابر الصحابة ، فقال عمرو بن العاص : «لو كان هـــذا الفتى من قريش لساق العرب بعصاه!» فيقال إن أبا سفيان همس فى أذنه بقوله إنه هو أبوه الذى ولده حقا . ثم عاد زياد بعقب ذلك إلى العراق . فلما مصرت البصرة سنة ١٦ ﻫ نزلها زياد فيمن نزلها من ثقيف ، واتخذها مقرا مدى حياته بوجه عام . ولما ولى عمر المغيرة بن شعبة على البصرة سنة ١٦ﻫ ورمى المغيرة بما رمى به ، وهم عمر برجمه لم ينجه من الهلاك إلا شهادة شهدها زياد ولم يقطع فيها ، فكانت تلك الشهادة سبباً فى درء الحد عنه . وقد حفظ المغيرة لزياد تلك اليد مدى حياته وانعقدت بينهما من ذلك الوقت أواصر المودة والصداقة .

ولما طعن أهل البصرة على أميرهم ، أبى موسى الأشعرى سنة ٢٣ ، كان مما احتجوا به عليه عند عمر أنه فوض أمر البصرة إلى زياد وهو بعد فتى حدث ،

ليست له سن ولا تجربة ، يريدون زيادا . فرد عليهم أبو موسى بقوله : « إنى وجدت له نبلا ورأيا ، فأسندت اليه عملى ، وقد قبل عمر قول أبى موسى متأثرا لاشك بالصورة التى كانت لزياد فى ذهنه ، ولكنه أحب أن يتحقق بنفسه الإمضار أمر ذلك الشاب فى مدى سبع سنوات ، فأمر أباموسى أن يشخص إليه زياداً . وقدم زياد على عمر قدمته الثانية وقام بباب عمر . فلما خرج عمر وجد شابا حسن الهيئة ، له ذؤابة . وعليه ثياب بيض من كتان ، فابتدره بقوله: ماهذه الثياب ؟ فأخبره زياد . فقال : كم ثمنها ؟ فأخبره زياد بشىء يسير ، وصدقه عمر . ثم قال له : كم عطاؤك ؟ قال : ألفان . قال ما صنعت فى أول عطاء خرج لك ؟ قال : اشتريت والدتى فأعتقتها ، واشتريت بالثانى ربيبى عبيداً فأعتقته . قال الخليفة : وفقت ! ثم اختبر عمر قدرته على الكتابة فأمره أن يكتب فى معنى واحد ثلاثة كتب مختلفة العبارة ، فكتب زياد ثلاثة كتب بليغة أعجب بها عمر ، ثم سأله عن الفرائض والسنن والقرآن فوجده فقيهاً ، فرده إلى البصرة وأمر أمراءها أن يسيروا برأيه . وكذلك لم تخب فراسة عمر فى ذلك الشاب مذ رآه عند قدومه عليه بأخماس جلولاء لسبع سنوات خلت ، ولم تزده الأيام إلا ثقة به واطمئناناً إليه ، كما أن هاتين القدمتين غرست لذلك الخليفة فى قلب زياد إكبارا وتجلة جعلته يرى فيه مثله الأعلى الذى يتأثره ويقتدى به .

ولما شخص عبد الله بن عامر عامل البصرة من قبل عثمان إلى خراسان غازيا سنة ٣١ هـ استخلف على البصرة زياداً ، فقام بأمرها فى غيبته خير قيام على صعوبة حكم ذلك المصر فى تلك الأيام .

فلما اضطربت أمور الدولة الإسلامية بالفتنة التى انتهت بمقتل عثمان ، واستخلف على بن أبى طالب ، وخرج عليه أهل البصرة مع عائشة وطلحة

والزبير ، لم يحرك زياد فى تلك الفتن ساكناً ، ولم يخض فيها مع الخائضين ، ولا ألقى فى نارها حطباً ، بل أعتزل الفريقين كما فعل كثير غيره ، وأقام مستخفيا فى بعض دور البصرة ينتظر عم تنجلى الأمور . ولم يكن أمر زياد خافياً على على ، فإنه بعد أن ظفر بخصومه فى وقعة الجمل سنة ٣٦ وجاءه عبد الرحمن ابن أبى بكرة ، وهو ابن أخى زياد لأمه ، مستأمناً مبايعاً ، قال له على : وأين عمك المتربص المتقاعد بى؟ فقال : والله ياأمير المؤمنين إنه لك لواد . وإنه على مسرتك لحريص ، ولكن بلغنى أنه يشتكى ، أفأعلمك علمه ثم آتيك ؟ وكتم علياً مكانه حتى استأمر زياداً فأمره أن يعلمه بمكانه فأعلمه . فقال على : إمش أمامى فاهدنى إليه ! ففعل . فلما دخل عليه قال: تقاعدت عنى وتربصت! ووضع يده على صدره وقال : هـــذا وجع بين !! فاعتذر إليه زياد ، فقبل عذره . ثم استشاره على وأراده على إمرة البصرة ، فامتنع زياد من قبولها وقال : بل رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس ... وسأكفيه وأشير عليه . وافترقا على عبد الله بن عباس . إلا أن علياً ولى زياداً خراج البصرة وبيت مالها ، وأمر ابن عباس أن يسمع منه .

من ذلك الوقت أصبح زياد من أشد عمال على إخلاصاً له ، وقد لبث على إخلاصه وولائه له إلى أن أنتهت حياة على نفسه . ويتضح هذا الإخلاص فى حادثين وقعا فى ذلك الوقت فى أهم النواحى التابعة لعلى ، فى البصرة وفارس ، وهما يبينان مقدرة زياد ودهاءه وسعة حيلته . أما حادث البصرة فذلك أنه لما قتل محمد بن أبى بكر بمصر سنة ٤٩ هـ واضطرب الأمر على على خرج إليه بالكوفة عبد الله بن عباس بعد أن استخلف زياداً على البصرة . ودهم زيادا غداة رحيل ابن عباس أمر عظيم، فإن معاوية أنفذ إلى البصرة عبد الله بن

الحضرمى ناعياً مقتل عثمان ومحركا لأهل البصرة على على . ونظر زياد فوجد نفسه فى قلة وأن أمر البصرة يوشك أن يذهب من يده . فأعمل الرأى والحيلة ولما كان ابن الحضرمى قد نزل فى بنى تميم فإن زياداً أسرع فنزل ومعه الأموال فى قبيلة الأزد المعادية هى وحليفتها بكر بن وائل لتميم . وكان لنزوله فى الأزد معنى التحرم بالجوار المقدس عند العرب ، فقد تكفلت الأزد بالذود عنه كائنا ما كان الأمر . وكتب زياد إلى على يخبره بالحال ويستمده . فصوب على رأيه وأنفذ اليه مدداً مع جارية بن قدامة السعدى التميمى . وقد استطاع جارية أن يردقومه عن متابعة ابن الحضرمى ثم سار إلى ابن الحضرمى فقضى عليه وعلى أصحابه ، ورجع زياد إلى دار الإمارة موفور النفس والمال .

أما الحادث الآخر فخلاصته أنه عند ما اضطرب الأمر على على طمع الفرس فى استعادة استقلالهم ، فمنعوا الخراج واضطرمت فارس نارا . فأشار ابن عباس على على أن يولى زياداً على فارس وكرمان ففعل . قال الطبرى : «ولما قدم زياد فارس بعث إلى رؤسائها فوعد من نصره ومناه، وخوف قوماً وتوعدهم، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة فقتل بعضهم بعضا. وصفت له فارس ، فلم يلق فيها جمعاً ولا حرباً وفعل مثل ذلك بكرمان . ثم رجع إلى فارس فسار فى كورها ومناهم فسكن الناس إلى ذلك فاستقامت له البلاد ، وأتى اصطخر فنزلها وحصن قلعة بها ... فكانت تسمى قلعة زياد ، فحمل إليها الأموال سنة ٤٠ ﻫ » .

ولقد أثنى عليه الفرس إذ ذاك فقالوا : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى .

والظاهر أن زياداً لم يحصن قلعة اصطخر ويحمل اليها الأموال لمجرد التحصن

فيها من العجم إذا ساوروه مرة أخرى ، بل كان يرى فوق ذلك إلى غرض آخر : لقد رأى بثاقب ذهنه وبعيد نظره أن الصراع العنيف الناشب بين على ومعاوية منته لا محالة بغلبة معاوية ، ورأى فى الوقت نفسه أنه قد سار أمداً بعيداً فى إحفاظ معاوية بأخذه جانب على ، هذا إلى مضاضة كان يحسها فى قرارة نفسه تجعله لايسارع إلى معاوية إذا تم الأمر له . فأولى له أن يحتاط لنفسه إذا ماوقع المحذور ، فيتحصن فى مكانه الحريز وبين أظهر الفرس الذين غدوا معجبين به أيما إعجاب ، ثم يفاوض معاوية وهو فى حصنه ويساومه مساومة الند للند ولا ينزل إليه إلا على شروط يمليها هو عليه .

وقد صدقت فراسة زياد ، ولكن على نحو ما كان يخطر له ببال، ففى عام ٤٠ قتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأصبح زياد ومعاوية فى حقيقة الأمر وجهاً لوجه . وهنا نجد رجلين متعاديين عداء غريباً . كلاهما لم يتعمد جناية على الآخر ، ومع ذلك فسافة الخلف بينهما شديدة البعد . كلاهما بعيد النظر واسع الحيلة عظيم الدهاء ، إلا أن معاوية من غير شك أعظم الرجلين دهاء وأوسعهما حيلة . وكان معاوية بالطبع هو البادىء بفتح باب المفاوضة والمراوضة ، فقد كتب بعد مقتل على إلى زياد يتهدده ويتوعده ، ويعرض فى الوقت نفسه بولادة أبى سفيان له . فلم يسع زياداً إلا أن يكشف له القناع ويصرح له بحقيقة موقفه منه . فقام فى الناس خطيباً فقال : العجب من ابن آكلة الأكباد وكهف النفاق ورئيس الأحزاب ، كتب إلى يتهددنى وبينى وبينه ابنا عم رسول الله فى تسعين ألفاً واضعى سيوفهم على عواتقهم لا ينثنون ، لئن خلص إلى الأمر ليجدنى أحمر ضراباً بالسيف ! . وكذلك أعرض زياد ونأى بجانبه معللا نفسه بأنه لايزال بينه وبين معاوية الحسن بن على وعبد الله بن

عباس . وأتبع وعيده بأن انتقل إلى القامة ومعه الأموال وامتنع بها ، وذلك سنة ٤١ هـ .

ولكن فراسة زياد لم تصدق هذه المرة ، فسرعان ما نزل الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية. وقدم معاوية الكوفة لينهي أمر العراق والمشرق جميعا، وخلا ما بين زياد ومعاوية مرة أخرى . وعاد معاوية يجاذب زيادا الحبل ولكن في غير تهديد ولا وعيد . فكتب إلى زياد يستقدمه ليحاسبه على ما في ذمته من مال الدولة ، وجعل له الخيار بعد ذلك في أن يقيم عنده أو يعود إلى مكانه .

ولكن زياداً أصم سمعه عن تلك الدعوة الخلابة . فلم يسع معاوية عند ذلك إلا أن يلجأ إلى العنف حين لم يجد اللين والرفق ، فأمر بشر بن أرطاة عامله على البصرة بأخذ الأكابر من أولاد زياد وحبسهم ، كما أمر المغيرة بن شعبة ، عامله على الكوفة ، بالشخوص إلى البصرة واستصفاء أموال زياد التي كانت في يد عبد الرحمن بن أبي بكرة ، وتعذيب عبد الرحمن إن امتنع من أدائها . ولكن زيادا لم تلن قناته إزاء هذا الجد من معاوية في أمره . وهم بشر بأن يقتل أبناء زياد فعلا لولا أن تدخل في الأمر أخوه لأمه أبو بكرة ، على ما بينه وبين زياد من جفاء قديم يرجع إلى الشهادة التي شهدها زياد في حادث المغيرة . فقد شفع في أبناء زياد لدى معاوية فشفعه فيهم ، وكتب إلى بشر بأن يخلي سبيلهم .

واهتم معاوية لأمر زياد وضاق به ذرعاً . وبينا الحال كذلك إذا برجل يثق به معاوية ولزياد عنده يد مشكورة ، ومنة مذكورة ، يتطوع للسفارة بين الرجلين ، ويصل ما انقطع بينهما . ذلك الرجل هو المغيرة بن شعبة . قالوا إنه دخل يوماً على معاوية وهو بالكوفة فقال معاوية حين وقع نظره عليه :

إنما موضع سر المرء إن ... باح بالسر أخوه المنتصح
فإذا بحت بسر فإلى ... ناصح يكتمه أو لا تبح

فقال: يا أمير المؤمنين! إن تستودعني تستودع ناصحاً شفيقاً، ورعاً وثيقاً، فما ذاك؟ . قال: قد ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس وامتناعه بها، فلم أنم ليلتي، فأراد المغيرة أن يهون من شأن زياد فقال: مازياد هناك! فقال معاوية: داهية العرب، معه الأموال، متحصن بقلاع فارس، يدبر ويربص الحيل. ما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعاد على الحرب جذعة؟ قال المغيرة. أتأذن لى يا أمير المؤمنين فى إتيانه؟. قال: نعم! فأته وتلطف له!. فأتى المغيرة زياداً وأعلمه بنزول الحسن عن الأمر، وأن الاولى له أن يصل حبله بحبل معاوية. وما زال به حتى جنح زياد إلى السلم، وأخبره بأنه شاخص إلى معاوية.

قدم زياد على معاوية بدمشق فى سنة ٤٢، ورفع اليه حساب فارس، فأحسن معاوية لقاءه وصدق كل ما قال، ثم أنزله الكوفة كما طلب. إلا أنه لم يركن اليه كل الركون فقد كتب إلى المغيرة يأمره بأن يأخذ زيادا ورءوس أصحاب على بالكوفة، كحجر بن عدى الكندى وعمرو بن الحق بحضور صلاة الجماعة، فكانوا يصلونها معه.

بيد أن معاوية كان أدهى من أن يقف فى أمر زياد عند هذا الحد. لقد أراد أن يستخلصه ويجتذبه إلى جانبه جملة، وبذلك يتيسر له الانتفاع بكفايته ومواهبه العظيمة. ورأى أن هذا الأمر لا يتم إلا إذا محا من نفس زياد ما كان يحس من المضاضة، بأن يعلن على رؤوس الأشهاد صحة ما كان يتهامس به الناس من نسبة زياد إلى أبى سفيان. وتفصيل ذلك أن زيادا كان حتى ذلك الوقت لا يعرف له أب على التعين، فبعضهم كان ينسبه إلى عبيد، وهو عبد رومى كان للحارث بن كلدة، وبعضهم ينسبه إلى أبى سفيان، وبعضهم ينسبه إلى أمه

فيقول زياد بن سمية ، وبعضهم يسميه زياد بن أبيه أياكان ذلك الأب . إلا أن ذلك الغموض فى النسب لم يلحق زيادا منه سبة ولا عار ، فقد بلغ أسنى المراتب كما رأينا ، وهذا مما يدل على سماحة السياسة فى ذلك الزمان وسعة أفقها . فما كان من معاوية إلا أن أخذ بإقرار أبى سفيان الذى سبقت الإشارة اليه ، وبشهادة شهود شهدوا ببنوة زياد لأبى سفيان ، وأعلن فى الآفاق أن زياداً أخوه لأبيه.

ولقد أثار معاوية بعمله هـــذا دهشة الرأى العام ، وامتعاض بنى أمية ، وسخط بعض رجال الفقة والحديث ، أمثال ابن عمر وسعيد بن المسيب ، فقد نظروا إلى المسألة نظرة ضيقة ، ورأوا فيها مخالفة لقضاء رسول الله الذى قضى بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر . وغاب عنهم جميعاً أن معاوية إنما طرد فى هذه المسألة التى وقعت وقائعها الأصلية قبل إسلام أبى سفيان ، حكم الاسلام بصحة أنساب الجاهلية الصادرة عن نظمهم فى الزواج ، وإن لم يقر هذه النظم وعدها سفاحا . فكان لمعاوية فى الأمر نظر أوسع من نظرهم وتقدير أبلغ من تقديرهم . أضف إلى ذلك أنه سياسى يتوخى الصالح العام ، وكان الصالح العام يقضى باصطناع تلك الشخصية الفذة والانتفاع بها فى إدارة الدولة .

ولقد كان معاوية مرتاح الفكر والضمير إلى ما عمل ، فعند ما فشت القالة واشتد النكير عليه ، قام فى الناس فقال : « أما والله لقد علمت العرب أنى كنت أعزها فى الجاهلية ، وأن الإسلام لم يزدنى إلا عزا ، وإنى لم أتكثر بزياد من ذلة ولكن عرفت حقا فوضعته موضعه » ألا إن يكن معاوية قد أظهر فى هذه المسألة شيئا ، فقد أظهر شجاعة أدبية نادرة المثال ، وسعة فكر لا يقاس بها ضيق فكر الخليفة المهدى العباسى الذى أمر فى سنة ١٦٠ بإخراج آل زياد من ديوان قريش وردهم إلى ثقيف ؟

زياد بن أبى سفيان[1]

(٢)

كانت دعوة معاوية زيادا فى سنة ٤٤ ، وسرعان ما عرضت الظروف التى رأى معاوية أن ينتفع فيها بكفاية أخيه الجديد ومواهبه . ذلك بأن البصرة قد اختلت أمورها اختلالا كبيرا ، فكثر فى نواحيها عيث الخوارج ، والتلصص وقطع الطرق ، وفشت فى البلد نفسه الآفات التى تلحق الجماعة البدوية متى انتقلت طفرة إلى الحضارة والترف ، فكثر الفسق وشاع الفجور . وزاد الطين بلة تعصب القبائل بعضها على بعض ، مما جعل البلد يحيا حياة جاهلية إلى حد بعيد . ولقد عجز من ولاهم معاوية أمر البصرة عن إصلاح تلك الحال ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى رجل حازم عليم بالسياسة والادارة يضع الأمور فى مواضعها ، ويرد فساد ذلك المصر إلى صلاح . ولم ير معاوية أقدر على الاضطلاع بذلك العبء الجسيم من زياد ، فولاه فى سنة ٤٥ على البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان ، والمراد بالهند هنا ثغر الأبلة وما إليها .

رأى زياد أن الحال تقتضى حزما وعزما وشدة فى بعض المواطن وصرامة ، ولكنه جهد فى أن يعمل بالسياسة العمرية القديمة ، سياسة الشدة فى غير عنف واللين فى غير ضعف ، وإن يكن قد طبقها تطبيقا حرفيا دقيقا فى حالات معدودة قصد الإرهاب وقذف الرعب فى نفوس المفسدين ، وقد وضع لسياسته برنامجا

(١) الثقافة ، العدد ٢٦٠ ، ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

أعلنه فى خطبته البتراء التى خطبها الناس بالمسجد الجامع لأول دخوله البصرة . فقد أعلن عزمه على هدم المواخير ودور الفساد ، فقال : « ما هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل ؟ حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا » . ونهى عن دلج الليل نهياً باتاً ضربا على أيدى المتلصصة وقطاع الطرق من الأعراب ، وذلك فى قوله : « وإياى ودلج الليل فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه » . ونهى عن دعوى الجاهلية منعا لتعصب القبائل بعضها على بعض . « وإياى ودعوى الجاهلية ، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه » ، وأعلن تضامن الناس فى حفظ النظام : « وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم . . . أو تستقيم لى قناتكم » . إلا أن زيادا وإن كان قد شد الوطأة على أصحاب الريب والفساد فإنه سكن خواطر الصلحاء وجهد فى استمالة المنحرفين عنه : « فمن كان محسنا فليزدد إحسانا ، ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته » ، ثم بين لهم حرصه على مصلحتهم : « واعلموا أنى مهما قصرت عنه فإنى لا أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانه ، ولا مجمراً لكم بعثاً . أيها الناس . . عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا »

وكان زياد عند قوله ، فما تعلق عليه أحد بكذبة ، ولقد أنفذ وعيده هذا فى حالات تعد على أصابع اليد الواحدة ، بقصد الإرهاب ، لا حباً فى سفك الدماء . فاستقامت أمور البصرة ؛ ولما تم له ذلك تكلف ضبط الأمر فى نواحيها فاستكفى كل قبيلة من فيها من الخوارج ، فكسر بذلك شرة تلك الفرقة العاتية ،

وعم الأمن أطراف البصرة ونواحيها حتى قال زياد : « لو فقد حبل بينى وبين خراسان لعرفت من أخذه » .

ولقد بلغ من ضبط زياد البصرة وأعمالها أنه لما توفى المغيرة بن شعبة فى سنة ٥٠ لم يتردد معاوية فى ضم إمارة الكوفة وأعمالها إلى زياد .

كان الخطر بالكوفة آتياً لا من قبل أهل الريب والفساد والخوارج وتعصب القبائل كما كانت الحال بالبصرة ، ولكن من قبل الشيعة الذين كانوا لا يعترفون بسلطان معاوية والذين وجدوا فى لعن على على منابرهم فرصة لإعلان معارضتهم وسخطهم ، فكانوا يقابلون ذلك بلعن معاوية وعماله والترحم على أبى تراب ، ولقد رأى معاوية فيهم خطرا جوهريا على حكمه فأمر المغيرة ابن شعبة بمراقبتهم.

وكان المغيرة بن شعبة فى آخريات حياته رجل رفق ولين وإيثار للعافية ، فكان يكتفى من الشيعة بالإخلاد إلى السكون وعدم مخالفة الجماعة ويدعهم بعد ذلك يقولون ماشاءوا . فلما أسندت ولاية الكوفة إلى زياد قدمها ، وشد الوطأة على رؤساء الشيعة : حجر بن عدى وأصحابه . وطوى مابينه وبينهم من صداقة قديمة ، إيثارا منه على عادته لأداء واجبه نحو الحكومة التى يخدمها . ولما أحس منهم المقاومة لسلطانه والمجاهرة بلعن معاوية وعماله والترحم على على ، قبض على حجر بن عدى وبضعة عشر رجلا كانوا زعماءهم ، واستشهد ناساً من وجوه أهل الكوفة على أن حجراً وأصحابه قد خالفوا الجماعة وشقوا عصا الطاعة ، ثم بعث بهم وبالشهادة عليهم إلى معاوية . وهنا يتورط هذا السياسى المحنك فى الأمر ويضيق بهؤلاء النفر حلمه المشهور ، فيأمر بقتل ستة منهم ، فيهم حجر بن عدى ، قتلوا صبراً . بمرج عذراء بظاهر دمشق سنة ٥١ هـ

وهدأت أحوال الكوفة على أثر ذلك إلى حد أن استطاع زياد أن يكتب إلى معاوية يقول : إنى قد ضبطت العراق بشمالى ويمينى فارغة ، يعرض برغبته فى أن تضم إليه اليمامة ، لا الحجاز كما ورد فى بعض الروايات . فضم إليه معاوية اليمامة وما إليها .

ولم تطل حياة زياد بعد هذا الحادث ، فقد أصابه الفالج وتوفى فى رمضان

ذلك تصوير عام لحياة زياد السياسية . ومنه نرى أن زياداً كان سياسيا حازما يعرف مواضع الشدة ومواضع اللين ، ويلبس لكل حال لبوسها ، ويداوى كل داء بدوائه ، وقد أخذ ذلك عن الخليفة الثانى ، وكان يتأثره ويحب سماع الحديث عنه ويعمل بسنته ويقضى بقضائه .

وأيا ماكانت الحال فقد جعل رائده أداء الواجب والإخلاص للمصلحة العامة ، ولا أدل على ذلك من موقفه من معاوية عند ما أراد أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، فقد رأى زياد الأمر جد خطير ، وأن واجبه نحو الإسلام والمسلمين يحتم عليه ألا يعين معاوية على ما يريد ، فكتب إليه كتاباً مؤدباً ينصح له فيه بالتريث وعدم العجلة . وحسب زياد فخراً أن معاوية لم يخط الخطوة الأخيرة فى هذا الأمر إلا بعد موت زياد .

ذلك وجه الحق فى أمر ذلك السياسى الذى عاش فى أيام فتن واضطراب ونقلة من عصر النبوة والخلافة إلى عصر الملك والسياسة : أخذ بالحزم ، وأداء للواجب ، ونصح لولى الأمر . ومع ذلك فثم روايات تصور زياداً طائش السيف ، سفاكا للدماء بغير حق ، فتزعم أنه قتل الأبرياء بالبصرة ، وأنه قطع

أيدى ثمانين أو ثلاثين رجلا حصبوه وهو على المنبر بالكوفة ، وأنه دفن رجلا من أصحاب حجر حيا . إن هذه الروايات وأمثالها متهمة، لأنها صادرة عن رواة الشيعة المنحرفين عن بنى أمية ، ومؤرخى بنى العباس الذين قضوا على الدولة الأموية . وإلا فكيف يتصور أن ينال زياد بإجماع الأخبار رضا الأئمة المهديين عمر وعثمان وعلى ، وثقة عمالهم سعد وأبى موسى وابن عامر وابن عباس ، وإعجاب الفرس وولاءهم ، ثم ينقلب بمجرد وضعه يده فى يد معاوية سفاكا سفاحا ؟ ألا إن سبب الوضع والانتحال أو المبالغة على أقل تقدير واضح فى تلك الروايات من غير مراء .

* * *

وكما كان زياد سياسيا حازما ، فقد كان إداريا بارعا ، لا يكاد يلحق به فى ذلك الميدان من رجال الصدر الأول إلا قليل . والظاهر أنه لقف صناعة الإدارة أثناء عمله بفارس للإمام على ، وذلك بمعاشرته الدهاقين وسماعه أخبار الأكاسرة الأولين . عنى بعمارة فارس والعراق . فأما فارس فقد بلغه أن الساسانيين كانوا يضعون عن الناس كل عشر سنوات خراج سنة فاقتدى بهم فى ذلك ، فعمرت فارس عمارة عظيمة . وأما العراق فعرف من أول الأمر أهمية الرى بالنسبة له ، فحفر عدة أنهار ، منها نهر معقل ونهر الأبلة ونهر دبيس ، وأكثر من الأقطاع وإحياء الموات . قال المدائنى : « وكان يقطع الرجل القطيعة ويدعه سنتين ، فإن عمرها وإلا أخذها منه » .

وقد عمر العراق لعهده عمارة عظيمة . روى البلاذرى أن جباية كور البصرة على عهد زياد بلغت ستين ألف ألف درهم ، كان يرسل منها إلى معاوية أربعة آلاف ألف فقط ، وينفق الباقى فى أعطيات الجند وعامة ضروب الإصلاح .

وبلغت جباية كور الكوفة على عهده أربعين ألف ألف درهم كان يرسل منها إلى معاوية ثلثى مايرسل إليه من جباية البصرة، وينفق ما تبقى فى مختلف شئون الكوفة.

وعنى بأمر الأسواق، فكان يراقب الأسعار مراقبة دقيقة متوخيا مصلحة الجمهور فى ذلك. قال المدائنى: «غلا الطعام على عهد زياد، فدفع إلى التجار مالا فابتاعوا به طعاما؛ وقال زيدوا ربعا ربعا، فلما رخص الطعام ارتجع ماله». وربما تنكر ونزل إلى السوق واختبر الموازين والمكاييل بنفسه، وكان يوقع العقوبة الموجعة بمن يطفف كيلا أو يخسر ميزانا.

وعنى العناية كلها بالشرطة والجند، فاتخذ حرسا مؤلفا من خمسمائة رجل لا يبرحون المسجد، وجعل الشرطة ٤٠٠٠ رجل، وبلغت مقاتلة البصرة فى زمنه ثمانين ألفاً، ومقاتلة الكوفة ستين ألفا. وجعل جند البصرة أخماسا، وجند الكوفة أرباعا، مازجا بين القبائل المتباعدة الأنساب ليؤلف بينها، ويضعف من تعصب بعضها على بعض. وولى على كل خمس أو ربع رجلا من قبل الحكومة بدل سيد القبيلة كما كانت الحال من قبل، ونقل إلى خراسان خمسين ألفا من عرب المصرين، وجعلهم أرباعا على نظام جند الكوفة، فكان ذلك بدء استعمار العرب ذلك الأقليم. وكانت أعطيات الجند وأرزاقهم وأرزاق عيالهم تصرف إليهم من دار الرزق فى مواعيد معينة من السنة، وأكثر ما كان ذلك فى المحرم ورمضان.

روى البلاذرى أن زياداً سأل أحد جلسائه فقال: ألست تعلم أن الأسواق قائمة وأن الأعطيات والأرزاق تخرج إلى شهر معلوم ويبيع البائع إلى شهر معلوم؟ قال: بلى! قال: لله الحمد! لا يزال الناس بخير ما كان أمرهم هكذا.

وكان لزياد شغف بالبناء مع ذوق فيه وحب للنظافة العامة . بنى بالبصرة دار الامارة ، وهدم مسجدها ، وكان من القصب ، ثم وسعه وبناه بالآجر والجص وسقفه بالساج ، ونقل أساطينه من جبل الاهواز ، وأنشأ به المقصورة يدخل إليها من دار الإمارة مباشرة دون أن يتخطى الناس . ويروى أنه حين بنى المسجد ودار الإمارة جعل يطوف فيهما وينظر إلى البناء ثم يقول لمن معه : أترون خللا ؟ فيقولون ما نعلم بناء أحكم منه ! فقال : بلى ، هذه الأساطين التى على كل واحدة منها أربعة عقود ، لو كانت أغلظ من سائر الأساطين : قالوا ولم يؤت من تلك الأساطين قط تصديع ولا عيب . وقد قال شاعر من شعراء ذلك الوقت فى فخامة بناء ذلك المسجد :

بنى زياد لذكر الله مصنعة   من الحجارة لم تعمل من الطين
لولا تعاور أيدى الإنس ترفعها   إذاً لقلنا من أعمال الشياطين

وكذلك وسع مسجد الكوفة واتخذ به مقصورة ، وفرش صحنه وصحن مسجد البصرة بالحصباء حتى لاتترب أيدى المصلين .

وقال المدائنى . كان زياد يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أصحت برفع ما بين يدى فنائه من الطين ، فمن لم يفعل أمر بذلك الطين فألقى فى محلته . ويأخذ الناس بتنظيف طرقهم من القذر والكناسات ، ثم انه أشترى عبيدا ووكلهم بذلك .

وكان زياد يعنى بمظهره الرسمى للخاصة والعامة على السواء . كان يشتو بالبصرة ويصيف بالكوفة ، وكان له مجلس يحضره أشراف المصر يدخلون عليه فيه على السابقة والشرف والحسن ، ويسمرون عنده فيه جالسين على الكراسى ، وهو أول من جلس بين يديه على الكراسى ، وكان لايطعم وحده ولكن مع الصحابة والشرط والمقاتلة ومن حضر ، وكان يغدى الناس ويعشيهم كل يوم إلا

يوم الجمعة فكان يعشيهم فقط ، وكان له قبة يشرف منها على عرض الجند كلما أراد ذلك ، وكان إذا برز من دار الأمارة فني موكب فخم يساير بين يديه بالحراب والأعمدة ، وهو أول من سير بين يديه كذلك .

* * *

ولسيرة زياد الخاصة طرافة وروعة : كان زياد فى صباه حسن الهيئة ، حسن الثياب ذا ذؤابة . وقد وصفه من رآه فى أواخر حياته فقال : رأيته فيه حمرة ، وفى عينه اليمنى انكسار، أبيض اللحية ، مخروطها، عليه قميص مرقوع . وقد أجمع الرواة على أن زيادا كان من أخطب الخطباء ، وأنه كان كاتباً بليغا ومحدثا لبق الحديث. قال الشعبى: « ما رأيت أحداً يتكلم إلا أحببت أن يسكت مخافة أن ينقطع، إلا زياداً فإنه لايخرج من حسن إلا إلى أحسن » . وكان أبا باراً ببناته وأبنائه الكثيرين ، وصديقا وفيا لم يخل بصداقة المغيرة ولا صداقة بدر بن حارثة الغدانى الشاعر ، على قلة كلف زياد بالشعر ، ومع ماعرف به بدر من معاقرة الشراب. وإن يكن قد تنكر لحجر بن عدى فمن أجل الواجب وحده تنكر . وفوق كل شيء فقد كان زياد عفيفاً لم تؤخذ عليه هنة فى حياته الخاصة ، زاهداً فى الدنيا غير حريص عليها . روى الحافظ ابن عساكر فى تاريخه أن زياداً لم يكن من القراء ولا الفقهاء . ولكن كان يعد فى الزهاد . وقال الأصمعى :مكث زياد على العراق تسع سنين لم يضع لبنـة ، ولم يغرس شجرة . يريد أنه لم يختص نفسه ببناء ولا زرع تعففاً وزهدا . وكان يقول : أغبط الناس حالا رجل له دار لايجرى عليه كراؤها وزوجة صالحة قد رضيته ، فهما راضيان بعيشهما ، لا يعرفنا ولا نعرفه .

ولما مات زياد رثاه غير واحد من الشعراء، وقال فيه صديقه بدر ابن حارثة:

صلى الإله على قبر وطهره ... عند الثوية يسفى فوقه المور
أدت إليه قريش نعش سيدها ... فثم كل التقى والبر مقبور
أبا المغيرة والدنيا مغيرة ... وإن من غر بالدنيا لمغرور
قد كان عندك للمعروف معرفة ... وكان عندك للنكراء تنكير
ولا تلين إذا عوسرت معتسرا ... وكل أمرك ما يوسرت تيسير
لم يعرف الناس مذ كفنت سيدهم ... ولم يجل ظلاماً عنهم نور
والناس بعدك قد خفت حلومهم ... كأنما نفخت فيها الأعاصير

قد يقال تلك زفرة صديق محزون لفراق صديقه، ولكن العواطف النبيلة، لا يهيجها عادة إلا ما هو نبيل حقاً.



محمد بن القاسم الثقفي(١)

لو أن من يدرس تاريخ الأمة العربية فتش فى ثنايا التاريخ عن شخصية تتمثل فيها سجايا تلك الأمة الكبيرة وعناصر قوتها لما وجد أجمع لتلك السجايا وهذه العناصر من شخصية الفتى الشهيد والفاتح العظيم ، والشاعر الحساس : محمد بن القاسم الثقفى ، الذى شرع فى غزو السند فى السابعة عشرة من عمره ، وأتمه ولما يتجاوز الثالثة والعشرين ، وأدخل بذلك فى الهند الثقافة الأسلامية التى يدين بها فى الوقت الحاضر زهاء ثمانين مليونا من أهلها . إنها شخصية تجمع إلى فتاء السن حنكة الكهولة ، وإلى خشونة الجندى رقة الشاعر ، وإلى الحرص على الدنيا زهد الفيلسوف وطمأنينة الحكيم .. وكل صفات اتصف بها العرب فى نهضتهم التاريخية الكبرى التى رجت العالم القديم فنبهته من سباته ورسمت للتاريخ مجرى جديدا !

وهو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل الثقفى ، فهو من ثقيف المشهورة فى الجاهلية والإسلام بقوة الدهاء وسعة الحيلة ومضاء العزيمة ، ثم هو بن عم الحجاج ، أمير العراق ورجل الدولة الإسلامية فى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى . يلتقى نسبهما فى الحكم بن أبى عقيل . ولد فى سنة ٧٢هـ ، ونقع الحوادث مثار ، وريح الفتن نكباء ، والسيوف يتجاوب صليلها فى فارس والعراق والحجاز وإفريقية ، فجمل غلامنا يتنفس فى جو مكفهر عابس ، ولقف صناعة الحرب سماعا وعيانا ، ثم شاء ربك رحمة منه بالناس أن يكون إلى جانب

---

(١) الثقافة ، العدد ٨ ، السنة الأولى ٢١ فبراير سنة ١٩٣٩ .

هذه الحياة القلقة المضطربة الخائفة حياة أخرى آمنة هادئة هي: حياة الأدب الذي يتمثل في الشعر الغنائي الرقيق المأثور عن ابن أبي ربيعة، وجميل، وكثير، والنميري وغيرهم من شعراء ذلك الزمان فعشا نظر الفتى الثقفي الحائر إلى ذلك النور المشرق. فجاءه واهتدى به، وهفت نفسه العطشى إلى ذلك المورد العذب فورده وارتوى منه، وبذلك اعتدل مزاجه، ورقت حواشي نفسه، وأصبح وهو في السابعة عشرة من عمره أشرف ثقفي في زمانه كما يقول صاحب الأغاني، وأقبل الحجاج، وهو هو في نقد الرجال وتمييز الكفايات، يعقد به آمالا كباراً، ويرشحه على حداثة سنه للأمر الجليل بعد الأمر الجليل.

* * *

لم يكد ينتصف العقد التاسع من القرن الأول الهجري حتى كانت الفتن التي صدعت وحدة الدولة الإسلامية من بعد معاوية قد ركدت ريحها، فانتهت ثورة ابن الزبير بالحجاز، وكسرت شوكة الخوارج بفارس، وسكنت العاصفة الهوجاء التي أثارها ابن الأشعث بالعراق. هنالك عاود العرب حبهم القديم للفتح والتغلب، وكان الحجاج واضع سياسة ذلك الاتجاه الجديد ومنفذها، فغزا قتيبة بن مسلم ما وراء النهر وأوغل فيها، وتوطد سلطان الدولة ببلاد عمان، وغزا موسى بن نصير المغرب، وقرع أبواب الأندلس نفسها. وقد أراد الحجاج أن تأخذ ثقيف بنصيبها من شرف هذه الفتوح الجسام، فأغزى ابن عمه محمد بن القاسم السند التي هي مدخل ذلك العالم الزاخر بالناس والحافل بالخيرات، والذي يسمى بلاد الهند.

الحق أن الحجاج لم يبتكر سياسة غزو الهند، فقد عرف هذه البلاد عرب شرقي الجزيرة منذ الجاهلية. وطالما ركبوا البحر إلى شواطئها مستبضعين وتجارا.

فلما قامت الدولة الإسلامية طمعوا فى غزوها وتملكها : يروى صاحب فتوح البلدان « إن عمر بن الخطاب ولى عثمان بن أبى العاص الثقفى البحرين وعمان سنة ١٥ هـ فوجه أخاه الحكم إلى البحرين ومضى إلى عمان ، فأقطع جيشا إلى تانة (قريب من موقع بومباى الحاضرة) فلما رجع الجيش كتب الى عمر يعلمه . فكتب إليه عمر : يا أخا ثقيف ! حملت دودا على عود ، وإنى أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم » . وتتابعت غارات عرب البحرين من عبدالقيس وغيرها على شواطىء الهند وجزائرها ، وخاصة جزيرة سيلان التى كان يقال لها اذ ذاك « جزيرة الياقوت » لحسن وجوه نسائها ، فمن هؤلاء العرب من أفلح فى المقام بها ، ومنهم من عاد الى بلاده لهملء يديه السبى الرائع والمغنم الوافر . هذا من ناحية العرب . أما من ناحية الهند أنفسهم فقد « هاجرت منهم فى الجاهلية طوائف إلى رأس الخليج الفارسى وخضعت للدولة الفارسية القديمة ، فلما مصرت البصرة نزلوها وحالفوا من بها من العرب .

فلما كان زمن الحجاج أغزى عماله على مكران ثغر السند، فكلهم كان ينكب أو يقتل . وأرض السند عبارة عن حوض نهر السند العظيم، تنزلها قبائل عديدة قوية نذكر منها الزط والسيابجة والميد والبرهة . وكان بالسند بلدان كثيرة منتشرة فى أهضام الأودية ورءوس الجبال . منها الديبل ، وكانت ثغر السند قبل كراتشى الحاضرة وبرهمناباذ وراور والملتان . وكانت هذه البلدان قوية غنية بمعابدها وخاصة معبد الملتان . قال البلاذرى « وكان بد الملتان تهدى إليه الأموال ، وتنذر له النذور ، ويحج إليه السند ، ويطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبى ﷺ » . أما الناحية السياسية فقد كان يتوزع بلدان السند وقبائلهم عدة ملوك متقاطعى الكلمة مختلفى الأهواء .

وكان أقواهم سلطانا إبان غزو العرب السند ملك يقال له داهر ، فهو الذى أشجى قواد الحجاج وأذاقهم مرارة الهزيمة المرة بعد المرة . والطريف أن مصرع هؤلاء القواد لم يحمل الحجاج على الجد فى قتال داهر بمقدار ما حمله عليه استغاثة امرأة عربية اعتدى عليها، وعلى نسوة عربيات كن معها، بعض قراصين البحر من أهل السند التابعين لداهر .

وذلك أن ملك جزيرة الياقوت فيما يروى البلاذرى ، أراد التقرب من الحجاج، فأهدى اليه نسوة ولدن فى بلاده مسلمات ومات آباؤهن وكانوا تجارا. فعرض للسفينة التى كن فيها قراصين من ميد الديبل فأخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأة منهن من بنى يربوع : ياحجاج! بلغ الحجاج ذلك ، فقال لبيك! وأرسل من فوره إلى داهر يسأله تخلية النسوة . فأجاب بأنه إنما أخذهن لصوص لاقدرة له عليهم . فأغزى الحجاج اثنين من عماله ثغر السند، فكلاهما قتل. فاهتاج الحجاج وتجرد لقتال داهر . وكان قد أعد محمد بن القاسم لغزو الرى فلما حدث ما حدث على حدود السند رأى فى هذا الشاب من يرأب الصدع ويدرك الثأر . فرده عن غزو الرى وعقد له على مكران وثغر السند، وأمره أن يقيم بـ[illegible]ـاز حتى توافيه القوة التى أخذ يعدها لقتال داهر .

كانت هذه القوة مؤلفة من جيش وأسطول. أما الجيش فكانت عدته زهاء عشرين ألف مقاتل ، منهم ستة آلاف فارس من جند الشام الذين كانوا عدة الدولة الأموية ومعولها والذين وطأوا للأمويين أكتاف ملكهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا. وأما الأسطول فكان يحمل المشاة والمؤن وعدد الحرب الثقيلة. ومن هذه خمس مجانيق ضخام ، يقال لأكبرها (العروس). ويروى البلاذرى أنه كان يمد فيها خمسمائه رجل . وبالغ الحجاج على عادته فى إعداد الجيش حتى

أنه « .... جهزه بكل ما احتاج إليه من الخيوط والمسال وعمد إلى القطن المحلوج فنقع فى الخل الخمر الحاذق ثم جفف فى الظل ، فقال إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق فانقعوا هذا القطن. ثم اطبخوا به واصطبغوا » ، ثم تقدم إلى محمد ألا يقطع عنه أخباره بحيث يختلف البريد بينهما مرة كل ثلاثة أيام .

* * *

خرج محمد بن القاسم بجيشه من شيراز ، سنة ٩٠ هـ ، فسار مشرقاً متبعاً ساحل البحر يطوى الحزون والسهول ، ويجوب المهامه والقفار ، ويحدوه مايحدو الشباب الحى من حب للمجد وتعلق بأسباب المعالى ، فتغلب على صحارى كرمان ومكران ، وبلغ الديبل سالما . ولم يكد يحط رحاله حتى كان الأسطول قد وافاه بها. فشرع من فوره فى مهاجمة المدينة . قال صاحب فتوح البلدان: «فقدم الديبل يوم جمعة، ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة ، فخندق حين نزل الديبل، وركزت الرماح على الخندق، ونشرت الأعلام، وأنزل الناس على راياتهم، ونصب منجنيقا تعرف بالعروس كان يمد فيها خمسمائة رجل . وكان بالديبل « بد » عظيم عليه دقل طويل، وعلى الدقل (سهم السفينة) راية حمراء إذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور .... وكانت كتب الحجاج ترد عليه بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به فى كل ثلاثة أيام . فورد على محمد من الحجاج كتاب : أن انصب العروس وأقصر منها قامة ، ولتكن مما يلى المشرق ، ثم ادع صاحبها ، فره أن يقصد برميته الدقل الذى وصفت لى ، فرمى الدقل فكسر ، فاشتد طرة (جزع) الكفر من ذلك . ثم إن محمداً ناهضهم وقد خرجوا إليه فهزمهم حتى ردهم، وأمر بالسلاليم فوضعت وصعد عليها الرجال... ففتحت عنوة ... وهرب عامل داهر عنها ... واختط محمد للمسلمين بها ، وبنى

مسجدا، وأنزلها أربعة آلاف »، ثم سار محمد مصعدا مع النهر يريد داهرا، وعظم جيشه فاستولى على مدينة الراور صلحا. وانضم إليه على أثر ذلك أربعة آلاف من الزط، وصار كثير من قبائل السند عونا له فى حربه مع داهر. ثم عبر نهر مهران والتقى بداهر وجيشه. وكان على فيل عظيم ومن حوله الجند على فيلة تنذر محمدا وجيشه بفتك ذريع. ولكن محمدا اتقى شر الفيلة بقذائف النفط الملتهب يرميها بها، فهاجت واحترقت هوادجها بمن فيها من الجند. وانتشب بين الفريقين قتال هائل انجلى عن قتل داهر وتمزق جيشه وتراجع فلوله إلى مدينة برهمنا باذ. واقتفى محمد أثر تلك الفلول فاستولى على مدينة راور فبرهمناباذ نفسها، ومن ثم زحف إلى مدينة الراور فحاصرها أشهرا ثم دانت له على أن يحقن دماء أهلها وألا يعرض لبدم، وأن يؤدوا إليه الخراج. وقد وفى لهم بشرطهم وبنى بالمدينة مسجدا. ثم قطع نهر بياس إلى الملتان، أعظم بلدان السند العليا، فامتنعت عليه أول الأمر، ثم استولى عليها بممالأة رجل من أهلها له. ووضع يده على أموال جسيمة كانت بمعبدها البوذى.

كانت الملتان أقصى ماوصل إليه ابن القاسم من ناحية الشمال، قال البلاذرى: « ونظر الحجاج فإذا هو قد أنفق على محمد بن القاسم ستين ألف ألف درهم، ووجد ما حمل إليه عشرين ومائة ألف ألف، فقال: شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر ».

أخذت الملتان سنة ٩٥ هـ. وعلى أثر ذلك أتت محمدا وفاة الحجاج فقفل راجعا نحو الجنوب مستوليا فى طريقه على مدن لملوك آخرين غير داهر. وكان آخر ما فتح مدينة يقال لها (الكيرج) استولى عليها عنوة سنة ٩٦هـ. ثم أتاه نعى الخليفة الوليد بن عبد الملك وولاية أخيه سليمان، فلم يبرح تلك المدينة.

وقلب له الدهر من ذلك الوقت ظهر المجن ، وأخذ نجمه فى الأفول .

* * *

لاشك أن الحجاج كان موفقا عندما عهد إلى ذلك الشاب قيادة تلك الحملة الخطيرة . فإن محمدا بحداثة سنه وصدق فروسيته قد ملك زمام أصحابه . فلا نسمع أن أحدا منهم حدثته نفسه بخلاف عليه أو عصيان له . ثم إنه بهذه الخلال نفسها وبرجاحة عقله وسعة حلمه اجتذب قلوب السند أنفسهم ، فقد قارنوا بينه وبين ملوكهم المترفين المتجبرين المتخاذلين فلم يتمالك كثير من قبائلهم أن أعطاه الطاعة وأخذ جانبه فى الحرب كما سبق القول. ويروى إنه عندما شرط عليه أهل مدينة الراور ألا يقرب بدهم وفى لهم بذلك وقال: « ما البد إلا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس . . » وكانت حكومته إيام عادلة رفيقة إذا قيست بحكومة ملوكهم وأمرائهم ، فقد تقدم إلى عماله بهذه النصيحة : « أنصفوا الناس من أنفسكم ، وإذا كانت قسمة فاقسموا بالسوية ، وراعوا فى فرض الخراج مقدرة الناس على أدائه ولا تختلفوا ولا تنازعوا فتشق بكم البلاد. ثم إنه كان مدركا كل الإدراك أن عليه واجبين عظيمين : عليه أن ينشر فى البلدان التى فتحها الثقافة الإسلامية ، وأن يصل بين الشرق والغرب الإسلاميين. من أجل ذلك كان إذا فتح مدينة أنزلها بعض أصحابه ، وبنى بها مسجدا ، ومن أجل ذلك نقل طوائف من الزط والسيابجة إلى العراق . فأنزل الحجاج بعضهم كورة كسكر بفارس ، ووجه بقيتهم إلى الخليفة ، فأنزلهم أنطاكية وسواحل الشام لينتفع بخبرتهم البحرية فى قتال الروم ، كذلك أرسل إلى الحجاج فيلة سميت ببعضها مشرعة الفيل التى كانت بواسط .

كما بعث إليه أول جزء بآلاف من الجواميس السندية ، فأطلق الحجاج

بعضها فى آجام كسكر وكور دجلة ، وبعث كثيرا منها إلى الخليفة فأطلقها فى الآجام التى بين أنطاكية والمصيصة ، واتقى بها سباع تلك الآجام وكانت قد كثرت وأخافت السابلة . وقد نمت هذه الماشـــية بالعراق على مر الزمن حتى أصبحت من أسباب ثروته الاقتصادية فى الوقت الحاضر .

تلك غزوة محمد بن القاسم للسند . إنها لا شـــك تذكرنا بغزو الاسكندر المقدونى لتلك البلاد نفسها فى أخريات القرن الرابع قبل الميلاد . فالغزوتان تتشابهان من عدة وجوه : تتشابهان من حيث أن كلتيهما برية بحرية إلى حد بعيد، ومن حيث حداثة كلا الفاتحين وكفايته ، ومن حيث أن كليهما نهج فى نشر ثقافته بالسند نفس المنهج الذى نهجه الآخر ، ومن حيث أن كليهما كان يهدى إلى أستاذه طرفا من طرف فتوحه ويراسله مستطلعا رأيه ، فالفاتح المقدونى كان يهدى إلى أرسطو ويراسله ، والفاتح العربى كان يهدى إلى الحجاج ويراسله مصدرا فى بعض المواقف عن رأيه . ولو أن أهل السند الذين غزاهم ابن القاسم والذين قد يكون منهم من يدين بشرعة التناسخ ذكروا تاريخ بلادهم القديم فربما رأوا فى الفاتح العربى الحديث انبعاث روح الفاتح المقدونى القديم .

* * *

وبعد فماذا كان مصير ذلك الفاتح العظيم؟ لقد جوزى جزاء سنمار، وصار إلى شر مصير ، فقد نكبه الخليفة سليمان بن عبد الملك نكبة كان فيها تلف مهجته وبوار نفسه . والمصادر القديمة مختلفة فى تعليل تلك النكبة : فالمصادر الفارسية، وهى حديثة نسبيا وغير موثوق بها ، تزعم أن بنات داهر أفضين إلى الخليفة بأن ابن القاسم عبث بهن ، فاضطرم الخليفة غيظا، وأمر بمحمد فوضع فى أديم بقرة ، ثم خيط عليه الأديم وحمل إلى دمشق ، وفاضت روحه بالطريق. فلما بلغ بنات

نواهر مصرع الفتى استشعرن الندم وقلن إنهن تجنين على ابن القاسم ، انتقاما ممن قتل أباهن وثل عرشه ، فاشتد غضب الخليفة عند ذلك ، وأمر بهن فقتلن شر قتلة : أما المصادر العربية ، وهى أقدم من المصادر الفارسية وأوثق ، فلا تذكر شيئا من أمر النسوة ، ويؤخذ منها أن الخليفة سليمان بن عبد الملك كان مضطغنا على الحجاج لأنه كان قد زين للخليفة الوليد بن عبد الملك خلع سليمان من ولاية العهد : أما وقد فارق الحجاج هذه الدنيا فقد رأى سليمان أن يشفى غيظه من أقربائه ، متأثرا فى ذلك بنظام الثأر عند العرب . وقد أذكى نار الحقد والموجدة فى صدره رجلان كلاهما قد وتره الحجاج وكلاهما كان متأثرا بالعصبية القبلية بين قيس واليمن : أحدهما يزيد بن المهلب، وكان أثيرا مكينا لدى الخليفة ، والآخر صالح بن عبد الرحمن وقد ولاه سليمان خراج العراق .

عزل محمد عن السند ، وولى مكانه يزيد بن أبى كبشة السكسكى ، فأخذ محمدا وقيده وسيره إلى العراق مع رجل من بنى المهلب على حال حركت قلوب أهل السند، فبكوا عليه وصوره أهل الكيرج بمدينتهم التى كان منها شخوصه . وقد تلقى محمد المحنة صابرا محتسبا ، ولم يكن فى محنته أقل شجاعة وصبرا وأنفة منه وقت الحرب وحين البأس . والغريب أنه على إخلاص أصحابه له وعطف السند عليه لم تحدثه نفسه بالخلاف والانتقاض . والظاهر أن أيقن أنه قد أدى واجبه وأن الحياة قد أصبحت بعد ذلك لغوا وفضولا لا طائل فيه . وقد جعل يسرى عن نفسه بمقطوعات من الشعر ضمنها آلامه وخواطر نفسه . فمن ذلك قوله مشيرا إلى أنه لو أراد الثورة لشق على أعدائه تهضمه :

ولو كنت أجمعت القرار لوطئت ... أناث أعدت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ... ولا كان من عك على أمير

ولا كنت للعبد المزونى تابعا فيالك دهر بالكرام عثور !

ولما صار إلى واسط حبسه صالح بن عبد الرحمن فقال :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلا مغلولا

فلرب فتية فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلا

وعذبه صالح فى رجال من أقرباء الحجاج حتى قتلهم ، فطفق الشعراء يرثون محمدا ويذكرون فضائله ، فمن ذلك قول بعضهم :

إن المروءة والسماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ياقرب ذلك سؤددا من مولد !

وقال آخر :

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ولداته عن ذاك فى أشغال

تلك خاتمة فتى فتيان العرب وسيد فرسانهم غير مدافع . فمن مبلغ مسلمى الأرض عامة والهند خاصة أن الدوحة الإسلامية العالية التى أظلت بلاد الهند طوال العصور الوسطى إنما كانت غرس ذلك الفتى العربى النبيل ؟ فليذكر ذلك الذاكرون فقد تبل الذكرى رفات ذلك الشهيد فى قبره ، بعد أن عدم فى حياته من يحمد بلاءه أو يرحم شبابه ؟

عمر بن عبد العزيز[1]

٦٢-١٠١ هـ

ود الحكماء من قديم لو أن ملوك الأرض كانوا فلاسفة ، أو لو أن الفلاسفة كانوا ملوكا ، إذن لاقترنت السياسة بالأخلاق على أساس ثابت مطرد . وتعاونتا جميعا على النهوض بالمجتمع الإنساني، ولاستحال عالمنا المضطرب جنة راضية ونعيما مقيما .

وكثيرا ما كتب الحكماء فى نظم عامة ابتدعتها أخيلتهم وزعموها توفر على الناس في هذه الدنيا اللذة والسعادة ، وتنفى عنهم الألم والشقاوة : فعل ذلك أفلاطون فى « الجمهورية » ، والفارابى فى « أهل المدينة الفاضلة » ، وتوماس مور فى « أوطوبيا » ، كما فعله كثير غير هؤلاء ممن ترسم آثار أفلاطون ونسج على منواله .

هذا الحلم الجميل تحقق أو كاد فى التاريخ مرة واحدة على ما نعلم ، وذلك على عهد الخليفة العربى المسلم: عمر بن عبد العزيز، فهو رجل ألقت اليه المقادير بزمام أعظم دولة فى الأرض فى زمنه ، ومع ذلك استطاع أن يقدع شهوته حتى كاد يميتها ، وأن يروض نفسه حتى ردها إلى الرضا بالقليل الأقل . ثم تجرد لإصلاح رعيته من طريق العدل والرفق والرحمة ، فأذاقهم لذة الأمن واليسر والرضا .

هذا وذاك قد ترامت همته إلى ما وراء قومه وبلاده ، فطمع أن يجمع شعوب الأرض طرا فى نظام واحد يقوم على مبادىء الأخوة والعدالة والمساواة.

---

(١) الثقافة ، العدد ١٤ ، السنة الأولى ، ١٤ اغسطس سنة ١٩٣٩ .

وقد وفق ابن عبد العزيز في هذا المطمع البعيد توفيقا حد من مقداره، بالأسف، أن عجلت إليه المنية وهو لا يزال في ميعة العمر وعنفوان الحياة .

* * *

قد اجتمع في تكوين هذه الشخصية العجيبة عاملا الوراثة والبيئة معا . فأبوه عبد العزيز قد ولي مصر عشرين سنة دلت على ثقافته العالية واضطلاعه بأعباء الحكم ، وبصره بتألف القلوب . وجده مروان بن الحكم هو ذلك السياسي الجرىء العارف بنفسية الأفراد والجماعات ، والخبير بانتهاز الفرص عند إمكانها.

وأما نسبه لأمه ، فأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وكفى بانتسابه إلى تلك الشخصية العظيمة تعريفا بسبب من أسباب ورعه وجراءته في الحق على نفسه وغيره .

وليس أثر البيئة في تكوين ابن عبد العزيز بأقل من أثر الوراثة . فقد ولد بالمدينة عام ٦٢ هـ وشب بها على أصح الروايات . فلما ولي أبوه مصر عام ٦٥ هـ حمل إليه ، ولبث بمصر زمنا ما ، نعم فيه بصحبة أبيه ومشاهدة آثار الحضارة المصرية والبيزنطية . وهنا رمحته دابة فشج شجته التي عرف من أجلها بأشج بني أمية ، فلما بلغ سن التأديب بعث به أبوه إلى المدينة ليتأدب بها وينشأ نشأة إسلامية مدنية ، وكانت المدينة إذ ذاك بيئة مركبة غير بسيطة ، يعرف فيها من يحللها الروح الديني الصحيح ماثلا في نفر من بقايا الصحابة وكبار التابعين ، أمثال أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، كما يعرف فيها الجانب الأرفه من الحياة ، ممثلا في مثل عبد الله بن جعفر أول نصير لصناعة الغناء العربي ، وطائفة من المغنين والقيان يتقدمها معبد ومالك بن أبي السمح المغنيان المدنيان الشهيران . ثم إن

المدينة كانت إذ ذاك من الناحية السياسية موطنا للمعارضة التى تستند إلى الكتاب والسنة فى مقاومة الحكومة الأموية فى هـذه البيئة تخرج ابن عبد العزيز ، فروى الحديث عن حملته ورواته ، وثقف صناعة الغناء وأعانه على المساهمة فيها صوت ندى عذب . كما أشرب روح الحكومة الإسلامية القديمة التى كانت تختلف عن الحكومة الأموية اختلافا كبيرا . إلى ذلك كله كان ابن عبد العزيز فتى مليح الخلقة ناعما مترفا كعادة فتيان بنى أمية . يروى أنه أبطأ يوما عن الصلاة فسأله مؤدبه صالح بن كيسان عن سبب إبطائه فقال : « كانت مرجلتى تسكن شعرى » فكتب مؤدبه بذلك إلى أبيه ، فبعث أبوه رسولا فلم يكلمه حتى حلق شعره » .

* * *

فى عام ٨٥ هـ توفى عبد العزيز بن مروان بمصر ، وكان ابنه عمر قد تم تأدبه بالمدينة ، فاجتذبه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى الشام وزوجه من ابنته فاطمة ، ثم ولاه « خناصرة » وهى بليدة من أعمال حلب واغلة فى البادية . فلبث واليا عليها سنتين كانتا من أنعم سنى حياته وحياة زوجه . وقد أعجبته خناصرة حتى أنه عندما استخلف اتخذها منزلا على عادة ملوك بنى أمية فى إيثارهم سكنى البادية على الحاضرة . وفى عام ٨٧هـ اختاره الخليفة الوليد بن عبد الملك لولاية المدينة بدلا من هشام بن إسماعيل المخزومى الذى أساء السيرة فى أهلها ، ولا شك أن الوليد إنما اختار عمر للمدينة لما يعلم من المشاكلة القوية بينه وبين هذه الولاية ، ثم إنه بعد قليل ضم إليه مكة والطائف فأصبح عمر بذلك أميرا على الحجاز كله .

كانت حكومة عمر بن عبد العزيز بالحجاز (٨٧ - ٩٣هـ) حكومة شورية

أبوية يمازجها من ناحية الشخصية مقـــدار غير قليل من الحرص على الترف والتنعم . فلأول قدومه المدينة اصطفى عشرة من العلماء اتخذهم نصحاء ومستشارين يصدر فى الأمور عن رأيهم ، ثم عكف على إصلاح شئون الحجاز : فهدم المسجد النبوى وأعاد بناءه على نحو أوسع وأروع ، وأصلح الطرق ، وأكثر من الآبار فتيسر بذلك الماء فى ذلك القطر الظمىء ، كما أنه عمل بالمدينة فوارة يستقى منها أهلها . وقد أعجب الخليفة بتلك المنشآت عند ما زار المدينة سنة ٩١ هـ وأمر للفوارة بقوام يقومون عليها ، وأن يسقى أهل المسجد منها ، ففعل عمر ذلك . ومن مظاهر بساطة عمر فى إمارته بالحجاز أنه جلس يرتل القرآن بصوته العذب فتأذى بذلك سعيد بن المسيب على غير علم منه بصاحب الصوت ، فلم ير عمر بأسا بأن ينتحى ناحية أخرى من المسجد . وبلغه أن قاضيه على المدينة استخفه الطرب عند ما سمع جارية تغنى حتى أخرجه من وقاره ، فعزله عمر ، ولكن القاضى المعزول تحدى الأمير لسماع الجارية ، فسمعها عمر وكاد هو أيضا يستخف . فعذر القاضى ورده إلى عمله . وعند ما قدم الفرزدق الشاعر المدينة وكانت السنة ممحلة وخاف أهل المدينة لسانه رفعـــوا أمرهم الى عمر فأخرجه من المدينة ونهاه أن يعرض لأحد من أهلها بمـدح أو بهجو . أما من حيث حياة عمر الشخصية فى تلك الفترة فكان مترفاً مسرفاً فى الـترف ، يرخى شعره ويسبل إزاره ، ويلبس الثوب تبلغ قيمته مئات الدنانير ، ويكثر مـن الطيب حتى لتقصف ريحه إذا مشى مشيته « العمرية » ، وهى مشية كان يتبختر فيها ويختال ، ولملاحتها كانت الجوارى تأخذها عنه .

حادث واحد نغص على ابن عبد العزيز إمارته على الحجاز : ذلك مصرع خبيب بن عبد الله بن الزبير ، فقد نقم الخليفة الوليد من خبيب أشياء بلغته عنه ،

وكتب إلى عمر أن يضربه ، فضربه عمر ضربا كان فيه هلاكه . وقد جزع عمر لذلك جزعا شديدا ، ويقولون إنه لبس المسوح سبعين يوما حدادا على خبيب ، ثم أقلع عن ذلك . فلما استخلف دفع دية خبيب الى أوليائه ، ومع ذلك كان يرى أن الله لا بد مؤاخذه بذلك الذنب ، فكان إذا بشره أحدهم قال : « وكيف بخبيب ! »

وغدا الحجاز ينعم بأمن وعافية مما ابتليت به الأمصار الأخرى ، ولا سيما العراق ، من الفتن والقلاقل . ولذلك أخذت فلول ثوار العراق والخوارج تفد على الحجاز فرارا من وجه الحجاج وسيفه المسلول ، فكان ابن عبد العزيز . ثم لم يكتف بذلك : فكتب إلى الخليفة يندد بعسف الحجاج وبطشه . و الحجاج عليه ، وكتب إلى الخليفة يشكو من أن أمير المدينة يجير « مراق » العراق وأن ذلك موهن له . وقد نظر الخليفة فى الأمر مليا ، ثم رأى أن يشد أزر الحجاج فى هذه الخصومة ، فالعراق أخطر من الحجاز . والحجاج أولى بالمصانعة من عمر بن عبد العزيز . فصرف عمر عن الحجاز بأميرين : أحدهما للمدينة والآخر لمكة . فكان أول ما صنعا أن أخرجا من الحجاز إلى الحجاج كل عراقى فى الجوامع والأغلال ، وتوعدا كل حجازى أنزل عراقيا أو آجره دارا .

* * *

خرج ابن عبد العزيز من الحجاز إلى الشام مغاضبا للخليفة الوليد . وقد ساءه أن عزل عن إمارة المدينة حتى قال لمولاه مزاحم وهو ببعض الطريق : « أخشى أن أكون ممن تنفيه المدينة » ، إشارة إلى الحديث الوارد فى أن المدينة

تنئ خبيثها . فلما حصل بالشام شغل نفسه بالغزو فرارا من وجه الوليد والتماس الأجر والسلوة . فلما توفى الوليد عام ٩٦ﻫ وولى سليمان بن عبد الملك لزمه عمر وكان أثيرا عنده يستشيره سليمان وينزل على رأيه فى كثير من الأمور . على أن عمر نفعه أن عزل عن الإمارة على النحو المتقدم : فقد دفعه ذلك فى السنوات الست التى قضاها بالشام قبل أن يستخلف (٩٣ - ٩٩ﻫ) إلى النظر فى حال الدولة العربية فى أواخر القرن الأول الهجرى .

نظر فإذا الدولة الإسلامية قد أبعدت فى التخلى عن الصفة الدينية التى كانت لها قديما ، وأسرفت فى الاصطباغ بالصبغة الزمنية المتطرفة ، أليست حكومة عبدالملك والوليد والحجاج ويزيد بن المهلب حكومة تجبر وطغيان؟ أليست حكومة سليمان حكومة الشهوة العطشى والجسد المنهوم؟ لقد أصبح السلطان يعتمد فى شد أركانه وتقوية دعائمه على القوة الغشوم والسيف المرهف . أما العدل وأما الرفق وأما الرحمة: فلم يعد لكل ذلك عنده محل ولا حساب. ونظر فإذا أحوال الدولة قد عراها الخلل والاضطراب من كل نواحيها . فنحو ثلث أموال الدولة قد استحال ملكا خاصا لبنى أمية ، وأكثر الضرائب يجبى من غير وجوهه ، ويصرف فى غير مصارفه الشرعية . فكثير من الأراضى الخراجية التى لا يصح تملكها قد استحالت أرضا عشرية يتملكها أفراد من المسلمين يؤدون عنها الزكاة التى مقدارها أقل من مقدار الخراج ، وكثير من الموالى أو مسلمى الأعاجم لا يزالون مع إسلامهم يؤخذون بالجزية لغير ما سبب سوى أن العمال لحظوا فى إسلامهم معنى الفرار من الجزية فأبوا أن يعفوهم منها . هذا فوق أن هؤلاء الموالى لم يكونوا والعرب سواء فى الحقوق ، فكانوا يغزون إلى جانب العرب دون أن يكون لهم عطاء . ثم إن عدم إنفاق الزكاة فى مصارفها الشرعية قد أدى إلى كثرة الفقراء

والمساكين والمرضى والزمنى ممن جعل لهم الشرع حقا فى الصدقات العامة . ثم نظر فرأى بأس الأمة الإسلامية بينها شديدا ، قد توزعتها الفرق المتباغضة والأحزاب المتناحرة ، فمن شيعة يطوون الصدور على الإحن لما نالهم به بنو أمية من أذى ومساءة ، ومن خوارج يتحينون الفرص لهدم النظام القائم وإحلال نظامهم محله ، ومن موال قد ساءهم ألا يسوى بينهم وبين العرب فى الحقوق العامة ، ومن مضرية ويمنية وربعية ، كل يحاول أن يكون له النفوذ السياسى من طريق الولاية على الأقاليم والتأثير فى السلطان نفسه . هذا فى الداخل أما فى الخارج فرأى عمر أن الجهاد الذى شرع على عهد النبى صلى الله عليه وسلم لمنع العدوان على النفس والعقيدة ، والذى كان على عهد الشيخين ضرورة اقتصادية ملحة ، قد استحال فى زمن الأمويين أداة للتوسع فى السلطان . وجر المغنم الوافر ، والسبى الرائع ، حتى قال الشاعر :

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب

نظر عمر فى كل ذلك فرده إلى سبب جوهرى واحد : هو انحراف الجماعة الإسلامية عن الأساس الذى قامت عليه : أساس الدين ، والدين عند عمر هو الدين المتصل بالحياة العامة يمدها ويغذيها بقوته المعنوية ، والممسك لشئون الجماعة أن تضطرب وتصبح فوضى ، هو الدين الذى أثره فى الحاكم شعور قوى بالمسئولية وعمل صادق على إسعاد العباد والترفيه عنهم ، والذى أثره فى المحكومين اقتضاء العدل إذا حرموه ، وأنفة من الضيم والذل إذا ما أريدوا عليهما . الدين عند عمر بن عبد العزيز : هو الحق والإنسانية عبر عنهما بلفظ واحد .

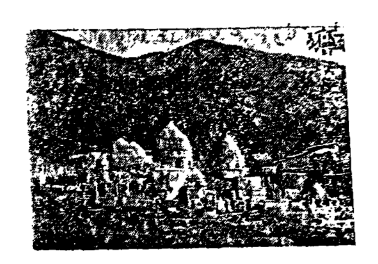
وبينا عمر يرسل الفكر فى أنحاء الحياة الإسلامية العامة متعرفا عللها إذا به فى الوقت نفسه قد أخذ يخضع لتطور نفسانى عنيف . لقد أخذ حرصه على الترف

والتنعم يضعف رويداً رويداً، وميله إلى الزهد والنسك يقوى شيئا فشيئا، وأصبحت نظرته إلى الحياة نظرة إلى متاع قليل زائل، لا يعدل شيئا بجانب طمأنينة النفس وراحة الضمير، كما أصبح دائم التفكير فى الموت وفيما بعد الموت: فالموت آت لاريب فيه، والموت برزخ مؤد إما إلى جنة وإما إلى نار، والمنتهى على كل حال رهين بما يكون عليه المرء فى العدوة الدنيا من ذلك البرزخ الرهيب.

ماسر هذا التطور العجيب الذى جعل من ابن عبد العزيز الناعم المترف ناسكا زاهداً متصوفا؟ نتبين ذلك السر فى نفسية ابن عبد العزيز من جهة، وفى مقدار تأثره بالحياة الأسلامية العامة لذلك العهد من جهة أخرى. لقد كان فى عمر نزوع طبعى إلى الزهد، فهو كما رأينا من سلالة عمر بن الخطاب، وكان فى طفولته يحاول التشبه بخاله الزاهد عبد الله بن عمر، ولما تورط فى أمر خبيب لبس المسوح سبعين يوما يأسا من نضارة العيش، ولذاذة الحياة، فلما نصح بالإقلاع عن ذلك أقلع. ثم إن الحياة الإسلامية قد ألمت بها فى أواخر القرن الأول نزعة زهد جاءت كرد فعل البادية التى طغت عليها إذ ذاك: هذه النزعة التى تحولت بعد إلى الحركة الصوفية المشهورة متينها فى طبقة العباد والنساك التى يتكلم عنها صاحب العقد الفريد طويلا. وقد خضع عمر لتأثير هذه الطبقة وهو فى المدينة، فكان من أشد الناس تأثيرا فيه عبيد الله بن عبدالله بن عتبة. فلما صار بالشام خضع لتأثير رجلين يعتبران بحق من أقطاب عصرهما علما وزهداً وورعا: هذان هما الحسن البصرى ورجاء بن حيوة الكندى. أما الحسن فقد اتصل به عمر من طريق المراسلة، ولعله قد أخذ عنه كراهية القول بالقدر

الذى ينسب إلى الحسن خطأ . وأما رجاء فقد كان مستشار سليمان بن عبدالملك وكان لذلك أقرب إلى عمر وأقوى به اتصالا .

وبعد، فلئن كان النظر فى الأحوال العامة قد اقنع لعمر ضرورة الرجوع إلى الدين فى إصلاح غيره ، فقد أتيح له مزاجه الخاص وتأثره بالزهاد من أهل عصره ضرورة الزهد من أجل إصلاح النفس وتهذيبها . الدين والزهد ، هاتان هما الخلتان اللتان كانتا تعمران فؤاد عمر وقلبه عندما أخذ صلحاء الشام يرشحونه للخلافة .



عمر بن عبد العزيز

(٢)

لم يكن عمر بن عبد العزيز صاحب حق فى الخلافة بمقتضى نظام الخلافة الأموية . ولكن ذيوع فضله وسموه الروحى على سائر بنى أمية لفت إليه نظر أولى الحل والعقد من صلحاء الشام ، أمثال رجاء بن حيوة الكندى وابن شهاب الزهرى ومكحول الشامى ، فلما مرض سليمان بن عبد الملك بدابق مرضه الذى مات فيه ولم يكن له ولد بالغ يعهد إليه ، لم يزل به رجاء بن حيوة وأصحابه حتى كتب عهده لعمر بن عبد العزيز، ثم من بعده ليزيد بن عبد الملك. ثم أمر فأخذت البيعة من بنى أمية لمن سمى فى عهده دون أن يعينه لهم ، فلما قبض سليمان وأعلن الأمر إلى بنى أمية جددوا البيعة لعمر على كره منهم (٢٠ صفر سنة ٩٩هـ).

شرع عمر فى تنفيذ برنامجه الإصلاحى منذ تم له الأمر . ولقد كان له من زهده ومناصرة العلماء له ومواتاة أهل بيته : زوجه فاطمة ، وابنه عبد الملك ، وأخيه سهل ، ومولاه مزاحم ، أقوى عون على ما أراد . بدأ عمر بمنصب الخلافة ممثلا فيه بتجرده من كل مظاهر الأبهة ورده إلى بساطته القديمة ، ولا أدل على ذلك من كلام ابن عبد الحكم قال : « ولما دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز قربت إليه المراكب ، فقال ماهذه ؟ فقالوا مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول مايلى ، فتركها وخرج يلتمس بغلتــه ، وقال : يا مزاحم ! ضم هذه إلى بيت مال المسلمين ، ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب

الخلفاء أول مايلون ، فقال ماهذه ، فقالوا سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلى ، قال يامزاحم ! ضم هذه إلى أموال المسلمين ، ثم ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الذى لم يجلس عليه أحد قط ويفرش للخلفاء أول ما يلون لجعل يدفع ذلك برجله حتى يفضى إلى الحصير. ثم قال يامزاحم ! ضم هذه لأموال المسلمين .

« وبات عيال سليمان يفرغون الأدهان والطيب من هذه القارورة إلى هذه القارورة ، ويلبسون مالم يلبس من الثياب حتى تتكسر . وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب أو مس من الطيب كان لولده ، وما لم يمس من الثياب وما لم يمس من الطيب فهو للخليفة بعده . فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان هذا لك وهذا لنا . قال ، وماهذا ، وما هذا ؟ ... ماهذا لى ولا لسليمان ولا لكم، ولكن يامزاحم! ضم هذا إلى بيت مال المسلمين ، ففعل . فتآمر الوزراء فيما بينهم فقالوا: أما المراكب والسرادقات والحجر والشوار والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتم ، وبقيت خصلة وهى الجوارى نعرضهن ، فعسى أن يكون ماتريدون فيهن ، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده . فأتى بالجوارى فعرضن عليه كأمثال الدمى . فلما نظر إليهن جعل يسألهن واحدة واحدة من أنت؟ ولمن جئت؟ ومن بعثك؟ فتخبره الجارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت، فيأمر بردهن إلى أهلهن ويحملهن إلى بلادهن حتى فرغ منهن . فلما رأوا ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق » .

ثم عمد إلى النظام الإقليمى فأصلحه بأن عزل العمال المتشبعين بروح الحجاج ، فعزل يزيد بن المهلب وحبسه فى مال كان للدولة فى ذمته، ونفى نفراً من بنى عقيل أسرة الحجاج ، وولى عمالا جددا لم يحفل فى تخيرهم بعصبياتهم ولا

بقدرتهم على جمع الأموال، كما كانت الحال من قبل، ولكن بحسن سيرتهم وطهارة ذمتهم ، فكان من عماله: عدى بن أرطاة الفزارى والى البصرة ، وعبد الحميد بن عبد الرحمن القرشى والى الكوفة ، وعبد الرحمن بن نعيم القشيرى أمير خراسان، وأبو بكر بن حزم أمير المدينة ، والسمح بن مالك الخولانى أمير الأندلس .

وقد شد أزر الولاة بقضاة عدول ، فجعل الحسن البصرى على قضاء البصرة ، وعامرا الشعبي على قضاء الكوفة كما جعل أبا الزناد كاتبا لأمير الكوفة .ولم يكتف عمر بذلك فى إصلاح الإدارة الإقليمية ، بل تقدم إلى العمال فى أمر العقوبات ألا يأمروا بقطع أو صلب قبل مراجعته هو أولا .

ثم ثنى عمر بالمسائل المالية فرد المظالم ، والمراد بالمظالم الأموال التى استولى عليها بنو أمية بغير حق ، وقد بدأ فى ذلك بنفسه، فخرج لبيت المال عن كل مال لم يرض سبب تملكه ، حتى لم يبق له إلا عقار يسير ببلاد العرب يغل غلة يسيرة فوق عطائه الذى كان يبلغ مائتى دينار فى العام ، ثم أخذ يتتبع أموال بنى أمية يرد منها ماليس مشروع الملكية إلى مستحقه ، وقد هاج ذلك سخط بنى أمية عليه ، وذهبوا ينعون عليه أخذه أموالهم باسم « المظالم» ، فلم تلن لغامزهم قناته، وأراهم أنه لايحجم عن بلوغ الغاية فى التنكيل بهم إذا اقتضى الأمر ذلك. يروى ابن عبد الحكم «أن رجلا من أهل حمص أتاه يخاصم روح بن الوليد بن عبدالملك فى حوانيت بحمص كان أبوه الوليد أقطعه أياها ، فقال له عمر أردد عليهم حوانيتهم ، قال له روح : هذا معى بسجل الوليد . قال : وما يغنى عنك سجل الوليد والحوانيت حوانيتهم ، قد قامت لهم البينة عليها؟ خل لهم حوانيتهم . فقام روح والحمصى منصرفين ، فتوعد روح الحمصى ، فرجع الحمصى إلى عمر ، فقال : هو الله متوعدى يا أمير المؤمنين . فقال عمر لكعب بن حامد وهو على

حرسه : أخرج إلى روح يا كعب ، فإن سلم إليه حوانيته فذلك ، وإن لم يفعل فأتنى برأسه ! فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له الذى أمر به عمر ، فخلع فؤاده . وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبرا ، فقال له : قم فخل له حوانيته ! قال: نعم ! نعم ! وخلى له حوانيته » .

وسار عمر فى إصلاح الشئون المالية على الأساس الشرعى ، فالأموال ينبغى أن تجبى من وجوهها وتنفق فى مصارفها الشرعية ، فمن أسلم من أهل الذمة سقطت عنه الجزية ، وقد أسقط الجزية فعلا عن كثير من موالى خراسان وأهل مصر ، وقال مقالته المشهورة : « إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » ونهى عن أن تصير الأرض الخراجية أرضا عشرية ابتداء من سنة ١٠٠ هـ ، مع عدم التعرض للحقوق التى اكتسبت من قبل ، وألغى وظيفة مالية وظفها أخو الحجاج بن يوسف على اليمن فوق الزكاة ، ونهى العمال عن اقتضاء أطلاق مالية لم يرد بها الشرع، وقد جمعها فى كتابه إلى عامله على الكوفة فقال « ولا تحمل خرابا على عامر ولا عامرا على خراب ، انظر إلى الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الارض ، ولا تأخذن فى الخراج ... أجور الضرابين ، ولا هدية النيروز والمهرجان ، ولا ثمن الصحف ، ولا أجور الفيوج ، ولا أجور البيوت ، ولا دراهم النكاح ، ولا خراج على من أسلم من أهل الارض » .

وقد وسع عدل عمر أهل الذمة من هذه الناحية كما وسع المسلمين ، فإنه لما شكا إليه أهل نجرانية الكوفة تناقص عددهم إلى العشر مع بقاء جزيتهم على حالها ، أمر برد جزيتهم إلى العشر (١) ، كذلك رد جزية

(١) البلاذرى، فتوح البلدان ، ص ٦٧

قبرص إلى ما كانت عليـــه وقت الفتح ، وألغى ما زاده عليها عبد الملك بن مروان[1] ، ويروى البلاذرى أيضا[2] ، أنه « وفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه ، أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الناجى ، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سـواء . فكره أهل سمرقنـــد الحرب وأقروا المسلمين » . وأبلغ من ذلك فى الدلالة على تحرى عمر العدل المطلق ما رواه البلاذرى[3] ، قال : « قال ضمرة عن على بن أبى حملة ، خاصمنا عجم أهل دمشق فى كنيسة كان فلان اقطعها لبنى نصر بدمشق ، فأخرجنا عمر منها وردها إلى النصارى » ، ويروى البلاذرى أيضاً[4]، أن الوليد بن عبد الملك قد أدخل كنيسة يوحنا فى مسجد دمشق بغير رضا النصارى « فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكا النصارى إليه ما فعل الوليد بهم فى كنيستهم ، فكتب إلى عامله يأمره برد مازاده فى المسجد عليهم ، فكره أهل دمشق ذلك ، وقالوا نهدم مسجدنا بعد أن أذنا فيه وصلينا ويرد بيعة ، وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحاربى وغيره من الفقهاء ، وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التى أخذت عنوة وصارت فى أيدى المسلمين ، على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرضوا بذلك وأعجبهم . فكتب به إلى عمر فسره وأمضاه » . ذلك موقف عمر بن عبد العزيز من أهـــل الذمة .

---

(١) البلاذرى ، ص ١٥٤ .

(٢) نفسه ص ٤٢٤

(٣) نفسه ص ١٢٤

(٤) نفسه ، ص ١٢٥ .

أما ما ينسب إليه فى بعض كتب الفقه من تحامل عليهم، وأنه كتب إلى عماله بعزلهم عن أعمال الدولة وأخذهم بألوان من الاضطهاد والتضييق عليهم[1]. فغير مؤتلف مع المستيقن من سيرته على فرض صحته، وقد يكون نوعا من العقاب كان يعاقب به ذميو الحدود الإسلامية إذا هموا بمظاهرة العدو على المسلمين.

وكما كان عمر حريصا على جباية الأموال العامة من مصادرها الصحيحة، فقد كان كذلك حريصاً على أن تنفق فى مصارفها الشرعية. فمن حيث الفيء، فقد فرض لذرية المقاتلة وعيالهم، عملا بسنة عمر بن الخطاب التى ترك بنو أمية العمل بها، وكتب إلى عامله على الكوفة: «وانظر من أراد من الذرية الحج فعجل له مائة يحج بها». وفرض لعشرين ألفا من الموالى كانوا يغزون بخراسان بغير عطاء. وأظهر استعداده لأن يحمل من بيت المال إلى خراسان أموالا إذا كان خراجها لا يفى بعطاء أهلها. ومن حيث أموال الزكاة، فكانت صدقات كل إقليم تقسم على عهده فى فقراء أهله، وقد قسم فى فقراء البصرة كل إنسان ثلاثة دراهم وأعطى الزمنى خمسين خمسين، وفرض للفقيرات من عوانس النساء، وأعتق كثيراً من الرقاب. وقد كتب إلى أحد عماله «أن اعمل خانات فى بلادك، فمن مر بك من المسلمين فأقروهم يوما وليلة، وتعهدوا دوابهم، فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين. فإن كان منقطعا به فقووه بما يصل به إلى بلده». وأمر عماله بقضاء الديون عن الغارمين، فكتب إليه بعضهم: «إنا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس والأثاث فى بيته»، فكتب عمر

---

(1) أبو يوسف، الخراج، ص ٧٣.

« لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث فى بيته ، فهو غارم فاقضوا عنه » .
ولما رأى عمر أن ليس للشعراء حق فى بيت المال جعل يجيزهم من عطائه وماله الخاص على قلته ، بالدراهم والدنانير المعدودة ، وقد أدرك الشعراء علة تحرجه هذا فكانوا يقبلون منه العطاء اليسير أو الرد أحيانا بغير عطاء ، ولم يقصروا فى مدحه والثناء عليه .

على أن أهم ميزة تميز عمر بن عبدالعزيز عن غيره من خلفاء الإسلام ورؤساء الدول طرا فيما نعلم إنما هى رغبته الصادقة فى نشر لواء السلم ، لا على بلاده وحدها ولكن على العالم بأسره . ولبيان ذلك نقول إنه عمد فى داخل الدولة الإسلامية إلى الأحزاب التى ناوأت الأمويين منذ قام ملكهم فترضاها وحملها على ما يريد من إيثار السلم والعافية . فالشيعة استجلب مودتهم بأن منع سب على بن أبى طالب على المنابر ، وبأن رد على العلويين (فدكا) التى رآها حقا قديما لهم اغتصب منهم . والخوارج قد كبح جماحهم من طريق المجادلة بالحسنى والإقناع بالحجة والبرهان . فعندما ظهر شوذب الخارجى بأرض فارس أمر عمر ألا يقاتلوا حتى يسفكوا دما أو يفسدوا فى الأرض ، وكتب فى الوقت نفسه إلى شوذب يطلب اليه المناظرة فى دعواه ، فأنفذ إليه الخارجى اثنين من فقهاء الخوارج ليناظراه ، وقد استطاع عمر أن يهدم كل حجة أورداها الا ما احتجا به عليه من إقراره بيعة يزيد بن عبدالملك بولاية العهد مع ما يعلم من قبح سيرته ، وكان من وراء هذه المناظرة الطريفة أن انضم أحد الخارجيين إلى عمر ، أما الآخر فعاد إلى أصحابه وأنهى إليهم على ما يظهر من سيرة الخليفة ما حملهم على السكون طوال عهده . وأما الموالى فقد قطع أسباب شكواهم ، بأن أسقط الجزية كما

رأينا عنهم ، وبأن فرض لمقاتلتهم عطاء . وأما العصبية القبلية من يمنية ومضريه وربعية فقد هدأ من حدتها ، بأن ردع الشعراء الذين كانوا يذكون نارها ، وبأن اختار ولاته بالنظر إلى كفايتهم لا إلى قبائلهم .

أما من حيث العلاقات الخارجية ، فقد سلك عمر بن عبد العزيز فى الأمر مسلكا بدعا لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . ذلك أنه أقفل جميع الجيوش الاسلامية التى كانت تغزو وراء الحدود ، أقفل مسلمة بن عبد الملك وكان مرابطا حول أسوار قسطنطينية وأعانه على القفول بأموال بعث بها إليه . وأقفل الغزاة بما وراء النهر على كره منهم كما أقفل من كانوا يغزون بالسند . على أن عمر لم يقف فى هذا الأمر الخطير عند هذا الحد ، بل أتبع العدول عن سياسة العنف بالدعوة السلمية الى الإسلام . يروى البلاذرى أنه لما أقفل الجيوش التى كانت تغزو بما وراء النهر كتب إلى ملوك تلك الجهة من الترك يدعوهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم . ولما انتقض ملوك السند كتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . قال البلاذرى : « وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلم جيشبة والملوك وتسموا بأسماء العرب » كذلك كانت سياسته بإزاء بربر المغرب الذين أشجوا الجيوش العربية زهاء ثمانين عاما . يقول البلاذرى : « ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز (رضه) ولى المغرب اسمعيل بن عبدالله ابن أبي المهاجر مولى بنى مخزوم ، فسار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الإسلام وكتب إليهم عمر كتبا يدعوهم بعد إلى ذلك ، فقرأها اسمعيل عليهم فى النواحى فغلب الإسلام على المغرب . ويذكر المؤرخ اليونانى تيوفان أن عمر كتب أيضا إلى الامبراطور البيزنطى يدعوه إلى الإسلام .

وكأن عمر بن عبد العزيز قد اطلع بلحظ الغيب على نظمنا الحديث التى

تفرض على الدولة الإشراف على التعليم والعمل على نشره بين أبنائها. فقد أراد تعليم الناس كما يؤخذ من قوله فى رواية ابن عبد الحكم «إن للإسلام حدود وشرائع وسننا . . . . فإن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها» بل لقد أخذ في ذلك بالفعل فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقى والحارث بن محمد الأشعرى إلى البادية يفقهها الناس وأجرى عليهما رزقا. ثم هو أول خليفة أمر بجمع أحاديث رسول الله وتدوينها. نقل السيوطى «أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر محمد بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته فاكتبه، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء. وأخرج أبو نعيم فى تاريخ أصبهان عن عمر ابن عبد العزيز أنه كتب إلى الآفاق أن انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه» وقال فى فتح البارى «يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوى».

* * *

وبعد، فماذا كان أثر تلك الجهود كلها؟ لقد أدت إلى الغاية التى كان يرمى إليها عمر. فقد طاف بالأمة الأسلامية إذ ذاك طائف الزهد والورع والتدين اقتداء بخليفتها، والناس على دين ملوكهم كما قالوا قديما. يروى الطبرى «وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ مصانع وضياع، وكان الناس يلتقون فى زمانه، فأنما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجوارى، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل، ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ وما تصوم من الشهر؟ وأصبح الناس وقد شملتهم نعمتا الرضا واليسر. قال «كثير» يخاطب عمر ويمدحه:

تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلم

وصدقت موعود الذى قلت بالذى فعلت فأمسى راضياً كل مسلم

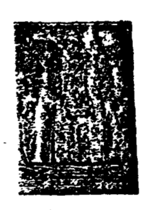
وروى ابن عبد الحكم قال : « قال يحي بن سعيد : بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ، ولم نجد من يأخذها منى ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين » .

أجل ، لقد أغنى عمر الناس جميعا إلا نفسه وأهله . فلم ير ولى قوم أعف عن مالهم منـــه ، ولم ير أهل بيت أصبر على الطعام الخشن والثوب المرقوع والبيت المتهدم منه ومن أهل بيته . ولقد أراح عمر الناس ولكنه أتعب نفسه فكان حركة دائمة يعمل ليل نهار حتى ذهبت نضرته واحترق جسمه .وزادهما فقدانه فى آجال متقاربة من عهده القصير أحبابه وأعوانه : فقد ابنه عبدالملك، وأخاه سهلا ، ومولاه مزاحما ، فلم يقو جسمه على احتمال العمل والألم ، فأسلم الروح بخناصرة فى ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ ولما يبد التاسعة والثلاثين من عمره . وقد دفن بدير سمعان قريبا من دمشق .

لا ندرى ماذا كان عمر صانعا لو مدله فى حياته ؟ أغلب الظن أنه كان يتلافى موضع الضعف من إصلاحه فيقيم هذا الاصلاح على أساس ثابت لا يتزعزع بمجرد موته .ومهما يكن من شىء فقد فاز عمر بن عبد العزيز بتقدير أنصاره وخصومه على السواء فهو عند أهل السنة مجدد المائة الأولى وآخر الخلفاء الراشدين، وقد رضى عنه العلويون وأهدى إلى روحه فى أواخر القرن الرابع شاعرهم الشريف الرضى أبياتا من الشعر حارة جميلة وكان موضع احترام الخوارج وتقديرهم ، ثم إن العباسيين عندما قامت دولتهم احترموا قبره فلم ينبشوه كما نبشوا قبور غيره من بنى أمية ، على أن أبلغ من وصفه وأبنه رجل كان بحكم الظروف السياسية خصمه العنيد

بل عدوه الالدود ، ذلك ملك الروم أليون الثالث . أخرج ابن الجوزى عن محمد ابن معبد قال : « أرسل عمر بن عبدالعزيز بأسارى الروم ففادى بهم أسارى من المسلمين . قال فدخلت على ملك الروم يوما فإذا هو جالس على الأرض مكتئب حزينا . فقلت ماشأن الملك ؟ فقال أو ماتدرى ماحدث ؟ قلت ما حدث ؟ قال مات الرجل الصالح ! قلت من ؟ قال عمر بن عبد العزيز ، ثم قال ملك الروم : لاحسب أنه لو كان أحد يحيي الموتى بعد عيسى بن مريم لأحياهم عمر بن عبد العزيز . ثم قال إنى لست أعجب من الراهب إن أغلق بابه ورفض الدنيا وترهب وتعبد ، ولكنى أعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب » .

أما نحن فنلحظ فيه خير نزعاته وأشرف عواطفه : نلحظ فيه حبه للسلام وسعيه فى توفيره فى العالم ، فهو بحق داعية السلام فى القرن الأول الهجرى والثامن الميلادى ، وكفى بذلك مفخرة فى الدنيا ، وقربة فى الآخرة ؟



نساء الخوارج (١)

ينبغي قبل التكلم على نساء الخوارج أن نلم إلمامة يسيرة بالخوارج عامة فنبين للقارىء من هم ؟ وما مبادئهم وآدابهم ؟ وما بداية أمرهم ونهايته ؟ فإذا فرغنا من ذلك انتقلنا إلى الكلام على نسائهم عامة والشهيرات منهن خاصة .

فالخوارج فرقة عربية إسلامية قديمة ولعلها أقدم الفرق الإسلامية منشأ وظهورا . وأصلهم جماعة من جيش الإمام على بن أبي طالب الذى كان يحارب معاوية بن أبي سفيان في وقعة صفين المشهورة فى سنة ٣٧ هـ . فلما اجتمع رأى الفريقين المتحاربين على قبول التحكيم بدل المضى فى القتال ، ورجع كل فريق إلى قاعدته : على إلى الكوفة ، ومعاوية إلى دمشق ، رأت تلك الجماعة أن قبول التحكيم كان ضلالا من الضلال ، وأن الواجب كان يقضى بأن يمضوا فى القتال حتى ينزل الله حكمه بنصر فريق على فريق ، ومن ثم مقالتهم المشهورة « لاحكم إلا لله » . واعتبروا كل من قبل التحكيم مرتدا عن الإسلام ، لا يبرء من ردته إلا بالتوبة ورفض التحكيم واستئناف القتال . وقد بدءوا فى ذلك بأنفسهم ، وأرادوا عليا على مثل ذلك ، فأبى أن يتابعهم على رأيهم وأقام الحجة عليهم . فما كان منهم إلا أن اعتزلوه ، ونزلوا مكانا بظاهر الكوفة يقال له « حروراء » منابذين له مجاهرين بالخلاف عليه . ومن ثم عرفوا بالحرورية ، وبالخوارج لخروجهم على على ، وبالمحكمة لقولهم « لاحكم إلا لله » .

---

(١) خلاصة محاضرة ألقيت بمعهد المعلمات بالاسكندرية فى ٨ مارس سنة ١٩٤٨ .

ونلاحظ قبل كل شيء، أن الخوارج عرب خلص ينتمي أغلبهم إلى قبائل تميم وحنيفة وربيعة الذين كان لهم في الجاهلية عز ومنعة وبأس فلما جاء الإسلام وألقى بجرانه على الجزيرة اعتنقوه واعتقدته قلوبهم بعد أن نطقت به ألسنتهم، واستساغوا منه بوجه خاص مبادئه الديمقراطية التي تلائم مزاجهم وتتفق وتقاليدهم، وأنزلوها من قلوبهم منزلة مثلهم القبلية التي يفدونها عند الاقتضاء بمهجهم وأرواحهم. وقد أبلوا في إقامة الدولة العربية ومد فتوحها وفي نشر الدعوة الإسلامية أعظم البلاء. وكانوا يظنون أنهم سيضيفون بذلك عزا طريفاً إلى عزهم التليد، ويضمون مجدا حديثا إلى مجدهم القديم، فإذا بهم أصبحوا يرون أن قد غلبوا على أمرهم، وأن العز كله، وأن المجد كله، قد أصبح لارستقراطية مكة والمدينة، فأعادوا حركة الردة جذعة ولكن في صورة إسلامية لاغبار عليها. فلم يكن موقفهم من التحكيم في حقيقة الأمر إلا ظاهرا يحجب باطنا هو ماذكرناه.

* * *

أصبحت الخوارج في حروراء يرون أنهم وحدهم (ومن انضم إليهم بعد) الفئة المسلمة المؤمنة حقا، وأن من سواهم من المسلمين كفار يجب جهادهم وردهم إلى حظيرة الدين. وقد شدوا حيازيمهم للأمر العظيم، وشمروا عن سواعدهم للخطب الجسيم، وأقبلوا على أمرهم في حماسة دينية متقدة، وشجاعة نادرة، وإخلاص عميق، وصبر عجيب.

ولكي يميزوا أنفسهم عن سائر المسلمين، ويصلوا إلى تحقيق غرضهم الديني والدنيوي. صاغوا لأنفسهم مذهبا أو برنامجا شاملا متحدا في أصوله وجوهره ويختلف في الفروع باختلاف الخوارج أنفسهم من حيث الغلو والاعتدال. فأما

من الناحية السياسية لجميع الخوارج يرون الشورى وأن الخلافة حق لكل من اتصف بصفاتها وحوى مايؤهل لها من تقوى وزهد وشجاعة ، ولاعبرة عندهم بالحسب والنسب والعربية والأعجمية . أخذوا ذلك من قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » بل لقد ذهب بعض فرقهم إلى إمكان الاستغناء عن الحكومة وعن الخلافة لأن الناس يتوازعون ويتكافون باحتياج بعضهم إلى بعض واشتباك علاقاتهم ، فني ذلك مايكفى لردهم عن الظلم وصدهم عن الجور وعدم الإنصاف .

ثم إن للخوارج من ناحية العقيدة المحضة آراء فى معنى الإيمان والمعاصى ما يكفر منها وما لا يكفر ، وفى التقية ، وهى إسرار الإيمان وإظهار الكفر عند الحرج وخوف الفتنة ، هل تجوز أو لاتجوز ، وفى غيرهم من المسلمين هل هم كفار عقيدة أو كفار نعمة ، وفى معاملتهم والتزوج منهم وتزويجهم وموارثتهم، هل تجوز أو لاتجوز. هذه الآراء مبينة فى أخبارهم مقررة فى تواريخهم ولهم فقهاء مجتهدون يبينون لهم الحلال والحرام ، على حسب اجتهادهم وفقههم، كما لهم شعراء بلغاء ينشرون مثلهم وعواطفهم فى شعر بليغ سيار .

والخوارج جميعا يتصفون بأخلاق عظيمة وصفات نبيلة منها الزهد فى الدنيا والحرص على طلب الشهادة ويبرأون من الكذب، ولهم فى ذلك نوادر طريفة وأخبار عجيبة .

فمن الأمثلة الدالة على شدة زهدهم، مايروى من أن زياد بن أبى سفيان بعد أن قتل عمرو بن أدية الخارجى سأل مولى له عن سيرته فقال أأطنب أم أختصر؟ فقال له بل اختصر ! فقال : ما أتيته بطعام بنهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط ! .

ومن أمثلة شجاعتهم أن منهم من طعن فى الحرب فأنفذه الرمح الجمل يسعى فيه إلى قاتله وهو يتلو قوله تعالى « وعجلت إليك رب لترضى » .

ومن أمثلة استمساكهم بالصدق ماروى من أن أحد زعمائهم وهو مرداس ابن أدية أدخل حبس عبيدالله بن زياد أمير العراق فرأى صاحب السجن شدة اجتهاده وحلاوة منطقه ، فقال : إنى أرى لك مذهبا حسنا ، وإنى لأحب أن أوليك معروفا . أفرأيت إن تركتك تنصرف ليلا إلى بيتك، أتدلج إلى ؟ قال : نعم ! قال فكان يفعل ذلك . ولج عبيد الله فى حبس الخوارج وقتلهم . فلما كان ذات يوم قتل رجل من الخوارج رجلا من الشرط ، فقال ابن زياد : ما أدرى ما أصنع بهؤلاء، كلما أمرت رجلا بقتل رجل منهم قتلوا قاتله . لأقتلن من فى حبسى منهم. وأخرج السجان مرداسا إلى منزله كما كان يفعل . وأتى مرداسا الخبر. فلما كان السحر تهيأ للرجوع . فقال له أهله : اتق الله فى نفسك ، فإنك إن رجعت قتلت . فقال إنى ما كنت لألقى الله غادرا . فرجع إلى السجان . فقال قد علمت ماعزم عليه صاحبك . فقال السجان : أعلمت ورجعت ؟ ! .

ولفرط شجاعتهم فى الحرب وشدة حملاتهم واستقتالهم كانت أعداد يسيرة منهم تهزم جماعات كبيرة من جيوش الدولة كما حدث فى واقعة آسك إذ هزم أربعون من الخوارج ألفين من جند الدولة الأموية . وفى ذلك يقول شاعر الخوارج :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بآسك أربعونا ؟
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا

. . . .

فمن أجل الديمقراطية المتطرفة التى كان يقول بها الخوارج فى أمر الخلافة

قد أسخط الخوارج بنى أمية وقريشا وأرستقراطية العراق حيث تعددت فرقهم وانتشرت تعاليمهم وعظم نفوذهم . ومن أجل تكفيرهم سائر المسلمين واستحلالهم منهم ما يستحلون من الكفار قد أثاروا عليهم سخط العامة جميعا ولقد تجردت الدولة الإسلامية لقتالهم والعمل على استئصالهم وحاربتهم حربا طاحنة لا هوادة فيها دامت نحو قرن ونصف قرن من الزمان. حاربهم على يوم النهروان وأوقع بهم هزيمة منكرة. وقد جر انتصاره عليهم إلى اغتيالهم إياه على ما هو معروف. وحاربهم زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله بن زياد والمغيرة بن شعبة . وحاربهم الحجاج بن يوسف بنفسه وبقواد كبار أشهرهم المهلب بن أبي صفرة . وقد خضد الحجاج شوكة الخوارج الغلاة المعروفين بالأزارقة والصفرية وقتل كبار زعمائهم أو خلفائهم أمثال نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة ، وعبيدة بن هلال ، وشبيب . كما حوربت الخوارج النجدية فى شرقى بلاد العرب وقتل زعيماهم نجدة وأبو فديك . أما الأباضية وهم أكثر فرق الخوارج اعتدالا فلم يلجأوا إلى العنف كما فعلت الفرق الخارجية الأخرى . لذلك احتملتهم الدولة الأموية فسلموا من الإبادة وبقوا حتى يومنا هذا فى أنحاء من العالم الإسلامى وخاصة بلاد المغرب وعمان وشرقى إفريقية .

ولما اضطرب أمر الدولة الأموية ظهرت الخوارج مرة أخرى فى الحجاز واليمن وشمال إفريقية ، ثم قامت الدولة العباسية فذهبت ريح الخوارج بذهاب دولة العرب وقيام دولة عصبيتها من الأعاجم . واستحال الخوارج قطاع طرق ومتلصصة ، وكانت آخر خرجة مشهورة لهم خرجة الوليد بن طريف الشيبانى فى الجزيرة وأرمينية وذلك على عهد الرشيد . وبقت بقية منهم إلى زمن المتوكل على الله العباسى . ثم ينتهى أمرهم وتخمد حركتهم فلا نحس لهم صوتا بعد ذلك.

ولعل القارىء يكون قد تبين مما تقدم سبب انقراض الخوارج وذهاب ريحهم . إن الخوارج لم يؤتوا من قبل مذهبهم السياسى، فذلك المذهب ديمقراطى إسلامى لا غبار عليه . ولم يؤتوا بالطبع من قبل غيرتهم الدينية وورعهم واستقامة وأخلاقهم ، فذلك كان مثار إعجاب الرأى العام الإسلامى وخاصة رأى المثقفين منهم أمثال الإمام مالك بن أنس وأبى العباس المبرد صاحب كتاب « الكامل » وإنما أتى القوم من قبل تنطعهم فى الدين وعدهم سائر المسلمين كفارا خارجين من الملة وانعدام الروح السياسى عندهم . فذلك الذى جر عليهم وعلى مذهبهم البوار .

* * *

ونساء الخوارج يشاركن رجالهم فى كل ماذكرنا من فضائلهم من تقى وورع وشجاعة وأدب واجتهاد .

ولو أن ألد خصوم المرأة وهو أبو العلاء المعرى استحضر عند نظمه قصيدته التائية الكبرى سير نساء الخوارج ما قال :

وإن تعط الإناث فأى بؤس ... تبين فى وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حليا ... ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب ... ولا فى غارة متغشمات
ودفن والحوادث فاجعات ... لإحداهن إحدى المكرمات
وقد يفقدن أزواجا كراما ... فيا للنسوة المتأيمات
يلدن أعاديا ويكن عارا ... إذا أمسين فى المتهضمات

ولنمثل لنساء الخوارج بذكر طائفة من مشهوراتهن يستبين منها القارىء صدق وصفنا لهن .

(١) فنهن قطام بنت علقمة من تيم الرباب وكانت من أهل الكوفة . وهى التى أراد عبدالرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب التزوج منها فقالت له: «لاأقنع منك إلا بصداق أسميه لك ، وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وأمة وأن تقتل عليا». فقال لها : لك ماسألت ! فكيف لى به ؟ قالت تروم ذلك غيلة . فإن سلمت أرحت الناس من شر ، وأقمت مع أهلك ، وإن أصبت صرت إلى الجنة ونعيم لايزول . وفى ذلك يقول ابن ملجم :

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من على وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

ونحن نعرف ماصار إليه أمر ذلك الفاتك من قصاص عاجل عادل .

(٢) ومنهن البلجاء التميمية وكانت كما يقول أبو العباس المبرد من مجتهدات الخوارج : وكان أبو بلال مرداس بن أدية قد لقيه صاحب له فقال : يا أبا بلال ! إنى سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء ، وأحسبها ستؤخذ . فمضى إليها أبو بلال ، فقال لها : « إن الله قد وسع على المؤمنين فى التقية ، فاستترى فإن هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك . قالت : « إن يأخذنى فهو أشقى بى . فأما أنا فما أحب أن يعنت إنسان بسببى . فوجه إليها عبيد الله بن زياد فأتى بها فقطع يديها ورجليها ورمى بها فى السوق . فمر بها أبو بلال والناس مجتمعون ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البلجاء ! فعرج إليها ، فنظر ، ثم عض على لحيته وقال لنفسه : « لهذه أطيب نفسا عن بغية الدنيا منك يامرداس ! »

(٣) ومنهن أم كهمس : كان ممن قتل ابن زياد من الخوارج رجل يقال له كهمس ، وكان من أبر الناس بأمه . فقال لها يا أمتا ! لولا مكانك لخرجت

فقالت « يابنى ! قد وهبتك لله » فخرج فحارب فقتل مع جماعة من أصحابه ، فقالت فيهم أم الجراح العدوية، وهى من نساء الخوارج، ترثيهم وتخاطب قاتلهم ابن زياد :

وما بعد مرداس وعروة بيننا   وبينكم شيء سوى عطر منشم

فلست بناج من يد الله بعدما   هرقت دماء المسلمين بلا دم

(٤) ومنهن بنت عروة بن أدية ، قالوا لما قتل ابن زياد عروة بن أدية بعث برأسه إلى ابنته . فجاءت وجثته مطروحة بين يدى ابن زياد ، فقال لها « أنت على دينه ؟ » قالت « وكيف لا أكون على دينه ، وما رأيت قط خيرا منه ! » وأمر بها فقتلت مع أبيها .

(٥) ومنهن جذعة ، قالوا خرج رجل وامرأة ومعهما سيفان فحكما فى مسجد البصرة ، (أى قالا لاحكم إلا لله) ثم أخذت المرأة نحو بنى سليم، وأخذ الرجل نحو رحبة بنى تميم ، فرآها قد بعدت منه ، فناداها « ياجذعة ! اقربى منى ! » فقالت « إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون » فقتلهما الناس .

(٦) ومنهن المرأة التى أرادت الثأر لمقتل نافع بن الأزرق كبير الخوارج الأزارقة والمقتول فى وقعة دولاب بالأهواز سنة ٦٥ هـ قال سلامة الباهلى : « قتلت نافعا فطالبتنى بثأره امرأة كانت تدعونى إلى المبارزة ونحن نقاتل عبيد الله ابن الماحوز »

(٧) ومنهن أم حكيم زوجة قطرى بن الفجاءة على رأى أو بعض من كان يقاتل معه على رأى آخر . روى الأصبهانى بإسناده قال « إن امرأة من الخوارج كانت مع قطرى بن الفجاءة يقال لها أم حكيم وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجها وأحسنهم بدينهم تمسكا ، وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجب إلى ذلك .

فأخبرنى من شهدها أنها كانت تحمل على الناس وترتجز !

أحمل رأسا قد سئمت حمله   وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عنى ثقله !

قال وهم يفدونها بالآباء والأمهات فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها، وفى أم حكيم هذه وفى وقعة دولاب يقول قطرى :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد   وفى العيش ما لم ألق أم حكيم

من الخفرات البيض لم ير مثلها   شفاء لذى بث ولا لسقيم

لعمرك إنى يوم ألطم وجهها   على نائبات الدهر جد لئيم

ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت   طعان فتى فى الحرب غير ذميم

إلى أن يقول :

فلو شهدتنى يوم ذاك وخيلنا   تبيح من الكفار كل حريم

رأت فتية باعوا الآله نفوسهم   بجنات عدن عنده ونعيم

(٨) ومنهن جهيزة أم شبيب رأس الخوارج الصفرية ، وغزالة زوجته . قالوا لما اشتدت الحرب بين شبيب وبين الحجاج بن يوسف أمير العراق كانت جهيزة أم شبيب وغزالة زوجته تقاتلان معه . ونذرت غزالة لله إن هى دخلت الكوفة عاصمة الحجاج أن تعمد إلى المسجد الجامع فتصلى فيه وتتلو سورتى البقرة وآل عمران . ودخل شبيب الكوفة وخرج منها الحجاج هاربا ، وقد وفت غزالة يومذاك بنذرها . ويشير إلى ذلك شاعر من الخوارج يقال إنه عمران بن حطان بقوله يعير الحجاج فراره من غزالة :

صدعت غزالة قلبه بفوارس   تركت كتائبه كأمس الدابر

أسد على وفى الحروب نعامة   ربداء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحى طائر
ألق السلاح وخذ وشاحى معصر ... واعمد لمنزلة الجبان الكافر

ثم إن الحرب استؤنفت بين شبيب والحجاج فقتلت جهيزة أم شبيب وكانت قد قاتلت قتالا شديدا حتى قال الناس :

أم شبيب ولدت شبيبا ... هل تلد الذيبة إلا ذيبا ؟!

وقتلت كذلك زوجته غزالة . واحتز رأسها فقال الحجاج عند ذلك : « والله ما قوتل قبل اليوم ولا قبل موت هذه ! »

(٩) ومنهن امرأة جيء بها إلى الحجاج وبحضرته مولاه يزيد بن أبى مسلم وكان يستسر برأى الخوارج، فكلم الحجاج المرأة فأعرضت عنه، فقال لها يزيد : « الأمير ويلك يكلمك » فقالت : « بل الويل لك أيها الفاسق الردىء » قالوا والردىء عند الخوارج هو الذى يعلم الحق من قولهم ويكتمه .

(١٠) ومنهن امرأة تسمى مريم كانت تقاتل مع أبى حمزة الخارجى الذى خرج بالحجاز ، وكانت تقاتل مع زوجها ، فقتل زوجها وقتلت وهى ترتجز :

أنا ابنة الشيخ الكبير الأعلم ... من سال عن اسمى فاسمى مريم
بعت سوارى بسيف مخذم

(١١) ومنهن الفارعة ليلى بنت طريف الشيبانى. رووا أن الوليد بن طريف الشيبانى خرج فى سنة ١٧٨ هـ فى خلافة هارون الرشيد، بالجزيرة وأرمنية ، وفتك بعـامل الرشيد واستطار شره فى تلك الجهات استطارة النـار فى الهشيم وجبى الأموال، فسير الرشيد إليه يزيد بن مزيد الشيبانى فقاتله فقتله ، فصبحتهم أخته ليلى بنت طريف مستعدة عليها الدرع فجعلت تحمل على الناس فعرفت. فقال يزيد قائد جيش الرشيد « دعوها» ثم خرج إليها فضرب بالرمح

قطاة فرسها ثم قال « اعز بي عزب الله عليك! » فاستحييت وانصرفت . ثم رثت أخاها الوليد بهذه المرثية التي تعد من فاخر الشعر العربي وناصعه :

بتل تباثى رسم قـبر كأنه ... على علم فوق الجبـال منيف
تضمن جـودا حاتميا ونائلا ... وسورة مقدام وقلب حصيف
ألا قاتل الله الجثى كيف أضمرت ... فتى كان بالمعروف غير عفيف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد ... فيارب خيل فضها وصـفوف
ألا يالقومى للنوائب والردى ... ودهـر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب قدهوى ... وللشمس همت بعده بكسوف
فياشـجر الخابور مالك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الخيل إلا كل جرداء شطبة ... وكل حصـان باليدين عزوف
فـلا تجزعا يا ابنى طريف فإننى ... أرى الموت نزالا بكل شريف
فقـدناك فقدان الربيع فليتنا ... فـديناك من دهمائنا بألوف

واعتمر الرشيد فى تلك السنة فى شهر رمضان شكرا لله على قتل الوليد بن طريف .

...

كانت غزالة خاتمة نساء الخوارج اللاتى ظهرن على مسرح الحوادث العامة ونقلت الينا أخبارهن أو أطراف منها . وكل من ذكرنا منهن يتصف بصفات الشجاعة والجراءة والغيرة الدينية والثبات على المبدأ، هذا الى ثقافة عالية ملحوظة تسلك غير واحدة منهن فى عداد مجتهدى هذه الفرقة وخطبائها وشعرائها .

والمرأة الخارجية إنما تحتفظ فى كل ذلك بتقاليد المرأة العربية الصميمة إن

قبل الأسلام وإن صدر الدولة الأسلامية . فأما قبل الأسـلام فنعد بلقيس التى كانت ملـكة عظيمـة على بـلاد اليمن والتى راسلها سليمان ملك بنى إسرائيل ، وقد قص القرآن الـكريم قصتها فى سورة « النمل » فليرجع اليها .

ونعد الزباء ملـكة تدمر وقد ساجلت الامبراطور الرومانى أوريليان حربا شديدة فى القرن الثالث الميلادى . كما نعـد سجـاح بنت الحرث التميمية التى قادت الجيوش فى حرب الردة لقتال الخليفة أبى بكر الصـديق . وأما صـدر الدولة الأسـلامية فنـذكر على سبيل المثال نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوجـة الخليفـة الثالث عثمان بن عفـان وكانت عند زواجها منـه جميـلة وسيمة وفى عنفوان شبابها ، على حين أن زوجها كان شيخا قد جاوز السبعـين من عمره ، ومع ذلك فقد كانت وفية له حيـا وميتا . فهى التى قامت تذود عنه يوم الدار فنفح أحد قتلة عثمان يدها بالسيف فأطار أصابع يدها ، فلما قتل عثمان وأراد معاوية خطبتها إعجابا منه بثغرها فيما يقولون عمدت إلى أسنانها فهتمتها بخاتم فى إصبعها ليذهب جمال ثغرها فينصرف عنها معاوية ، وقد كان ذلك .

ولا ننسى عائشة بنت أبى بكر الصديق وزوجة الرسول عليه السـلام وقد جمعت من الحديث ووعت من الفقه ما جعلها عمـدة المحدثين والفقهاء ، ولقد قادت الجيوش فى وقعة الجمل واستهـدفت للموت حتى ليروون أن الجمل الذى كان عليه هودجها صار مثل القنفذ لـكثرة ما وقع فيه من السهام فى تلك الوقعة .

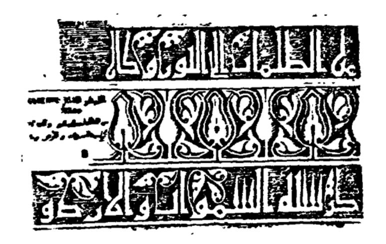
ثم تبرز المرأة العربية الخارجية فتحتفظ بهذه التقاليـد طوال مائه وخمسين عاما أو تزيد فلما تحولت الحال فى الدولة الإسلامية وغلب رجال العرب على أمرهم على أيدى موالى الفرس ومماليك الترك وعادوا إلى بواديهم يعيشون رعاة إبل وغنم أو متلصصة وقطاع طرق . فكذلك كان شأن المرأة العربية ، فقد غلبت

على مكانتها ومنزلتها ، غلبها جوارى وسريات الأعاجم من فرس وترك وروم وصقالبة فعادت إلى الانزواء والخمول بعد نباهة الذكر وعلو القدر .

ومما هو جدير بأن يلحظ فى هذا المقام أن مجد المرأة العربية ، قد صاحب مجد الدولة العربية ، ولاشك أن بين الأمرين اتصالا وثيقا . فالمرأة العربية الخارجية التى وصفناها هى من نوع المرأة التى أنجبت أولئك القواد العظام والجنود البواسل والإداريين الكبار الذين شادوا الدولة العربية الإسلامية القديمة ورفعوا عمادها ،

هـــل تلد الذيبـــة إلا ذيبا ! أم شـــيب ولدت شبيبـــا

فلما صار الأمر إلى ما صار إليه انحط المستوى الأخـلاقى للمرأة المسلمة بانحطاط المستوى الأخـلاقى العام . يروى أن المعز لدين الله الفاطمى لبث زمنا يتهيب الإقـــدام على فتـح مصر ، فلما قيل له إن نساء قصر الأخشيد مستهترات ولا يعبأن بالفضيلة قال « الآن فتحت مصر » وسير من فوره إلى مصر جوهرا بحملته المشهورة ؟



الأدب العربى المصرى[1]

تاريخه ، إهمال دراسته

١

تألفت منذ أشهر بمدينة القاهرة جماعة من أنصار التاريخ وأساتذته ، والغرض من تأليفها دراسة التاريخ المصرى وإذاعته بين جمهور المتعلمين بإلقاء المحاضرات التاريخية أو نشرها فى مجلة خاصة بها . ومن أمانى تلك الجماعة التى ترجو أن تحققها الأيام وضع كتاب كبير فى تاريخ مصر ، يكون مرجعا للقراء وعمدة للبحاث فى التاريخ المصرى .

نزعة شريفة ، وعمل جليل ، له فى تكوين قوميتنا المصرية وتقويتها أثر غير ضعيف . على أن قومية الأمة إنما تقرب من حد الكمال متى عرفت الأمة تاريخها تاما غير مبتور . وذلك بأن يدرسه أبناؤها من جميع نواحيه السياسية والمادية والأدبية . فإنا إذا اعتقدنا أن الأمة كائن حى ، واعتقدنا كذلك أن أحسن التواريخ ما صور لنا ماضى الأمة أتم تصوير ، فلا بد أن ننساق مع القياس المنطقى فنقول : إن التاريخ نفسه يجب أن يكون من حيث تصويره الأمة كائنا حيا ذا جسم وروح . وما الجانب الجثمانى للتاريخ إلا ما كان منه متعلقا بالسياسات والماديات . أما الجانب الروحانى فما كان متعلقا بالأدب وما ينتسب إليه من العلوم .

---

(١) مقالة نشرت بمجلة السفور ، عدد ١٧١ : ١٦ سبتمبر ١٩١٨ ، وقد قصدنا بنشر هذا المقال والذى يليه مجرد اثبات تاريخ الفكرة لا أكثر .

وهيهات أن يفقه قارىء كنه تاريخ أمة من الأمم إذا اقتصر على الجانب الجثمانى من تاريخها وأغفل الجانب الروحانى. خذ لذلك مثلا أمة الإغريق القدماء. فحياة هذه الأمة السياسية مملوءة بالعيوب والنقائص. ولو أنك أردت الحكم عليها من تاريخها السياسى لجعلتها فى آخريات الأمم التاريخية. ولكنك إذا ما قرأت أدبها فبهرك ماترى من روعة وجمال لم تلبث أن تنسخ حكمك وترفعها فوق أمم الأرض مكانا عليا.

فلا بد لمن يريد أن يفقه تاريخ أمة من الأمم أن يطالع فى صحيفتها الأدبية نزوات عواطفها، وحركات أفكارها، كما يطالع فى صحيفتها السياسية نظام حكومتها وتحرك جيوشها وتعاقب أسرها الحاكمة عليها.

من أجل ذلك نرى أن عمل جماعة التاريخ المصرى فى حاجة ماسة إلى عمل جماعة أخرى، تتوفر على جمع الأدب العربى المصرى من شعر ونثر، ثم دراسته، ووضع تاريخ له تكون صلته بتاريخ أدب اللغة العربية العام صلة تاريخ الأدب الامريكى بتاريخ أدب اللغة الانجليزية العام.

لقد طال العهد على إهمال الأدب المصرى وتاريخه، حتى أصبح أكثرنا يعتقد ألا أدب للغة العربية المصرية. ومصدر ذلك الاعتقاد فى رأينا أن أغلب الكتب العربية والافرنجية التى وضعت فى تاريخ أدب اللغة العربية قد أغفلت الأدب المصرى. ولا نعلم كتابا عربيا يسلم من ذلك النقد إلا كتاب «أدب اللغة العربية» لجرجى بك زيدان. على أن مؤلف هذا الكتاب إنما عطف على الأدب المصرى فى العصور الأخيرة، لأنه جزء متمم لأدب اللغة العربية لا لأنه قائم بنفسه.

وسنبين فى مقال تال أسباب ذلك الإهمال إن شاء الله.

الأدب العربى المصرى وتاريخه[1]

أسباب إهمالهما

٢

بينا فى مقالنا السابق ضرورة العمل على جمع تراثنا الأدبى ووضع تاريخ له يدرس فى المدارس ثانويها وعاليها . ووعدنا أن نبين ماصرف أقلام الكتاب الأقدمين والمحدثين عن الأدب المصرى . وها نحن أولاء نفى القارىء بما وعدنا .

لقد كان السبب الأساسى لذلك التقصير الأدبى فى نظرنا : الاعتقاد القديم العام بأن الأدب المصرى أحط منزلة وأقل مقدارا من أخويه العراقى والأندلسى . فليس فى مصر إذا عدت الشعراء يوم الفخار من يسامى جريرا أو أبانواس والمتنبى وابن هانىء ، ولا من الكتاب والفلاسفة من يشق غبار عبد الحميد وابن المقفع وابن سينا وابن رشد . ذلك الاعتقاد إن يكن على وجه الإجمال صحيحا فإنه لدى التفصيل لا يسلم من معرة الخطأ وركوب الاعتساف . ولو درس الأدب المصرى القديم حق دراسته لارتفع أقوام وانخفض آخرون ، ولكان للأدب العربى عامة نظام غير نظامه المعهود .

فلنقل الحقيقة المرة على علاتها : لنعتقد مع الأقدمين بأن الأدب المصرى أقل منزلة وأقل مقدارا من أخويه العراقى والأندلسى . فما مصدر تلك الحطة وهذه القلة ؟ لكى نجيب على هذا السؤال يجب أن ننظر إلى حال مصر السياسية من

(١) نشرت بالعدد ١٧٢ من مجلة السفور سنة ١٩١٨ .

لدن الفتح العربي إلى مختتم القرن الثامن عشر ، أى إلى مبدأ النهضة الحديثة . وذلك لاستحكام الصلة بين فساد تلك الحال سياسيا ونقص الادب المصرى فى عهدها .

لقد تعاقب على مصر فى تلك المدة حالات سياسية ثلاث : فكانت مصر إما ولاية تابعة لغيرها ، كما كانت زمن الخلفاء الراشدين وبنى أمية وصدر بنى عباس ، وإما مملكة مستقلة تحكمها خلافة شيعية كما كانت زمن الخلافة الفاطمية وإما مملكة تابعة لخليفة أجنبي وخاضعة لحكومة غير مصرية كما كانت زمن الأيوبيين والماليك وولاة الأتراك العثمانيين .

ذلك الاستخذاء السياسى وهذا الاستقلال المقرون بالخضوع لخلافة شيعية قد أثر فى الأدب المصرى أسوأ التأثير .

ذلك بأن الأدب عامة إنما يزكو فى دور العزة وأمكنة السلطان ويذوى فى مواطن الذلة والخضوع . والأدلة على ذلك كثيرة متعددة .

فالأدب الإغريقى علا وامتد نوره زمن حرية الإغريق السياسية ، وخمدت جذوته بالفتح المقدونى . والحياة العلمية الزاهية التى كانت بالإسكندرية إبان حكم البطالمة إنما تأدى إليها الاعتلال والموت بالفتح الرومانى . ثم إن الأدب من شأنه أن ينبسط ظله فى أرض ولاة أمورها يحرصون عليه . ولكن ظله ينقبض إذا كان فى أرض حكامها لا يتذوقون لغة أهلها وأدبهم طعما ، كما [illegible] الأندا [illegible] حين فتح الملثمون الأندلس ، وكانوا أقواما من همج البربر لا يكادون يفقهون من أدب الأندلسيين وحضارتهم شيئا . وبعد هذا كله فالأدب الإسلامى سنى المذهب ويأبى أن يزهر ويؤتى أكله فى ظل حكومة شيعية العقيدة .

فأنت ترى أن الأدب المصرى قد نكب فى الزمن الماضى من ناحية

الحال السياسية نكبة شديدة ، نكبة أثرت فى قدره ومقداره معا وصرفت عنه أقلام المؤرخين إلى الأدب المشرق الفخم والأندلسى العذب . وليس ذلك بعجيب . إنما العجيب أن نمضى نحن المحدثين على سنه آبائنا ونعتقد اعتقادهم فى أدبنا القديم . ثم لا نقف عند هذا الحد ، بل نبسط سلطان اعتقادهم على أدبنا الحديث مع أنه مما نباهى به غيرنا إن فاتتنا المباهاة بأدبنا القديم .

وبعد فإنا بناة قومية والواجب يقضى علينا بأن نجمع شمل أدبنا المشتت وندرسه فهل يجيب رجال الأدب فى مصر دعوة الواجب كما أجابها من قبلهم رجال التاريخ ؟

البعث ...(1)

نغتبط أشد الاغتباط بمظاهر الحياة التى دب دبيبها وسرى تيارها فى العالم فى العام المنصرم من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، فكل قطر إسلامى قد هب بعد طول الرقاد، وصحا بعد نوم مستغرق عميق. فأهل أندونيسيا الذين لا تعلم جمهرة المسلمين عنهم الشىء الكثير قد قاموا بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها يطلبون حقهم الطبيعى فى الوجود وهو الحرية والاستقلال. والهند فى قلق واضطراب طال أمدهما. وإيران وتركيا تعانيان كلب جار قوى وخصم ألد عنيد. والعالم العربى قد نهض يجمع شتاته ويطامن بين أجزائه ويسوى صفوفه استعدادا لارتجاع مجد داثر وعز قديم. وفلسطين قد اعتدل فيها ميزان الأمور وأخذت كفة العرب فى الرجحان بعد أن مالت بها كفة الصهيونية أو كادت تميل. والمغرب قد أخذ يرسل الصيحة تلو الصيحة مناشدا أعضاء الجامعة العربية ألا يسقطوه من عدادهم وأن يبسطوا عليه جناح محبة وعاطفة حنان. والسودان فى حركة تؤذن بانبعاث الحياة فى جثمانه.

* * *

هى حياة إن شئت فشبهها بالنار الكامنة فى الحجر الصلد، فلما اقتدحها زناد الأحداث إذ هى قد تطاير شررها وتوشك أن يكون لها لهيب وضرام. وإن شئت فشبهها بالحيوية المستكنة فى الحبة أو النواة فما هى إلا أن توافرت لها أسباب النمو فإذا هى شجرة باسقة مورقة فينانة توشك أن تخرج أنضر الزهر وتحمل

(1) الثقافة فى 11 ديسمبر 1945.

أطيب الثمار . أو بالبخار المنبث فى الهواء لا تحسه العين ولكنه متى تهيأت له أسباب التكاثف والانعقاد إذا هو رذاذ متساقط إلى الأرض يوشك أن يكون مطراً هطالا تسيل منه الأودية والقيعان وتخضر الوهاد والنجاد .

وأى شيء ذلك الذى اقتدح هذه النار الكامنة واستنبت تلك الحبة الهامدة وعقد ذلك البخار المبثوث ؟ إن شئت فقل هو تحكم شراذم من الهولنديين فى ملايين من الأندونيسيين ، وإصرار الإنجليز على التمسك بالهند وجهرهم بأن الهند ألمع درة فى تاج دولتهم المترامية الأطراف ، وشدة وطأة الروس على إيران وتركيا فى غير تحرج ولا استحياء ، وخطر الصهيونية الذى جعل من فلسطين القطب الذى تدور عليه رحى الجامعة العربية ، وإغراق المستعمرين من الفرنسيين ومن إليهم من الأسبان والطليان فى إذلال المغاربة وإماتة ما فيهم من شعور بالعزة والكرامة والاستقلال .

على أن ذلك كله ما كان ليؤثر أثره لو لم يكن فى المسلمين ذماء من روح وأثارة من يقين وبقية من صدق الإيمان . الحق أن المسلم ، مهما قست عليه الحوادث وتحيفه صرف الزمان ، قوى الشعور بكرامته ، شديد الاعتزاز بعقيدته ولغته وتراثه وماضيه الضخم ، خلال تنزع إلى أعراق قديمة قدم التاريخ ، بل لعلها أقدم من التاريخ .

* * *

فى القرآن الكريم آيات وقصص كثيرة تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يحي الموتى ، فهو جل اسمه حاشر الخلق أجمعين يوم القيامة ومحاسبهم على ما كسبوا وما اكتسبوا ، وعارضهم على الجنة والنار كل بحسب استحقاقه وما قدمت يداه . وهو سبحانه قد يميت من عباده من يشاء موتا مؤقتا ثم يبعثه

ليكون لنفسه ولغيره من الناس آية وعبرة ، من ذلك إماتته عزيراً ثم بعثه إياه بعد مائة عام . وقد يلقى الله النوم على جماعة بعينها مئين من السنين ثم يبعثها إيماء منه إلى أن لكل رجال زمانا لا ينبغى أن يسبقوه أو يتخلفوا عنه ، وهو يورد مثلا لذلك قصة أهل الكهف والرقيم . وقد يحيى سبحانه حيوانا بعد إماتته إحياء معجلا سريعا ، إشارة منه إلى حكمة بالغة ، من ذلك إحياؤه الطيور الأربعة التى أمر إبراهيم الخليل أن يذبحها ويقطع أوصالها ويجعل على كل جبل منهن جزءا ثم يدعوها ، فلما فعل أتت إليه الطيور سراعا مشيا وطيرانا . قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » ويقول المفسرون إن هذه الطيور الأربعة كانت طاووسا وديكا وغرابا وحمامة . ويقولون إن فى القصة إيماء لطيفا إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يأتى بإماتة الشهوات والزخارف التى هى صفة الطاووس ، والصولة المشهور بها الديك ، وخسة النفس وبعد الأمل المتصف بهما الغراب ، وقلة الرغبة فى الترفع والمسارعة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام .

ترى هل أمات الله الأمم الإسلامية أو ألقى عليها نوما ثقيلا حقبة من الزمن ... ن بحياتها عندما غيرت ما بأنفسها من صفات الشر وأنشأت تتحلى بصفات الخير ؟

أكبر ما نأمل أن يكون الأمر كذلك ، فيكون ما نشاهد فى أنحاء العالم الإسلامى من مظاهر الحياة بداية لمستقبل مجيد تنعم به الأمم الإسلامية وتستفيد منه الإنسانية جمعاء .

كشاف

القسم الأول

عصر الدولة العباسية

أبو العباس «السفاح»*

هل تلقب بالسفاح وهل كان سفاحاً للدماء حقا ؟

كان أبو العباس الملقب بالسَّفّاح أوّل خلفاء بنى العباس ؛ وَلِيَ الخلافة عام ١٣٢ ، وتوفى عام ١٣٦ ، وكان شاباً لم تزد سنه وقت أن توفى على ست وثلاثين سنة على أكثر تقدير . جميل الخلقة ، وسيم الطلعة ؛ يقول فيه الطبرى إنه « كان ذا شعرة جعدة ، طويلا أبيض ، أقنى الأنف ، حسن الوجه واللحية » . ويروى ابن الأثير أنه « نظر يوماً فى المرآة ، وكان من أجمل الناس وجهاً ، فقال : اللهم إنى لا أقول كما قال سليمان ابن عبد الملك : أنا الملك الشاب ، ولكنى أقول : اللهم عمرنى طويلا فى طاعتك ممتعاً بالعافية ! »

وكان أبو العباس متصوناً عفيفاً ، حسن المعاشرة لأهل بيته . روى المسعودى أنه كان قبل الخلافة فقيراً مملقاً ، واتفق أن رأته أم سلمة المخزومية ، أرملة سليمان بن هشام بن عبد الملك ، فأعجبت به ، ورامت التزوج منه ، فاعتذر بضيق ذات يده ، فأرسلت إليه من المال ما وفى بحق الصداق والهدية . وقد حلف لها ألا يتزوج عليها ولا يتسرى . فلما صارت إليه الخلافة ، وسيقت إليه الدنيا ، وفى لها كأشد ما يكون الوفاء ، والبر بالعهد .

وكان أبو العباس مقتصداً فى معيشته ، لم تخرجه أبهة الملك وعظمة السلطان عن حد البساطة فى مأكله ومشربه وملبسه ؛ وقد أحصوا ما خلف من الثياب ، فإذا هى تسع جباب ، وأربعة أقمصة ، وخمسة سراويلات ، وأربعة طيالسة ، وثلاثة مطارف خز . تلك ثياب رجل ملك مشارق الأرض ومغاربها نحو خمس سنوات !!

---

* الثقافة : عدد ٤٧ سنة ١٩٣٩ أثار هذا المقال جدلا وقلقاً فى الموضوع وقد سجل كل ذلك فى مجلتى الثقافة والرسالة فى السنة المذكورة .

وكان أبو العباس كريماً معطاء ، يقول فيه المسعودي : « وكان إذا حضر طعامه أبسط ما يكون وجهاً » ، ويقول فيه : « وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا مطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة ، ويقول لا يكون سرورنا معجّلا ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجّلا » .

وكان طروباً « يطرب من وراء الستر ويصيح بالمطرب له من المغنين : أحسنت والله ! فأعد هذا الصوت ! » . (المسعودي)

وكان أشد الخلفاء حباً لمسامرة الرجال ، وكان كثيراً ما يقول : « إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً ، فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلا يزال يسمع سخفاً ويروى نقصاً » . (المسعودي في مروج الذهب) .

* * *

فهل صحيح أن هذا الخليفة الشاب الجميل العفيف ، الوفى ، الكريم ، الطروب ، المقتصد الحريص على مسامرة الرجال ، كان قتّالا للناس سفّاكاً لدماء البشر ؟ وهل صحيح أنه إنما لقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دماء وأزهق من أرواح ؟ وهل صحيح أن الطبيعة البشرية تتسع للتناقض والتباين إلى هذا الحد ؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة بالإيجاب ليثير الدهش ويستنفد العجب ؛ ومع ذلك فهذا ما أجابت به روايات تاريخية كثيرة متأخرة وحديثة .

وقبل أن نعرض لتلك الروايات التي تصور أول خلفاء بني العباس في تلك الصورة البشعة ، نبين المعنى الاصطلاحي واللغوي للفظ « السفاح » ، ثم نعرض الروايات القديمة والمعاصرة لأبي العباس ، لنرى كيف تصور شخصية هذا الخليفة .

إن لفظ « السفاح » وصف عربي قديم جرى مجرى العَلَم ؛ فثم السفاح التغلبي الذي كان رئيس تغلب في يوم الكُلاب الأول . ويقول فيه ابن دريد في كتاب الاشتقاق : « وإنما سمى السفّاح لأنه سفح المزاد أي صبها يوم كاظمة ، وقال لأصحابه : قاتلوا فإنكم إن هُزمتم مُتم عطشاً . قال الشاعر :

وأخوها السفاح ظمأ خيله حتى وردن جبا الكلاب نهالا »

وهناك السفاح بن عبد مناة الشاعر ، ويعلق ابن دريد على اسمه بقوله : « والسفاح فعّال من سفحت الماء سفحاً إذا صببته » . فالعرب إذاً لم تطلق هذا الوصف اصطلاحاً على من يسفك الدماء كما يتبادر إلى الذهن ، وإنما لحظت فى إطلاقه معنى آخر منصوصاً عليه .

وأما لغة فهذا الوصف يقع على جملة معان ، منها السفاك للدماء ، ومنها المعطاء ، ومنها الفصيح القادر على الكلام . (اللسان مادة سفح) . فعلى أى هذه المعانى نحمل لقب أبى العباس ؟ إن الرواية التاريخية وحدها ، هى التى تعيِّن هذا المعنى . فهم يقولون إن أبا العباس لقب بالسفاح أخذاً من قوله فى خطبته المشهورة التى خطبها أهل الكوفة غداة بويع بالخلافة .

« يا أهل الكوفة ! أنتم أهل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وآتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير ! » فنلحظ من هذه العبارة أنه يخاطب أهل الكوفة الذين أفاض عليهم من الأوصاف الكريمة ما أفاض ، وأنه قد زاد فى أعطياتهم ؛ فهل يتأتى له أن يقول لهم بعقب ذلك إنه سفاك للدماء ؟ هذا بعيد ، والأقرب إلى البيان والبلاغة أنه إنما أراد أن يقول لهم إنه لأوليائه كريم معطاء ولأعدائه ثائر مبير . والعارف بأساليب العرب الخطابية يعلم أنهم فى مثل هذا المقام ، مقام الترغيب والترهيب ، كثيراً ما يوردون المعانى المتقابلة ؛ وهذا من قبيل قوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » أضف إلى ذلك أنه لا يجمل بخليفة إسلامى يقول إنه تحدر من أكرم أرومة ، واشتق من أشرف نبعة ، أن يصور نفسه تصويراً جاهلياً منفراً دون تحاشاة ولا تحفظ . وعهدنا بألقاب الخلفاء الإسلاميين كلها أنها ألقاب جميلة وأسماء حسان توحى بمعانى الإيمان واليُمن والهداية والرشاد .

ولكن هذا التدليل البيانى لا يكون شيئاً إذا كانت الرواية التاريخية القديمة والمعاصرة

تسند إلى أبي العباس من الحوادث الفظيعة ما يسوّغ أن يوصف بالسفّاح على معنى السفاك الدماء . والواقع أن الرواية التاريخية القديمة والمعاصرة لا تكاد تغفل شيئاً من ذلك . بل هي لا تذكر لفظ السفاح مطلقاً عندما تتكلم على أول الخلفاء العباسيين ؛ ومن شاء أن يتحقق ذلك فليرجع إلى كتاب « الأخبار الطوال » لأبي حنيفة الدينوري المتوفى عام ٢٨٢ هـ ، وتاريخ الطبري المتوفى عام ٣١٠ ، فسيجد أن كلا المؤرخين لا يزيد عند الإشارة إلى أبي العباس على قوله : « أمير المؤمنين أبو العباس » وأكثر من ذلك أن رواية هذين المؤرخين ، وكلها من حيث الإسناد تكاد تصعد إلى عصر أبي العباس نفسه ، لا تضيف إليه من حوادث القتل والمثلة التي تمت في عهده شيئاً والمراد بحوادث القتل والمثلة التي حفل بها ذلك العصر قتل العباسيين الأوائل بني أمية غدراً وصبراً . بل تولى كِبْر ذلك رجال غير أبي العباس . فيقول الطبري : « وفيها (أي سنة ١٣٢) قتل عبد الله بن علي من قتل بنهر أبي فطرس من بني أمية ، وكانوا اثنين وسبعين رجلا » وعبد الله بن علي هذا عم الخليفة ، وكان على الشام ، ونهر أبي فطرس بفلسطين . ويقول الطبري كذلك : « وفيها (أي سنة ١٣٣) قتل دواد بن علي من كان أخذ من بني أمية بمكة والمدينة » وداود هذا عم آخر لأبي العباس ، وكان على الحجاز واليمن . فأنت ترى أن الرواية التاريخية القديمة تعصب بكل بساطة جرائم قتل الأمويين برجلين اثنين هما عبد الله بن علي وداود بن علي . فإذا رجعنا إلى الرواية المعاصرة لأبي العباس نفسه وجدناها مؤيدة للرواية التاريخية . وهذه الرواية المعاصرة هي تلك القصيدة المؤثرة البليغة التي رثى بها ابن أبي شبة القبلي مواليه من بني أمية ، والتي يقول في مطلعها :

تقول أمامة لما رأت ... نشوزي عن المضجع الأنفس
وقلة نومي على مضجعي ... لدى هجعة الأعين النعس
أبي ! ما عراك ؟ فقلت الهموم ... عرونَ أباكِ فلا تبلسي !

ويقول فيها مُعدداً المواضع التي قتل فيها بنو أمية :

أفاض المدامع قتلى كُدا ... وقتلَى بكثوة لم ترمس
وقتلى بوجّ وباللابتيـ ... ـن من يثرب خير ما أنفس

وبالزابيين نفوس ثوت   وأخرى بنهر أبى فطرس

أولئك قومى أناخت بهم   نوائب من زمن متعس

وكُدًا وكُثوة ووجّ واللابتان أمكنة بالحجاز، وهى التى قتل عندها داود بن على من قتل من بنى أمية. والزابيان موضع واقعة الزاب التى قاد الجيش العباسى فيها عبد الله بن على ونهر أبى فطرس بفلسطين وهو الذي قتل عنده عبد الله بن على الأمويين غدراً وصبراً كما ذكرنا. ولا يذكر الشاعر وهو يعدد مصارع قومه الحيرة ولا الكوفة ولا الأنبار وهى المواضع التى نزلها أبو العباس فى خلافته؛ فالرواية المعاصرة والرواية القديمة تنطقان ببراءة أبى العباس من دماء الأمويين وتحملان غيره وزرها.

* * *

ولنعرض الآن بالإيجاز الروايات المتأخرة والحديثة. ونريد بها الروايات التى ظهرت منذ القرن الرابع إلى أيامنا. فنلحظ قبل كل شيء أن تلك الروايات على وجه العموم تلقب أبا العباس بالسفاح، مخالفة فى ذلك الرواية القديمة. وهى تنعت ذلك الخليفة بالسفاح على أنه سفاك قتال، فصاحب كتاب الأغانى الذى ينتسب إلى بنى أمية والمتوفى عام ٣٥٦ يعنون فصلا فى كتابه (ج ٤ ص ٩٢ — ٩٦) بقوله: «ذكر من قتل أبو العباس السفاح من بنى أمية»، ويدير أبو الفرج فصله هذا على قصة سديف الشاعر، فيزعم أنه دخل على أبى العباس بالحيرة وعنده بنو هاشم وبنو أمية فأنشده قصيدته:

أصبح الملك ثابت الأساس   بالبهاليل من بنى العباس

ويقول فيها محرضاً الخليفة على الأمويين:

لا تقيلن عبد شمس عثاراً   واقطعن كل رقلة وغراس

خوفهم أظهر التودد منهم   وبهم منكم كحز المواسى

قال فتغير لون أبى العباس، وأمر بمن فى مجلسه من الأمويين فأخمدوا، وتزيد رواية أبى الفرج أن الخليفة أمر ببساط فبسط على جسوم الأمويين وجلس فوقه يأكل، فلما فرغ من الأكل أمر بهم فألقوا فى الطريق، فكانت الكلاب تجرهم بأرجلهم، إلى آخر ما يروى رحمه الله. ويورد ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ نفس الشعر والحادثة، ولكنه يضيف

الشعر إلى شاعر آخر هو شبل بن عبد الله والحادثة إلى عبد الله بن على ، إلا أنه يعقب على ذلك بقوله : « وقيل إن سديفاً أنشد هـذا الشعر السفاح ومعه كانت الحادثة وهو الذى قتلهم » .

فأنت ترى أن ما نصت عليه الرواية القديمة بكل وضوح وجلاء ، وعزته إلى عبد الله ابن على عن يوم نهر أبى فطرس قد عزاه أبو الفرج إلى أبى العباس ، وتردد فيه ابن الأثير بين النفى والإثبات . على هـذا الخلط والاضطراب تقوم الرواية المتأخرة التى تصور أبا العباس شخصية قتالة بشعة تذكرنا بشخصيات جنكزخان وهولاكو وتيمورلنك .. وقد اتبع المؤرخون المحدثون هاتين الروايتين ؛ فمنهم من أخذ برواية أبى الفرج مثل فايل الألمانى فى كتابه « تاريخ الخلفاء » ، وميور الإنكليزى فى كتابه « تاريخ الخلافة » ، والمرحوم الخضرى بك فى تاريخ الدولة العباسية ؛ ومنهم من أخـذ برواية ابن الأثير مثل المرحوم جورجى زيدان بك فى الجزء الرابع من تاريخ التمدن الإسلامى .

***

أما بعد ، فإنا لم نقصد إلى الدفاع عن أبى العباس دفاعاً مطلقاً ، ولـكنا أردنا إنصافه من طريق البحث العلمى . وعندنا أنه إذا كانت يده قد برئت من دماء الأمويين فإنها لم تبرأ من دم ابن هبيرة الذى استنزله أخوه أبو جعفر من معقله بواسط على الأمان . فإن أبا العباس لم يُجز أمان أبى جعفر ، وقتل ابن هبيرة غدراً ، ناسياً قول صاحب الشريعة المحمدية : إن ذمة المؤمنين واحدة يجير عليهم أدناهم . ولم يكن أبو جعفر فى الحق أدنى المؤمنين ، بل من أعلام وأشرفهم . والرواية القديمة تعزو إلى أبى العباس هذا الحادث دون أية موار بة ، ولـكن ذلك لعمرى لا يسوّغ أن يوصف بأنه سفاح الدماء . وهو ما نصبنا أنفسنا لنفيه عنه .

بقى أن يقال إن أبا العباس كان الخليفة وهو المسئول الأول عن جرائم عماله . ولـكن يردّ على ذلك بأن العصر كان عصر زعازع وهزاهز ، وأن أبا العباس كان مغلوباً على أمره لعمه عبد الله بن على بالمغرب ، ولأبى مسلم بالمشرق ، ولم تصفُ الخلافة والسلطان لأخيه

أبي جعفر من بعده إلا بعد أن تخلص من هذين الجبارين وقد انتقم الله منهما على يديه أشد الانتقام .

***

ترى هل ثبت أبو العباس على هذا التمحيص ؟ وهل خرج منه كما دخله ، فكان أولا وآخراً ذلك الخليفة الشاب الوسيم العفيف ، الوفى الكريم الطروب المقتصد الحريص على محادثة الرجال ذوى العقول ؟

أكبر الظن أن قد فعل ؟

هارون الرشـــيد[1]

بين التاريخ والقصص

هارون الرشيد شخصية من أشهر شخصيات التاريخ الإسلامي ، وأكثرها تداولا على الألسنة ، وأشدها شيوعاً في الأدب العام . ومع أنه شخصية تاريخية بحتة قد أسبغ عليه القصص ثوباً ضافياً من زخرفه ورونقه ، وتعاوره الوضع والانتحال من نواحٍ عدة ؛ فالتبس وجه الحق فيه على جمهور المتأدبين ؛ ولم يسلم من الوهم في أمره غير واحد من الخاصة أنفسهم ونريد في هذا البحث أن نعرض لتلك الشخصية بقدر ما يسع المقام كما يصورها التاريخ الثابت أولا ، ثم كما يصورها القصص ثانياً ، وأن نبين بعد ذلك مدى الاتصال بين التصويرين .

- ١ -

هو هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبي جعفر المنصور ، ينتهي نسبه من ناحية أبيه إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . أما أمه فأم ولد اسمها الخيزران . وكما كان أبوه وجده من أقوى الرجال إرادة وأشدهم شكيمة ، فقد كانت أمه جموح النفس وكانت إلى ذلك موفورة الحظ من السلم ؛ أخذته كما يروى الطبرى عن الأوزاعي إمام أهل الشام . ولد هارون بالرى سنة ١٤٨ ﻫ وذلك أيام كان أبوه والياً على خراسان من قبل المنصور . فلما جاوز عهد الطفولة دفع به أبوه إلى يحيى بن خالد البرمكى ليتولى الإشراف على تعليمه وتثقيفه فأنشأه يحيى على آداب ملوك الفرس من بنى ساسان ؛ فكان هارون يحب الصيد والقنص ؛ ويلعب بالدبوس والصولجان والشطرنج ، ويشهد سباق الخيل في ميادين السباق . أما تعليمه فلعل وصيته هو إلى الأحمر النحوى مؤدب ولده الأمين ترينا كيف علم ؛ وكيف كان يعلم ولاة العهد في ذلك الزمان ، فهو يقول فيها « يا أحمر ! إن أمير المؤمنين

(١) السياسة الأسبوعية (سنة ١٩٣٢) .

قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه . فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة . فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ؛ أقرئه القرآن ؛ وعرفه الآثار ؛ ورَوِّه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام وبدءه ، وامنعه الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا إليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه . وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

فلما ترعرع واشتد ساعده أخذ أبوه يدربه على فنون الإدارة والحرب ، فأغزاه الروم مرتين فى سنتى ١٦٣ هـ ، ١٦٥ هـ وفى سنة ١٦٣ هـ ولاه على المغرب كله وجعل على رسائله يحيى بن خالد . وفى سنة ١٦٦ هـ أخذ له البيعة بولاية العهد بعد أخيه موسى الهادى ولقبه (الرشيد) ثم هم بأن يقدمه على الهادى فى الخلافة لما رأى من مخايل كفايته ومقدرته ؛ ولكن موته فجأة فى عام ١٦٩ عاقه عن إنفاذ ما أراد .

فلما تولى الهادى حاول أن يخلع هارون ويبايع لابن له صغير ، ولكن هارون أبى أن ينزل عن حقه ، وشد أزره فى ذلك مربيه وكاتبه يحيى بن خالد . فعرضهما الهادى لألوان من الاضطهاد ، حتى طالب هارون نفساً بالخلع وأخيراً لم ينج يحيى من الهلاك ، وحق هارون من الضياع ، إلا موت الهادى فجأة فى المحرم من عام ١٨٠ هـ وبذلك أصبح هارون خليفة على الدولة العباسية .

— ٢ —

كان الرشيد عندما آلت إليه الخلافة شاباً فى مقتبل العمر ، موفور الثقافة ، تام الفروسية جم الحياء ، رقيق العاطفة . هذا إلى ملاحة وصف بها ؛ فقد كان أبيض طويلا وسيما فصيحاً . فهو بذلك قابل لفعل الخير إذا وجد ما يوجهه إليه ، ولفعل الشر إذا صادفه ما يصرفه إلى الشر ، والتوجيه لمن يكون فى مثل حاله إنما يصدر عن نظام الحكم الذى تكون الدولة خاضعة له ومحكومة بموجبه . ذلك بأن لأنظمة الحكم تأثيراً فى أخلاق الناس حكاماً كانوا أو محكومين . وقد لحظ هذه الحقيقة كل من كتب فى السياسة والأخلاق من لدن الإغريق

القدماء حتى وقتنا الحاضر. فما النظام الذى كانت تخضع له الدولة العباسية ؟ هو نظام الخلافة بالطبع. ولكن الخلافة على عهد العباسيين كانت غيرها على عهد الخلفاء الأوائل. فخلافة العباسيين تختلف عن خلافة أبى بكر وعمر كما يختلف الحكم الاستبدادى عن الديمقراطية الصحيحة. ذلك بأن العباسيين أخذوا عن الفرس نظرية الحق الإلهى فى الحكم ولكى يعطوا هذه النظرية الصفة الإسلامية زعموا أن الخلافة ميراث عن النبى صلى الله عليه وسلم وأجروا عليها أحكام الميراث، وبذلك يكونون هم أحق الناس بها. وفى هذا المعنى يقول شاعرهم :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمـــام ؟

ويقول أول خلفائهم فى خطبته التى خطبها الناس عند مبايعتهم له بالكوفة « واعلموا أن هذا الأمر فينا، وليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام » ويقول المنصور من خطبة له « أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله فى أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتأييده. وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه ؛ قد جعلنى الله عليه قفلا ؛ إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم وإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى ...» ولكى ندرك مدى التغيير الذى أصاب الخلافة على عهد العباسيين نكتفى بأن نورد بعض خطبة أبى بكر التى خطبها على إثر بيعته، فقد قال « أيها الناس ! قد وليت أمركم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى ... أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ...» كما نورد الشعر الذى خاطب به الحطيئة عمر بن الخطاب بعد أن بويع، قال :

أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ألقى إليــك مقاليد النهى البشر

لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لــكن لأنفسهم كانت بك الأثر

وكما ورث الرشيد الحكم بموجب النظرية المذكورة، فقد ورث بالإضافة إليها ما يصح أن يعتبر من الوجهة الفعلية جزءاً من النظام السياسى للدولة ؛ ذلك نظام البلاط وهو شىء أخذوه عن الفرس كذلك، فقد كان الأكاسرة يعيشون محتجبين عن الرعية فى بلاطهم، يحف بهم جم غفير من الحاشية والحجاب والحراس والغلمان والنساء والجوارى. وكثيرا ما كان

بلاط فارس بهذا الخليط مبعث الدسائس والفتن السياسية كما يرى من تاريخ المتأخرين من الساسانيين، كذلك كان البلاط على عهد الدولة العباسية. وقد ظهر أثره السيء في الشئون العامة لأول ظهوره، فقد ذهب للمهدي والهادي ضحية مكايد دبرت لهم في نفس بلاطهم.

. حكومة استبدادية تستند إلى نظرية سياسية جامدة؛ وبلاط بحكم تكوينه ذو جو صالح للدسائس والمكايد. ذلك هو النظام السياسي الذي أصبح الرشيد خليفة بمقتضاه وفي حدوده، وهو نظام من شأنه أنه إذا كان الذي يحكم في ظله قويا كان من أقوى أسباب الاستبداد والطغيان. وإذا كان ضعيفاً كان من أقوى بواعث الفتنة والاضطراب.

وهذا بالدقة ما يثبته تاريخ الدولة العباسية، فالمتقدمون من خلفائها الذين يوصفون بالقوة والكفاية كالمنصور والمهدي والرشيد والمتوكل كانوا جبابرة طغاة. أما المتأخرون الذين يوسمون بالضعف فقد كانوا ألاعيب في أيدي أهل البلاط ونساء القصر، يصرفونهم كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم.

— ٣ —

على أن الرشيد لم يتقبل دفعة واحدة أثر هذا النظام، فصغر سنه وحداثة عهده بالحكم يحولان بطبيعة الحال دون هذا التقبل السريع. لذلك نجده كالمعترف بأنه لم يبلغ بعد أن يضطلع بشئون تلك الدولة العظيمة، يفوض الأمر كله إلى أستاذه ووزيره يحيى بن خالد البرمكي، وقد بلغ من تحنيه به وإعظامه له أنه كان لا يناديه إلا « يا أبت! ».

ويحيى هذا هو يحيى بن خالد بن برمك. وكان برمك في مبدأ أمره سادن معبد بوذي قديم بمدينة بلخ يقال له (النوبهار) ثم اعتنق الإسلام في أواسط الدولة الأموية واتصل بعبد الملك بن مروان وابنه هشام، ويقال إنه شفى هشاماً من مرض كان به. وقد اشترك ابنه خالد في أمر الدعوة العباسية وأبلى فيها ثم استوزره المنصور لأصالة رأيه وكفايته وإن كان ذا ميول أعجمية لم تخف على المنصور. وقد ورث ابنه يحيى فضائله وكان لذلك أثيراً لدى المهدي. فلما تولى الرشيد أطلق يده في شئون الدولة فاستعان يحيى في إدارتها بأولاده الأربعة الفضل وجعفر وموسى ومحمد وكلهم كاف قدير. وقسم أمور الدولة بينهم وصار يعول عليهم في معالجة الحوادث الخطيرة. فالفضل هو الذي استصلح يحيى بن عبد الله العلوي الذي ثار

بطبرستان ، و إلى موسى وجعفر يرجع الفضل فى القضاء على فتنة العرب بالشام .

والخلاصة أن البرامكة غلبوا على كل شىء فى الدولة وأداروها إدارة حسنة ، ولكنهم إلى جانب ذلك قد شلوا سلطان الرشيد حتى كادت شخصيته تفنى فيهم .

وبعلو البرامكة وهم أسرة فارسية كما تقدم القول ، علا شأن العنصر الفارسى عامة ، وتحقق ما كانت موالى الفرس ترمى إليه من إسقاط الدولة الأموية العربية ، وإقامة الدولة العباسية التى كانوا عدتها ومحل عصبيتها .

وقد أدرك العرب بوادر هـذا الانقلاب منذ قامت الدولة العباسية فكانوا يعبرون عن معارضتهم لها وسخطهم عليها بالثورة حيث يكثر عددهم وخاصة بالجزيرة والشام ومصر . فكان الخلفاء العباسيون الأوائل يلقون ثوراتهم بالعنف وتفريق الكلمة جهد استطاعتهم لعلمهم أن العرب أنصار الدولة الأموية الذاهبة . لذلك نجد قادة العرب يعدلون عن الثورة إلى الدهاء واصطناع الحذر .

كان بنو هاشم على رأس الحزب العربى ببغداد ، وكان يمثل هذا الحزب ببلاط الخليفة شخصان الفضل بن الربيع والسيدة زبيدة .

أما الفضل فكان رجلا واسع المطامع ، جم الدهاء ، قادراً على الدس والوقيعة ، حاقداً على البرامكة ، والذى يقرأ مدائح أبى نواس فيه يرى أنه كان يستعين بالشعراء على لفت نظر الرشيد إليه .

من ذلك قول أبى نواس مخاطباً الرشيد :

قولا لهـــارون إمام الهدى　　عند احتفال المجلس الحاشد
أنت على مابك من قدرة　　فلست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بمستنكر　　أن يجمع العـــالم فى واحد

وكان من ... ذلك أن استحجبه الرشيد فى عام ١٧٩ مكان محمد بن يحيى البرمكى ،

أما الزعيم العربى الثانى إذا صح هـذا الوصف فلم يكن غير السيدة زبيدة حفيدة أبى جعفر المنصور وزوج الرشيد وأم ولده محمد الأمين .

وهى امرأة عظيمة المواهب موفورة الثقافة شديدة المباهاة بنسبها الهاشمى وكان الرشيد يجلها ويعرف لها مكانتها الممتازة . وكانت هى أيضاً مباعدة البرامكة متنمرة على يحيى وكان إليه أمر القصر فكان بذلك يضيق عليها ويتعمد عدم إنفاذ أوامرها حتى إنها شكته إلى الرشيد فلم يزد الرشيد على أن عتب على يحيى فى ذلك .

ومهما يكن من شىء فقد تركزت المنافسة بين العرب والعجم إذ ذاك فى أمر ولاية العهد فأما العرب فكانوا يحرصون أشد الحرص على أن يعقد الرشيد البيعة بولاية العهد لمحمد الأمين العربى الأبوين ، فى حين أن الفرس كانوا يحرصون على أن يكون الذى يلى الرشيد فى الخلافة عبد الله المأمون الفارسى الأم .

وقد حار الرشيد فى الأمر حيرة شديدة . وأخيراً غلب عليه النفوذ العربى فعقد البيعة بولاية العهد لمحمد فى سنة ١٧٥ ولقبه « الأمين » فكان ذلك سبباً فى أن جد الفرس فى الأمر حتى اضطر إلى أن يبايع بولاية العهد لابنه عبد الله فى سنة ١٨٣ على أن يلى بعد الأمين ولقبه « المأمون » ثم أوعز إلى الشعراء وإلى عمه عبد الملك بن صالح أن يطالبوا إليه البيعة بولاية العهد لابنه القاسم ففعلوا فعقدها له فى سنة ١٨٦ على أن يلى بعد الأمين والمأمون ولقبه « المؤتمن » . قالوا ولم يمنعه من البيعة لابنه المعتصم إلا كونه أمياً وغير متعلم بخلاف إخوته المذكورين .

ثم بدا له تفوق المأمون على الأمين فهمّ بأن يقدمه عليه فى ولاية العهد ، ولكنه لم يفعل وكل الذى صنع أن قسم الدولة بين أبنائه الثلاثة المذكورين ، فجعل للمأمون الأقاليم الشرقية التى يغلب عليها العنصر الفارسى وللأمين الأقاليم الغربية التى يغلب عليها العنصر العربى . وجعل الجزيرة والثغور لابنه المؤتمن .

ثم لاحظ الخطر الذى يتهدد الأقاليم الشرقية فأوصى للمأمون بمال وسلاح كثير تقوية له وجعل إليه أمر المؤتمن إذا آلت إليه الخلافة ، إن شاء أمضى عقد بيعته وإن شاء نقضه وجعل الخلافة بعده لمن شاء . ولكى يؤكد هذا النظام حج فى سنة ١٨٦ واستصحب ابنيه الأمين والمأمون . فلما كان بمكة كتبت عهوداً ثلاثة أخذ فيها الميثاق على ابنيه أن يرعى كل منهما حق أخيه عليه ، كما أخذ العهد على رجال الدولة أن يكونوا على من بدل وغير فى

عهده . ثم أمر فعلق العهدان الأولان فى جوف الكعبة توكيداً لها وتعظيما لشأنهما .

لاشك فى أن ذلك النظام الذى وضعه الرشيد لأمر الخلافة من بعده لا يشرف مقدرته السياسية كثيراً فهو منتهى خطل الرأى وفساد التدبير . وإن الفتنة التى وقعت بعد بين الأمين والمأمون ، والتى صدعت وحدة الدولة العباسية حيناً من الزمن لتقع تبعتها على عاتق الرشيد نفسه . لقد حرص الرشيد فى وضع النظام المذكور على إرضاء الأهواء المختلفة بدلا من أن يصطنع الحزم ويتوخى مصلحة الجماعة . ولقد لحظ ذلك معاصرو الرشيد نفسه . قال شاعر من شعراء ذلك العصر :

رأى الملك المهذب شر رأى بقسمته الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بعقل لشيب من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه خلافهم ويبتدلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل وأورث شمل ألفتهم بدادا
فويل للرعية عن قليل لقد أهدى لها الكرب الشدادا
ستجرى من دمائهم بحور زواخر لا يرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبداً عليه أغياً كان ذلك أم رشادا

***

وعلى أثر انصراف الرشيد من حجه المذكور راع العالم الإسلامى بحادث لا تزال أسبابه على الرغم من كثرة ما كتب وقيل فيها مبهمة غامضة ، ذلك إيقاعه بالبرامكة فى عام ١٨٧ . لقد تعددت الروايات الواردة فى تعليل هذا الحادث المحزن ولكنها كلها لا تشفى غلة الباحث . فالرشيد لم يصرح لفرط دهائه بسبب نكبته للبرامكة ، وترك الأمر ينحدر إلى الأجيال من بعده لغزاً غامضاً . ومن جهة أخرى فإن البرامكة لم يرتكبوا جرماً واضحاً ثابتاً عليهم يمكن أن يعتبر السبب المباشر فى نكبتهم . قالوا إن السبب فى الفتك بالبرامكة استئثارهم بالأموال واحتيازهم الضياع العامرة ، وهو سبب غير وجيه لأن من يقدر على انتزاع المهج والأرواح أقدر من باب أولى على انتزاع الأموال . وقالوا إنه الزندقة وعدم النصح

للإسلام ، وهو أمر لو صح لأهلته الرشيد إقامة الحجة على البرامكة واستثارة الرأى العام الإسلامى عليهم . وقالوا إن السبب تشيعهم للعلويين وسعيهم فى نقل الدولة إليهم و إعانتهم يحيى ابن عبد الله العلوى على الثورة بالرشيد . وهو سبب غير وجيه لأن البرامكة إنما عزوا بالدولة العباسية و بلغوا ذروة المجد فى ظلها فماذا يحملهم على التضحية بذلك والمخاطرة فى أمر قد يتحقق وقد لا يتحقق ! ثم هو على فرض تحققه لن ينيلهم شيئاً غير حاصل فى أيديهم بالفعل . وقالوا إن زواج جعفر بن يحيى من العباسة أخت الرشيد واتصاله بها سراً برغم حظر الرشيد ذلك عليهما ، وهذا السبب عندنا خرافة شعوبية زيفها ابن خلدون فى مقدمته . وسنعرض لها فى موضع آخر من هذا البحث .

إن الذى نرجحه ، ولا سبيل فى هـذا الموضوع سوى الترجيح ، ونرى أنه السبب الجوهرى فى إيقاع الرشيد بالبرامكة إنما هو استئثارهم بالسلطان حتى كادوا يخلعون الرشيد . وقد قدمنا أن حكومة الرشيد حكومة استبدادية مدعومة بفكرة فقهية اجتلبها العباسيون اجتلاباً ليمكنوا لأنفسهم . والمستبد لا يطيق أن يشاركه إنسان فى السلطان الذى يراه حقه المشروع . ولا سيما إذا كان فى مثل دهاء الرشيد وشدة اعتداده بنفسه ، ولم يصبر الرشيد فى مبدأ الأمر على نفوذ البرامكة إلا لصغر سنه وقلة تجاربه . فلما صلب عوده واتسعت خبرته وشعر بحقه لم يعد للصبر عنده موضع ولا مساغ .

وقد وجد خصوم البرامكة من العرب وعلى رأسهم الفضل بن ربيع وكاتب البرامكة إسماعيل بن صبيح ، مجال السعاية واسعاً ، فأقبلوا يخبون فيه و يوضعون فأوهموا الرشيد بما يصح أن نعتبره السبب المباشر فى إيقاعه بهم ، أوهموه أن البرامكة على اتصال بخراسان التى انبعثت منها الثورة بالأمويين ، وأن الجيش الضخم الذى حشده الفضل بن يحيى هناك لتأمين الحدود الشرقية فى الظاهر إنما هو فى الواقع لأمر أجل وغرض أعظم . وأن موسى بن يحيى على اتصال بخراسان وأنه يكاتب أهلها ليسير إليهم ويخرجهم عن طاعة الخليفة . وصارت الكتب ترد على الرشيد غفلا من توقيع أصحابها كالسهام المسمومة يرمى بها فى الظلام ، وكلها تحذر الرشيد من البرامكة وتريه أنهم على وشك أن يدفعوا به فى هاوية بعيدة القرار .

كل ذلك أثار هواجس الرشيد ، وجعله يعتقد أن الأمر بينه و بين البرامكة هو تعين

بالجد ، وأنه أمر حياة أو موت . وإذ بلغت الحال ذلك للذى فالويل كل الويل لأولئك الذين جزوه إساءة بإحسان وغدراً بوفاء . لقد نبهوا منه من لا ينام ولا ينيم .

لا شىء أدل على أن الرشيد قد استكمل الدهاء والحزم والتصميم وأن نظام الحكم الذى وصفناه قد عمل فيه عمله فصاغ منه جباراً عنيداً ، من سعيه فى استرداد سلطته والتنكيل بالبرامكة . فقد سار فى الأمر بحذر شديد فاتصل بالجمهور مباشرة وجعل يعنى بما يعجبه ، من إصلاح النظام المالى استعان فيه بقاضية أبى يوسف ، وتوفر على الغزو والحج فى المواكب الفاخرة راكباً وماشياً ، واصطناع الطبقة المفكرة من فقهاء وعلماء وشعراء ، وإغداق الأموال على الناس وبخاصة فى حجته التى حجها عام ١٨٦ ، والأخذ الشديد لنفسه مقتدياً فى ذلك بجده المنصور . وقد تم له ما أراد فعلت مكانته فى النفوس واشتدت هيبة الناس له . عند ذلك تنكر للبرامكة ولكن فى حيطة واحتراس ، فلما عاد من الحج وكان بمكان يقال له (العمر) قريب من الأنبار أنفذ أوامره فى ليلة واحدة بقتل جعفر بن يحيى واعتقال سائر البرامكة واستصفاء أموالهم . ثم إنه أمر بتقطيع جثة جعفر ونصبها على جسور بغداد الثلاث ، وبسط العذاب على يحيى والفضل حتى ماتا فى السجن ، ونهى الشعراء عن أن يرثوا البرامكة أو يذكروهم فى شعرهم ، وتوعد من يفعل منهم ذلك . وتقول المصادر الفارسية إن الرشيد قتل البرامكة نحو ١٢٠٠ نفس ، ولكن المصادر العربية وهى الأوثق لا يؤخذ منها ذلك والحق أن البرامكة إنما نكبوا فى سلطانهم وأموالهم بدليل أن ذريتهم بقيت بعد هذه الكارثة أجيالا طوالا .

وقد ظلت جثة جعفر منصوبة على جسور بغداد حتى مر بها الرشيد وهو متوجه إلى خراسان عام ١٩٢ فأمر بإنزالها وإحراقها . يقول صاحب الفخرى فى كتابة رواية عن بعض معاصرى الرشيد « دخلت الديوان فنظرت فى بعض تذاكر النواب ، فرأيت فيها أربعمائة ألف دينار (؛) ثمن خلعة لجعفر بن يحيى الوزير ، ثم دخلت بعد أيام فرأيت تحت ذلك عشرة قراريط ثمن نفط وبوارى لإحراق جثة جعفر ويحيى فعجبت من ذلك » .

لقد شفى الرشيد نفسه بنكبة البرامكة ولكنه اشترى ذلك بالثمن الغالى ، فإن الاضطراب الذى أصاب دولاب الإدارة العامة وعدم كفاية آل الربيع الذين خلفوا البرامكة

كل ذلك اضطر الرشيد إلى دوام الحركة غربا وشرقا لإخماد الثورات التي كان يعهد من قبل بإطفاء نائرتها إلى البرامكة، وقد أدرك الرشيد خطأه، ولكن بعد أن سبق السيف العذل فاشتد به الندم وتوبيخ الضمير وأخذت صحته تضمحل، وسلط عليه الأرق؛ فإذا نام فنوم مروع بالأحلام المفزعة. وغدا محتاجاً إلى من يسامره في جوف الليل لينفي عنه الوحشة كما أصبح محتاجاً إلى من يدخل السرور على قلبه الوجل. فاتخذ مضحكا اسمه ابن أبي مريم المديني، وصار يرتاح إلى الوعظ والتزهيد في الدنيا، فإذا وعظه ابن السماك أو أنشده أبو العتاهية خشع قلبه وفاضت دموعه. على أن شر ما ابتلى به الرشيد بعد ذهاب البرامكة فتور العلاقة بينه وبين رعيته، فقد أصبح مخوفا مرهوبا بعد أن كان مهيبا محبوبا. وصاروا يشبهونه بالدهر في تقلبه وتخونه. قال أبو نواس وقد مر بعد ذهاب البرامكة بدور آل الربيع:

ما رعى الدهر آل برمك لما ... أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهرا لم يرع عهدا ليحيى ... غير راع ذمام آل الربيع

حتى أبناؤه، فإنهم أصبحوا يستطيلون حياته ويتمنون زوالها. قالوا إنه لما سار سنة ١٩٢ إلى خراسان لحرب رافع بن الليث الصفار «سايره الصباح الطبري فقال له يا صباح! ما أظنك تراني أبدا! فدعا له. فقال ما أظنك تدري ما أجد، قال الصباح: لا والله. فعدل عن الطريق، واستظل بشجرة، وأمر خواصه بالبعد فكشف عن بطنه فإذا عليه عصابة حرير، فقال هذه علة أكتمها الناس كلهم، ولكل واحد من ولدي على رقيب، فمسرور رقيب المأمون، وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين، وما منهم أحد إلا ويحصي أنفاسي ويستطيل دهري. وإن أردت أن تعلم ذلك فالساعة أدعو بدابة فيأتونني ببرذون أعجف قطوف ليزيد علتي. فاكتم علي ذلك. فدعا له بالبقاء. ثم طلب الرشيد دابة فجاءوا بها على ما وصف، فنظر إلى الصباح وركبها».

ولم تطل حياة الرشيد، فقد اشتدت به العلة في خرجته هذه وساء خلقه حتى إنه لما جيء بأخي رافع بن الليث قتله شر قتلة وهم بأن يفعل مثل ذلك بطبيبه جبرائيل بن بختيشوع لأنه أخطأ في علاجه لولا أن الموت عاجله بمدينة طوس فدفن بها، وكان ذلك في جمادى الآخرة من عام ١٩٣ هـ.

— ٤ —

إذا كان الرشيد لم يوفق بوجه عام فى مجال السياسة الداخلية ، فإنه كان على عكس ذلك فى ميدان السياسة الخارجية ، فقد أظهر فيه نشاطا ومرونة وكياسة تشهد له بالبراعة الدبلوماسية . كما يؤخذ من المصادر العربية التى تعرضت لعلاقته بالدولة البيزنطية ومن المصادر الأوربية التى تعرضت لعلاقته بشرلمان ملك الدولة الفرنجية . فقد كان فى العالم الإسلامى والعالم المسيحى إذ ذاك أربع دول كبيرة : اثنتان إسلاميتان متعاديتان هما الدولة العباسية والدولة الأموية بالأندلس واثنتان مسيحيتان متعاديتان كذلك هما الدولة البيزنطية والدولة الفرنجية وكانت الحرب متصلة بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية ؛ من أجل ذلك نجد الرشيد يحصن الثغور الشامية والجزرية ويتولى بنفسه غزو الروم ويفرض الجزية على ملكتهم إيرينى وملكهم نقفور الذى جاء بعدها . وكذلك كانت العلاقة مقطوعة فى الغرب بين شرلمان وأموبى الأندلس . وقد أسفرت هذه الحال عن تقارب بين بيزنطة والأندلس وتقارب مثله بين الدولة العباسية والدولة الفرنجية . ولكن لم يتم اتفاق بين بيزنطة والأندلس ، فى حين أن الرشيد وشرلمان تبادلا السفارة والهدية ، وأبرم بينهما اتفاق لا ندرى مضمونه بالدقة . غير أن قرائن الأحوال تدل على أن الرشيد تعهد بحماية حجاج أوربا الغربية من عدوان البيزنطيين عليهم ببيت المقدس ، وكانوا يخالفون فى مذهبهم الدينى أهل أوربا الغربية ، كما تعهد شرلمان ألا يعين بيزنطة على الرشيد ، وأن يغير على الأندلس ، فما غلب عليه منها تولى حكمه باسم الرشيد . قالوا : ومن أجل ذلك بعث إليه الرشيد بخلعة رسمية وعلم عباسى .

وقد انتفع الرشيد وشرلمان كلاهما بهذا الاتفاق ، فأوغل الرشيد فى أرض الروم ، كما أوغل شرلمان فى شمال الأندلس وشرقها مع إقراره العمال المسلمين على ما غلب عليه . ويذهب المؤرخ الإنجليزى بكل إلى أن الرشيد أصبح بتغلبه على نقفور البيزنطى بالحرب ، وبتغلبه على شرلمان بالسياسة قد حاز من سعة الملك ما يفوق ملك الإسكندر المقدونى .

— ٥ —

ومع ذلك لم تكن السياسة بمعناها المزدوج المجال الذى ظهرت فيه براعة الرشيد ومقدرته الإنشائية . إنما سطعت النواحى النيرة من نفس الرشيد فى مجال العلم والفن ، وهو فى ذلك يشارك غير واحد من عظماء المستبدين المستنيرين أمثال الإسكندر وفردريك الأكبر ونابليون ولويس الرابع عشر وكبار سلاطين آل عثمان . وكان الرشيد نفسه من أوحد رجال عصره علماً وفقهاً وأدباً . كان لا يني فى تحصيل العلم حتى بعد أن استخلف . يقول السيوطى : إن المأمون أخذ الحديث عن أبيه ، ويقول رواية عن القاضى الفاضل : « ما أعلم أن لملك رحلة قط فى طلب العلم إلا للرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله . قال وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد فى خزانة المصريين ، قال ثم رحل بسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى الإسكندرية فسمعه على ابن طاهر بن عوف ولا أعلم ثالثاً لهما » وللرشيد شعر رقيق وصل إلينا بعضه . فمن ذلك قوله يرثى جارية له اسمها هيلانة :

فارقت عيشى حين فارقتها فما أبالى كيفما كانا
كانت هى الدنيا فلما ثوت فى قبرها فارقت دنيانا
قد كثر الناس ولكننى لست أرى بعدك إنسانا

على أن فخر الرشيد فى هذا المجال ليس بآثاره الشخصية ، ولكن بإقباله على العلماء والفقهاء والشعراء والموسيقيين واجتذابه إياهم إلى العاصمة بما كان يرفدهم به من العطايا الجسام ليكونوا هالة هو بدرها ، وعقداً هو واسطته . وقد حفلت بغداد فى عهده بأقطاب العلم والأدب والفن ، حتى كان الرشيد لا يعدم على بابه واحداً أوجلة منهم ليلا ونهاراً . من هؤلاء الأصمعى وأبو عبيدة الراويتان اللغويان ، والكسائى النحوى ، والواقدى المؤرخ ، وأبو يوسف الفقيه ومروان بن أبى حفصة ، ومسلم بن الوليد ، وأبو العتاهية وأبو نواس والعباس بن الأحنف وكلهم من فحول الشعراء . وقد نافست النساء الرجال فى ذلك الميدان فكثر الجوارى الأديبات وكان للسيدة زبيدة مائة جارية كلهن يحفظن القرآن .

وكان الرشيد يعقد لكل طبقة من هؤلاء مجلساً خاصاً ، فللعلماء مجلس يتبسط معهم فيه ولا يأنف أن يتعلم فيه منهم ، وللشعراء مجلس يسمع فيه أشعارهم وينقدها ويجيزهم عليها بالجوائز السنية . وللمغنين مجلس يسمع فيه الرشيد غناءهم من وراء حجاب ، فإذا سُرَّ بما يسمع وطرب أمر فرفعت الستارة المضروبة بينه وبينهم واستأنس به أهل المجلس : ومن كبار مغنى ذلك العصر إبراهيم وإسحق الموصليان وابن جامع .

وكان للبرامكة ولآل الربيع مجالس من هذا القبيل . قال المسعودى : كان يحيى بن خالد ذا بحث ونظر وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل . فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده « قد أكثرتم الكلام فى الكون والظهور ، والقدم والحدوث ، والإثبات والنفى ، والحركة والسكون ، والمماسة والمباينة ، والوجود والعدم ، والجر والطفرة ، والأجسام والأعراض ، والتعديل والتجريح ، والكمية والكيفية ، والمضاف والإمامة أنص هى أم اختيار ، وسائر ما يورد من الكلام فى الأصول والفروع ؛ فقولوا الآن فى العشق على غير منازعة ، وليورد كل واحد منكم ما سنح له فيه وخطر بباله . فقال ... »

كان لهذه المجالس العلمية أثر بعيد فى تكوين اللغة العربية وتهذيبها وبعث النهضة العلمية الإسلامية ، وقد اقتدى المأمون بالرشيد فى عقدها . ثم سرت عادة عقدها إلى الأندلس فكانت من دواعى رقة الأدب الأندلسى وعذوبته .

— ٦ —

تلك شخصية الرشيد كما يعرفها التاريخ أو كما تصورها لنا الصفحات الكثيرة التى أفردها لتاريخه وأخباره كبار المؤرخين وأصحاب التراجم كالطبرى والمسعودى وأبى الفرج الأصفهانى . فهى فى جملتها شخصية حاكم مستبد مستنير ، فيه ضعف الاستبداد وقوة [illegible] فهو حريص على الأبهة والعظمة ، قليل الاتزان فى تصرفاته ، إن رضى بلغ غاية رضا وإن سخط كان طائش السيف ، مفرط العقوبة ، لا يعرف العفو عند المقدرة ؛ حقود ، غير قادر على الحب الصحيح والولاء الصادق ، ولكنه مع ذلك سياسى ماهر قد ترك دولته وهى أقوى وأغنى دول الأرض ؛ ثم هو فوق ذلك كله من أكثر ملوك الأرض حبا للعلم والفن والأدب وأشدهم تشجيعاً للعلماء والأدباء والفنانين .

... ذلك هو الرشيد فى التاريخ ، أما الرشيد فى القصص فإنسان آخر ، هناك طائفة من الملح والنوادر والقصص منثورة فى بعض كتب التاريخ والأدب ، وفى كتاب « أعلام الناس » للأتليدى وفى كتاب (ألف ليلة وليلة) وهى فى جملتها تصور لنا الرشيد رجلا صاحب رسُلة وتهاون ؛ ضعيف النخوة والغيرة على عرضه ، يشتهى محارمه ويفتيه قاضيه أبو يوسف بما ينيله بغيته ؛ قد اصطنع أبا نواس ، وصبر على عبثه ومجونه وأذن له فى أن يدخل على حرمه وشغف بجعفر البرمكى حتى أصبح لا يطيق فراقه وحتى كان يجلس معه فى قباء يضمهما معاً ، وحتى عقد له على أخته العباسة التى كان لا يطيق فراقها هى أيضا بعد أن حظر عليهما أن يتماسا ! الحق أن هذه الأخبار كلها مفتعلة موضوعة وأنها أثر من آثار الشعوبية التى تحاولت الحط من قدر الخليفة الذى أوقع بالبرامكة ومن أقدار رجاله النابهين ؛ وإلا فما بال ديوان أبى نواس نفسه وما بال كتاب الأغانى لا يكادان يشتملان على خبر واحد يفيد انقطاع أبى نواس إلى الرشيد وجراءته عليه بمثل ما تروبه الملح والنوادر الآنفة الذكر ؟ يقول ابن منظور صاحب لسان العرب فى كتابه « أخبار أبى نواس » وقال بعض المترجمين ممن يحيط علما بأحوال أبى نواس : إن هذه الحكايات عن أبى نواس والرشيد موضوعات ؛ وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وإنما دخل على محمد الأمين » ولا شك أن فى هذه الرواية مبالغة كما يرى من يتصفح شعر أبى نواس . فقد مدح أبو نواس الرشيد واعتذر إليه ، ورثاه .

وهناك حكايات أخرى واردة فى (ألف ليلة وليلة) تصور لنا الرشيد فى صورة ثالثة : تصوره أبا لرعيته رحيا محباً للفنون والآداب ، يستدعى الرواة والشعراء فيقصون عليه طرائف الأخبار وينشدونه روائع الأشعار فيجيزهم بالجوائز السنية ؛ كما تصوره حاكماً عادلًا قوياً مبسوط السلطان على الإنس والجن ، ساهراً على مصلحة رعيته يتخفى هو وجعفر البرمكى ومسرور السياف فى زى تجار غرباء وينزلون إلى شوارع بغداد وأحيانها يتعرفون أحوال الناس وعمال الحكومة ، فيطلعون على أمور عجيبة وشئون غريبة ، فإذا كان الغد واستوى الخليفة فى مجلسه أرسل فى طلب من يكون قد أثار فى الليلة الماضية عجبه أو غضبه فيعاقب المفسد ويثيب المحسن ، ويزوج المتعاشقين ، ويصلح بين المتخاصمين .

هذه الحكايات كتب أغلبها فى بغداد ومصر فى العصور الإسلامية المتأخرة عن عصر الرشيد أى إبان اضطراب الدولة الإسلامية وانحطاطها . فكان هم القصاص أن يشيدوا بالعصر الإسلامى الذهبى عصر الدولة العباسية الأول . فصوروه عصر حكومة أبوية قوية عادلة ، وعصر سخرية شخصية يجد فيه كل من الصالح والطالح حاجته وأربه . وقد اختاروا الرشيد دعامة لقصصهم دون غيره من الخلفاء لأن الرشيد قد أصبح بمحاسنه ومساوئه أشهر الخلفاء على الإطلاق . فشخصية الرشيد هنا شخصية عصر أكثر مما هى شخصية إنسان .

ومما تستريح إليه نفس المؤرخ فى هذا المقام أن شخصية الرشيد الذى تصوره الحكايات المذكورة ، لا تتعارض فى جوهرها مع الناحية الطيبة من حياة الرشيد التاريخى ، ناحية الجود والكرم وحب العلم والفن . هنا فقط تلتقى شخصية الرشيد التاريخية بشخصيته القصصية فتخلع الثانية على الأولى مقدارا غير قليل مما كتب لها من الرواء والروعة والخلود .

أم المحسنين

السيدة زبيدة*

هى زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور المؤسس الحقيقى للدولة العباسية . واسمها فى الأصل « أمة العزيز » ، وكثيراً ما تكنى بأم جعفر ؛ وإنما لقبت بزبيدة لأن جدها المنصور كان يرقصها وهى صغيرة ويقول : يا زبيدة ! يا زبيدة ! وذلك لسمنها وبضاضتها ، فلزمها هذا اللقب وغلب عليها .

ولدت سنة ١٤٥ هـ ، ونشأت فى مدينة المنصور نشأة الأميرات العباسيات فى ذلك العصر ، فثقفت أحسن ثقافة ، وأدبت أكمل تأديب ؛ هذا إلى عقل راجح ، وذكاء متوقد ، وإرادة قوية ؛ ومن أجل هذه الخلال كلها اختارها الخليفة المهدى زوجاً لابنه هارون ، فأعرس بها فى عام ١٦٥ هـ . ومن ذلك الوقت إلى أن توفيت فى سنة ٢١٦ هـ ، كانت السيدة زبيدة ألمع شخصية نسوية فى العالم الإسلامى كله ؛ ولعلها من حيث الشهرة والمكانة التاريخية لا تقل عن زوجها الرشيد . وما أمر سخرية الأقدار بهذا العاهل الجبار الذى قارع القياصرة ، وأذل الجبابرة ، عند ما تضع بإزائه فى النفوذ والسلطان والشهرة فى الحياة وبعد الموت امرأة هى زوجه السيدة زبيدة . ولقد شهدت زبيدة فى مدى خمسين عاماً من الأحداث الجسام ما شهدت ، وذاقت من إقبال السعد وإدباره ما ذاقت ؛ ومع ذلك بقيت هى هى ، سيدة جليلة ، وملكة عظيمة .

***

لعل أول مشكلة واجهتها زبيدة بعد زواجها من الرشيد ، هى نفس المشكلة التى تواجهها كل امرأة تكون فى مثل حالها ، وعند مثل زواجها . لقد كانت قصور بغداد عامة

(*) الثقافة ٢٠ يناير سنة ١٩٤٢

والرشيد خاصة عامرة بالجمال الأنثوى المجلوب من كافة أقطار العالم الإسلامي للنوّع الأجناس والألوان واللغات ؛ ففيها ما شاءت العين من نساء جميلات لا حصر لهن ، من بين عربيات ، وفارسيات ، وروميات ، ومغربيات ، وصقلبيات ، جئن بل كلهن ملك يمين الخليفة نفسه ، وهو بعد شاب فى ميعة الصبا وعنفوان الشباب ، فوق ما كان فيه من تجبر ونزوع إلى الإستبداد بكل شيء فى سلطانه ؛ فكانت زبيدة تخشى بطبيعة الحال أن تغلبها على قلب الرشيد من عساها تكون من هؤلاء النساء أبرع منها جمالا ، وأكثر خلابة ، وأشد ذكاء ؛ ولكنها مع ذلك عرفت كيف تروض زوجها الشاب المرح الطروب ، وكيف تحل نفسها من قلبه بالمحل الأول . كل ذلك فى رفق ، ولطف ، وكياسة ، وحسن تأتّ للأمور ، و بصر تام بمداخلها ، ومخارجها . روى صاحب « الأغانى » أنه كانت ليحيى بن خالد البرمكى جارية فائقة الحسن بارعة الأدب والغناء تسمى دنانير ، وكان الرشيد يكثر من المسير إلى دار يحيى ليسمعها ، حتى ألفها واشتد إعجابه بها . وعلمت زبيدة بالخبر فشكته إلى عمومته ، فصاروا جميعاً إليه فعاتبوه ؛ فقال : مالى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها ، وإنما أربى فى غنائها ، فاسمعوها فإن استحقت أن يؤلف غناؤها ، وإلا فقولوا ما شئتم ! ونقلهم إلى دار يحيى حتى سمعوها عنده ، فعذروه وعادوا إلى السيدة زبيدة فأشاروا عليها ألا تلج فى الأمر ، فقبلت ذلك وأهدت إلى الرشيد عشر جوار منهن أمهات أولاده المأمون والمعتصم وصالح .

ومن هذا القبيل ما يروى من أن الرشيد غضب عليها يوماً ، ثم ترضاها ، فأبت أن ترضى عنه ، فأرق ليلته ؛ ثم قال : افرشوا لى على دجلة ! ففعلوا ، فقعد ينظر إلى الماء وقد رأى فيه زيادة عجيبة ، فسمع من بعيد مغنياً يغنى بهذه الأبيات :

جرى السيل فاستبكانى السيل إذ جرى ... وفاضت له من مقلتىّ غروب
وما ذاك إلا حين خبرت أنه ... يمر بواد أنت منه قريب
يكون أجاجاً ماؤه فإذا انتهى ... إليكم تلقّى طيبكم فيطيب
فيا ساكنى شرقىّ دجلة كلكم ... إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

فسأل الرشيد عن الناحية التى فيها الغناء ، فقيل دار ابن المسيب ، فبعث إليه : أن ابعث بالمغنى ، فإذا هو الزبير بن دحمان ، فسأله عن الشعر ، فقال : هو للعباس بن

بالأحنف ، فأحضر واستنشده فأنشده إياه . وجعل الزبير يغنيه ، والعباس ينشده حتى أصبح الصباح ؛ وقام فدخل إلى السيدة زبيدة ، فسألت عن سبب دخوله فعرفته ، فوجهت إلى الشاعر بألف دينار ، وإلى المغنى بمثلها . ولا شك أن الأمر كله كان مدبراً ، وأن زبيدة كانت صاحبة هذا التدبير اللطيف .

***

بهذه المهارة وتلك اللباقة عرفت زبيدة كيف تروض مليكها الشاب وتطامن من جماحه وكيف تضمن ولاءه لها وإخلاصه لحبها . ولو أنها تملكتها الغيرة الطائشة وساورها الجزع ممن كن يغالبنها على قلب الرشيد ، فأكبر الظن أنها كانت هي التي تخرج من الميدان مهزومة مغلوبة على أمرها . على أن زبيدة لم تشأ أن تكون منزلتها من قلب زوجها مؤسسة على ما أوتيت من جمال وحسب ونسب فحسب ، بل أحبت أن تكون عديلته في الثقافة والفن والأدب ؛ فإذا كان الرشيد تعجبه بلاغة العبارة فلتكن بليغة قادرة على أن تذيل الكتب التي ترفع إليها بتوقيعات حسان . روى الجاحظ قال : « خبرني جعفر بن سعيد قال : ذكرت لعمرو بن مسعدة توقيعات جعفر بن يحيى ، فقال قد قرأت لأم جعفر توقيعات في حواشي الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصاراً وأجمع للمعاني » وناهيك بجعفر بن يحيى وعمرو بن مسعدة ، فالأول ممن يضرب بهم المثل في البلاغة والثاني من أبلغ كتاب المأمون .

وإذا كان الرشيد شاعراً بطبعه ، أو على أقل تقدير عالماً بالشعر عارفاً بجيده ورديئه ، فلتكن هي كذلك ، ولتأذن لكبار شعراء العصر أمثال أبي العتاهية ونصيب وسلم الخاسر وأشجع السلمي بالإنشاد في حضرتها ، ولتنقد شعرهم نقد خبير عارف بالشعر . ولتجز المحسن منهم ، ولتدل المقصر على موضع تقصيره . وفي كتاب « الأغاني » أخبار كثيرة تدل على قبول هؤلاء الشعراء لنقدها ونزولهم على حكمها .

وإذا كان الرشيد مولعاً بسماع الموسيقى والغناء ، شديد الإقبال على كبار المشتغلين بهذين الفنين الجميلين فلتقتد به زبيدة في ذلك . والحق أنها بلغ من عنايتها بالموسيقى والغناء أن أنشأت في قصورها مايشبه أن يكون معهداً موسيقياً ؛ فكان عندها مئات الجواري يأخذن الصناعة عن أكبر شيوخها أمثال إسحق الموصلي ، وعلوية ، ومخارق ، وأضرابهم . وكانت

وإذا بلغها أن مغنياً مشهوراً وضع لحناً جديداً أمرت جواريها فأخذنه عنه . ولقد دفعت ذات مرة ثلاثمائة ألف درهم ثمناً لعبد أسود يجيد الغناء . وكثيراً ما كانت تعرض بضاعتها فى هذا المجال على زوجها فى حفلات تجيد ترتيبها وتنسيقها فيعجب بها أيما إعجاب .

***

وإذا فقد أصبحت السيدة زبيدة مملكة على الرشيد مالكة لزمامه ، تصرفه كيفما شاءت فينقاد لها كل انقياد . لقد غزت قلبه من جميع أقطاره ، والويل لرجل على مصالح أمة إذا غزت المرأة قلبه وملكت عليه زمام أمره . إنها لا تلبث أن تجعله مطيتها إلى السيطرة على مصالح الأمة نفسها ، توجهها على حسب أهوائها ووفق أغراضها ، لا على وفق ما تقتضيه المصلحة العامة نفسها . والسياسة من الأمور التى تستهوى أفئدة النساء الجميلات الموهوبات الطموحات ، وهن لا يحجمن عن التورط فى مآزقها إذا ما وجدن السبيل إلى ذلك سهلة ميسرة . وسهامهن فى مجال السياسة ، كسهامهن فى مجال الحب ، مضميات قاتلات ... ولله در أبى فراس حيث يقول :

ولا تملك الحسناء قلبى كله ‏ ‏ ‏ وإن ملكتها رقة وشباب

ولقد وجدت زبيدة سبيل التعرض لسياسة الدولة ممهدة ميسرة ، فركبتها غير هيابة ولا مترددة ، ولقد تعرضت لأدق أمور هذه السياسة وأشدها خطراً ؛ ونعنى بذلك ولاية العهد أولاً والأخذ بناصر الحزب العربى ثانياً .

لقد رزقت زبيدة من زوجها ولدها محمداً الأمين ، ومع أنه لم يكن أكبر أبناء الرشيد ولا أنجبهم ، فإن أمه كانت حريصة على أن يكون الخليفة بعد أبيه . وقد أخذت تسعى إلى ذلك سعياً حثيثاً ؛ فهى آناً تدفع الشعراء إلى مدح محمد والإشادة بذكره ؛ وآناً تستغل سلطانها على الرشيد لمصلحة ولدها . وما زالت كذلك لا تفتر لها همة ، حتى نزل الرشيد على مشيئتها وعقد البيعة بولاية العهد لمحمد ، على أن تكون الخلافة لأخيه عبد الله المأمون من بعده . وقسم الدولة بينهما ، وكتب بذلك وثائق أودعها جوف الكعبة توكيداً لما فيها من عهود أخذت على الأخوين وعلى رجال الدولة أجمعين .

على أن الأمين هاشمى الأبوين ، وهو بذلك يمثل الحزب العربى فى الدولة العباسية

ذلك العهد . أما أخوه المأمون فارسى الأم ، وهو بذلك يمثل خؤولته من الفرس الذين أقاموا الدولة العباسية ، وكانوا المصرفين الحقيقيين لأمورها . فينبغى أن يحد من نفوذهم ، وأن يرفع من شأن العرب ، ليكون الخليفة المستقبل عصبية عربية قوية يستند إليها ويشتد بها أزره . وهنا نجد زبيدة تعمل على تنحية العنصر الفارسى عن إدارة الدولة العليا ، بادئة فى ذلك بالبرامكة بطبيعة الحال . ويظهر أنها كانت لا تريد أكثر من ذلك ، ولكن الرشيد بالغ فى فهم ما أوحت به إليه ، وذهب فى الأمر إلى أبعد من الغاية التى كانت ترمى إليها زبيدة وبنو هاشم ، فنكب البرامكة نكبتهم المشهورة فى عام ١٨٧ . والتبعة فى ذلك واقعة لا على السيدة زبيدة ، ولكن على الرشيد ، فهو الذى لم يحسن تقدير الأمور ، ولا وضعها فى مواضعها .

***

بلغت السيدة زبيدة ذروة مجدها فى أخريات عهد الرشيد . فلما توفى سنة ١٩٣ بكته أحر بكاء ؛ فلقد كان زوجها ومصدر عزها وسلطانها ، ولكن عزاها عن فقده أن أصبح ولدها الأمين الخليفة من بعده ، فامتدت أسباب سلطانها أياما أخر ، كانت قصاراً لسوء حظها .

لقد دب دبيب الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون ، وتفاقم الشر بينهما . ولقد حرصت زبيدة على أن يصفو الجو بين الأخوين ، ولكن المقادير جرت بغير ذلك ، فانتصر المأمون ، وقتل الأمين على شر حال ، فكان رزء زبيدة فادحا وخطبها جليلا ، إلا أنها تماسكت وتجلدت وجعلت تروض نفسها على أن تنظر إلى الأمور نظرا هادئاً ، فهل المأمون إلا متبناها ، إن فاته أن يكون ابنها حقاً ، فلتنزله من نفسها هذه المنزلة ، ولتعامله على هذا الاعتبار . وينتقل المأمون من خراسان إلى بغداد ، ويعرف لها حقها أول الأمر ، ويتعهدها ببرد وصلته ، ثم لا تلبث أن تعرف فى وجهه الجفوة والنفور منها . فتتلطف للأمر على عادتها القديمة فى معالجة الخلاف الذى كان ينشأ بينها وبين الرشيد ، فتطلب إلى أبى العتاهية الشاعر أن يقول شعراً على لسانها فيه عتاب للمأمون على جفائه لها ، ويضع الشاعر هذه الأبيات المملوءة تفجعاً وتوجعا :

ألا إن ريب الدهر يدنى ويبعد ... ويؤنس بالألاف طوراً ويبعد
أصابت لريب الدهر منى يدى يدى ... فسلمت للأقــــدار والله أحمد
وقلت لريب الدهر إن ذهبت يد ... فقد بقيت والحمد لله لى يد
إذا بقى المأمون لى فرشيد لى ... ولى جعفر لم يفقدا ومحمــــــد

ثم أمرت مخارقا المغنى أن يغنى المأمون بهذه الأبيات ، فسأل المأمون عن الخبر فعرفه ، فبكى ورق لها ، وقام من وقته ودخل إليها ، فأكب عليها يقبل يديها ، وقال لها : يا أمه ! ما جفوتك تعمدا ، ولكن شغلت عنك بما لا يمكن إغفاله . فقالت : يا أمير المؤمنين إذا حسن رأيك ، لم يوحشنى شغلك . وأتم يومه عندها » .

ومهما يكن من تلطف المأمون لها ، فقد أدركت زبيدة أن قد انقضى زمانها ، ودالت دولتها ، ولم تعد تفكر إلا فى كيف تخرج من الحياة العامة سالمة موفورة الكرامة . وسرعان ما سنحت لها فرصة ذلك . فعند ما بنى المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل نرى السيدة زبيدة تشترك فى العرس ، وتنفق فى ذلك أموالا ضخمة ، ولكنها فى الوقت نفسه توعز إلى العروس أن تستأذن لها المأمون فى الخروج للحج ، فلم يتردد المأمون فى إجابة هذا الطلب .

***

من الناس من إذا تنكر لهم الزمان ضعفوا واستكانوا وعراهم اليأس من كل شىء فى الدنيا ، فيصبحون أمواتاً وهم أحياء ؛ ومنهم من يحاول أن يثأر لنفسه من جده العاثر فيعيش لنفسه ولنفسه فقط ، فيصبح بذلك أنانياً أثراً مستهلكا غير منتج . أما النفوس القوية الكبيرة فهى التى ترى فرص العمل الصالح غير محدودة ؛ فهم أشبه بالسيل الدافع إذا اعترضته عقبة استدار حولها ومضى فى طريقه . من هذه النفوس الكبيرة نفس السيدة زبيدة ، فإنها لما أدركت أن حياة الملك والسلطان قد آذنت بالزوال أو زالت بالفعل ، توجهت نحو عمل الخير فانفتحت أمامها آفاق لعمل الخير لا حد لمداها . ولقد اندفعت فى اتجاهها الجديد بنفس الحمية التى كانت تندفع بها فى صدر حياتها نحو أبهة الملك ومجد الدنيا ؛ فهجرت السياسة بتاتاً ، وكذلك تركت حياة الفن والأدب اللذين لم تعد ظروفها الجديدة مواتية لها ، واستبدلت بكل ذلك صنع البر والمعروف ، وقد تعمدت أن تكون فى برها ملكة مسلمة حقاً . فهؤلاء

الجوارى للغنيات أصبحن يرتلن القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، حتى لقد كان يسمع من قصرها كدوى النحل من قراءة القرآن . وهذك على حدود الدولة الإسلامية غزاة مرابطون للدفاع عن الدولة بمهجهم وأرواحهم ، فلترفه عنهم ولتنشىء لهم الربط والحصون يقيمون فيها . من ذلك رباط بذخشان ، أنشأته على حدود بلاد الترك فى آسيا الوسطى ، وأنشأت عنده حصناً عجيباً ، يقول ياقوت : إن الناس لم يروا مثله . ثم ها هم أولاء حجاج بيت الله الحرام يلقون أعظم المشاق فى اجتيازهم بلاد العرب ، فلتنشىء على حافتى هذا الطريق الآبار المطوية والبرك العظيمة التى تختزن فيها المياه ليستقى منها الحجاج . وقد حجت السيدة زبيدة وشهدت موقع مكة بين جبال سود عاليات عاريات من الماء والعشب ، وعاينت مايلقاه الحجاج من العنت فى الحصول على الماء ، حتى إن الراوية لتباع فى موسم الحج بدينار ذهبا ، فرأت السيدة أن من أقرب القرب إلى الله أن تيسر وصول الماء من الحل إلى الحرم ، وعلمت أن بأرض الحل عينا تنبع من جبل شاهق يقال له طاد يبعد عن مكة بنحو ثلاثين ميلا . فأمرت السيدة المهندسين بثقب الجبال وإيصال مياه هذه العين إلى مكة ، فتم ذلك ؛ وأنفقت على عمل هذه العين ما يزيد على سبعمائة ألف دينار ذهباً ، وهو عمل هندسى عظيم هائل كما يصفه المؤرخون . ومن طريف ما يتصل بذلك من الأخبار أنه لما تم عمل العين اجتمع المباشرون والعمال لديها ، وأخرجوا دفاترهم لإخراج حساب ما صرفوه ، وكانت فى قصر عال مشرف على دجلة ، فأخذت الدفاتر منهم ورمتها فى النهر وقالت تركنا الحساب ليوم الحساب . فمن بقى عنده شىء من المال فهو له ، ومن بقى له شىء عندنا أعطيناه » ، وألبستهم الخلع والتشاريف ، فخرجوا من عندها حامدين شاكرين .

هذه العين هى عين زبيدة التى لا تزال تعرف بهذا الاسم ، والتى تستقى منها جموع الحجاج حتى يومنا هذا . لقد ذهب ملك السيدة زبيدة ، وذهب حسبها ونسبها وجاهها ومجدها الدنيوى . أما مبرتها العظمى فباقية على وجه الدهر يذكرها بها الذاكرون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

بين هرون الرشيد وشارلمان*

رجلا العالم فى أخريات القرن الثامن والقرن التاسع — كيف حدثت السفارة بينهما — اختلاف المؤرخين فى علاقات الرشيد بشارلمان — الاعتبار العرضى الإسلامى لهذه العلاقات .

ليس من شك فى أن هرون الرشيد وشارل الكبير هما رجلا العالم فى أخريات القرن الثامن الميلادى وبداية القرن التاسع . فالرشيد يمثل الشرق بمدنيته المزدهرة أيامئذ وعظمته التى بلغت أوجها ، وشارل الكبير ، أو شرلمان كما درج المؤرخون على تسميته ، يمثل الغرب الآخذ إذ ذاك فى الاستقرار على أثر نزوح القبائل الجرمانية من مجالاتها فى أوربا الوسطى إلى أملاك الدولة الرومانية الغربية ، والآخذ بتلك الأسباب التى جعلت منه فى النهاية باعث دول أوربا الوسطى والغربية الحديثة بأوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية المعروفة .

وليس من شك فى أن كلا من العاهلين العظيمين قد سمع بالآخر على أقل تقدير . فقد كانت بغداد منتجع السياح والتجار الوافدين إليها من مختلف الأقطار ، وكان لا يخلو الأمر من أن يجرى على لسان هؤلاء الوافدين فى أسواقها وأنديتها وبلاطها ذكر العاهل الفرنجى الكبير . وكانت مدينة آخن هى كذلك مقصد السياح والتجار واللاجئين السياسيين الواردين من الشرق ومن قسطنطينية وروميه والأندلس فكان لا يخلو الأمر من أن يتحدث هؤلاء وهم بعاصمة الدولة الفرنجية عن الحروب الناشبة بين بيزنطة والعباسيين وعن أخبار الأمويين المتغلبين على الجزيرة الإسبانية ، وعن النصر المؤزر الذى أحرزه الرشيد على الجيوش البيزنطية فى هضاب آسيا الصغرى وأوديتها وسهولها .

كل ذلك كان من شأنه أن ينقل إلى كل من العاهلين عن الآخر صورة مبهمة غامضة ،

(*) مجلة الهلال ، أغسطس سنة ١٩٤٠ .

ولكن ترى هل كان الأمر مقصوراً على مجرد السماع أم هل تعداه إلى قيام علاقات سياسية أو ودية بينهما كما ينتظر أن تكون الحال بين رجلين توزعا بينهما أمر المشرق والمغرب ليهدما ؟

أما المصادر العربية فتسكت عن ذكر أية علاقة بين الرشيد وشرلمان سكوتاً مطلقاً ، في حين أن المصادر الفرنجية القديمة تشير صراحة إلى اشتباك العلاقة السياسية والودية بينهما وتبدىء القول في ذلك وتعيده ، فتاريخ المملكة الفرنجية Annales Regni Francorum وسيرة الإمبراطور شرلمان Vita Caroli Magni Imperatoris والمنظومة المعروفة ببويتاساكسو Poeta Saxo كلها تروى نبأ ثلاث سفارات وهدايا تبودلت بين شرلمان والرشيد ، وكان شرلمان هو البادىء في كل منها بالاستسفار ، ولم يزد الرشيد على أن كان يرد على السفارة بسفارة وعلى الهدية بهدية مثلها .

* * *

وكانت السفارات طويلة الأمد لبعد ما بين المشرق والمغرب وصعوبة الانتقال بينهما في ذلك الزمان ؛ فالسفارة الأولى استغرقت ما بين عامي ٧٩٧ و ٨٠١ ، وذلك أن شرلمان بعث في أواخر عام ٧٩٧ وفداً مؤلفاً من سفيرين فرنجيين يقال لأحدهما سجسمند وللآخر لنتفرد ومعهما ترجمان يهودي يجيد العربية اسمه إسحق ، وبعث شرلمان إلى الرشيد على لسان الوفد يلتمس أموراً يغلب على الظن أنها ثلاثة :

(١) أن يعهد الرشيد إلى شرلمان بالقيام على المصالح العباسية فيما يغلب عليه شرلمان من أرض الأندلس ، وأن يشد شرلمان أزر الحزب القائم بالدعوة العباسية في تلك البلاد التي اقتطعها بنو أمية عن ملك بني العباس .

(٢) أن ينعقد بين العاهلين حلف وتعاون من شأنه أن يطلق يد شرلمان في ملك بني أمية بالأندلس ويطلق يد الرشيد في ملك الدولة البيزنطية بالمشرق .

(٣) أن يسهل الرشيد لزوار بيت المقدس وحجاجه من الفرنجة وأتباع الكنيسة الكاثوليكية سبيل زيارته وحجه ، وأن يعفيهم من القيود والتكاليف التي وضعها الرشيد

إذ ذاك على أهل الذمة ، وأن يحمى أولئك الزوار والحجاج من عدوان الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية .

وتقول المصادر الفرنجية المتقدمة الذكر : إن الوفد عاد من بغداد يحمل موافقة الرشيد على ما طلب شرلمان ، وأن سجسمند ولنتفرد توفيا أثناء العودة ، فعاد اليهودى وحده . على أن الرشيد لم يكتف بصرف وفد شرلمان مكرما بل رد على السفارة بسفارة مثلها ، فأوفد إلى شرلمان سفيرين أحدهما إبراهيم بن الأغلب الذى صار إليه أمر إفريقية ، وبعث معهما إلى شرلمان بهدية تليق بمقام المهدى والمهدى إليه . فيها عطور وتحف شرقية نفيسة وفيها ساعة مائية دقاقة وفيل عظيم الخلق يكنى بأبى العباس . وتقول المصادر الفرنجية إن بطرك بيت المقدس أوفد فى نفس الوقت إلى شرلمان راهبا يحمل إليه علما ومفتاح القبر المقدس ومفاتيح مدينة أورشليم نفسها ، واعتبرت المصادر ذلك بمنزلة نقل فسلطة على بيت المقدس وحمايته إلى العاهل الفرنجى .

أما السفارة الثانية فابتدأت عقب انتهاء السفارة الأولى ، فقد أوفد شرلمان إلى الرشيد فى عام ٨٠٢ (١٨٦ ﻫ) وفداً كان من بين أعضائه رجل اسمه راد برت ، ولا نعلم بالدقة الغرض من إنفاذ هذا الوفد ، ولكنا نعلم أن راد برت المذكور توفى أثناء عودة الوفد إلى مدينة آخن ، وأن الوفد بلغ هذه العاصمة عام ٨٠٦ ، وأن الرشيد قابل هذه السفارة بسفارة مثلها بأن أوفد رسولا تسميه المصادر عبد الله ووجه معه إلى شرلمان بخلعة نفيسة من القصب وبخيمة فاخرة الصنع . ويقال إن الخلعة المذكورة هى التى أدرج فيها بعد جثمان القديس كوثبرت المدفون فى كاتدرائية درهام ، وأنها لا تزال موجودة ، وأنها قد طرزت عليها صور سمك شرقية كما طرزت على حاشيتها بالخط الكوفى الجميل عبارة « لا إله إلا الله » .

وتذكر المصادر الفرنجية سفارة ثالثة بعث بها شرلمان إلى الرشيد فى عام ٨٠٧ ، ولكن الرشيد لم يعش حتى يرد عليها بسفارة من قبله فقد توفى بعد ذلك بعامين ، فتولى الرد عليها ابنه المأمون عندما استتب له أمر الخلافة وذلك حوالى عام ٨١٣ .

ولقد أحصى المؤرخ الروسى بارتولد ما تبقى حتى يومنا من التحف والهدايا التى وجه بها الرشيد إلى صديقه شرلمان فإذا هى تشتمل على الأشياء الآتية : بوق من العاج محفوظ

فى مدينة آخن ، وسيف محفوظ بمدينة ويانة ، وصينية من الذهب محلاة بقطع الزجاج المختلفة الألوان وعليها صورة لخسرو الأول مصنوعة من البلور . وهذه الصينية محفوظة فى دير جنت دنيس ، وقطع من قطع شطرنج شرقى محفوظة فى الدير المذكور ، وأبريق من الذهب محفوظ فى دير كنتون فليس ، وثمان شوكات من التاج الشوكى الذى يقال إنهم ألبسوه رأس السيد المسيح عند صلبه .

***

هذه خلاصة ماترويه المصادر الفرنجية عن العلاقات السياسية والودية بين الرشيد وشرلمان . وقد اختلف المؤرخون الأوربيون المحدثون من أوائل القرن التاسع عشر حتى وقتنا هذا فى شأن هذه الرواية اختلافا شديداً ، فمن مصدق لها ومكذب . فيوكنيل وبارتولد أميل إلى تكذيبها إلا فى القليل مما أتت به . ورينو ورهييه وبكلر يصدقونها وإن اختلفوا فى تأويلها . ولكل من الفريقين حجج يدلى بها فى الدفاع عن رأيه . وأهم ما يحتج به الفريق الأول سكوت المصادر العربية المطلق عن ذكر أى شىء يتصل بهذه العلاقات . ويذهب هذا الفريق إلى أن الهدايا التى يقال إن الرشيد بعث بها إلى شرلمان إنما انتحلها اليهودى إسحق ، وإن من المستحيل أن يتنزل الرشيد عن شىء من حقوقه السياسية لشرلمان . وأهم ما يحتج به الفريق الثانى انسجام الرواية المذكورة مع الأحوال الدولية العامة فى ختام القرن الثامن الميلادى وبداية القرن التاسع . ويلاحظ بعضهم فى هذه العلاقة البداية التاريخية لعلاقة فرنسا بالشرق الأدنى ، تلك العلاقة التى نمت وتطورت حتى انتهت بالانتداب الفرنسى على سورية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

ونحن على وجه العموم نرى رأى الفريق الثانى الذى يعتد بالرواية الفرنجية ، ونراها تؤرخ علاقة سياسية نشأت فعلا بين الدولتين العباسية والفرنجية . ولا عبرة بسكوت المصادر العربية ، فالمصادر العربية تكاد تهمل ذكر علاقات الدولة الإسلامية الخارجية إهمالا تاما . وليس يصح فى مقام التدليل التاريخى أن يرفض دليل إيجابى ممكن ومقبول عقلا من أجل دليل سلبى أو ظنى . ثم إن سياق الحوادث العامة فى أواخر القرن الثامن يؤيد الرواية الفرنجية إلى حد بعيد ويظهر الرواية العربية فى مظهر التقصير . فالمستعرض لحوادث الشرق

والغرب تمثلك العهد والتتبع لعلاقة دولها بعضها ببعض يرى أن الدولتين الإسلاميتين العباسية والأموية الأندلسية كانتا أبداً فى مكايدة وخصام مكتم ، ولكن تدل عليه أدلة كثيرة لا يتسع المقام لسردها ؛ كما يلاحظ أن الدولتين النصرانيتين الكبيرتين البيزنطية والفرنجية ، كانتا تقفان بعضهما من بعض نفس الموقف الذى كانت تقفه الدولتان الإسلاميتان بعضهما من بعض . وكانت البابوية منحازة إلى جانب الدولة الفرنجية ، وذلك بسبب الخلاف المذهبى بين كنيستى القسطنطينية ورومية ، و بسبب الثورة التى بعثها أباطرة بيزنطة على عبادة الصور ، وسخط البابوات على هذه الثورة . ثم إن الحروب التى كانت تقع بين الدولتين العباسية والبيزنطية فى الشرق كان يقع ما يشبهها و يشاكلها فى الغرب بين الدولتين الأموية والفرنجية . فطبيعى والحالة هذه أن يتم نوع من التفاهم على أقل تقدير بين أموى الأندلس وأباطرة بيزنطة ، وهو ما تصرح بحصوله المصادر العربية الأندلسية وبخاصة كتاب « نفح الطيب » للمقرى . وطبيعى كذلك أن يبعث هذا التفاهم تفاهما مثله على أقل تقدير بين ملوك الدولة الفرنجية وخلفاء الدولة العباسية ، وهو ما تصرح به المصادر الفرنجيـة التى سبق ذكرها . فقد ظهر إذن أن سكوت المصادر العربية عن أمر العلاقة بين شرلمان والرشيد لا ينهض دليلا على انتفاء هذه العلاقة .

ثم إن الأحداث الدولية التى وقعت فى الشرق والغرب فى ختام القرن الثامن و بداية التاسع مما يؤيد الرواية الفرنجية . فقد حمل شرلمان من حيث هو « حليف » الرشيد على شمال شرق الأندلس ، وأنشأ الثغر الأسبانى على الحد الجنوبى الغربى لفرنسا ، واستبقى عليه عماله من المسلمين ، واستولى على برشلونة عام ٨٠٢ ، وأنشأ علاقات سياسية بينه و بين عمال الثغور الإسبانية مثل سرقسطة وغيرها . كل ذلك فى نفس الوقت الذى شد فيه الرشيد الوطأة على ملك الدولة البيزنطية براً وبحراً ، وحمل نقفور على طلب الصلح والرضا بأداء الجزية وذلك عام ٨٠٤ .

بقى أن نوضح للقارئ الاعتبار الشرعى أو « التكييف القانونى » للعلاقة بين الرشيد وشرلمان ، وهو الأمر الذى أشكل على بعض المؤرخين المحدثين مثل برهيية ، ففهم من نصوص الرواية الفرنجية أن الرشيد قد نزل لشرلمان عن حقوقه على الأندلس و بيت المقدس ، غير أن الكاتب الإنجليزى بكلر قد وفق إلى فهم الأمر على حقيقته ، فقد أدرك أن الخلافة هى الولاية الكبرى فى الدولة الإسلامية ، وأن ما سواها من الولايات متفرع عنها وتابع لها ، فمن حيث الولايات الأندلسية لم يزد الرشيد على أن جعل شرلمان « والياً » عليها من قِبَله . ولا يعترض على ذلك بنصرانية شرلمان ، فقد جوز الفقهاء (كالماوردى فى الأحكام السلطانية) للخليفة إقراره أمارة النصب والاستيلاء ولو كان الناصب غير مسلم نزولا على حكم الضرورة و بشرط أن يرعى الناصب مصلحة من فى إمرته من المسلمين . وأمارة شرلمان على الولايات الأندلسية هى فى واقع الأمر من قبيل إمارة النصب والاستيلاء المذكورة . أما مسألة بيت المقدس فالباحث الخبير بأنظمة الدولة الإسلامية لا يرى فيها أكثر من أن الرشيد عهد إلى شرلمان فى رعاية الشئون الدينية لهذا البلد بدلا من ولاة الأمر البيزنطيين ، وهو أمر يتفق وما جرى عليه المسلمون منذ قامت الدولة الإسلامية حتى وقتنا هذا ، فقد جروا على أن يسندوا إدارة شئون أهل الذمة الدينيــة إلى رجال من أهل الذمة أنفسهم . وإذن فلم يكن ثم نقل لسلطان الرشيد على بيت المقدس إلى شرلمان ولا إنشاء لحماية فرنجية على ذلك البلد تقلدها شرلمان . بل إن حقيقة الأمر أن شرلمان قد وضع نفسه فى الحالين موضع تابع من أتباع الرشيد وعامل من عماله . ور بما كانت الخلعة الفاخرة التى بعث بها الرشيد إليه هى الرمز المادى لتلك السيادة وذلك الخضوع .

***

فإذا عرفنا أن العلاقة السياسية التى وصفناها قد استقرت حوالى عام ٨٠٠ ، وأن البابا قد توّج فى العام المذكور شرلمان امبراطوراً على الدولة الرومانية الغربيــة — على أن يستمد منه العون المادى — وأن الإمبراطور نقفور البيزنطى قد رضى فى عام ٨٠٤ بحمل الجزية

إلى الرشيد ، استبان لنا أن الرشيد لم يعد في عام ٨٠٤ (١٨٨ هـ) خليفة المسلمين فحسب ، بل لقد أصبح من الوجهة النظرية على أقل تقدير السيد الأعلى للعالم المسيحى ، وتلك لعمر الحق منزلة لم ينلها ملك قبله ولا بعده على الإطلاق .

وقد يكون طريفاً أن نلاحظ أن العلاقة بين الرشيد وشرلمان قد نمت وازدهرت وأثمرت في أواخر القرن الثامن الميلادى ، فهى بذلك تتضمن رداً بليغاً صادراً من أعماق الزمن على دعوى المدعين بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا . لقد التقيا وتصافحا منذ أكثر من ألف عام على نحو قد يعجب له أبرع ساسة القرن العشرين .

الرشيد وأبو نواس*

شخصيتان معروفتان مألوفتان عند الخاص والعام ، ومعدودتان من وجوه كثيرة أعجب شخصيات العالم الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى : الأولى شخصية شاعر عربى أعجمى الأصل تناهت فيه فلسفة الأعاجم الإباحية القائمة على الاستهزاء بالمواضعات والعقائد ، وعلى الاستمتاع باللذة ، مشروعها وغير مشروعها ، مقبولها ومرذولها ، ثم راح يصوغ هذه الفلسفة البائرة للبيرة فى شعر سهل بليغ لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . فغدا بحق إمام شعراء مذهب اللذة فى العربية وحامل لوائهم على الإطلاق . أما الشخصية الثانية فشخصية ملك عربى تناهت فيه فلسفة سياسة ذلك الزمان القائمة على الاستبداد ، والجبروت والعصبية ، والعقيدة الجامدة ، مع ما يمتاز به العربى المترف عادة من رق الذوق ، ودقة الإحساس ، ولطف المزاج .

وإذا كانت فلسفة أبى نواس قد عادت عليه بتخرق الخلق ، وشذوذ الشهوة ، فقد عادت على الرشيد فلسفته بصلابة الرأى وجمود العقيدة والتهالك على كل ما يمسك عليه سلطانه خيراً كان أو شراً . من أجل ذلك نستجيز أن نستعير تعبيراً فرنسياً شاع فى أوربا فى أواخر القرن الماضى Fin. desiécle وأعطاه الكاتب الألمانى الأشهر ماكس نوردو طابعاً علمياً خاصاً[1] فنسمى أبا نواس « شاعر آخر الزمان » والرشيد « ملك آخر الزمان » كذلك . ولأمر ما شاءت الأقدار أن يفارق كل منهما هذه الدنيا فى العقد الأخير من القرن الثانى الهجرى .

جمعت بين هاتين الشخصيتين العجيبتين جوامع الزمان والمكان والفن ، ولكن باعدت بينهما مقتضيات فلسفة كل منهما . فترددت الصلة بينهما بين السلب والإيجاب ، والوجود والعدم ، وهذا هو المؤتلف مع فلسفة الرجلين والمتفق مع الثابت المستيقن من

(*) مجلة الهلال أغسطس ١٩٣٦ .

(١) فى كتابه « الانحلال » Degeneration : الباب الأول ومؤداه التحلل من قيود العرف والأخلاق .

أخبارهما . بيد أن أخباراً محرفة منحولة تؤكد توثق الصلة بينهما إلى المدى الذى يكون عادة بين الأوداء والخلطاء ، غير مبالية ما بين الرجلين من تفاوت فى فلسفة الحياة واختلاف فى المزاج . كما أن طائفة عظيمة أخرى من الحكايات أبدعها خيال القصاص فى شتى العصور الإسلامية قد ذهبت فى تصوير الصلة بين أبى نواس والرشيد كل مذهب مطرحة كل اعتبار ، اللهم إلا اعتبار الرغبة فى تفكهة القارىء وإمتاعه .. والآن فلنعرض لكل ذلك بشىء من التفصيل .

ولد أبو نواس بالأهواز حوالى عام ١٤٠ ونشأ وتعلم بالبصرة . ثم ارتحل إلى البادية فى طلب اللغة وفصاحة اللسان . ثم انتقل إلى الكوفة للأخذ عن علمائها . فلما اكتملت مواهبه ونضج شعره ارتحل إلى بغداد بلد العلم والأدب والسياسة العليا فى ذلك الزمان كما كانت بلد الحياة الماجنة الخليعة التى يؤثرها من كان مثل أبى نواس . فاتخذها الشاعر مهاجراً ولزمها حتى آخر حياته إذا استثنينا رحلته القصيرة إلى مصر . والظاهر أن هجرته إلى بغداد كانت حوالى عام ١٧٩[1] على أكثر تقدير ، أى فى الوقت الذى كان البرامكة فيه قابضين على زمام الأمر فى الدولة الإسلامية ، فكان طبيعياً أن يتوجه إليهم أبو نواس بشعره وقد مدحهم ونال جوائزهم السنية . وكان آخر شعر مدحهم به قصيدته المشهورة التى مطلعها :

أربع البلى إن الخشوع لباد عليك ، وإنى لم أخنك ودادى

قالوا ولما سمعها الفضل بن يحيى تطير منها تطيراً شديداً . ولم يمض أسبوع على سماعه لها حتى نكب ونكب معه قومه . ونحن نعرف أن نكبة البرامكة كانت عام ١٨٧ ، وإذاً يمكن القول أن أبا نواس منذ دخوله بغداد عام ١٧٩ إلى عام ١٨٧ كان يخص البرامكة من بين رجال الدولة بشعره ، وأنه لم يتوجه إلى الرشيد بمدحة فى تلك السنوات الثمان . والحق أننا لا نجد فى ديوانه شعراً قاله فى الرشيد ويمكن رده إلى تلك الفترة ، ولا عبرة بتلك الأبيات التى قالها أبو نواس فى عام ١٧٩ يحث الرشيد على استحجاب الفضل بن الربيع[2] :

قولا لهارون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد

---

(١) وذلك مستفاد من قوله يخاطب جعفر بن الربيع :

ولا تجحدوا بى ود عشرين حجة ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

(٢) ذكر الطبرى أن الرشيد عزل فى عام ١٧٩ محمد بن خالد برمك عن الحجبة وولاها الفضل بن الربيع .

أنت على ما بك من قدرة   فلست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد

فهى فى الواقع مدح فى الفضل بن الربيع، وقد أوردها جامع ديوان أبى نواس على أنها كذلك.

فلما دالت دولة البرامكة وقامت دولة آل الربيع واستبد الرشيد بالأمر دار أبو نواس مع الفلك الدوار وأقبل يمدح رجال العهد الجديد وعلى رأسهم الخليفة نفسه، وكان ذلك بدء اتصاله الأدبى بالرشيد. ومن أوائل ما مدحه به قوله من قصيدة:

إنى حلفت عليك جهد ألية   قسما بكل مقصر ومحلق
لقد اتقيت الله حق تقاته   وجهدت نفسك فوق جهد المتقى
وأخفت أهل الشرك حتى إنه   لتخافك النطف التى لم تخلق
وصناعة الشعراء إن أنفقتها   نفقت وإن أكسدتها لم تنفق

وقوله من قصيدة أخرى:

تبارك من ساس الأمور بعلمه   وفضل هارونا على الخلفاء
نعيش بخير ما انطوينا على التقى   وما ساس دنيانا أبو الأمناء
إمام يخاف الله حتى كأنما   يؤمل رؤياه صباح مساء

وقوله من قصيدة ثالثة:

هارون ألفنا ائتلاف مودة   ماتت لها الأحقاد والأضغان
فى كل عام غزوة ووفادة   تنبت بين نواهما الأقران
حج وغزو مات بينهما الكرى   باليعملات شعارها الوخدان

وهذا الشعر كله يدل على أن أبا نواس إنما مدح به الرشيد عند ما ظهر الرشيد بمظهر البأس والجبروت، وعند ما غدا مخوفا مرهوبا لا تؤمن بوائقه، وعند ما جد فى جهد الروم وأذل عاملهم، وعند ما أصبحت بضاعة الشعراء رهن مشيئته، إن شاء نفقت وإن شاء كسدت. والرشيد إنما ظهر بكل ذلك بعقب إيقاعه بالبرامكة. بل إن المصادر التاريخية نفسها تعيننا على تاريخ القصائد الثلاث المذكورة. فالراجح أن القصيدة الأولى مدح بها

أبو نواس الرشيد عام ١٨٧ عند ما انتصر الرشيد على نقفور البيزنطى انتصاره المشهور[1] أما القصيدة الثانية فثابت أن الشاعر نظمها عام ١٨٩ عند ما أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد لإبنه القاسم ولقبه بالمؤتمن[2] ، وأما القصيدة الثالثة فقالها عام ١٩٠ عند ما اتخذ الرشيد قلنسوة مكتوبا عليها « غاز حاج »[3] .

على أن هذه المدائح وغيرها من شعر أبي نواس في الرشيد لم تعد أن تكون من قبيل الشعر الرسمى الذى يقال فى الظروف والمناسبات الخاصة . وليس فيها ولا فى عامة شعر أبى نواس ما يفيد أن أبا نواس تجاوز فى علاقته بالرشيد هذه الحالة إلى أن يكون من شعراء البلاط فضلا عن أن يكون من جلساء الرشيد وندمائه . بل ليس فى شعر أبى نواس ولا فى الثبت من أخباره ما يفيد أنه كان ينشد الرشيد شعره إنشاداً على نحو ما كان يفعل بعض معاصريه إمثال أبى العتاهية ومروان بن أبى حفصة مثلا[4] . لقد كان ثم أمور تحول بين أبى نواس وبين هذه الغاية . لقد كان أبو نواس قبيح السيرة ، ماجنا ، سكيراً متهما فى نفسه مقيما بحانات الكرخ ومواخيره يشرب الخمر ويعبث بالغلمان ، وكان يصرح بكل ذلك فى شعره وخاصة خمرياته حتى شاع أمره فى بغداد . ثم إنه قد خاض فى أمر العصبية العربية وتقلب فيها تقلبا منكراً ؛ فادعى أول الأمر نسب النزارية وهجا اليمن ثم عاد فادعى نسب اليمن وهجا النزارية بقصيدة قوية أولها :

ليست بدار عفت وغيرها ضربان من قطرها وحاصبها

ثم صار شعوبيا وبرىء من العرب قاطبة وهجاهم وادعى الأعجمية[5] . وسبب ثالث قعد به عن الاتصال بالرشيد ، هو فساد عقيدته وزندقته ومجاهرته فى شعره بآراء الثنوية . فهذه الأمور كلها لم تكن لتجعل الرشيد يقبل على أبى نواس ويأذن له فى غشيان حضرته وإنشاده ، وهو بعد الحريص على مظاهره الإسلامى ، المتزمت فى أمر العرض والشرف ، الفخور بنسبه العربى النزارى القرشى . والحق أن الرشيد من حيث هو خليفة للمسلمين وحارس الدين والآداب ، لم يتردد فى الضرب على يد أبى نواس ، وفى أن يعمه من حين لآخر ببعض

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ — ٩٣ . (٢) ج ١٠ ص ٩٦ . (٣) الطبرى ج ١٠ ص ٩٩
(٤) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ — ٩٣ .
(٥) أخبار أبى نواس الورقة ٨٥ من النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية .

العقاب ؛ فقد رووا أنه حبسه فى شرب الخمر[1] وأنه حبسه طويلا بسبب قصيدته التى هجا بها النزارية ، وأنه حبسه كذلك من أجل جهره بالزندقة وعقائد الثنوية ، وكان حساده وأعداؤه من جلساء الرشيد يغمزون فيه عند الخليفة من هذه الناحية الدقيقة الحساسة . رووا[2] أن الرشيد جلس مجلسا وأفاض من حضره فى المطبوعين من شعراء المحدثين ، إلى أن اتصل الذكر بالحسن بن هانىء فغمز عليه سليمان بن جعفر ، فقال : يا أمير المؤمنين ! كافر بالله . لا يرعوى عن منكر ولا يأنف من فاحشة . وقد نمى إلى أمير المؤمنين خبره . فقال : يا أبا عمر ! هل تروى عنه من ذلك شيئاً ؟ قال : نعم ! قوله يا أمير المؤمنين :

يا ناظراً فى الدين ما الأمر　　لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندى من جميع الذى　　يذكر إلا الموت والقبر

ثم أنشده قوله أيضا :

باح لسانى بمضمر السر　　وذاك أنى أقول بالدهر
وليس بعد الممات منتجع　　وإنما الموت بيضة العقر

فاستشاط الرشيد غضبا . وقال : على بابن الفاعلة . يا فضل ! لا يفوتنك الزنديق ! ونمى إلى أبى نواس الخبر فساخ فى الأرض ، فلم يقدر عليه أحد . فقال رجل من جلساء الرشيد : إن أذن أمير المؤمنين أنشدته من قول هذا الفاسق ما هو أشنع مما سمع . قال : هات ! قال : قوله فى غلام نصرانى :

تمر وأستحييك أن أتكلما　　ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلما
ويهتز فى ثوبيك كل عشية　　قضيب من الريحان شب منعما
بحسبك أن الجسم قد شفه الضنى　　وأن جفونى فيك قد ذرفت دما
أليس عظيماً عند كل موحد　　غزال مسيحى يعذب مسلما
فلولا دخول النار بعد مصيره　　عبدت مكان الله عيسى بن مريما

---

(١) أخبار أبى نواس ص ١٠٩ من الجزء الأول المطبوع .
(٢) أخبار أبى نواس الورقة ١٠١ من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية .

فازداد حنق الرشيد عليه . فقال : يا أمير المؤمنين ! وأشنع من ذلك ، قال : هات ! فأنشده قوله فى غلام نصرانى :

وملحة بالعذل ذات نصيحة ترجو إنابة ذى مجون مارق
بكرت تبصرنى الرشاد وهمتى غير الرشاد ومذهبى وخلائقى
فأجبتها كفى ملامك إننى مختار دين أقسة وجثالق
والله لولا أننى متخوف أن أبتلى .....

وقطع الإنشاد ، فقال له الرشيد : بماذا ، ويلك ! فاستعفاه ، فقال : ويلك ! بماذا ؟ فقال :

.... بإمام جور فاسق

قال فضج المجلس بأهله . وأنكر الرشيد نفسه . ثم قال : امض ! فقال :

لتبعته فى دينه ودخلته ببصيرة منى دخول الوامق
إنى لأعلم أن ربى لم يكن ليخصهم إلا بدين صادق

فقال الرشيد للفضل بن يزيد بن المنصور : إن لم يبت هذا الكلب فى المطبق لتنكرن قولا وفعلا . فوجه الفضل (فى طلبه) من ساعته ، فأخذ وأودع المطبق ثم أعانه الفضل بن الربيع إلى أن أطلق ، فقال فى ذلك :

الله فرج لى برأى الـ فضل من حلق الكبول
وأقالنى عثت العثا ر وقد أيست من المقيل

والظاهر أن أبا نواس قال فى ورطته هذه يستعطف الرشيد قصيدته التى يقول فيها :

بعفوك لا بجودك عذت لا بل بفضلك يا أمير المؤمنينا
فلا يتعذرن على عفو وسعت به جميع العالمينا

على أن الرشيد لم يكن بالرجل الذى يخفى عليه مكان أبى نواس من الأدب والشعر خاصة . لقد كان الرشيد نفسه ذا بصر بالشعر عليما بمراتب الشعراء شديد العطف عليهم والرعاية لهم . وكان فى قرارة نفسه عظيم الإعجاب بفن أبى نواس مؤمنا بأنه أمام شعراء زمانه

غير مدافع . قال إسماعيل بن صبيح[1] قال لى الرشيد : يا إسماعيل ! ابغنى وصيفة مليحة فطنة شكلة حلوة متكلمة ظريفة عاقلة تسقينى ، فإن الشرب يطيب من يد مثلها . قال : فقلت يا سيدى ! على الجهد . فقال : اجعل قول هذا العيار أمامك — يريد أبا نواس — وامتثل فيها ما حد فى مثلها . فقلت يا سيدى ! وما قوله ؟ قال :

من كف ساقية ناهيك ساقية ... فى حسن قد وفى ظرف وفى أدب

كانت لرب قيان ذى معاينة ... بالكشح محترف بالكشح مكتسب

حتى إذا ما غلى ماء الشباب بها ... وأفعمت فى تمام الجسم والعصب

وجشمت بخنى اللحظ فانجشمت ... وجرت الوعد بين الصدق والكذب

تمت فلم ير إنسان لها شبهاً ... فيمن برا الله من عجم ومن عرب

تلك التى لو خلت من عين قيمها ... لم أقض منها ولا من حبها أربى

من أجل هذا التقدير الفنى المحض كان الرشيد لا يبلغ من عقوبة أبى نواس المبلغ الذى يقتضيه نص الشرع . فكان يجازيه على مجونه ، واستهتاره ، ومجاهرته بالمعاصى فى شعره ، بمجرد الحبس . ومع ذلك كان إذا كتب إليه أبو نواس من السجن يستعطفه ، أو شفع عنده شفيعاً ذا خطر ، أقال عثرته وقبل شفاعته فيه وأمر بتخلية سبيله . بل لقد بلغ الأمر بالرشيد أن انزعج عندما أرجف أهل بغداد بأن أبا نواس قد قتل . قال يوسف بن الداية[2] : غاب أبو نواس عنا وعن إخوانه غيبة طويلة ، فلم نعلم له خبراً وجعلنا نسأل عن أمره فلم نعلم له أثراً . حتى مضت له سنة فظنوا أنه قتل ، وبلغ ذلك الرشيد فقال : والله إن صح أنه قتل لأقتلن قاتله ولو كان محمداً (يريد ابنه الأمين) انظروا كل من هجاه من الناس فاكتبوا اسمه وارفعوه إلى ؟ فارتجت بذلك بغداد . فلما كان على رأس الحول إذا نحن به قد وافى . فقلنا له : يا أبا على ! قد غبت هذه الغيبة عنا فغممتنا وظننا بك الظنون . قال : كنت فى بيتى . قلنا : ألم تسمع بغمنا لك وقول الرشيد فيك ؟ فلم يبق أحد من إخوانه إلا عذله ، وقالوا : إن فى هذا تعريضاً لنفسك للآفات ، فأنشأ يقول :

---

(١) أخبار أبى نواس الورقة ٦٩ من النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) أخبار أبى نواس : الورقة ٩٨ من النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية .

إنى لفى شغل عن العالميـن بالروح والريحان والياسميـن

إلى آخر القصيدة : ...

* * *

وجملة القول أن أبا نواس كان يحرص على أن يخلد بعض شعره بنظمه فى تلك الشخصية الساطعة المتلألئة ، شخصية الخليفة هارون الرشيد . ولكنه كان يعلم ألا سبيل له إلى الاتصال بتلك الشخصية فوق هـذا القدر . فكان يمدح الرشيد ويستعطفه ولـكن « من بعيد » . أما الرشيد فكان يقدر فن أبى نواس و يعجب به أشد الإعجاب ، ولـكنه للأسباب التى سبق ذكرها كان لا يستطيع أو لا يريد الذهاب إلى أبعد من حد التقـدير والإعجاب ، فكان يسمع شعره وينقده[1] ويعجب به ، ولـكن « من بعيد » كذلك . تلك حقيقة الصلة بين أبى نواس والرشيد وذلك مقدار مداها .

* * *

على أن هناك طائفة من الأخبار تزعم أن أبا نواس كان وثيق الصلة بالرشيد ، وأنه كان يدخل عليه ويجالسه وينادمه وأنه كان ملازما لقصره وأن له وقائع ونوادر مع حرم الرشيد وجواريه . وعندى أن بعض هذه الأخبار يصح إذا وضعنا مكان « الرشيد » لفظ « الأمين » فلا شك أن أبا نواس كان ملازماً لقصر الأمين ينادمه ويجالسه ويشاربه ، إلى حد أن استغل المأمون تلك الصلة فى التشنيع على الأمين بخراسان[2] عند ما استحكمت النفرة بين الأخوين . وقد دعا ذلك الأمين آخر الأمر إلى التشديد على أبى نواس فى ترك الخمر وإلى حبسه عند ما كان يعصى أمره . وقد أشار أبو نواس إلى ذلك فى شعره . وقد يكون بعض هذه الأخبار صحيحاً كذلك إذا وضعنا مكان اسم أبى نواس اسم « ابن أبى مريم المدنى »[3] وكان رجلا مضحاكا فكها منقطعاً إلى الرشيد فى أواخر حياته يسليه ويفرج همومه بنكاته وطريف أحاديثه .

---

(١) ديوان أبى نواس : هامش ص ٧٣ (طبع المطبعة العمومية) .

(٢) أخبار أبى نواس : الورقة ٧٢ (من النسخة الخطية) .

(٣) الطبرى جـ ١٠ ص ١١٤ .

وهناك مجموعة أخرى من الحكايات والنوادر تدور حول العلاقة بين أبي نواس والرشيد وقد أبدعها الخيال فى العصور الإسلامية المختلفة . هذه الحكايات لا نجد لها أثراً ما فى كتب الأدب والتاريخ المتمدة كالأغانى والعقد الفريد ، ولكنها حفلت بها كتب القصص وخاصة كتابى « ألف ليلة وليلة » و « أعلام الناس » وهى تصور أبا نواس فى صورة رجل مضحاك يفكه الخليفة بأشعاره الطلية المرتجلة ويضحكه بنوادره المستملحة . ولو أجاد واضعو هذه الحكايات السبك لنسبوها إلى ابن أبى مريم المدنى المذكور ، ولكنهم نسبوها خطأ إلى أبى نواس . قال ابن منظور صاحب « لسان العرب » ومؤلف كتاب « أخبار أبى نواس »[1] : وقال بعض المترجمين ممن يحيط علما بأحوال أبى نواس « إن هذه الحكايات عن أبى نواس والرشيد موضوعات ، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه وإنما دخل على محمد الأمين » .

وإذا كان ابن منظور قد بالغ على ما يظهر فى نفيه عن أبى نواس رؤية الرشيد فلا شك أن عباراته فيما دون ذلك صادقة الصدق كله .

(١) السفر الأول المطبوع ص ٢١٧

مع أبى نواس الزاهد*

شعرت من أيام بضيق فى الصدر ، وحرج فى النفس ، وما أكثر ما يضيق صدر الإنسان وتحرج نفسه فى هذه الأيام التى لا تنفك تنادينا وتراوحنا بأنباء حروب نكراء ، وغارات شعواء ! فتناولت ديوان الحسن بن هانئ الشهير بأبى نواس ، لعلى أجد فى دعاباته ونظراته المازحة المازئة بهموم الحياة فرجا مما دهمنى ، ومخرجا مما نزل بى .

وأقبلت أنظر فى فهرسه لأتخير منه بابا أقرؤه أو أقرأ فيه ، فرأيته يشتمل على أحد عشر بابا ، فى نقائضه مع الشعراء ، وللمديح ، وللمراثى ، والعتاب ، والهجاء ، والزهد ، والطرد ، والخمريات ، والمجون ، وغزل للمؤنث ، وغزل للمذكر . وما أسرع ما استوقف نظرى أن يكون الزهد من بين أبواب الشعر التى طرقها أبو نواس ! وقلت فى نفسى : ياعجبا ! أبو نواس الماجن المهجّاء ، والسكير العربيد ، يكون ناسكا وزاهداً ! هذه ظاهرة نفسية طريفة ، وناحية من حياة ذلك الشاعر خطيرة ، لم ألق لها بالاً من قبل ، ولعل غيرى لم يلق لها بالا كذلك . فالمتعارف المشهور عن الحسن بن هانئ أنه مستهتر مسرف على نفسه ، قد ضجت من استهتاره حانات الكرخ ، وديارات العراق .

* * *

وفتحت باب الزهد وأخذت أقرأ فيه وأقرأ ، حتى أتيت عليه قراءة ، فإذا هو يقع فى بضع عشرة صفحة كبيرة ، وإذا موضوعاته هى نفس الموضوعات التى يقول فيها الزهاد عادة : من أسف على تضييع ما يجب على العبد نحو خالقه ، وترك الازدجار بالشيب والاتعاظ بالموت ، والتزهيد فى الدنيا ، والتحذير منها ، والتذكير بالبعث بعد الموت ، والتخويف من يوم الحساب . ولقد وقع فى نفسى أن هذا الباب ربما كان موضوعاً على أبى نواس ، وأن الشاعر قد نحله كما نحل كثيراً غيره من الشعر . فأعدت قراءة الباب فى ضوء ما أعلم من

(*) الثقافة ١٣١ ، ١ يوليه سنة ١٩٤١ .

صناعة أبي نواس ، فعرفت فيه الصناعة النواسية نظماً ومعنى وروحاً . ثم وسعت أفق اطلاعي على المراجع التي عنيت بترجمة أبي نواس وذكر أخباره ، فوجدت غير واحد من أئمة النقد المعاصرين لأبي نواس يثنون الثناء الجم على بعض زهدياته . فهذا الجاحظ يقول : لا أعرف من كلام الشعراء كلاماً هو أوقع ولا أحسن من قول أبي نواس :

أية نار قدح القادح وأي جد بلغ المازح
لله در الشيب من واعظ وناصح لو حذر الناصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

وهذا أبو العتاهية أكثر الشعراء قولاً في الزهد يقول : قد قلت عشرين ألف بيت في الزهد ، ووددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة التي قالها أبو نواس وهي :

يا نواسيّ توقر وتعز وتصبر
إن يكن ساءك دهر إن ما سرك أكثر
يا كبير الذنب عفو الله من عفوك أكبر

وهذا الخليفة المأمون يقول : لو سئلت الدنيا عن نفسها فنطقت لما وصفت نفسها إلا كما وصفها أبو نواس في قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

وإذاً فزهديات أبي نواس هي زهدياته حقاً . فما الذي حدث يا ترى حتى تحول هذا الأبيقوري الذاهب في مذهب اللذة إلى أقصى حدوده ، حتى استحال زاهداً ناسكاً ، وحتى أصبح يصرف القول في أمور الزهد والتقوى ، والموت والبعث ، والثواب والعقاب ، بعد أن لبث دهراً طويلاً يسخر شاعريته في نعت الكاس والطاس ، والغلمان والجواري ، وهجو الناس والتهجم على مواضع الضعف منهم .

ألأن أبا نواس قد مل ارتكاب المعاصي ومقارفة الذنوب ، وكل شيء طال فهو لا محالة مملول ؟ قد يكون ذلك ، فهو الذي يقول :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذاك أثام

أم أن تقدم السن ونذر الشيب وتهدم الجسم هي سر هذا التحول ؟ ربما كان الأمر كذلك ، فليس من شك في أن أبا نواس توفر على قول الشعر في الزهد بعد أن جاوز الخمسين من عمره . ولعمرى إن خمسين سنة من عمر أبي نواس لتعدل سبعين أو ثمانين من عمر رجل وادع الحياة هادئها ، ثم هو بعدُ الذي يقول :

لله در الشيب من واعظ وناصح لو حذر الناصح

أم أن أحداث الزمن وعبر الدهر ، وما شهد أبو نواس في أخريات حياته من نكبة البرامكة ، وموت الرشيد ، ووقوع العداوة بين الأمين والمأمون ، ومقتل الأمين على شر حال ، هي السبب الأقوى في اعتقاده أن الدنيا خداعة غرارة ، لا يأمن مكرها قوى ولا ضعيف ، ولا ينجو من غدرها غنى ولا فقير ؟ ربما كان الأمر كذلك ، فهو الذي يقول :

أيا رُب وجه في التراب عتيق ويا رب حسن في التراب رقيق
ويا رب حزم في التراب ونجدة ويا رب رأى في التراب وثيق
ألا كل حيٍّ هالكٌ وابن هالكٍ وذو نسبٍ في الهالكين عريق
فقل لقريب الدار إنك راحل إلى منزل نائي المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

* * *

ومهما يكن من شيء ، فهذه الأمور كلها متفرقة أو مجتمعة ، لا تكفي وحدها في تعليل زهد أبي نواس وتنسكه . وأرى أنها كانت تقع على غير موقع إذا لم تصادف من نفسه أرضاً ... ، هذا الاستعداد هو ضالة الباحث في هذا التحول في حياة شاعرنا الكبير ، وهو الأمر الذي أحب أن أنبه عليه وألفت النظر إليه .

لقد كان أبو نواس على الرغم من إسرافه واستهتاره مؤمناً في قرارة نفسه ، وللمعصية لا تنافي الإيمان — في شرعة العقل على أقل تقدير .

ولإيمان أبي نواس مصدران اثنان : الاعتقاد القلبي ، والنظر العقلي . أما الاعتقاد القلبي فأبو نواس فنان عبقري من غير نزاع ، وعباقرة الفنانين لا يتأتى لهم الإبداع والإلهام

إلا بنوع من الإيمان نعرفه فى فلك الإشراق وتلك الوضاءة التى نطالعها فيما يحبون من شعر ونثر ونغم ورسم وغير ذلك من ضروب الفن الجميل .

أما المصدر الثانى وهو النظر العقلى ، فذلك أن أبا نواس لم يكن فناناً عبقرياً فحسب ، بل كان فوق ذلك عالماً متمكناً من علوم زمانه ، من لغة وأخبار وحديث وفقه وفلسفة ؛ وقد ورد فى شعره ذكر الجبر والقدر والتناهى والتجدد ، والجزء الذى لا يتجزأ ، وطائفة من أخبار القدماء وصدر الإسلام وعلماء المسلمين . وقد بلغ من شأنه فى ذلك أن ود بعض العلماء المعاصرين له الأخذ عنه ، لولا ما عرف به من مجون وانحراف عن الجادة . ولا يعدم من يقرأ أخباره وخمرياته ومجونياته أن يجد فى مواضع كثيرة منها تصريحه بأنه يؤمن بإله واحد غفور رحيم ، من ذلك قوله وهو فى مقتبل عمره وجدة أمره :

تكثر ما استطعت من الخطايا   فإنك بالغ رباً غفورا

ستبصر إن وردت عليه عفواً   وتلقى سيداً ملكا كبيرا

تعض ندامة كفيك مما   تركت مخافة النار السرورا

ولينظر القارئ كيف يختم قصيدة له ضمنها ما شاء من ذكر مغامرته واستهتاره ، فهو يقول فى ختامها :

حتى إذا الشيب فاجانى بطلعته   أقبح بطلعة شيب غير مبخوت

فقد ندمت على ما كان من خطل   ومن إضاعة مكتوب المواقيت

أدعوك سبحانك اللهم فاعف كما   عفوت ياذا العلا عن صاحب الحوت

ويروى الخطيب فى تاريخ بغداد أن أبا نواس خرج فى أصحاب له إلى مكان طيب نزه ، فجعل أصحابه يصفون الجنة ونعيمها ، والمعاصى التى تحول دونها ، كل ذلك وأبو نواس ساكت ، ثم قال :

يا ناظراً فى الدين ! ما الأمر ؟   لا قدر صح ولا جبر

ما صح عندى من جميع الذى   تذكر إلا الموت والقبر

قال فاستعظمت الجماعة من قوله ، وأطالت توبيخه . فقال أبو نواس : ويلكم ! إنى والله لأعلم ما تقولون ، ولكن المجون يفرط على ، وأرجو أن أتوب ويرحمنى الله .

والواقع أن أبا نواس كان دائم الاستصحاب لقوله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » . كما أنه اختار من بين المذاهب الكلامية التى ظهرت إذ ذاك مذهباً يلائم حاله ومزاجه . لقد كان الخوارج يكفرون صاحب الكبيرة . وكان للمعتزلة يرونه بمنزلة بين الكفر والإيمان . وكان أهل السنة والجماعة يعتبرونه مؤمناً فسق بارتكاب للمعاصى . أما المرجئة فكانوا يقولون إنه لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وكانوا يؤملون عفو الله لكل مؤمن عاص . ومن ثم اختار أبو نواس عقيدة المرجئة ، وعبر عن عقيدته هذه فى مواضع من شعره :

قل لمن يدعى فى العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت امرأ حرجا فإن حظركه فى الدين إزراء

غير أنى على الإساءة والتفـ ـريط راج لحسن عفو الله

***

وإذاً فالعوامل التى ذكرناها من سآمة للمعاصى وتقدم السن وتتابع الأحداث وتهدم القوى ، قد وقعت من نفس أبى نواس موقعاً ، وصادفت من نفسه استعداداً . غير أن الفضل فى هذا الوقوع وفى توجيه أبى نواس وجهة الصلاح وإخراج إيمانه من القول إلى الفعل يرجع إلى رجل كان بينه وبين أبى نواس صلة صداقة وإعجاب معاً ، ذلك هو الفضل ابن الربيع وزير الرشيد ثم الأمين ، لقد نبه أبو نواس الرشيد على كفاية الفضل بن الربيع بمقطوعة من شعره مذكورة فى ديوانه ، فعرف له الفضل تلك اليد ، فلما ولى الأمين الخلافة أوصل إليه أبا نواس ، فلما وقعت النفرة بين الأمين والمأمون ، وندد المأمون فى خطبه بالصلة التى بين الأمين وأبى نواس ، اشتد ذلك على الأمين ، حتى لقد هم بقتل أبى نواس ، ثم بدا له فأمر به إلى السجن ، وشدد عليه فى ترك الخمر ، ثم خلصه من السجن الفضل بن الربيع بعد أن استتابه . وقد أشاد أبو نواس بهذه اليد التى أولاه إياها الفضل فى شعره أيما إشادة :

أبا العباس ما ظنى بشكرى إذا ما كنت تغفو بالذميم
وإنى والذى حاولت منى لممسوح دفعت إلى مليم

وكنت أبا سوى أن لم تلدنى ... رحيماً أو أبرّ من الرحيم

وقال — ولا يخلو قوله من تصوير فكاهى لشخصه فى طوره الجديد :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسـ ... ـك وعودتنيه والخير عاده

فارعوى باطلى وأقصر جهلى ... وتبدلت عفة وزهاده

لو ترانى ذكرت للحسن البصرىّ ... فى حسن سمته أو قتاده

المسابيح فى ذراعى والمصحـ ... ـف فى لبتى مكان القلاده

وإذا شئت أن ترى طرفة تعـ ... ـجب منها مليحة مستفاده

فادع بى لا عدمت تقويم مثلى ... وتفطن لموضع السجاده

تر أثراً من الصلاة بوجهى ... توقن النفس أنها من عباده

لو رآها بعض المرائين يوماً ... لاشتراها يعدها للشهاده

ولقد طال ما شقيت ولكن ... أدركتنى على يديك السعاده

***

أما وقد تاب أبو نواس توبة نصوحاً ، وارعوى باطله ، واستقامت طريقته ، فقد أحب أن يتوج حياته بحجة إلى بيت الله الحرام ، يمحو بها خطاياه ، ويفتتح بها صحيفة من حياته نقية بيضاء ، أمل ألا يكتب له فيها إلا كل ما هو خير له . وانتهز فرصة خروج حاميه وراعيه الفضل بن الربيع للحج ، فخرج فى صحبته . ولقد حج أبو نواس فى صباه أيام كان فتى من فتيان البصرة ، ولكن شتان بين الحجتين . لقد حج بالأمس لا رغبة فى مثوبة ، ولكن من أجل جارية بصرية اسمها (جنان) أحبها وتيمه حبها ، فلما علم بحجها خرج فى أثرها ! وأما هذه المرة فحجه حج تائب منيب إلى الله . والرواة ينحلون حجته الأولى تلبية نظمها أبو نواس ولبى بها من سمعها من الحجيج . ولكن لا شك أن ذلك غلط من الرواة ، وأن تلك التلبية الحارة إنما نظمها أبو نواس فى حجته الثانية . وها هى ذى تلك التلبية الجميلة التى يصح أن تكون نشيداً للحج لمن أراد الحج نشيداً . قال أبو نواس :

إلهنا ! ما أعدلك ! ... مليك كل من ملك

لبيك قد لبيت لك ... لبيك إن الحمد لك

والملك لا شريك لك

ما خاب عبد أملك أنت له حيث سلك
لولاك يا رب هلك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

كل نبي وملك وكل من أهل لك
مسبح أو لبى فلك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

والليل لما أن حلك والسابحات في الفلك
على مجارى المنسلك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

يا خاطئاً ما أغفلك عجل وبادر أملك
واختم بخير عملك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

* * *

ويعود أبو نواس من حجه فلا تطول حياته ، بل يشتمل عليه مرضه الذى مات فيه سنة ١٩٨ ه على أرجح الروايات عندنا . وكانت علته على ما يؤخذ من وصفه لها علة السل :

دب فيَّ الفناء سفلاً وعلوا وأرانى أموت عضواً فعضوا
ليس من ساعة مضت لى إلا نقصتني بمرها بى جزوا
ذهبت جدتى بطاعة نفسى وتذكرت طاعة الله نضوا
لهف نفسى على ليال وأيا م تمليتهن لعباً ولهوا
قد أسأنا كل الإساءة فاللـ ـهم صفحاً عنا وغفراً وعفوا

وما تسامع أعيان بغداد باشتداد علته حتى توافوا إلى داره يعودونه ، وكان من بينهم الإمام الشافعى الذى كان إذ ذاك ببغداد . ويروى الخطيب البغدادى أن صديقاً لأبى نواس اسمه محمد بن نافع قال : كان أبو نواس لى صديقاً فوقعت بينى وبينه هجرة فى آخر عمره ، ثم بلغتنى وفاته فتضاعف على الحزن ؛ فبينا أنا بين النائم واليقظان ، إذا أنا به ، فقلت :

أبا نواس ! قال لات حين كنية ! قلت : الحسن بن هانئ ! قال نعم ! قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بأبيات قلتها تحت ثنى الوسادة ، فأتيت أهله ، فلما أحسوا بى أجهشوا بالبكاء ، فقلت لهم : هل قال أخى شعراً قبل موته ؟ قالوا : لا نعلم ، إلا أنه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا ندرى ما هو . قلت : أفتأذنون لى فأدخل ؟ قال فدخلت إلى مرقده فإذا ثيابه لم تحرك بعد ، فرفعت وسادة فلم أر شيئاً ، فرفعت أخرى فإذا برقعة فيها مكتوب :

يا رب ! إن عظمت ذنوبى كثرة   فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن   فمن الذى يدعو ويرجو المجرم ؟
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً   فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم ؟
ما لى إليك وسيلة إلا الرجا   وجميل عفوك ، ثم أنى مسلم

ولقد أدركنا نحن فى طفولتنا المؤذنين يهتفون بهذا التوسل على المآذن فى الأسحار .

فسلام على أبى نواس مفتناً مبدعاً ، وسلام عليه فى الناسكين الزاهدين .

كتاب الوزراء والكتاب

للجهشـــياري*

اهدى إلى زميلى وصديقى الأستاذ مصطفى السقا من أشهر مضت ، نسخة من كتاب « الوزراء والكتّاب » لابن عبدوس الجهشيارى المتوفى عام ٣٣١ هـ . وقد أخرجه للناس هو وزميلاه الأستاذان إبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى فى حلة عربية قشيبة ، ومطبوعا لأول مرة بمطبعة الحروف .

ولم تمكنى كثرة العمل فى العام الدراسى المنصرم من أن أفرغ لقراءة هذا السفر النفيس ، وإن كنت قد رجعت غير مرة إلى نسخته الأوربية المطبوعة بالزنك ، وكنت عارفا بنفاسة قدر الكتاب وعلو قيمته العلمية .

وقد استرحت فى هذه الأيام من عناء العمل الرسمى ، وأصبحت حراً أقرأ ما أشاء متى أشاء . وقد رأيت أن أقرأ الكتب التى وردت إلى ، والتى اقتنيتها ، على ترتيب ورودها إلىّ واقتنائى لها ، فكان كتاب الوزراء والكتّاب أحقها بالتقديم على كل حال .

* * *

والكتاب يتناول الكلام على خطتى الكتابة والوزارة فى الدولة الإسلامية منذ قيامها إلى زمن الخليفة المأمون العباسى ، وهما من أهم خطط الدولة الإسلامية لذلك العهد . ومع أن المؤلف قد أدار كتابه على هذين النظامين فهو من حين لآخر يفصل كلامه بإشارات ونكت واستطرادات لها قيمة علمية عظيمة عند من يعانى الأدب العربى والتاريخ الإسلامى فى صدر الإسلام ، هذا إلى أنها سهلت تناول الكتاب وخلعت عليه رواء القصة وجاذبيتها .

ولقد وفق الأساتذة الناشرون للكتاب فى نشره على الناس إلى حد بعيد ، فوضعوا له مقدمة تعرّف القارئ بالمؤلف و بأصل الكتاب ، وضبطوا المتن جهد استطاعتهم ، وحققوا

(*) الثقافة ، العدد ٣٤ ، سنة ١٩٣٩ .

وشرحوا ما يحتاج منه إلى تحقيق أو شرح ، ثم ذيلوا الكتاب بفهارس ضافية استوعبت الأعلام الواردة فى الكتاب وموضوعاته ، وردته إلى عناصره رداً فيه دقة وفيه استقصاء .

***

ومن عادتى عند ما أقرأ كتاباً علمياً قيماً أن أتناول قلم الرصاص فأقيد بهامشه ما يعن لى من فائدة علمية ، وما عسى أن أستدركه على المؤلف أو الناشر إن كان ثم موضع للاستدراك . وقد جريت على عادتى هذه عند ما شرعت فى قراءة « كتاب الوزراء والكتاب » فلما فرغت منه قراءةً وجدتنى قيدت بهامشه جملة تقييدات وملحوظات واستدراكات ، منها ما أحتفظ به لنفسى وأعتده لدراساتى ، ومنها ما هو فى حقيقة الأمر نقد للمتن فى بعض مواضعه أو استدراك على تحقيقات الأساتذة الواردة به . وقد لا يخلو هذا الصنف من التقييدات من الفائدة لغيرى من قراء الكتاب ، فأنا أنشره على هذا الاعتبار وحده .

***

١ — جاء فى متن الكتاب فى ص ٩٩ ما مؤداه أن زاذان فروخ كان كاتب عبدالله بن زياد ، وقد علق الأساتذة على ذلك بقولهم : « لعله عبيد الله بن زياد » والصحيح الثبت أنه عبيد الله بن زياد لا عبد الله (الطبرى : المجموعة الثانية ص ٤٤٨ من الطبعة الأوربية) .

٢ — وجاء فى ص ١٦٨ : « وهو إذ ذاك بالرذ والدار » يريد المؤلف تسمية المكان الذى مات به الخليفة المهدى العباسى . وقد علق الأساتذة على هذا الاسم بقولهم إنه محرف ، وإنهم لم يروا فى أسماء الأماكن ما يقرب منه إلا ما ذكره المسعودى فى أول ترجمة المهدى من أنه خرج إلى موضع يسمى « أرزن والران » فلعله محرف عنه . وأقول إن اللفظ محرف ، لا شك فى ذلك ، إلا أن الطبرى وياقوت يسميان الموضع الذى مات فيه المهدى « بالرذ ماسبذان » فإن لم يكن الاسم محرفاً عن هذين اللفظين معاً ، فلا أقل من أن يكون قد خلص لنا من كلام الطبرى وياقوت اسم القرية التى هلك بها هذا الخليفة وهى « الرذ » الواقعة بالقرب من ماسبذان وجاء فى المتن فى ص ١٩٣ : « ولوزير العروضى شعر يهجو به محمد بن الأشعث « مكلم الذئب » الخزاعى وهو :

تهتم علينا بأن الذئب كلمكم   فقد لعمرى أبوكم كلم الذيبا

فكيف لو كلم الليث المصور إذاً ... تركتم الناس مأكولاً ومشروبا
هذا السويدى ما يسوى إتاوته ... يكلم الفيل تصعيداً وتصويبا

ويروى: « هذا السُّنَيدى » فضرب به محمد بن الأشعث ثلثمائة سوط ».

وقد علق الأساتذة على هذا الخبر بقولهم سويد تصغير تحقير لسيد بالكسر بمعنى الذئب. وقد أوردوا فى آخر الكتاب رواية كتاب الورقة لهذا الشعر وهى تقول (هذا السنيدى) وعندى أن رواية كتاب الورقة هى الرواية الصحيحة وتؤيدها رواية الأغانى « ج ١٨ ص ٣٨ » كما يؤيدها معنى الشعر نفسه، فإن السنيدى تصغير سندى والسندى هو الرجل المنسوب إلى السند وكانت الفيلة تجلب فى ذلك الزمان إلى العراق من السند.

على أن فى الخبر المذكور آنفا أغلاطاً أخرى منشؤها تحريف النساخ من غير شك، فقوله « وزير العروضى » خطأ وصوابه « رزين العروضى » وهو شاعر كان معاصراً وصديقاً لدعبل وكان معروفا بغرابة أوزان شعره. وقد ذكره بهذا الضبط صاحب الأغانى فى موضعين من كتابه، واعتمد ضبطه هذا المستشرقون الأعلام الذين عملوا فهرس كتاب الأغانى، كما ذكره بهذا الضبط أيضاً كما يقول الأساتذة الناشرون صاحبا كتاب الورقة وإرشاد الأديب. والعجيب أن يعدل الأساتذة عما جاء فى هذه المراجع ويأخذوا بما جاء فى الأصل الذى نقلوا عنه الكتاب، وبما جاء فى فهرست ابن النديم وهو كتاب محشو بالتحريف والتصحيف!

ومحمد بن الأشعث الوارد فى الخبر المذكور صحته « جعفر بن محمد بن الأشعث » ولو رجع القارىء إلى سياق المتن لوجده يدور على جعفر هذا الذى ولى خراسان للرشيد.

ويؤخذ من موضع « مكلم الذئب » من الجملة أنها صفة لابن الأشعث، مع أنها لقب جد لابن الأشعث، وكان رجلا من خزاعة على عهد النبى (ص). ولهم فى تكليم الذئب إياه قصة أوردها صاحب الأغانى (ج ١٨ ص ٣٧)، وإذاً فعبارة النص ينبغى أن تكون هكذا: ولرزين العروضى شعر يهجو به جعفر بن محمد بن الأشعث من بنى مكلم الذئب الخزاعى الخ.

وجاء فى المتن فى ص ٢٥٦: « وكان يكتب المنصب أبو عبد الحميد بن داود البلاذرى المؤلف لكتاب البلدان وغيره من الكتب » وقد علق الأساتذة على ذلك بقولهم:

« البلاذرى هو أبو بكر ، وقيل أبو جعفر ، وقيل أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، مؤلف كتاب فتوح البلدان » .

والحقيقة أن البلاذرى صاحب كتاب البلدان لم يكن وُلد بعدُ وقت أن كان الخصيب بمصر ، أى حوالى سنة ١٨٧ ﻫ .

وأبو عبد الحميد بن داود المذكور فى الخبر ، إنما هو جده كما يؤخذ من نسب البلاذرى الوارد فى ترجمة البلاذرى منسوبة للمقريزى وواردة فى مقدمة كتاب فتوح البلدان . قال : « هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى الكاتب ، ويعرف بالبلاذرى » ، وإذاً فعبارة هذا الخبر لا بد أن تكون هكذا : « وكان يكتب للخصيب أبو عبد الحميد بن داود (جد) البلاذرى مؤلف كتاب فتوح البلدان » الخ .

وقال المؤلف فى ص ٢٢٩ : « وأمر الرشيد يحيى بن خالد بالتقدم فى هدم إيوان كسرى » والظاهر أن هذا وهم من المؤلف ، فالمعروف بالتواتر أن قصة الشروع فى هدم إيوان كسرى إنما تضاف إلى المنصور وخالد بن برمك ، لا إلى الرشيد ويحيى . (الطبرى المجموعة الثالثة ص ٣٢٠ ، والفخرى ص ٢١٢) .

* * *

وعلق الأساتذة على قول المؤلف فى ص ٢٧ « يا أمير المؤمنين ، إنك لو بعثت الوليد يقسم الأموال بين الناس مارضوا عنه ، فكيف تبعثه جابياً . . . ولكن وله المعاون والصوائف يكن ذلك له شرفاً وذكراً » . قالوا : « المعاون الجنايات والمظالم ، ولعله يريد بالمعاون والصوائف ولاية القضاء والغزو » . وتفسير « المعاون » بهذا المعنى إنما يصدق فى العصور الإسلامية المتأخرة . فأما فى صدر الإسلام فالمعاون كانت عبارة عن الأموال التى كان يعطاها أصحاب العطاء الرسمى فوق عطائهم ، ومن هذا قول عمر بن الخطاب : « ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ! » . (الطبرى ، المجموعة الأولى ص ٣٠٢٦) .

ومنه قول القائل :

نحن ضربنا الأزد بالعراق   والحى من ربيعة المراق

وابن سهيل قائد النفاق بلا معونات ولا أرزاق

(الكامل للمبرد ص ٧٦ طبع أوربا) .

ولا شك أن إعطاء المال على هذا النحو مما يكسب مثل الوليد بن عبد الملك شرفاً وذكراً كما يقول النص . وانظر أيضاً فى هذا الصدد : كتاب فتوح البلدان صحيفة ١٨٧ من الطبعة الأوربية .

وجاء فى ص ٥٢ : « فلما توفى سليمان كتب عمر وهو على قبره بعزل أسامة بن زيد وبعزل يزيد بن أبى مسلم » . وقال الناشرون استدراكا على هذا : « وظاهر أنه يريد يزيد بن المهلب » . والواقع أن المؤلف يريد ما يقول والصواب فى جانبه ، ولكن الأساتذة أخذوا برواية انفرد بها ابن عبد ربه فى كتاب العقد ، ومؤداها أن سليمان بن عبد الملك حبس يزيد بن أبى مسلم ، فبقى فى حبسه مدة خلافته وخلافة عمر ، مع أنه لم يقل واحد من أئمة مؤرخى المشرق بهذا الحبس الطويل : لا الطبرى ولا ابن الأثير ولا ابن خلكان الذى خص ابن أبى مسلم بترجمة وافية . بل يقول ابن خلكان ما معناه إن سليمان أتى بيزيد فى جامعة فحاوره فوجده قوى العارضة ، وكشف عن ذمته فلم يتعلق عليه بشىء ، فاستحال سخطه عليه إلى شبه إعجاب به ، حتى لقد هم باتخاذه كاتباً له لولا أن ثبطه عن ذلك بعض حاضرى مجلسه . ثم إن يزيد بن أبى مسلم عزى نفسه بعد العزل بالاشتراك فى الغزو ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز وعلم بذلك أمر برده من الغزو ، وهو ما يقوله الجهشيارى فى ص ٥٥ . فالأخذ برواية صاحب العقد يوهم أن المؤلف قد تناقض فى أخباره وهو غير صحيح .

وجاء فى ص ٨١ من مقطوعة لعبد الحميد الكاتب هذان البيتان :

فليست تفتر من عبرة لما فى الضمير ومن هامل

تقضت غرايات سكر الصبا ورد التقى عنن الباطل

فضبط الشراح تفتر بالتاء المثناة من فوق ، وعندى أن الصواب والأبلغ أن نقرأ (تفتر) بالياء للوحدة ، من فتر السحاب إذا مطر وفرغ ماؤه . وضبطوا عُنُن بضم أوله وثانيه على أنه جمع عنان ، ورأى الأفضل أن نقرأ (عَنَن) بفتح أوله وثانيه ، بمعنى اعتراض ، ولا سيما أن سيبويه ينكر أن يكسر عنان على غير أعنة ، (اللسان مادة : عنن) .

وأورد المؤلف فى ص ١٣٥ مقطوعة من الشعر لعبد بنى الحسحاس مضمومة الروى ، وأولها :

أمن سمية دمعُ العين مذروف   لو أن ذا منك قبل اليوم معروف

ومنها هذا البيت :

لا تبك عينك إن الدهر ذو غِيَر   فيه تفرّق ذى إلف ومألوف

وقد ضبط الأساتذة قوله (مألوفُ) بالكسر وقالوا إن فى البيت إقواء ، ثم قالوا : والظاهر أنه دخيل على هذه الأبيات لأنه غير وارد فى القصيدة المنسوبة إلى عنترة (فى ديوانه وفى كتاب الأغانى) . أما أن يحتج على كتاب الجهشيارى بكتاب الأغانى و بالديوان المنسوب إلى عنترة فهذا ما لا يجوز ؛ فكتاب الجهشيارى أقدم وأوثق من كتاب الأغانى فضلا عن الديوان المنسوب إلى عنترة ، وهو يورد لنا المقطوعة المذكورة فى صورة من أقدم صورها ويعزوها إلى قائلها الحقيق ، وهو بذلك يصحح خطأ وقع فيه صاحب الأغانى وجامع الديوان المنسوب إلى عنترة . وأما أن فى البيت إقواء فهو ما لا أراه . بل إن ضم (مألوف) هو المتعين والواجب إذا راعينا قول الشاعر فى صدر البيت (إن الدهر ذو غير) ، فيكون معنى الكلام إن الدهر ذو أحوال . طوراً يفرق الألاف ، وطوراً يجمعهم . ويكون (مألوف) معطوفا على قوله (تفرق) ويكون بمعنى الإلف مثل مجهود ومعقول بمعنى الجهد والعقل . و إذا استبعد الأساتذة ذلك أفلا يمكن أن يقال إنه محرف عن (تأليف) ؟ وأيًّا ما كانت الحال فإنى أرى البيت منسجما مع سائر أبيات المقطوعة معنى ووزناً وقافية .

وعلق الأساتذة على لفظ (النوبهار) الوارد فى ص ١٩١ بإيراد كلام لياقوت بيَّن فيه أنه كان بيتاً للبرامكة فى بلخ يعظمونه ، وأنهم كانوا يضاهون به بيت الله الحرام ، وأن معنى النوبهار البهار الجديد ، إذ كانت سنتهم إذا بنوا بناء جديداً أو شريفا كللوه بالبهار وهو الريحان . ولكن البحث العلمى الحديث الذى قام به بارتولد (دائرة المعارف الإسلامية مادة برامكة) و بوفات (رسالته عن البرامكة ص ٢٨) يدل على أن النوبهار كان معبداً بوذيا ، وأن لفظ (نوبهار) سنسكريتى الأصل مؤلف من (نوفا) بمعنى جديد و (فيهارا) بمعنى بيت أو معبد ، وقد كانت للهنود فيهارات كثيرة . فإن كان لا بد من إيراد ما قاله

كتاب للعرب من هـذا البيت ، فحسن أن يردف ذلك بما يراه البحث العلمى الحديث إتماماً للفائدة .

وجاء فى متن الـكتاب فى ص ٩٩ : « ومما يشبه خبر عبد الله بن سوار هذا » وعلق الأساتذة على ذلك بقولهم [فى الأصل : « ومما يشبه خبر هذا عبد الله » الخ . والسياق يقتضى تأخير « هـذا »] . ولست أرى مع الأساتذة ذلك فتقديم اسم الإشارة على العَلَم المشار إليه وارد فى الـكتب القـديمة ، فصاحب الفخرى يقول : « وهذا خالد هو جد البرامكة » (ص ٢١٠ من الطبعة الأوربية) ويقول : « وكان هذا سنباذ رجلا مجوسيا » (ص٢٣٢) وأظن أن لقوله وجها من العربية وإذاً فلا داعى إلى تغيير عبارة النص بالتقديم والتأخير .

• • •

ذلك ما قيدته على هذا الـكتاب النفيس ، وإنى أرجو أن أكون قد قضيت بذلك بحق مؤلفه وحق ناشريه وحق قرائه . وأقول فى ختام بحثى إن ما أخـذته على الـكتاب سواء أكان من ناحية المتن أم من ناحية تحقيق الأساتذة ، لا يكاد يذكر بجانب ما فى الـكتاب من جليل الفائدة ، وما فى تحقيقات الأساتذة من عظيم الإجادة والإحسان .

أبو العلاء السياسي *

وُلد أبو العلاء المعري سنة ٣٦٣ هـ وتوفي في سنة ٤٤٩ هـ. فقد ولد، ونشأ، وشب، واكتهل، وشاب، ومات، في زمن كان فيه العالم الإسلامي كله حافلا بأنواع الاضطراب السياسي، مليئاً بالآفات الاجتماعية والأخلاقية. ففي أقصى الغرب كانت الأندلس قد تقلص عنها ظل الدولة الأموية ووقعت في الفوضى التي سببت تكالب الأسبان عليها وعملهم على انتقاص أطرافها. وشمال أفريقية أصبح بعد زوال أمويي الأندلس وانتقال الفواطم إلى مصر نهبا مقسما بين دويلات عربيـة وأخرى بربرية كانت لا تبرح متداحرة متناحرة. ومصر والشام كانتا خاضعتين للدولة الفاطمية وهي دولة على عظم شأنها، كانت تستند إلى دعاية باطنية سرية، ظهرت آثارها في أيام الحاكم والمستنصر. على أن الدولة المذكورة أخذ شأنها بعد المائة الرابعة يضعف وبخاصة في الشام، مما جعل ذلك القطر نهبا لأعراب البوادي القريبة منها ولغارات الروم من جهة الشمال. وجزيرة العرب كانت قد عملت فيها تعاليم الزنج والقرامطة فغلب على أهلها التلصص وقطع الطريق والسطو على قوافل الحجاج. وفي العراق وفارس كان سلطان الخليفة العباسي قد استحال اسماً لا معنى له وكان الأمر كله بأيدي بني بويه المتغلبين على الخليفة وعلى البلاد. وكان حكم هؤلاء ملؤه التعسف والاستبداد والطغيان، هذا إلى انقسام بعضهم على بعض، ووقوع الفتن في بغداد بين عصبيتهم من الديلم وبين الجند الأتراك. إلا أن الحال في أقصى الشرق كانت خيراً منها في سائر الأقطار الإسلامية، فقد قامت به دولة فتية قوية عملت على الفتح والتوسع ونشر الإسلام في الهند، تلك هي الدولة الغزنوية المشهورة. على أنها كانت دولة قامت واتسعت بحد السيف، فكان لألاؤها مستمداً في أغلب الأمر من قعقعة السلاح وبريق السيوف، والخلاصة أن العالم الإسلامي في العصر المذكور كان قد انحل نظامه وانعدم منه الوازع السياسي والديني أو كاد، فانتشر الفقر والبؤس، وعم الظلم والفساد، وأكل القوي الضعيف.

* * *

(*) مجلة الهلال، جزء ٩، يوليو سنة ١٩٣٨.

عاش أبو العلاء فى ذلك العصر وتأثرت نفسه الحساسة بما آلت إليه أحوال الناس وخاصة منذ عاد من بغداد سنة ٤٠٠ ولزم داره بالمعرة يصنف ويدرس لتلاميذه الذين كانوا يفدون عليه من مختلف الأقطار للأخذ عنه . وقد صور فى نثره ولزومياته تلك الحال تصويراً وجيزاً ولكنه بليغ . فانظر كيف يصف تطاول أعراب الجزيرة والشام إلى اقتسام البلاد بعد أن ضعف أمر العبيديين وما شمل الشام أيامئذ من الإحن بسبب عدوانهم ، فيقول :

أرى حلباً حازها صالح ... وجال سنان على جلقا
وحسان فى سلفى طيئ ... يصرف من عزه أبلقا
فلما رأت خيلهم بالغبار ... شفاما على جيشهم علقا
رمت جامع الرملة المستضا ... م فأصبح بالدم قد خلقا
وما نفع الكاعب المستبا ... ة هام على عضب فلقا
وطال لقتيل فلم يذكر ... وغل أسير فما أطلقا
وكم تركت آهلا وحده ... وكم غادرت مثريا مملقا
يسائل فى الحى عن ماله ... وما القول فى طائر حلقا ؟

ويقول أيضاً فى هذا المعنى

ألفنا بلاد الشام إلف ولادة ... نلاقى بها سود الخطوب وحمرها
فطوراً نداری من سبيعة ليثها ... وحيناً نصادى من ربيعة نمرها
وددت بأنى فى عماية فارد ... تعاشرنى الأروى فأكره قمرها
فإنى أرى الآفاق دانت لظالم ... يغر بغاياها ويشرب خمرها

وكان الشيخ أبو الحسين بن سنان أحد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب إليه أبو العلاء رسالة ينهاه فيها عن الخروج للحج فى عامه ويريه أن الروم لحلب بالمرصاد ، وأن الجهاد فى تلك الحال خير من الحج ، فما كتب به إليه : « وسفر مولاى إلى الحج فى هذا العام حرام بسل ، كما حرم صوم عيد الفطر ، وحظر على المحرم تضمخ بعطر . . . وهو — أدام الله تمكينه — أمين من أمناء المسلمين ، يرهف الشوكة ، ويستجيد اللأمة ، ويحصن ما وهى من سور أو شرفات . . . ومن لحياطة الرعية بمداميك المدر . . وإجراء السعد

لحفظها والنذر ؟ .. وحلب — حرسها الله — قد صار فيها رباط يغتنم ، وجواز يرغب فيه ويتنافس ، ولا يلبث أن يزول بانعقاد المدنة ، وعودة الجامع كلة الروم إلى كرسيه من بزنطية » .

ويقول فى فساد الأمر بالحجاز والشام والعراق :

أما الحجاز فما يرجى المقام به   لأنه بالحرار الخمس محتجز
والشام فيه وقود الحرب مشتعل   يشبه القوم شدت منهم الحجز
وبالعراق وميض يستهل دما   وعارض بلقاء الشر يرتجز

ويشير إلى حقيقة أمر صاحب الزنج بالبصرة والقرامطة بالبحرين فيقول :

إنما هذه المذاهب أسبا   ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو   ن لدمع الشماء والخنساء
كالذى قام يجمع الزنج بالبصـ   رة والقرمطى بالأحساء

وهو لا يبهره بريق الدولة الغزنوية ولألاؤها ويقول فى ملكيها الشهيرين محمود ومسعود :

محمودنا الله والمسعود خالقه   فمد عن ذكر محمود ومسعود
ملكان لو أننى خيرت ملكهما   وعود صلب ، أشار العقل بالعود

وكما تشير هذه الأبيات إلى علم أبى العلاء بأحوال المشرق الإسلامى فإن رسائله إلى ابن حزم الأندلسى وداعى الدعاة الفاطمى وكلامه على ابن هانئ الأندلسى فى رسالة الغفران ، كل ذلك يشير إلى اتصال أبى العلاء بالمغرب الإسلامى اتصاله بمشرقه . وأبو العلاء يجمل حكمه على المشرق والمغرب بالفوضى السياسية والفساد والبعد عن الإصلاح فى قوله :

وجدت الناس فى هرج ومرج   غواة بين معـتزل ومرج
فشأن ملوكهم عزف ونزف   وأصحاب الأمور جباة خرج
وهم زعيمهم إنهـاب مال   حرام النهب أو إحلال فرج

وأبو العلاء يصرح بأن العلة القريبة فى هذه الفوضى وذلك الفساد إنما هى نظام الملك المستبد الغشوم القائم على القهر والتغلب والوقيعة والدهاء :

ونسى الناس بالدهاء فما يد فك جيل يقتاد طوع دهاه

قالوا فلان جيد لصديقه لا يكذبوا ما فى البرية جيد
فأميرهم نال الأمارة بالخنا وتقيهم بصلاته متصيد

وهو يربأ بنفسه أن يكون حاكما من هذا القبيل :

لا كانت الدنيا فليس يسرنى أنى خليفتها ولا محمودها

ما سرنى أنى إمام زمانه تلقى إلىّ من الأمور مقالد

أسرّ إن كنت محموداً على خُلق ولا أسرّ بأنى الملك محمود
ما يصنع الرأس بالتيجان يعقدها وإنما هو بعد الموت جلمود

وما أختار أنى الملك يجبى إلىّ المال من مكس وخرج

وهو يسلك إلى إصلاح الطغاة المستبدين طرقا شتى من الترغيب والترهيب . فتارة يحبب إليهم التقوى والصلاح :

والتاج تقوى الله لا ما رصعوا ليكون زيناً للأمير القائم

يا مشرع الرمح فى تثبيت مملكة خير من المارن الخطى مسباح

وتارة يخوفهم عواقب الظلم وبوائقه :

خَفْ دعوة المظلوم فهى سريعة طلعت فجاءت بالعذاب النازل
عزل الأمير عن البلاد وماله إلا دعاء ضعيفها من عازل

والظلم يحمل بعض من يسعى له ويحل نقمته بنفس الظالم

وتارة يحذرهم تصرف الأقدار وتقلبها بالناس رفعا وخفضا :

أيا والى المصر لا تظلمن فكم جاء مثلك ثم انصرف

لا يمنع الملك الجبار من قدر بغير المال ما أجدى وما جاسا
ولو غدا الكوكب المريخ فى يده كالسهم واتخذ البرجيس برجاسا

وتارة يسلك طريقته العلمية فيذكرهم الموت الذى يأتى على جميع الناس فلا يبق منهم إلا سيرهم وذكريات أعمالهم :

حوادث الدهر ما تنفك غادية على الأنام بأبواس وتبويس
الموت بكسرى ولم تترك مرازبه وبالمناذر أودت والقوابيس
أردت حسينا وحسنا بالردى حسنا وواجهت آل عباس بتعبيس

على أن أبا العلاء يذهب إلى أبعد مما ذهب فى تعليل الفوضى والفساد ، فيبين أن العلة البعيدة والسبب الجوهرى فى ذلك أن الملوك والمتغلبين لم يدركوا أنهم فى حقيقة الأمر عمال الرعية وأجراؤها وخدامها وأن الشعوب مستقر السلطان ومستمده :

مُلَّ المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

إذا ما تبينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم

وهو لذلك يحذر الطغاة غضب الأمم وثورة الشعوب :

أعاذل أن ظلمتنا الملوك فنحن على ضعفنا أظلم
تسامت قريش إلى ما علمـ ـت واستأثر الترك والديلم
وهل ينكر العقل أن تسـ ـتبد بالملك غانيـة غيلم ؟
وما ظفر الملك فى جيشه سوى ظفر بالردى يقلم

لو بعث المنصور نادى أيا مدينة التسليم لا تسلمى !
قد سكن القفر بنو هاشم وانتقل الملك إلى الديلم !
لو كنت أدرى أن عقباهم لذاك لم أقتل أبا مسلم !
قد خدم الدولة مستنصحا فألبسته شيـة المظلم !
ما دام غير الله من دائم فاغضب على الأقدار أو سلم !

فأبو العلاء يقرر للبدأين السياسيين الأساسيين : سلطة الامة ، وانتخاب ولاة الأمور ،

وهو من أجل ذلك ينعى على الشيعة مذهبهم السياسي في القول بأن الخلافة نص وتوقيف وليست بشورى ، ويندد برأيهم في الإمام المنتظر :

قالوا سيملكنا إمام عادل | يرمى أعاديه بدهم صارد
والأرض موطن شرة وضغائن | ما أسمعت بسرور يوم فارد

على أن ديمقراطية أبي العلاء تتصل اتصالا وثيقا باعتقاده في الاشتراكية الإسلامية سواء أكانت دينية — وذلك من حيث الزكاة — أم إسلامية تاريخية — وذلك من حيث حبس الأرض وتوزيع غلتها على المستحقين فيها — فهو يقول في أمر الزكاة :

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم | لما رأيت بنى الإعدام شاكينا
ياقوت ما أنت ياقوت ولا ذهب | فكيف تعجز أقواما مساكينا ؟
فإن تمش تبصر الباكين قد ضحكوا | والضاحكين لفرط الجهل باكينا
لا يتركن قليل الخير يفعله | من نال في الأرض تأييدا وتمكينا

ويقول في أمر الأرض :

للملك لله من يظفر بنيل منى | يرده قسرا وتضمن نفسه الدركا
لو كان لي أو لغيري قيد أنملة | فوق التراب لكان الأمر مشتركا

الأرض لله ما استحيا الحلول بها | أن يدعوها وهم في الدار أضياف
تنازعوا في عوارى قيتهم | نبل حطام وأرماح وأسياف
إن خالفوك ولم يجرر خلافهم | شرا فلا بأس أن الناس أخياف

والبيت الأخير يشير إلى أن أبا العلاء لا يرى بأسا ببقاء القديم على قدمه إذا كان تغييره يجر إلى شر .

ولأبي العلاء رأى في كيف تتحقق (اليوتوبيا) أو الجماعة السياسية المثالية . وهو يضمن رأيه هذا قوله :

أن أكلتم فضلا وأنفقتمو فضـ | ـلا فلا يدخلن وال عليكم

لا تولوا أموركم أيدى النا   س إذا ودت الأمور إليكم

وهذان البيتان ينظران إلى ما قال به النجدات من الخوارج قبل أبى العلاء ، فقد أجمعوا على أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط ، وإنما عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم ، فإن رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه جاز .

* * *

أما بعد ، فسكم ود الحكماء من قديم لو ولى الفلاسفة شئون الناس ، ومن حسن الحظ أن فى سيرة أبى العلاء أخباراً ترجح أنه ولى شئون المعرة فعلا . فيروى أنه عندما عصت المعرة على صالح بن مرداس أمير حلب ، سار إليها صالح وحاصرها وأرهق أهلها بالحصار ، فسأل الناس أبا العلاء أن يخرج إلى صالح ويكلمه فى رفع الحصار ، فخرج أبو العلاء إلى ظاهر المعرة ولقى صالحا وكلمه بكلام رقيق أثر فى نفس صالح فأمر بالكف عن القتال وقال لأبى العلاء : «قد وهبتها لك» . وظاهر هذه العبارة يحتمل أن صالحا قد عفا عن المعرة من أجل شفاعة أبى العلاء كما يحتمل أنه قد وهبها لأبى العلاء فعلا وأنه أقطعه إياها على نحو ما كان مألوفا فى الدولة الإسلامية فى ذلك الزمان . على أن الذى يرجح الاحتمال الثانى نص صريح وارد فى رحلة الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، فقد زار المعرة فى عام ٤٣٨ ووصف فى رحلته ما شاهده فيها فقال ما تعريبه (وكان بها رجل ضرير يدعى أبا العلاء ، وكان أمير البلدة ، وله من النعمة والعبيد والخدم ما يستكثر . وكان جل أهلها كالعبيد له ؛ إلا أنه سلك طريق النسك وتردى ببرجد فى بيته ، وكان يأكل كل يوم نصف منّ من خبز الشعير لا غير . وبلغنى أنه فتح بابه ، ويتولى عنه نوابه وعماله أمور البلدة إلا فيما يهم فيرجعون إليه . وهو لا يمنع أحداً مما آتاه الله ، ويصوم الدهر ، ويقوم الليل ، ولا يشغل نفسه بشىء من أمور الدنيا . . . وقيل له : إن الله خولك ما نرى من المال والنعمة ، فلماذا تعطى الناس وتبذلهم ولا تتمتع أنت بنفسك ؟ فقال : ليس لى منه إلا ما أتبلغ به من القوت فحسب . ولما وصلتها كان حيا يرزق[1]) ولقد ضمن أبو العلاء بعض لزومياته الاعتراض الوارد فى النص المذكور وجوابه عنه فقال :

---

(١) انظر كتاب « أبو العلاء وما إليه » للأستاذ الميمنى ص ٧٨ .

سولت لى نفسى أموراً وهيها ت لقد خاب ذلك التسويل
وأتهاى بالمال كاف أن يطلا ب جنى ما يقتضى التمويل
ويقول الغواة خولك الا ه كذبتم لغـــيرى التخويل
إن حباك القدير كالنيل تبرا فليفضـــه العطاء والتنويل
لا تعول على اختزان فما البـ ـدر الصفر إثر ميت عويل

فإذا صحت هذه الأخبار ، ولا نخالها إلا صحيحة ، يكون أبو العلاء قد ظفر بتحقيق آرائه السياسية التى صور لها آنفا ، ويكون الحظ قد اصطفاه من بين الفلاسفة جميعا ، لحقق على يديه لمدة قصيرة من الزمن ، خيالا من أروع أخيلتهم ، وحلما من ألذ أحلامهم .

ناحية التاريخ

من أدب أبي العلاء المعري*

يقول أبو العلاء فى بعض لزومياته :

ما كان فى هذه الدنيا بنو زمن ... إلا وعندى من أخبارهم طرف

فهو يدعى أنه ما من أمة وجدت فى هذه الدنيا إلا وقد ألم بطرف من أخبارها وعرف شيئاً من تعاريف أحوالها . والحق أن أبا العلاء لم يصطنع المبالغة ، ولم يركب متن الشطط عندما ادعى هذه الدعوى . فقد أدرك من أول أمره أن العاهة الجثمانية التى لحقته منذ طفولته لا شك مانعته من معرفة الطبيعة الإنسانية من طريق العيان والمشاهدة ، غير أنه فطن إلى أن فى وسعه أن يتدارك ما تفوته عليه هذه الآفة المحتومة من طريق الاطلاع على ماضى الإنسانية المسطور فى تاريخها ، فالطبيعة الإنسانية واحدة لا تختلف ، والناس هم الناس بعد بهم العهد أم قرب . ذلك أصل ولع أبى العلاء بالتاريخ . ثم نجده يزداد به ولعاً عند رجوعه من بغداد إلى بلده ، واعتزامه لزوم ثانى محبسيه وهو بيته . فإن أبا العلاء لم يرد بالعزلة أن يضرب بينه وبين الناس حجاباً كثيفاً بحيث لا يراهم ولا يرونه ، وإنما أراد بالعزلة أن يكون بنجوة من مخالطتهم وملابستهم ، وأن تتاح له حرية درس أحوالهم ونظمهم ومصاير أمورهم دون أن تمتد إليه أيديهم ، ودون أن يعرضوا له بما يوجب له شغل الخاطر وهم القلب وفتنة النفس . فكأنه أراد أن يقطع صلته بالناس من ناحية ليصلها بهم من ناحية أخرى ، ناحية الاطلاع على أخبار الماضين منهم والغابرين ، أى من ناحية الاطلاع على التاريخ . على أنه إذا كانت الضرورة هى التى قضت على أبى العلاء بالاطلاع على التاريخ فهناك سبب آخر حبب هذا العلم إلى عقل شاعرنا الفيلسوف وقلبه . ذلك أن التاريخ قد يكون ألذ العلوم وأشدها إمتاعاً متى ورد الإنسان ساحته وقلب صحائفه بفهم ذكى وقلب سليم . هو موكب الأمم ومعرض الحياة الإنسانية ، فيه تبين مواطن الضعف والقوة من تلك الحياة ، وفيه تظهر أسباب عظمة

(*) بحث ألقى فى المهرجان الألفى لأبى العلاء المعرى بسورية سنة ١٩٤٤ .

الشعوب وأسرار اضمحلالها ، فيه حكة الحياة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام . فإذا كان أبو العلاء قد أقبل على التاريخ يتلو صحائفه ويستخرج عبرة فإن ذلك إنما كان عن ضرورة أول الأمر ثم عن حب له وشغف به أخيراً .

على أن اطلاع أبى العلاء على التاريخ كان بطبيعة الحال محدوداً بحدود الرواية التاريخية العربية على نحو ما وصلت إليه فى أيامه أى من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الخامس الهجرى . فماذا كانت حدود هذه الرواية ؟

لقد ابتدأت الرواية التاريخية العربية فى القرن الأول الهجرى ثم نمت نمواً مطرداً وتنوعت تنوعاً بيناً فى القرون الثلاثة التالية . فدونت أخبار العرب قبل الإسلام وأخبار الأمم التى كان للعرب اتصال بها كالفرس ، والروم ، والهنود ، والمصريين ، والأحباش وكل ذلك كالمدخل إلى التاريخ الإسلامى ، ثم دونت سيرة الرسول عليه السلام وأخبار المغازى والفتوح وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وما تفرع عن الأخيرة من دويلات عدة بعضها فى الشرق كالطاهرية والسامانية والغزنوية والبويهية والحمدانية وبعضها فى الغرب كالطولونية ، والأخشيدية ، والإدريسية ، والفاطمية . وقد وضعت فى كل ذلك كتب كثيرة ذكر أكثرها ابن النديم فى الفهرست فى الفصل الذى عقده للإخباريين خاصة . وقد بقى لنا من هذه التآليف شىء غير قليل نذكر منه كتاب السيرة لابن إسحق بتهذيب ابن هشام ، ومغازى الواقدى ، وطبقات ابن سعد وكتب ابن قتيبة ، والدينورى ، والبلاذرى ، واليعقوبى ، وتواريخ الطبرى ، والصولى ، والمسعودى ، وأبى الفرج الأصفهانى ومسكويه .

لا شك أن أبا العلاء اطلع على جل هذه الكتب إن لم يكن اطلع عليها كلها ، فقد كانت فى متناول يده فى مكاتب المعرة واللاذقية وحلب ودار العلم ببغداد . ولا أدل على سعة علمه بالتاريخ العام وأخبار العرب قبل الإسلام والتاريخ الإسلامى من كثرة استشهاده فى نثره وشعره بالحوادث التاريخية كثرة رائعة ، ففى الرسالة التى يعزى فيها خاله أبا القاسم بن سبيكة عن أخيه ، نجده يسرد أسماء الأنبياء من لدن آدم إلى محمد (ص) ثم يتبع ذلك بسرد أسماء ملوك اليمن فملوك الحيرة وغسان والفرس وسادات العرب فى الجاهلية وكل ذلك على سبيل العبرة والموعظة وبيان أن كلا منهم قد صار بعد العز وعلو الشأن إلى الموت والفناء . ونجده فى « رسالة الغفران » يخبر فى القصيدة السينية التى قالها على لسان الجنى « أبى هدرش » كيف

استغوى هذا الجنى فى جاهليته كثيراً من خلق الله ملائكة وغير ملائكة إلى أن بعث الله نبيه محمداً (ص) فآمن به وصدق واشترك معه هو وقبيله من الجن فى غزوات بدر ، وأحد ، والخندق ، كما اشترك بعد فى وقائع اليرموك والجمل وصفين والنهروان . وكثيراً ما يورد أبو العلاء فى « رسالة الغفران » تلميحات وإشارات إلى الفرق والنحل الإسلامية من سنة وشيعة ومعتزلة ومرجئة كما ذكر الزنج والقرامطة والمختار بن أبى عبيد والمنصور اليمنى والحلاج ومن الطريف أنه ساق فى آخر رسالة الغفران كلاماً على الدنانير والعملة الإسلامية ، فيه تفصيلات لا نجدها فى كتب التاريخ التى بأيدينا . وتفيض « اللزوميات » بذكر كثير من ملوك الفرس والروم والهند واليمن وحوادث الدولة الإسلامية وملوكها من نحو محمود ومسعود والغزنويين والإخشيد وأبيه طغج وجده جف كما تذكر خاقان وخان وآتك (= أيلك) .

وكما وجد أبو العلاء فى التاريخ الإسلامى وغير الإسلامى مادة انتفع بها إلى أبعد مدى فى تأييد آرائه وتقوية حججه وتجميل فنه المنثور والمنظوم ، فقد وجد فى حوادث عصره مادة غزيرة أكسبت شعره ونثره حيوية عجيبة ، وأمدته بما أعانه على تكوين رأيه فى السياسة ونظم الحكم والاجتماع بوجه عام . ونستطيع أن نقول إن شعر صباه وصدر كهولته الوارد فى ديوانه « سقط الزند » يتصل اتصالا وثيقاً بحوادث عصره ، بل هو صدى لحوادث ذلك العصر . وفى وسع من يقرأ « سقط الزند » و « اللزوميات » أن يتبين صورة واضحة لحوادث الشام خاصة فى زمن أبى العلاء .

كانت معرة النعمان معدودة من الإقليم المعروف « بالعواصم » والواقع على تخوم الدولة الإسلامية مما يلى مملكة الروم . وقد أصبحت حلب إذ ذاك قاعدة ذلك الإقليم ، وكانت متنازعة بين متأخرى أمراء الدولة الحمدانية و بين الدولة الفاطمية المصرية فيغلب بنو حمدان على أمرهم و يستولى الفاطميون على حلب ، ولكن سرعان ما انبرت للفاطميين أسرة عربية بدوية هى الأسرة المرداسية ، فتستولى على حلب سنة ٤١٤ على يد أسد الدولة صالح بن مرداس الكلابى . وقد تبعت المعرة حلباً فيما اختلف عليها من الأحوال ، لذلك نجد أبا العلاء يمدح أمراء حلب على اختلافهم من حمدانية وفاطمية ، فيمدح الأمير سعيد الدولة الحمدانى بالقصائد الأولى من « سقط الزند » كالقصيدة اللامية الأولى التى مطلعها :

أعن وخد القلاص كشفت حالا ... ومن عند الظلام طلبت مالا

كما يمدح ولاة الفاطميين على حلب فى قصائد أخرى منها السينية التى مطلعها :

لولا تحية بعض الأربع الدرس ... ما هاب حد لسانى حادث الحبس

ثم إن أهل المعرة ثاروا على صالح بن مرداس بسبب المرأة التى أهانها خمار نصرانى ، فذهبت إلى المسجد يوم الجمعة وقصت على الناس ما نالها فثاروا بالخمار وانتهبوا حانوته وهدموها ، وإلى هذا الحادث يشير أبو العلاء بقوله فى اللزوميات :

أتت جامع يوم العروبة جامعا ... تقص على الشهاد بالمصر أمرها

فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها ... لخلت سماء الله تمطر جمرها

فهدوا بناء كان يأوى فناؤه ... فواجر ألقت الفواحش خمرها

واستفحل الخطب عندما أشار على صالح وزيره النصرانى « تادرس » وكان حنقاً على أهل المعرة باعتقال سبعين رجلاً منهم ، وسار صالح إلى المعرة فأخرج إليه أهل المعرة أبا العلاء شفيعاً فشفعه صالح وأطلق له الأسارى السبعين سنة ٤١٨ ، وإلى ذلك يشير أبو العلاء بقوله فى اللزوميات :

تغيبت فى منزلى برهة ... ستير العيوب فقيد الحسد

فلما مضى العمر إلا الأقل ... وحم لروحى فراق الجسد

بعثت شفيعاً إلى صالح ... وذاك من القوم رأى فسد

فيسمع منى سجع الحمام ... وأسمع منه زئير الأسد

فلا يعجبنى هذا النفاق ... فكم نفقت محنة ما كسد

وباضمحلال نفوذ الفواطم فى الشام أصبحت الشام نهبا لقبائل العرب المتبدية من لدن الجزيرة إلى حدود مصر ، وخاصة قبائل كلاب وطيئ وعامر ، وإلى ذلك الحادث يشير أبو العلاء فى أبياته القافية التى أولها :

أرى حلباً حازها صالح ... وجال سنان على جلقا[1]

(١) انظر هذا الكتاب ص ٦٢ .

وإذا كانت هذه الأشعار تصور لنا الحوادث البارزة بالشام فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، فإنها تصور لنا ناحية من نواحى شخصية أبى العلاء ، ناحية حبه لوطنه وقومه ، وحزنه لما يصيب هذا الوطن ، واستعداده لأن يخدمه بنفوذه الأدبى عند الاقتضاء ، وهى أشعار تأتلف وشعره الذى قاله وهو فى بغداد يتشوق بلده المعرة .

على أن لوطنية أبى العلاء مظهراً آخر ، لقد كان الشام فى زمنه عدو أجنبى يتحين الفرص للانقضاض عليه . ذلك العدو هو الروم ، وكان الروم بعد زمان سيف الدولة والتياث الأمر بالشام قد استولوا على أنطاكية سنة ٣٥٠ ، واستولوا بعد على اللاذقية ، وذلك فى أيام امبراطورهم نقفور فوقاس ، ثم أخذوا يمدون أعينهم إلى حلب . وكان سعيد الدولة الحمدانى وولاة الفاطميين يدافعونهم جهد طاقتهم . وهنا نجد أبا العلاء يسخر فنه لا لخدمة وطنه فحسب ولكن لخدمة العالم الإسلامى كله ، فهو فى مدائحه لعمال حلب يشيد دائماً بمقاومتهم الروم ، فيخاطب الأمير سعيدا الحمدانى (٣٨١ — ٣٩٢ هـ) بقوله :

حفظت المسلمين وقد توالت ... سحائب تحمل النوب الثقالا
وقيت عيالهم إذ كل عين ... تعد سواد ناظرها عيالا
بوقت لا يطيق الليث فيه ... مساورة ولا السيد اختتالا

وبقوله :

إلى حازم قاد العتاق سواهما ... لها من نشاط بالكماة زمال
بنى الغدر هل ألقيتم الحرب مرة ... وهل كف طعن عنكم ونضال
وهل أظلمت سحم الليالى عليكم ... وما حان من شمس النهار زوال
وهل طلعت شعث النواصى عواليا ... رعال ترامى خلفهن رعال
فإن تسلموا من سورة الحرب مرة ... وتعصمكم شم الأنوف طوال
ففى كل يوم غارة مشمعلة ... وفى كل عام غزوة ونزال

إلى أن يقول فى الخيل :

يرون دماء الروم وهى غريضة ... ويتركن ورد الماء وهو زلال
وقد علم الرومى أنك حتفه ... على أن بعض الوقتين محال

وكان الشيخ أبو الحسين بن سنان أحد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب إليه أبو العلاء ينهاه عن الحج فى عامه ويريه أن الروم لحلب بالمرصاد ، فمن ذلك قوله : « وسفر مولاى إلى الحج فى هذا العام حرام بَسْلٌ كما حرم صوم عيد الفطر وحظر على المحرم تضمخ بعطر ... وهو أدام الله تمكينه ... أمين من أمناء المسلمين يرهف الشوكة ويستجيد اللأمة ويحصن ما هى من سور أو شرفات ... ومن الحياطة الرعية بعداميك المدر ... وإجراء السعد لحفظها والقدر ، وحلب حرسها الله قد صار فيها رباط يغتنم ، وجهاد يرغب فيه ويتنافس ، ولا يلبث أن يزول بانعقاد المدنة ، وعودة الجامع كلمة الروم إلى كرسيه من بزنطية » .

فقصائد أبى العلاء الواردة فى « سقط الزند » والمتصلة بمدح أمراء حلب المناضلين الروم تجرى مجرى قصائد المتنبى المعروفة بالسيفيات والقصائد الروميات لأبى فراس الحمدانى وهى حلقة من من حلقات ملحمة الحروب العربية الرومية ، على أن أبا العلاء كما يخيل إلينا كان يلحظ فيما بينه وبين نفسه أن روح الجهاد قد فتر عند المسلمين وعند قومه خاصة وأنهم أمام استعلاء الروم وكلبهم عليهم قد التزموا خطة الدفاع دون الهجوم . وقد أحب أن يعبر عن هذا الاعتقاد الذى استقر فى نفسه من طريق الكناية والرمز فنظم تلك المجموعة الغريبة من القصائد المعروفة « بالدرعيات » والواردة فى آخر « سقط الزند » فالدرع أداة وقاية لا سلاح هجوم كالسيف والرمح والقوس . هذا ظننا فى تعليل إنشائه هذه القصائد فإن يكن ظننا صادقاً فقد أبدع أبو العلاء الرمز وأجاد الإشارة .

ويستعرض أبو العلاء جملة أحوال العالم الإسلامى لعهده ، فيرى حالا لا تسره من ظلم ، واضطراب ، وفقر ، وطغيان . ويجتهد فى أن يطب لتلك الحال فيذهب إلى أن الملوك والمتغلبين لم يدركوا أنهم فى حقيقة الأمر خدام رعاياهم وأجراؤها ، وأن الشعوب مستقر السلطان ومستمده :

مل المقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ويرى فى علاج الفقر أن يؤخذ الناس بأداء الزكاة المفروضة عليهم شرعاً :

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم ... لما رأيت بنى الإعدام شاكينا

ياقوت ما أنت ياقوت ولا ذهب   فكيف تعجز أقواما مساكينا

ويرى أن الأرض لله لا يصح تملكها :

الأرض لله ما استحيا الحلول بها   أن يدعوها وهم في الدار أضياف

تنازعوا في هواري فيئهم   لبل عظام وأرماح وأسياف

ويرى أن في إمكان الناس أن يصلوا إلى « المدينة الفاضلة » أو « اليوتوبيا » أو الجماعة السياسية المثالية إذا سلكوا طريق القصد وجادة الاعتدال :

إن أكلتم فضلا وأنفقتم فضـ   ـلاً فلا يدخلن وال عليكم

لا تولوا أموركم أيدى النـا   س إذا ردّت الأمور إليكم

• • •

وكما وجد أبو العلاء في التاريخ قديمه والمعاصر له مادة غذت فنه الأدبي وأعانته على صوغ آرائه في الإصلاح السياسي والاجتماعي، فقد وجد فيه كذلك مادة لآرائه الفلسفية الخاصة به . لقد عرض تواريخ الأفراد والملوك والأمم وما يختلف على الناس من أحوال فوجد كل ذلك لا محالة منتهيا إلى العدم والفناء ، ورأى الحياة كلها أشبه شيء بعملية حسابية مركبة نتيجتها الصفر . ومن ثم ساء ظنه بالحياة ولم ير في سعي الناس سوى جهود عقيمة :

حوادث الدهر ما تنفك عادية   على الأنام بإلباس وتلبيس

ألوت بكسرى ولم تترك مرازبه   وبالمنـاذر أودت والقوابيس

زارت حسينا وحسبت بالردى حسناً   وواجهت آل عباس بتعبيس

والليل والنهار عنده شقا مقراض يأتيان على كل شيء :

الصبح أصبحُ والظلا   م كما تراه أسم حالك

ينهاران ويسلـكا   ن إلى الورى ضيق المسالك

أسدان يفترسان من   مرّا به فأبه لذلك

حلا الممالك عن ردي   فاض إلى خان وآلك

والشر ، لا الخير ، هو الغالب على الناس .

والأرض موطن شرة وضغائن   ما أسمحت بسرور يوم فارد

هذه فلسفة التاريخ عند أبي العلاء وتفسيره إياه .. هو تفسير رجل متشائم لا يرى في العالم ولا في الحياة شيئاً يسر . وهو من أجل ذلك يستعجل الفناء والعدم ويمتنع من الزواج الذي هو وسيلة النسل و بقاء النوع .

تواصل حبل النسل ما بين آدم ... وبيني ولم يوصل بلامي باء

وهو سيء الظن بالناس زاهد فيهم :

وزهدني في الناس معرفتي بهم ... وعلمي بأن العالمين هباء

***

نهيتك عن خلاط الناس فاحذر ... أقاربك الأداني واحـذرني

وإن أنا قلت لا تحمل جرازا ... فهز أخا السفاسق واضربني

إلى أي شيء يرجع هذا التشاؤم ؟

قد يقول قائل إن مزاج أبي العلاء المتأثر بحياته التي أخذ نفسه بها بعد عودته من بغداد هو علة هذا التشاؤم . ولكن مزاج شاعرنا الفيلسوف نتيجة لا علة لتلك الحال . فهو إنما أخذ نفسه بحياة الزهد والتقشف البالغ بعد أن بلغ الأربعين و بعد أن استكمل خبرته بالناس . إذاً فخبرته بالناس وفي القديم وفي زمنه هي علة تشاؤمه . هي علمه بالتاريخ كما وصل إليه وكما عرفه .

لقد كان علم قدماء المؤرخين من الإغريق والرومان بالإنسان وحياته قاصراً قصوراً بيناً لقد بنوا الرواية التاريخية على حياة الفرد أو الأسرة أو القبيلة أو المدينة أو طبقة بعينها ، ومن شأن التاريخ إذا بني على هذا الأساس أن يكون قاتم اللون مليئاً بأخبار الفتن والثورات وظلم الإنسان للإنسان واستعباد الطبقات بعضها لبعض . فلما اطلع فلاسفة الإغريق والرمان على هذا التاريخ تأثروا به في صوغ نظرياتهم عن الحياة جملة فجاءت نظريات ملؤها التشاؤم سواء في ذلك نظريات أفلاطون والرواقيين والأبيقوريين وصنيق ومارك أوريل . فمنهم من رأى أن العالم ينتقل في أدوار زمنية يفتتح كل منها بعصر ذهبي مجيد ثم لايزال يتدلى و يضعف حتى يختتم بحال فوضى واضمحلال ، ثم يفتتح دور آخر وهلم جرا . ومنهم من رأى الإنسان محدود القدرة مضروباً بينه و بين قوى لا حد لقدرتها هي الآلهة بنطاق لا سلطان له عليه . فتضمة

فلاسفة الإغريق والرومان نغمة حزن ويأس وحسرة على الناس والحياة بوجه عام ، ثم جاءت العصور الوسطى الأوربية وساد سلطان النصرانية فأصبح الناس يرون أن هـذه الدنيا دار بلاغ وأن الآخرة هي دار القرار وأن السعادة في هذه الدنيا ليست محققة وأن الحياة الآخرة هي التي ترجى فيها السعادة والخلود . فازداد الناس ضيقاً بالحياة وأصبح شعارهم الزهد فيها وتمنى الخلاص منها . والرواية التاريخية الشرقية لا تختلف في خصائصها العامة عن الرواية الغربية . والمجتمع الشرقي القديم لم يختلف اختلافاً جوهرياً عن المجتمع الإغريقي الروماني القديم ، ومن ثم كانت نظرة حكماء الشرق نظرة يأس وحزن وتشاؤم . وفكرة الأدوار التي تحدثنا عنها عند مفكري الإغريق والروم تقابل فكرة « الفترات الزمنية » التي تفتتح بمجيء نبي أو رسول وتنتهي بقيام آخر والإيمان بحياة مستقبلة ينعم فيها المؤمن ويخلد وهي خير ما يتعزى به المؤمن عما يصيبه من البلاء في هذه الدنيا .

لم يلحظ القدماء على العموم أن الإنسان ابتدأ ضعيفاً ثم صار بعقله واجتهاده وقوة إرادته يرقى شيئاً فشيئاً ، ولكنهم حصروا بعنايتهم ضعفه أمام عوامل لا سلطان له عليها مثل القضاء والقدر والحياة الأخرى وعلاقته بخالقه سبحانه وتعالى .

وبعد : فأبو العلاء قد نهج في فلسفة التاريخ منهج المفكرين القدماء من المشارقة والمغاربة على السواء لأن العلة واحدة في الحالين . على أن تشاؤمه ويأسه ينطويان على حب حقيقي للإنسان والإنسانية . وإذا كان أبو العلاء شديد الرفق بالحيوان فلا شك أنه كان في أعماق نفسه أشد رفقاً بالإنسان .

السلطان يمين الدولة

محمود الغزنوي*

٣٨٧ — ٤٢١ هـ

علم من أكبر أعلام الشرق ، رفع منار الإسلام عالياً وشاد فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس دولة عظيمة انتظمت الركن الشمالى الغربى من الهند ، وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر ، ومعظم بلاد فارس ، ونشر لواء العدل فى تلك الدولة المترامية الأطراف ونامىر فوق ذلك العلوم والفنون والآداب مناصرة قلما نجد لها مثيلا فى التاريخ .

***

والسلطان محمود من أصل تركى ، وقد ظهر الجنس التركى على مسرح التاريخ الإسلامى فى أوائل القرن الثالث الهجرى عندما اقتضت سياسة الخلفاء العباسيين الاستظهار بالترك على الفرس الذين كانت لهم مطامع قومية قوية ، وعلى العرب الذين صيرتهم عصبيتهم القبلية أداة لا يعتمد عليها فى سياسة الدولة وتدبير أمورها .

وللترك فى تاريخ الدولة الإسلامية صفحتان متباينتان كل التباين ! صفحة مظلمة حالكة الإظلام نتبينها فى استبداد الجند التركى بالخلفاء العباسيين فى القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، وإذلالهم إياهم أيما إذلال ، عزلا وتولية وسجنا ومثلة وتعذيبا . أما الصفحة الأخرى فمشرقة رائعة الإشراق ، نتبينها فى قوة اعتقادهم للإسلام وشدة إخلاصهم له ، وفى انتصارهم للمذهب السنى بعد أن استعلت عليه المذاهب الأخرى من تشيع وباطنية واعتزال حتى كادت تقضى عليه وتذهب به كل ذهاب ، كما نتبينها فى شدة دأبهم على نشر الإسلام فى الأقطار الوثنية ، ومكافحتهم أعداء الدولة الإسلامية من الروم والصليبيين والتتار ، فالغزنويون وأعقابهم نشروا الإسلام ديناً ودولة فى الهند ، والسلاجقة ردوا إلى المذهب

(*) ولد فى سنة ٣٦١ هـ وتولى الحكم بغزنة سنة ٣٨٧ هـ وتوفى فى سنة ٤٢١ هـ . والغزنوى نسبة إلى مدينة « غزنة » عاصمة أفغانستان الإسلامية القديمة ، وتقع جنوبى مدينة كابل الحديثة .

الحسنى بحرته واعتباره ، وصدوا الروم ، ونازلت أتابكتهم الصليبيين فى الشام وكسروا شوكتهم وقضى مماليك مصر على بقايا الصليبيين بالشام وصدوا التتار عن مصر والمغرب فأسدوا بذلك منة مذكورة مشكورة إلى المدنية الإسلامية والمدنية الأوربية على السواء .

من هؤلاء الأتراك ملوك اسمه ناصر الدولة سُبُكْتِكين ، كان عاملا على أفغانستان للدولة السامانية الفارسية القائمة بما وراء النهر . وكان سبكتكين رجلا حازماً شجاعاً ، وسع حدود ولايته من ناحية الغرب بأن حصل على إمرة خراسان من مولاه السامانى ، ومن ناحية الشرق بأن غزا إقليم البنجاب وهزم ملكه الهندى جيبال ، وأقام فيه حكومة إسلامية فى مدينة بشاور ، فلما توفى فى سنة ٣٨٧ هـ خلفه ابنه محمود الذى نتكلم عليه .

ورث محمود عن أبيه نشاطه الجم ، وعبقريته العسكرية ، هذا إلى طموح عظيم وغيرة دينية لا سمعة فيها ولا رياء .

ويجد محمود نفسه عند توليه ملك غزنة فى محيط سياسى مفكك الأوصال ، متداعى البنيان ، ولقد كانت الدولة السامانية تعالج سكرات الموت تحت ضربات الترك الأيلكخانية ، وكانت الدولة البويهية بفارس تعانى أبرح ما تعانيه دولة من جراء اختلاف الكلمة وتفرق الأهواء . فلم يتردد محمود فى أن يخلع طاعته للدولة السامانية المحتضرة ، ويدعو للخليفة العباسى القادر بالله ، ويوسع رقعة ملكه على حساب السامانيين والبويهيين جميعاً ، حتى آل به الأمر إلى أن أصبح وارث الدولتين معاً على وجه التقريب .

ولقد عرف له الخليفة العباسى القادر بالله فضله وغيرته وبُعد همته فخلع عليه لقب السلطان يمين الدولة وولى أمير المؤمنين ، فأصبح يلقب بذلك اللقب واشتهر به فى التاريخ . ويقول ابن الأثير إنه أول من لقب بالسلطان ولم يلقب به أحد قبله[1] .

* * *

على أن السلطان محموداً كان أكبر من أن يقنع بولاية غزنة وما ضمه إليها من فتوح

(١) يقول المستشرق الإنجليزى لينبول إن لقب « سلطان » لم يظهر على عملة محمود الغزنوى ، وإن أول من تلقب بهذا اللقب من الأسرة الغزنوية هو إبراهيم ظهير الدين (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) مقتديا فى ذلك بالسلاجقة الذين كانوا السابقين إلى التلقب بلقب سلطان كما يؤخذ من دراسة العملة الإسلامية (كتاب الأسر الإسلامية ص ٢٨٦) .

هى فى واقع الأمر فتوح بلاد إسلامية .. لقد حفزته حميته الدينية واعتراف الخليفة العباسى بإمرته إلى أن يوجه قواه وجهوده إلى أقطار وثنية تتاخم ملكه هى بلاد الهند .

وكانت الهند إذ ذاك عالما قائما بذاته يكاد يكون فى عزلة عن سائر العالم بشعوبه ولغاته وعقائده وعاداته . نعم إن العرب حاولوا إبان فتوحهم الكبرى الأولى فتح بابها فغزوها من ناحية مصب نهر السند على يد قائدهم الشاب العربى محمد بن القاسم الثقفى ، فبلغ فى غزوته الملتان . ولكن هذه الغزوة على أهميتها من الناحية التاريخية لم تتبعها محاولات أخرى للتوسع فى الهند لا فى بقية العصر الأموى ولا طوال العصر العباسى الأول .

وكأن الأقدار ادخرت شرف استئناف هذا المشروع الخطير والسير به أمداً بعيداً ، للعنصر التركى وللسلطان محمود الغزنوى بالذات . فلقد نذر لله أن يكفر عن محاربته إخوانه فى الإسلام من سامانيين و بويهيين بأن يغزو الهند كل سنة و يثخن فى أرضها حتى يعلى فيها كلمة الإسلام أو يبلى عذراً .

ولقد كان السلطان يجهد أن يفى بنذره كما ساعدته الظروف وواتته الأحوال . ففيما بين سنتى ٣٩٢ و ٤١٦ هـ غزا ما لا يقل عن سبع عشرة غزوة . فكان ينصب من جبال أفغانستان على سهل الهندستان فى جنوده الأتراك الأشداء ، بخيولهم الفارهة وأسلحتهم الموفورة ، ونظامهم الحربى البديع ، انصباب السيل الدافع فيعبر الأنهار الصعاب ، ويسلك القفار المدوية ، و يفتح المدن الحصينة ، و يخرب المعابد الوثنية ، و يكسر الأصنام الهندية ، لا يبالى تعبا ولا نصبا . ثم يكر راجعاً إلى غزنة ممتلئ اليدين من السبى الرائع ، والمغانم الماثلة ، مما حوته معابد الهنود من كنوز الذهب والفضة وفاخر الجواهر ونفائس الأعلاق .

وقد انجلى هذا الغزو المتتابع عن امتلاك السلطان محمود إقليمى البنجاب وقشمير ، وسيطرته على مملكة كجرات الواقعة على المحيط الهندى .

ودخل الهنود فى دين الله أفواجا ، وترك فيهم السلطان الفاتح من يعلمهم أصول الدين الإسلامى و يلقنهم مبادئه ، فرسخ الإسلام من ذلك الوقت فى بلاد الهند ، وأصبح ديانة قومية ، ثابتة الدعائم ، قوية الأساس ، على نحو ما نشاهده الآن فى دولة باكستان الحديثة .

* * *

أثبت السلطان محمود أنه ذلك الفاتح الكبير والقائد المظفر الخطير. بيد أنه فى مجال العمل السلمى لا يقل روعة وابتكارا عنه فى مجال الحرب والجهاد ، بل لعل جانب العمل السلمى من سيرته وما يشتمل عليه من تشييد البناء ، وتنظيم الإدارة ، ومناصرة العلوم والفنون والآداب ، أجل شأناً من جانب البراعة العسكرية وأبعد أثراً .

جدد عمارة المشهد بطوس وهو الذى فيه قبر على بن موسى الرضا وقبر الخليفة هارون الرشيد ، وأحسن عمارته كما يقول ابن الأثير . وبنى فى غزنة مسجدها المعظم ، بناه بالرخام وحجر الصوان ، وأضاءه بمصابيح الذهب والفضة ، وفرش أرضه بالبسط الفاخرة . ويسر جلب الماء إلى عاصمته بقناطر خاصة ، وجملها بكل ما تجمل به المدن من مختلف المرافق ، واقتدى به فى ذلك رجال دولته ، فانتقلت غزنة فى عهده من حال مدينة خاملة إلى حال عاصمة من أعظم عواصم العالم الإسلامى .

ولكن أمرين رفعا السلطان محمود إلى أعلا منزلة يطمح إليها أمثاله من مؤسسى الدول أولهما أنه كان شديد العناية بمصالح رعيته ، حريصاً على نشر لواء العدالة بينهم ، قوى الاعتقاد بأن العدل أساس الملك ، وقد وصفه بهذه الفضيلة الكبرى ابن الأثير فى تاريخه ، والوزير السلجوقى نظام الملك فى « سياستنامه » والأمر الثانى ولعه العظيم بالعلوم والفنون والآداب ، أسس فى غزنة جامعة كبيرة ، رتب لأساتذتها الرواتب ، وأجرى على طلابها الجرايات ، وأمدها بمكتبة حوت من نفائس الكتب الشىء الكثير . ولقد كان ذا حرص عجيب على أن يجتذب إلى بلاطه وعاصمته أعاظم العلماء والفلاسفة والشعراء والكتاب والمؤرخين ، مسخراً فى سبيل ذلك جاهه وماله معاً . وقد اتفق فى عهده سقوط الدولة السامانية ، واضطراب أمر فارس والعراق وصيرورة كثير من رجال العلم والفلسفة والأدب ، شبه مشردين لا يجدون ملجأ ولا نصيرا . فاستجاب كثير منهم لرغبة السلطان الغزنوى العظيم . واجتمع منهم ببلاطه عدد عظيم ، منهم أبو الريحان البيرونى صاحب التصانيف التى لم يؤلف مثلها فى تاريخ الهند وبيان عقائد أهلها وعاداتهم والعتبى المؤرخ الذى وضع « الكتاب اليمينى » فى سيرة السلطان محمود . وأبو الفتح البستى الشاعر المشهور ، والإمام أبو منصور الثعالبى صاحب « يتيمة الدهر » وكان السلطان حريصاً

على اجتذاب الرئيس أبي علي بن سينا ، ولكن ابن سينا كان يخشى بوادر السلطان وحدة مزاجه فلم يجب طلبه وبالغ في التخفي عن عيون الرجال الذين بثهم السلطان للبحث عنه وإشخاصه إليه .

وكما أخذ السلطان بناصر علماء العرب وشعرائهم ومؤرخيهم وكتابهم ، فقد ناصر كذلك شعراء النهضة الأدبية الفارسية الإسلامية فكان يزين بلاطه منهم العنصري والفرخي والمسجدي والأسدي والغضائري وخاصة أبا القاسم الفردوسي شاعر إيران الأكبر . وللفردوسي مع السلطان محمود قصة نعرض لها في مقام آخر [(١)] .

تلك سيرة السلطان محمود الغزنوي بالإيجاز الشديد . ومنها يتبين أنه يعد بحق من أعظم أعلام التاريخ الإسلامي . وقد توفي في غزنة سنة ٤٢١ ويورد ابن الأثير بعض سيرته فيقول « كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين عاقلا ، ديناً ، خيراً عنده علم ومعرفة ، وصنف له كثير من الكتب في فنون العلوم ، وقصده العلماء من أقطار البلاد ، وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويعظمهم ويحسن إليهم ، وكان عادلا كثير الإحسان إلى رعيته والرفق بهم كثير الغزوات ملازماً للجهاد إلى أن يقول « ولم يكن فيه ما يعاب إلا أنه كان يتوصل إلى أخذ الأموال بكل طريق » .

ثم يقول في حليته « وكان ربعة مليح اللون حسن الوجه ، صغير العينين ، أحمر الشعر » .

ولا شك أن السلطان محموداً كان حريصا على جمع المال ولكن مما يهون من نقد ابن الأثير له من هذه الناحية أنه لم يكن ينفق المال الذي يجمعه على نفسه وملذاته ، بل كان ينفقه في إعداد الجيوش الجرارة وتشييد المباني النافعة ونشر لواء العدل ، وخدمة العلم والعلماء .

(١) انظر المقال الآتي عن الفردوسي

١ - الفردوسى[1]

(٣٢٥ - ٤١١ هـ)

احتفلت الأمة الإيرانية فى أكتوبر الماضى بذكرى مرور ألف سنة على ميلاد شاعرها الأكبر أبى القاسم الفردوسى ، وقد دام احتفالها نحو شهر من الزمان كانت إيران كلها فيه متصلة الأعياد بادية البشر والسرور . ولم تكن الحفاوة بتلك الذكرى مقصورة على الإيرانيين وحدهم ، فقد شاركهم فيها العالم المتحضر شرقه وغربه ، فأوفدت ثمانى عشرة دولة كبيرة إلى إيران من يمثلها فى الاحتفال بذكرى الفردوسى ، وزاد بعضها من قبيل المجاملة للإيرانيين والتنويه بشاعرهم فاحتفى بتلك الذكرى احتفاء خاصاً فى عواصمه . فعل ذلك الألمان فى برلين ، والإنجليز فى لندن ، والفرنسيون فى باريس ، والإيطاليون فى رومية . وعما قريب تحذو مصر حذوهم فتهب ذكرى الفردوسى أسبوعاً من الزمن يتحدث فيه بالقاهرة نفر من فضلائها عن حياة الفردوسى وشعره ، وعن أثر قومه فى عالم الفن والأدب .

وأريد بهذه المناسبة أن أعرض فى هذا المقال وفى مقال آخر آت لسبب حفاوة الفرس وغير الفرس بذكرى الفردوسى . وسنرى أن البحث سيكشف لنا عن شخصية فذة عجيبة حقاً . شخصية استطاعت من جهة أن تستنقذ قومية ولغة كان يتنازعهما البقاء والعدم ، ومن جهة أخرى ساهمت بنصيب موفور فى ميراث العالم الأدبى الباقى على مر الزمان .

* * *

هو أبو القاسم الحسن بن على الفردوسى ، وكلمة (الفردوسى) لقبه الشعرى ، فقد جرت عادة الفرس من قديم أن يخلعوا على شعرائهم ألقاباً خاصة كالدقيقى ، وملك الشعراء ، وحكيم الشعراء وهكذا[2] . ولد على رأى بعض الثقات حوالى عام ٣٢٥ هـ بقرية من قرى مدينة

(١) أذيع مضمون هذا المقال من محطة الإذاعة المصرية فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٤ . هذا ولم نقصد فى بحثنا إلى تاريخ الشاعر من الناحية الفنية فليس ذلك من شأننا ، إنما قصدنا إلى التحدث عنه من حيث إن حياته تلقى ضوءاً على الحال السياسية فى آسيا الوسطى الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . ومن يرد سيرة الشاعر نفسه فليلتمسها فى مظانها وخاصة الشاهنامه ، ومقدمة (مول) لترجمتها الفرنسية وكتاب نولدكه عنها ، ومقدمة الدكتور عبد الوهاب عزام لترجمة البندارى العربية للشاهنامه .

(٢) وقيل فى تعليله غير ذلك (انظر المدخل إلى الشاهنامه للدكتور عزام .

طوس بخراسان يقال لها (باز)، وورث عن أبيه ضياعاً كانت تغل عليه فى صدر حياته كفايته من المال. وتعلم فى حداثته ما كان يتعلمه أمثاله من أبناء الدهاقين فى ذلك الزمان، فحذق الفهلوية والعربية. وشغف فى صباه بقرض الشعر الفارسى والتوفر على مطالعة القصص الفارسى القديم. فأنشأ كل ذلك عنده اعتداداً بقومه واعتناقاً لمذهبهم الشيعى. وشدا شيئاً من آراء المتكلمين من المعتزلة، فنشأ فارسى الهوى، شيعى المذهب، معتزلى الرأى.

كان أمر خراسان فى ذلك الوقت إلى الدولة السامانية، وهى دولة فارسية من الدول التى تقسمت سلطان الدولة العباسية بضعف السلطة المركزية فى بغداد ابتداء من القرن الثالث الهجرى. وقد جهد السامانيون فى بعث الروح القومى الفارسى مستعينين على ذلك بما للتاريخ والأدب من القوة فى إذكاء الروح القومى عامة. فنقل وزيرهم البلعمى برسم الأمير منصور السامانى تاريخ الطبرى إلى الفارسية، وتقدم عاملهم على طوس أبو منصور ابن عبد الرزاق إلى رجل يقال له أبو منصور المعمرى فى جمع أخبار الفرس القدماء فى شكل تاريخ شعبى لفارس من أقدم عصورها إلى الفتح الإسلامى، فعهد المعمرى بالأمر إلى أربعة من الفرس الزرادشتيين جمعوا ذلك التاريخ من الكتب المحفوظة فى قلاع فارس، وفى خزائن الموابذة والدهاقين. ثم كتبوا ذلك التاريخ بالفارسية الحديثة وسموه «شاهنامه» أى «كتاب الملوك»، وكان ذلك حوالى عام ٣٤٧ هـ؛ وأراد السامانيون أن يسهل على الفرس تناول هذا التاريخ وتداوله، فعهد الأمير نوح بن منصور السامانى بنظمه شعراً إلى فتى فارسى شاعر يعرف بالدقيقى. فأخذ الدقيقى فى ذلك فنظم منه ألف بيت ثم هلك غيلة حوالى عام ٣٦٦ هـ.

اطلع الفردوسى على شاهنامه المنثور وعلى ما نظم الدقيقى منه من نسخة أعاره إياها صديق له يقال له (م... كرى). وأشار عليه ذلك الصديق أن يتم ما شرع فيه الدقيقى، وصادف ذلك هوى فى نفسه، فامتثل الإشارة وعكف على نظم شاهنامه من حيث انتهى صاحبه، فقضى فى ذلك ثلاثاً وعشرين سنة أتم فيها نسخة شاهنامه الأولى (٣٨٩ هـ) ثم أهدى تلك النسخة إلى كبير من كبراء الفرس الظاهرين بأرض أصبهان يقال له أحمد الخالنجانى، فأجازه عليها بجائزة يسيرة.

***

في تلك السنين الطوال ، تبدلت الحال في خراسان لاضطراب أمر الدولة السامانية القومية المستنيرة ، وعراها ما يعرو البلاد عادة عند التأذن بذهاب دولة وقيام أخرى . فأهملت المرافق العامة وخاصة مرافق الري ، والبلاد بعدُ بلاد زراعية ، فشح الماء ، وجف الزرع ، وأجدبت الحقول ، ونالت ملاك الأراضي شدة تعذر عليهم معها أداء الخراج الموضوع على أراضيهم . وكان الفردوسي بطبيعة الحال من ضحايا تلك الضائقة الاقتصادية ، وزاده ضنكا وسوء حال انصرافه إلى حياة الأدب المحض ، واضطراره إلى أن يستكفي غيره النظر في شئون أرضه . ويظهر أثر تلك الحال واضحاً في ترديده في شعره الشكوى من الفاقة وتنكر الزمان . وقد اضطر آخرة الأمر إلى مسألة أصدقائه ، فأعانه منهم نفر كرام النفوس أوفياء القلوب ، كافأهم عن صنيعهم بأن نوه بذكرهم في الشاهنامه . والحق أن الفردوسي ، وقد فقد الانتفاع بأرضه أصبح يرى أن من حقه على الناس أن يكافئوه على جهوده الأدبية بمال يزوج منه ابنته الوحيدة ، وينفق منه على نفسه في شيخوخته . وطفق لذلك يبحث عن أمير نبيل أو ملك جليل يهدي إليه الشاهنامه فيجيزه بجائزة تحقق أمنيته ، وسرعان ما وجد ذلك الملك الجليل في شخص السلطان محمود الغزنوي .

والسلطان محمود الغزنوي أوحد ملوك الإسلام لذلك العهد ، وأحد أبطال التاريخ الإسلامي على الإطلاق . قد شاد بعزمه وهمته ملكاً عريضاً وسع سهل الهندستان ، وخراسان ، وتركستان ، وطبرستان ، وفارس . وأصبحت قاعدته (غزنة) بمساجدها ومدارسها وخزائن كتبها وعلمائها الأعلام من أمهات المدن الإسلامية . ويقال إنه لم يجتمع قط في مدينة أسيوية في وقت واحد من أعيان الأدب وأقطاب العلم والفلسفة مثل من اجتمع بغزنة على عهد السلطان محمود . ذلك بأن السلطان كان شغوفاً بالعلم والأدب ، حريصاً على اجتذاب العلماء من مختلف البلدان الإسلامية ليقيمهم بحضرته ، فيزدان بهم بلاطه ، وتكون له من قربهم شهرة أدبية تضاف إلى شهرته الحربية التي طبقت الآفاق . ومن العلماء الذين حفلت بهم غزنة على عهده ، البيروني والعتبي المؤرخان ، والفارابي الفيلسوف ، وأبو الفتح البستي الشاعر العربي ، والعسجدي والعنصري والفرخي ، وكلهم من سباق شعراء الفرس في الإسلام . وكان الرئيس أبو علي بن سينا قد قصد حضرة السلطان ثم بدا له فعدل عنها إلى جهة أخرى . وكان السلطان كلما فرغ من حرب وأقام بعاصمته متودعاً ، جلس إلى

فأولئك العلماء يحدثهم أو يستمع إلى حديثهم ، وهو فى تصيده العلماء ومباهاته بهم يذكرنا بسيف الدولة الحمدانى ، والحكم المستنصر الأندلسى ، وبفردريك الأكبر ملك بروسيا ، ولويس الرابع عشر ملك فرنسا .

ذلك هو الملك الجليل الذى رآه الفردوسى مهوى فؤاده ومحط آماله . فأخذ يعد العدة لانتجاع حضرته والاغتراف من فيض جوده . فحمل يراجع الشاهنامه ، مطامنا بين أجزائه ، مكملاً ما نقص منه ، مستدركاً ما فاته فى نسخته الأولى ومحلياً فصوله بمدائح سنية يطوق بها جيد ذلك الملك العظيم . وقد قضى فى ذلك إحدى عشرة سنة ، فقد فرغ من إعداد النسخة الثانية للشاهنامه عام ٤٠٠ ﻫ وبلغت عدة أبياتها ستين ألفاً .

***

توجه الفردوسى إلى غزنة ومعه راويته ونسخة الشاهنامه ، فلقى وزير السلطان الرئيس الكبير أبا العباس الفضل بن أحمد ، وكان معنياً بنشر الفارسية ، فأبلغه حضرة السلطان . واطلع السلطان على الشاهنامه ، ولا ريب أنه أدرك أنه ثمرة مجهود عقل جبار ، ولكنه مع ذلك لم يتقبله بقبول حسن . والروايات القديمة مجمعة على أن الوشاية والكيد قد عملا عملهما فى إفساد قلب السلطان على الوزير والشاعر معاً . ولكن الأمر أجل من ذلك وأعظم ، فليس من شك فى أن ذلك السلطان التركى المسلم الذى أنفق من الجهد فى إعلاء كلمة الإسلام فى الهند ما أنفق ، والذى كان نصيراً للسنة ، وخصماً ألد للباطنية والمعتزلة ، هذا السلطان لم يعجبه أن يشيد الفردوسى بمجد حازه الفرس أيام مجوسيتهم ، كما لم يعجبه أن ينفخ فى بوق العصبية الفارسية ، وأن يدير كتابه على الحروب التى وقعت فى القديم بين إيران وطوران ، كما لم يعجبه تشيعه وجهره بآرائه الدالة على اعتزاله . كل ذلك قعد بالسلطان عن أن يجيز الشاعر بالجائزة التى كان يتوقعها ، والتى كان يعلق عليها آمالا كباراً . فيقال إنه بعث إليه بعشرين ألف درهم فقط مكافأة له على مجهود خمس وثلاثين سنة فيا يقال .

لكن الفردوسى لم يكن بالرجل الذى يحتمل هذا التقصير فى حقه . فقد جزى السلطان شر جزاء . فيقال إنه دخل حماماً فلما خرج منه شرب فقاعاً ، ثم قسم عطية السلطان بين الحامى والفقاعى . وبلغ ذلك السلطان فهاج غضبه ، وهم بأن يبطش بالشاعر ، فلاذ الفردوسى

بالفرار من غزنة ، وظل مختبئاً بمدينة هراة ستة أشهر نظم فيها مائة بيت من الشعر هجا فيها السلطان هجاء لاذعاً موجعاً . فلما سكن عنه الطلب خرج إلى طبرستان ونزل على صاحبها الأصبهبد شهريار فأكرم مثواه وطيب خاطره ، واعتذر إليه عن السلطان بأن الأمر لم يعرض عليه كما ينبغي ، واشترى منه هجو السلطان بمائة ألف درهم ، ثم محا ذلك المهجو من الشاهنامه محواً . بيد أن الفردوسي رأى أنه غير آمن على نفسه في طبرستان لأنها داخلة في حكم السلطان محمود ، فخرج عنها إلى العراق العربي ونزل على أميره سلطان الدولة البويهي .

ونظم له قصة (يوسف وزليخا) وهي من قصص القرآن الكريم . والفردوسي يصرح في صدر هذه القصة بأنه نظمها تكفيراً عن إضاعته عمره في نظم الشاهنامه ، الملئ بأساطير الفرس الأولين ، ولكن يظهر أنه إنما أراد بنظم تلك القصة أن يلائم بينه وبين البيئة العربية التي أدى به تطوافه إليها .

ومهما يكن من شيء ، فلا شك أن الفردوسي رأى نفسه غريباً بالعراق ، وأن سراج حياته يوشك أن ينطفئ ، وأحب أن يوافيه أجله في مسقط رأسه ، قريبا من ابنته بين أهله ومعشره ، وهون الخطب عليه أن السلطان كان قد ذهب عنه غضبه عليه ، وأن أمره كان قد نسي أو تنوسي ببلاط غزنة . فخرج من العراق شاخصاً نحو طوس ، فبلغها شيخاً فانياً مهدود القوى قد جاوز الثمانين .

وتذكره السلطان محمود في ذلك الوقت ، وذلك أنه كان راجعاً من الهند إلى عاصمة ملكه ، فعرض له ثائر في قلعة حصينة ، فأرسل السلطان إلى الثائر رسولا أن « إيت غداً ، وقدم الطاعة ، واخدم حضرتنا ، والبس التشريف ، وارجع » فلما كان الغد ركب السلطان وإلى جانبه وزيره أحمد بن الحسن الميمندي . فلما بصر السلطان بالرسول مقبلا قال الوزير « ترى ماذا يحمل من الجواب ؟ » فتمثل الوزير ببيت من الشاهنامة معناه « إذا لم يكن الجواب كما أريد ، فأنا والجرز والميدان وافراسياب » فقال السلطان « لمن هذا البيت الذي تنبعث الشجاعة منه ؟ » قال « للمسكين أبي القسم الفردوسي الذي احتمل العناء خمساً وعشرين سنة وما جنى أية ثمرة » قال السلطان « أحسنت بما ذكرتني ، إني ليحزنني أن يحرم عطائي هذا الرجل الحر ، ذكرني في غزنة لأرسل إليه شيئاً » فلما قدم الوزير غزنة ذكر السلطان ،

فقال للسلطان « من لأبي القاسم بستين ألف دينار يعطاها نقداً ، ويحمل على الإبل السلطانية ، ويعتذر إليه » .

غير أن القدر الساخر شاء ألا تنفذ مشيئة السلطان ، فيقال إنه عند ما وصلت الإبل التي تحمل الهدية إلى طوس ، كان الفردوسي قد أسلم الروح (٤١١ هـ) ، وأنه بينما كانت الإبل داخلة من بعض أبواب المدينة ، كانت جنازة الشاعر خارجة من باب آخر .

وأراد رسل السلطان أن يدفعوا الهدية إلى ابنة الفردوسي ، ولكنها اعتذرت من عدم قبولها . عند ذلك أمر السلطان أن ينفق المال في بعض وجوه البر ، فصرفوا به رباطا للمجاهدين على حدود إقليم طوس . وكذلك نفى السلطان عن نفسه آخرة الأمر تهمة التقصير في حق الشاعر الكبير . فإن ادعى مدع أنه ظلمه في الأولى فقد أنصفه في الثانية ، ودل بذلك على نفس كبيرة وحلم عظيم .

* * *

تلك بالاختصار سيرة الحكيم أبي القاسم الفردوسي . وهي سيرة تفصح عما أوتيه ذلك الشاعر من قوة تتمثل في صدق عزيمته ، وبعد همته ، وعظم غايته ، وثبات مقصده . كما أنها تفصح عن ضعفه الذي يبدو في حدة مزاجه ، وكثرة شكواه من الفاقة ، وتبرمه بالناس والزمان ، ثم في ندمه في مطلع قصته الثانية على ما أنفق من جهده وأضاع من عمره في نظم ملحمته الأولى . على أن ذلك كله ليس مناط تعظيم قومه له كرامة ، إنما مناط ذلك هو الصنيع الجليل الذي أسداه إلى القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة .

ولبيان ذلك ينبغي أن نرجع مع الزمن إلى أوائل القرن الأول الهجري ، فقد حمل العرب إذ ذاك على الدولة الفارسية ، وما هي إلا سنوات معدودات : حتى كانوا قد قضوا على ملك آل ساسان ، وصيروا فارس إقليما من أقاليم الخلافة العربية ، وانتشر الإسلام بعقب ذلك في فارس حتى كاد يقضي على الدين الزردشتي ، كما انتشرت العربية بين الفرس حتى أهملت الفهلوية وكادت تمحوها .

قبل الفرس الإسلام عن طواعية نفس وطيب خاطر . أما القومية فقد جاهدوا من أجل الاحتفاظ بها جهاداً عنيفاً . ولقد تطور هذا الجهاد من مجرد مطالبة بالحقوق العامة ثم

بها الموالى زمن الدولة الأموية ، إلى مؤازرة الثائرين عليها من الخوارج والشيعة ، إلى ثورة عامة انجلت عن سقوط الدولة الأموية العربية ، وقيام الدولة العباسية التى كانت فارسية فى أكثر أوضاعها العامة ، إلى استقلال سياسى يسره ضعف السلطة المركزية ببغداد ، إلى سعى حثيث فى أن يكون للفرس وجود قومى صحيح .

إلى هذا المجهود الضخم المتوجه إلى الاحتفاظ بالقومية ، قام الفرس بمجهود آخر رائع من أجل إنهاض لغتهم وتعميم استعمالها فى بلادهم .

لقد طغت العربية على الفهلوية فى العصر العربى الأول طغيانا كان من أثره أن انحصر استعمال هذه اللغة فى حدود إقليمية ضيقة فى فارس وخراسان وطبرستان ، ولم تسلم الفهلوية فى معاقلها هذه من التأثر بالعربيـة ، فقد أصبحت تكتب بالخط العربى ودخلتها ألفاظ وتعابير عربية أحالتها إلى طور جديد من تاريخها ، عرفت فيه بالفارسية الحديثة . وبتنبه الشعور القومى عم استعمال اللغة المذكورة فى تلك الأقاليم الثلاثة ، حتى كادت العربية تنمحى من بعضها ، كما يؤخذ من قول المتنبى :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى ... بمنزلة الربيـــع من الزمان
ولـكن الفتى العربى فيهـا ... غريب الوجـه واليد واللسان
ملاعب جِنـة لو سار فيها ... سـليمان لسار بترجمان

وقد عول ساسة الدول الثلاث : الطاهرية والصفارية والسامانية ، على أن يجعلوا الفارسية الحديثة لغة أدب وتدوين ، فشجعوا الشعراء على النظم بالفارسية ، وأمر السامانيون بتدوين تاريخ قومى للفرس ، ونظمه بهذه اللغة كما تقدم القول .

وعلى الرغم من التقدم الذى أحرزه الفرس فى أمر قوميتهم ولغتهم ، فإنهم كانوا فى أواخر القرن الرابع بحاجة إلى مدد أدبى ممتاز يبعث فى القومية الفارسية روحا قويا ، ويثبت دعائم الفارسية الحديثة وينهضها على أساس ثابت ، وقد أمد الفردوسى قومه بهذا المدد . فالشاهنامه يعنى بأسهل عبارة وأبلغ تصـوير تاريخ الفرس القدماء ومفاخرهم وآدابهم وأساطيرهم . لذلك أضحى فى حياة ناظمه — وهـذا أمر منقطع النظير — ملحمة قومية ،

ولم يمض طويل زمن حتى غدا « قرآن القوم » على حد قول صاحب « المثل السائر » .

* * *

لقد أدى الفردوسى « رسالته الخاصة » أحسن الأداء ، وأصبح فضله على قومه ولغته باقياً ما بقى قومه ولغته . وقد عرف له قومه هذا الفضل فذكروه فى هذه الأيام فأحسنوا ذكراه ، وشادوا فوق رفاته بناء عالياً ، وهذا جهد مثوبة الحى للميت . وإن الإنسان ليذكر فى هذا المقام دانتى الإيطالى ، وكورياس اليونانى ؛ فكلاهما أذكى الروح القومى فى بلده ، وجدد بمجهوده الخاص دارس لغته ، هذا بنثره ، وذاك بشعره .

٢ - الفردوسى

تتمــــة[1]

بينت فى مقالى السابق الذى من أجله يكبر الفرس الفردوسى و يعدونه شاعرهم القومى فقلت إن الفردوسى بنظمه « كتاب الملوك » الذى يضم بين دفتيه تاريخ الفرس الأقدمين وأساطيرهم وآدابهم ، قد أمد القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة ، بمدد قوى ؛ رسم للأولى حدوداً واضحة ، وشرع الثانية منهجاً ظلت تسير فيه حتى يومنا هذا . والفردوسى بهذا الصنيع الجليل قد هيأ السبيل لظهور فارس الحديثة ذات الشخصية البارزة فى تاريخ الشرق الحديث .

ولكن ما السبب فى أن شعوباً أخرى غير الفرس تحفل بالفردوسى وتجله ، ولم تتحاش أن تعلن ذلك بالاحتفال بذكراه الألفية ، وجواب هذا السؤال موضوع هذا المقال .

* * *

يعد الفردوسى عند علماء الأدب ونقاده شاعراً قصصيا من شعراء الطبقة الأولى ، فهو فى مرتبة هوميروس ودانتى وملتن . والشاعر القصصى العظيم هو الذى ينشىء ملحمة أى منظومة قصصية طويلة بليغة يعتبرها قومه غرة أدبهم . وحظ هذه المنظومة من الذيوع والانتشار يتوقف على نوع موضوعها . فإذا كان الشاعر قد اخترع للموضوع اختراعا وتخيله تخيلا ثم أفرغ عليه بعد ذلك حلة من بلاغته وقوة تصويره فهى ملحمة محدودة الذيوع ، يقبل على قراءتها خاصة الأدباء والمثقفين وأساتذة الأدب فى الجامعات . ومن هذا الصنف « الكوميديا » لدانتى « والجنة المفقودة » لملتن . أما إذا ألف الشاعر موضوعه من الحكايات الشائعة فى قومه ، وأساطيرهم التى يعتقدونها ، وأغانيهم التى يتغنون فيها بذكر

(١) يتضمن هذا المقال البحث الذى ألقيته باللغة العربية فى مؤتمر الذكرى الألفية للفردوسى المنعقد فى طهران سنة ١٩٣٤ . وهو البحث الوحيد الذى ألقى فى ذلك المؤتمر باللغة العربية ، وكان عنوان البحث « الفلسفة الأدبية للشاهنامه » .

ما اختلف عليهم من الأحـداث ، ثم عرض ذلك كله عرضاً شعرياً قوياً بليغاً ، وكان فى ذلك فيلسوف النظرة يتناول العام من ثنايا الخاص فيصور العالم وهو يصور قطعة منه محدودة . ويصف الطبيعة البشرية وهو يصف قبيله ومعشره ، ويتناول الزمن وهو يتناول برهة منه ، إذا فعل الشاعر ذلك فقـد كتب لملحمته الذيوع والخلود . وسرعان ما يحل الحديث للونق المحكم محل القديم المبعثر المتفرق ، فتنسخ للملحمة الجديدة الحكايات القديمة ، وتأخذ مكانها من قلوب الأمة التى تصور فعالها ، وعلى مر الزمن تنفذ للملحمة من حدود المحلية والإقليمية وتشيع فى أنحاء العالم المتمدين وتستحيل أثراً أدبياً عالمياً . وأشهر ملاحم هذا النوع ، الإلياذة والشاهنامه الذى نحن بصدد الكلام عليه .

والشاهنامه يسترعى اهتمام غير واحد من خاصة المتأدبين ، فاللغوى يطالع فيه صفحة واضحة من تاريخ اللغة الفارسية الحديثة ، والاجتماعى يجد فيه عوناً على تصور المجتمع الفارسى القديم ، ومعرفة أخلاق القوم وعاداتهم ومواضعاتهم ، والمعنى بالأساطير القديمة ينتفع به انتفاعاً جما فى دراسة الميثولوجيا الإيرانية والمقارنة ، ومؤرخ الأديان يستخلص منه صورة مجملة لعقائد الإيرانيين القدماء ، والمؤرخ السياسى يرجع إليه فى دراسة النظم الفارسية القديمة ويجد فيه صدى قوياً لعلاقة الفرس بمن جاورهم من الأمم وخاصة الهند والترك والعرب . والفنان الذى تستهويه بلاغة العبارة ودقة المعانى وقوة التصوير يرى فى الشاهنامه مثلا عليا لكل ذلك . فالفردوسى يعرج فى سماء البلاغة حتى يسامى النجم ، وهو فى الوقت نفسه يخاطب الناس بمألوف حديثهم ومتعارف معانيهم ، ثم هو وصاف مبدع ، إذا تصدى لوصف وقعة حربية أراك ميدان القتال ، وجلا على عينك ما يجرى فيه من كر وفر ، وهجوم وتحيز ، وأراك السيوف تلمع ، والرماح تشرع ، وأسمعك تصاول الكماة ، وصهيل الخيول ، وأنين الجرحى ، وصور لك ظفر الغالب وهزيمة المغلوب . فإذا انتقل إلى وصف مجلس من مجالس الدعة والأنس مثل لعينيك أسباب السرور ، ودواعيه ، وأدواته ، ونقل إليك ما يشيع فى المجلس من صفاء النفوس ، وتجاوب القلوب ، فإذا أراد تصوير العاطفة البشرية أراك حنو الأم ، وعطف الأب ، ووله العاشق ، ووفاء الزوجة ، وإخلاص الصديق

لقد أدرك الفردوسى قوام الفن وملاكه ، لأدرك معنى الجميل ومعنى الجليل ، وعرف كيف يعبر عنهما .

* * *

على أن الناحية الأخلاقية من الشاهنامه ، هى عندى أهم نواحيها وأبعثها على التقدير العام بها . فالفردوسى لم يقصد إلى أن يكون مؤرخا ، ولا إلى إظهار بلاغته ، بمقدار ما قصد إلى أن يكون كتابه كتاب أدب وحكمة وتهذيب ، نلحظ ذلك فى الجانب التعليمى من كتابه ، فالفردوسى لا يبرح واعظاً ومرشداً وهادياً ، سالكا حينا طريق الحقيقة وحينا طريق المجاز ، ونلحظ ذلك القصد أيضاً فى خلو الشاهنامه خلواً مطلقاً من الألفاظ والمعانى التى ينبو عنها الأدب والذوق السليم ... بهذه المزية يصح القول بأن « كتاب الملوك » كتاب يتأدب بمطالعته الناس فى كل زمان وكل مكان ، وإذا كانت « الإلياذة » تنمى فينا عاطفة الحياء والغضب للحق ، وفضيلة الإيثار والانتصار للضعيف ، وإذا كانت « كوميديا » دانتى تعرفنا بطريقتها الرمزية أى أساليب الحياة يؤدى فى الآخرة إلى الثواب وأيها يؤدى إلى العقاب ، وإذا كانت « الجنة المفقودة » تقوى الروح الدينى فى نفس القارئ ، فإن الشاهنامه يرمى إلى تهذيب النفس وتكميلها .

وفلسفة الشاهنامه الأخلاقية تقوم على أربعة أمور عظام : الإيمان ، والواجب ، وطهارة القلب ، والزهد .

والإيمان عند الفردوسى ليس ذلك الشعور الذى يخالط ضعفاء النفوس وخورة الطباع ، ولكنه إيمان الأبطال والملوك . فالفردوسى يتعمد أن يظهر أبطاله وملوكه عند استكمالهم أسباب العزة والجبروت فى مظهر النقص والافتقار إلى عون الله ومدده مبالغة منه فى توكيد ضرورة الإيمان فى الحياة ، ورغبة منه فى كبح جماح النفوس الطاغية ، وكسر شرة القلوب العاتية . ولنمثل لذلك من الشاهنامه : فعند ما خرج الملك (كيخسرو) إلى قتال (أفراسياب) انتقاماً لمقتل ابنه (سيا وخش) جعل يدعو الله تعالى أن ينصره على عدوه يقول الشاهنامه(١) : « وبعد ذلك اغتسل كيخسرو ودخل متعبداً لم ير، وجعل طول ليلته

(١) انظر الترجمة العربية للشاهنامه ج ١ ص ٢٩٣ .

يتضرع إلى الله تعالى ويبتهل ويعفر خده بالتراب ويستنصره على أفراسياب ، ويستعين به عليه ، فقطع ليلته تلك بالسجود لله تعالى والدعاء ، فلما انتصر على خصمه من وجهه وأعياه طلابه رجع إلى الله يستعينه ويستهديه » . يقول الشاهنامه « فاغتسل ذات ليلة وأخذ كتاب الزند وخلا بنفسه فى مكان خال ولم يزل طول ليلته ساجداً لله تعالى يبكى ويتضرع إليه سبحانه ويقول : « إن هذا العبد الضعيف ، الموجع الجسم والروح طاف الدنيا ، فسلك رمالها وقفارها ، وقطع جبالها وبحارها ، طالباً لأفراسياب الذى أنت تعلم أنه سالك غير طريق السداد ، وسافك بغير الحق دماء العباد ، وأنت تعلم أنى لا أقدر عليه إلا بحولك وقوتك ، فمكنى منه . وإن كنت عنه راضياً ، وأنت تعلم ولا أعلم ، فاصرفنى عنه ، وأطفئ من قلبى نائرة عداوته وقف بى على سواء الطريق والنهج القويم » . وعندما غمر الثلج أسفنديار وأصحابه فى طريق « هفتخوار » الوعر الشاق ، ووجد ذلك البطل المغوار نفسه أمام قوة لا قبل له بها ، لم يسعه إلا أن يسلم أمره إلى الله تعالى ، فتقول شاهنامه : « فبينا هم كذلك إذ أظلم الجو واشتدت الريح ، ونشأت سحابة أبرقت وأرعدت وأطبقت عليهم ثلاثة أيام بلياليها ، تهيل عليهم الثلج هيلاً ، حتى امتلأت الأودية ، فصاح اسفنديار ... وقال : قد اشتد علينا الأمر وليس ينفعنا الآن رجولة ولا قوة ، والرأى أن نلجأ إلى من لا ملجأ منه إلا إليه ، فإنه الكاشف للضر والقادر عليه ، فاجتمعوا ورفعوا أيديهم وتضرعوا إلى الله تعالى مبتهلين ، ودعوه دعوة الصادقين ، فسكنت الهواء وانجلت السماء » .

* * *

والأصل الثانى من أصول الفلسفة الأدبية « لكتاب الملوك » القيام بالواجب ، والشاهنامه يعنى بهذا الأصل الذى هو قوام الحياة اليومية أتم عناية . فأعظم ملوك الشاهنامه أقومهم بواجبه ، وواجب الملك فى رعيته العدل ، والحلم ، والسخاء ، وترك الاستبداد . فإذا ما حاد الملك عن هذا السنن « جفت الألبان فى الضروع ، ولم يأرج المسك فى النوافج ، وشاع الزور والرياء فى الخلق ، وصارت القلوب قاسية كالحجر الصلد ، وعاثت الذئاب وضريت بالإنس ، وتخوف ذوو العقول من ذوى الغواية والجهل » . وعهد كسرى أنوشروان لابنه هرمز حافل بتلك الآداب السلطانية التى تنص صراحة على ما يجب على الملك نحو نفسه ونحو رعيته .

وبطولة أبطال الشاهنامه تستند إلى شعورهم القوى بالواجب . انظر كيف لبى رستم طلب (جيو) بإنقاذ ابنه (بيژن) وكان أسيراً مغلولا فى مطمورة مظلمة بأرض طولان . وقوله له (لا تهتم فإنى لا أحط السرج عن الرخس حتى آخذ بيد بيژن وأضعها فى يدك) وانظر خطاب جيو للملك كيخسرو (أيها الملك ! إن أمى ما ولدتنى إلا لطاعتك ، وتحمل المكاره فيما هو سبب راحتك . وهأنذا أشد وسطى فى امتثال أمرك ، ولا أسلك إلا سبيل خدمتك ولو أمطر الهواء على ناراً ، وتحولت الأشفار فى عينى شفاراً) وقول (اكشنهم) لبيژن وهو يجود بروحه (أيها الحبيب الناصح لا تحمل على نفسك كل هذا ، فإنه أشد على مما أنا فيه . واستر جراح رأسى بأنترك ، واجتهد فى حملى إلى حضرة الملك ، فإن قصارى بغيتى ، وغاية أمنيتى ، أن أتزود منه بنظرة ، وأقر عينى بطلعته ولو لحظة ، وإذا مت بعد ذلك مت وليس فى قلبى حسرة ، فإنى لم أولد إلا للموت ، ومن أدرك أمله فكأنه لم يمت ، وأيضاً تجتهد فلعلك تستطيع أن تحمل هذين العدوين اللذين أهلكهما الله على يدى إلى العسكر ، وإن لم تقدر فاحمل رءوسهما وعدتهما حتى تعرضها على الملك ، ليعلم أنى ما هلكت فى غير شىء) .

وروعة شخصية المرأة فى الشاهنامه تقوم على وفور حظها من الأنوثة والوفاء لزوجها ، يدل على ذلك نواح (تهمينة) على ابنها (سهراب) ووفاء (منيژة) لزوجها (بيژن) فى محنته مع أن أباها كان المسلط على عذابه .

وكما تفرض الشاهنامه القيام بالواجب من حيث هو فضيلة أساسية للحياة الفاضلة فإنها تدل بالأمثلة المحسوسة والوقائع المادية كيف يؤدى الواجب . فينبغى أن تؤدى الواجب محلى بأحسن آداب السلوك من جد ورفق ، وسهولة خلق وضبط نفس ، ورقة شمائل ، ولا أدل على ذلك من الحوار الذى دار بين بطلى الشاهنامه (رستم) و (أسفنديار) عند ما اشتد بينهما اللجاج وحمى الخصام ، فهو حوار ينم عن نبل خلق وسراوة نفس . وقد بلغ من دقة حس الفردوسى ورقة قلبه أن أوجب علينا الوفاء لمن أحسن إلينا ولو كان حيواناً أعجم . أنظر بأى قلب وأية شمائل يخاطب رستم الغزالة التى كان طرده لها سبباً فى وقوعه على عين ماء روى منها بعد أن كاد يهلك عطشاً ، فهو يخاطبها بقوله : (لا زلت يا غزالة الريف ، تفيئين إلى

الظل الوريف ، وتكرعين فى الزلال المعين ، وتتقلبين بين الورد والياسمين ، وأيما قوس راعك أنباضه ، فلا زالت متقطعة أوتاره ، فإنك سددت رمقى وشفيت غلتى » .

* * *

والأصل الثالث من أصول فلسفة الشاهنامه الأدبية طهارة القلب ؛ والفردوسى يحثنا فى غير موضع من كتابه على أن تنقى عن قلوبنا أدواء الحقد والحسد والضغينة . يقول رستم لاسفنديار : « ... وطهر قلبك بفضيلة الرجولة من دنس الداء الدفين » والفردوسى لا يكتفى بأن يندب قارئه إلى تطهير قلبه ، بل لقد يتولى هو بنفسه ذلك مستخدماً طريقة العرض الدرامى التى نلحظها فى أكبر الملاحم والقصص . نلحظها فى آثار هوميروس ، وسفوكليس ، واسخيلوس ، وشكسبير ، وملتن ، ودستويفسكى . وذلك أن يعمد الشاعر إلى حادث رائع مفظع ، فيعرضه عرضاً فنياً قوياً ، فيهز بذلك قلب القارىء ويمخضه ، فيكون ذلك منه بمنزلة الدواء المر يتجرعه المريض على مضض ، ولكنه تكون فيه سلامته من علته ؛ وقد بلغ الفردوسى بسلوك هذه الطريقة أسمى غايات الفن ، وأتى من رائع القصص ما يشغف القلب حسنه ، ويسحر اللب بيانه . انظر كيف يعرض قصة قتل رستم ابنه سهراب على غير علم منه بأنه ابنه ؟ يقول الشاهنامه : « ... ثم تناوشا الحرب ، وتطاعنا حتى انتثرت كعوب رماحهما ، فاستل كل واحد منهما سيفه ، وتضاربا ، وكأن النار تمطر من سيوفهما ، ولم يزالا حتى تكسرت سيوفهما ، فمدا أيديهما إلى عموديهما ، ورفعاهما ، وجعلا يتضاربان ويتقارعان حتى تمزقت الأدراع الموضونة على أكتافهما ، وتقطعت التجافيف على خيلهما ، فضعفا ، ووقفت دوابهما ، وبقيا من العرق غريقين ، ومن العطش محترقين ، فوقف الأب من جانب ، والابن من جانب آخر ، ينظر أحدهما إلى الآخر . فيا عجبا ! كيف انسدت دونهما أبواب التعارف ، ولم تتحرك بينهما عروق التناسب ؟ والإبل مع غلظ أكبادها ، تعطف على أولادها ، والطيور فى جو السماء ، والحيتان فى قعر الماء لا تنكر أولادها وأفراخها ! والإنسان من فرط حرصه تخفى عليه فلذة كبده ويستنكر قرة عينه ولا ينزع إلى ولده ! »

ثم يقول رستم : « لم أر قط قتالاً بهذه الصفة ، ولقد انقطع رجائى من رجولتى » فإذا

ما لستأنفا القتال ، قال سهراب لرستم وهو يجهل أنه أبوه : « إنى أرى أن نخلع الجوشن ، ونطرح السيف ، ونكف عن القتال ، فإن قلبى يميل كل الميل إليك ، وإن وجهى ليغمره الحياء منك » . ولكن يخيب رجاؤه ، ويعود الأب وابنه إلى المبارزة ، فيتغلب الأب ويصرع ابنه ، ويجثم على صدره ، ثم يذبحه ذبحاً ، ثم يتبين له ، وقد سبق السيف العذل ، أنه إنما ذبح ابنه ، فيشق جيبه ، ويضرب صدره ، وينتف شعره ، ويندب ولده ، ويحاول استنقاذه من براثن الموت فيعجزه ذلك ؛ ويموت سهراب ، فتتقد لوعة الحزن فى صدر رستم ، ويصيح من فرط العذاب : « من الذى أصيب بمثل ما به أصبت ؟ ومن الذى فجع بمثل ما به فجعت ؟ قتلت ولدى حين شاب رأسى وانقضى عمرى ! » .

إن القارئ ليتابع مشاهد هذه القصة وقلبه يتوثب فى صدره فرقاً وذعراً . فإذا بلغ الكارثة الأخيرة فقد لا يملك دمعه أسى وحزناً . وهذا الذى قصد إليه الشاعر رغبة منه فى أن يمكن فيه لعاطفتى الحنو والرحمة .

ولا يقف الفردوسى عند هذا الحد من تطهير قلب قارئه ، بل يجتهد فى أن يروض من نفسه ويكبح من جماحها بأن يجلو لها تقلب هذه الدنيا ، وتصرف أحوالها بالناس تصرفاً قد يسوء ضعاف النفوس ، ولكنه لا ينال من ذوى النفوس القوية منالاً ، وهو على عادته يعمد إلى أقوى شخصياته فيجعلها مناط فلسفته رامياً بذلك إلى أن نأخذ الدنيا كما هى فنفرح بها إذا أقبلت فى غير اغترار بها ، ولا نأسى عليها إذا هى أدبرت . وإن فلسفته من هذه الناحية لترجح فلسفة الرواقيين الذين يريدون أن نتجرد من العاطفة جملة ، فلا نفرح ولا نحزن ، ولا نغضب ولا نعتب . انظر كيف يصف الشاعر مصير الملك أفراسياب عندما قلب الزمان له ظهر المجن ، وتجهم له وجه القدر ، فآل أمره إلى أن وقع أسيراً فى يد رجل عابد فشد وثاقه واضطره إلى أن يخاطبه بقوله : « أيها العابد ! ما تريد من رجل اختفى فى مغارة ضيقة ؟ » فلما عنفه العابد على ما احتقب من أوزار قال : « بهذا جرت على أقلام قضاء الله فى الأزل ، ومن المعصوم فى هذه الدنيا الغدارة من الزلل ؟ » . ثم إن مصير الملك دارا واغتيال عبديه له تقربا بدمه إلى الإسكندر ليجرى مجرى حديث أفراسياب من حيث الدلالة على تقلب الدنيا ، وهى ترينا الفردوسى جبريا يرى أن الإنسان لا يملك لنفسه مع القدر نفعاً ولا ضراً .

***

وإذا كان ذلك دأب الدنيا ، فخليق بالعاقل أن يرفضها ويزهد فيها . والزهد فى الدنيا هو الأصل الرابع من أصول فلسفة الشاهنامه الأخلاقية ، والفردوسى لا يألو جهداً فى صرف قلوبنا عن أن تفتتن بالدنيا ولكن فى غير إخلال بالواجب الذى يفرضه علينا وجودنا فيها . انظر إلى تضوير الحال المعنوية للملك كيخسرو عندما انقبضت نفسه ، وأزمع التخلى عن الملك ، والذهاب فى الأرض ، فقد عهد إلى ابنه ، وودع أكابر الدولة « ثم سار ... وصحبه رؤوس الإيرانيين ... إلى أن صعد إلى جبل ، فأقاموا عليه أسبوعاً ، وخرج فى أثره نساء الإيرانيين ورجالها زهاء مائة ألف نفس ، يبكون ويضجون حتى ظن بصياحهم وعويلهم السهل والجبل . ثم بعد أسبوع أشار الملك على الأكابر والسادات بالانصراف من ذلك المكان وقال : إن أمامنا طريقاً لا ماء فيه ولا عشب ، فانصرف دستان ، ورستم وجودرز ، ولم ينصرف عنه الباقون ، فسار الملك ، وساروا معه حتى وصلوا إلى ماء ، فنزلوا هناك ، وقال لهم الملك : إذا طلعت الشمس غداً حان وقت المفارقة ، فباتوا ليلتهم عند العين . ولما كان الثلث الأخير من الليل ، قام الملك ودخل العين ، واغتسل ثم ودعهم وقال : « إن الثلج غداً يسد عليكم الطريق فلا تهتدون إلى الرجوع إلى إيران ، ولما طلعت الشمس ركب الملك ، وغاب عن أعينهم » .

وحديث الإسكندر الملك الشاب الفاتح الطموح مع أهل مدينة البراهمة المنقطعين عن الدنيا ، والراضين منها بأيسر أمرها يرى إلى أى حد يذهب الفردوسى فى تقرير فلسفته القائمة على العزوف عن الدنيا وعدم الركون إليها .

***

وبعد ، فأرجو أن أكون قد بينت للقارئ السبب فى تقدير غير الفرس للفردوسى والشاهنامه ، وأختم هذا البحث بأن أنبه على أن مظهر هذا التقدير قديم ، فقد ترجم الفتح بن على البندارى الشاهنامه إلى العربية الفصحى فى أوائل القرن السابع الهجرى[1] ، وأن الشاهنامه قد نقل إلى أشهر اللغات الأوربية الحديثة ، وأن بعض هذه التراجم فى غاية الدقة والعناية والإتقان .

---

(١) وقد نشر زميلى الدكتور عبد الوهاب عزام هذه الترجمة نشراً علمياً محققاً ومن هذه الترجمة اقتبسنا النصوص الواردة فى هذا المقال .

سيرة أحمد بن طولون

لأبي محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي[1]

هذا عنوان سفر جليل لمؤرخ مصري من أهل القرن الرابع الهجري هو أبو عبد الله ابن محمد المديني البلوي ، وضعه في سيرة رجل من أقوى الشخصيات التاريخية الإسلامية هو الأمير أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية المشهورة . وقد انتقلت مخطوطة هذا الكتاب من مصر إلى الشام على ما يظهر أيام كانت مصر والشام تؤلفان ملكا واحداً ووطناً واحداً . ثم استقرت في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، إلى أن قيض الله لها المؤرخ البحاثة الأستاذ محمد كرد علي بك فنفض عنها غبار الخمول والنسيان ، وأدرك من فوره قيمتها العلمية ، فعكف على إعدادها للنشر ، ثم عرضها الناس في معرض علي قشيب . فكان ذلك الجهد منه وهو في شيخوخته المباركة خير هدية يقدمها إلى مصر التي رعته زمناً في صباه وصدر شبابه ، كما كان مثلا جميلا من أمثلة الوفاء وتأدية الأمانات إلى أهلها . وفيه فوق كل ذلك إشارة لطيفة إلى اشتباك العلاقة الثقافية بين مصر والشام من عهد بعيد .

ظهر هذا الكتاب القيم ، والحرب الحاضرة قد بدت أشراطها ، ودوت في الخافقين نذرها ، فلم يحتفل الأدباء والمؤرخون لظهوره كما كان ينبغي ، وشغلوا عنه بما شغل به الناس عامة من أهوال الحرب وخطوبها . فكان ذلك الإهمال الذي لم يتعمدوه من بعض ما باءت به الحرب الحاضرة من إثم ، واحتقبت من أوزار .

***

وتعتبر سيرة أحمد بن طولون البلوي بحق نصا من النصوص الأساسية الخاصة بالدولة الطولونية تضم إلى المصادر القليلة التي وصلتنا في هذا الموضوع الهام ونعني بها سيرة أحمد ابن طولون لابن الداية المتوفى سنة ٣٣٤ ، وقد وصلتنا ملخصة بقلم ابن سعيد المغربي ،

(١) نشر في مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية في مايو سنة ١٩٤٣ .

وكتاب «المكافأة» لابن الداية كذلك، وكتاب ولاة مصر وقضاتها للكندى المتوفى سنة ٣٥٠، وأخبار سيبويه للمصرى لحسن بن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧، بل إن سيرة البلوى لتعد بقدمها وتفصيلها الوافى أهم مرجع لتاريخ الدولة الطولونية عرف حتى اليوم.

***

والكتاب كما نشره الأستاذ كرد على بك يشتمل على مدخل بقلم الأستاذ الناشر ضمنه الكلام على المؤلف وتأليفه، وعلى أصل المخطوط الذى طبع منه الكتاب، وعلى أحمد بن طولون كما صوره البلوى. ثم يلى ذلك متن الكتاب ويقع فى ٣٣٠ صفحة متوسطة تناولت سيرة ابن طولون من أول أمره إلى وفاته. ثم يلى المتن فهارس ضافية، وجدول تصحيحات لأخطاء وقعت فى الكتاب أثناء طبعه.

***

ومن يقرأ «سيرة أحمد بن طولون» البلوى قراءة بحث وتحقيق، تعرض له أمور هى محل النظر من غير نزاع. فأولا من هو البلوى الذى ينسب إليه وضع هذه السيرة؟ يخبرنا الأستاذ كرد على بك فى مقدمته مستنداً إلى ابن النديم والطوسى والذهبى وابن حجر أنه فقيه عربى الأصل محدث عاش فى أواسط القرن الرابع الهجرى، وأنه كان شيعيا إماميا، وربما كان إسمعيليا. وأن مؤرخى رجال الحديث من سنيين وشيعة يرمونه بالكذب ووضع الحديث. فإذا صح أنه شيعى فما الذى حدا به أيا كان مذهبه إلى أن يؤلف سيرة أمير تركى سنى متشدد فى سنيته؟ يذهب الأستاذ كرد على بك إلى أن ابن طولون ربما كان يسر عطفاً على الإسماعيلية سياسة منه واستظهاراً بهم على تشييد دولته، وأنه كان يكتم هذا العطف تقية منه، فأحب البلوى أن يجزيه عطفاً بعطف، فكتب سيرته. ونحن نخالف الأستاذ الجليل فيما ذهب إليه، فليس فى سيرة أحمد بن طولون ما يستفاد منه من قرب أو بعد أنه كان يميل إلى الشيعة، وخاصة الإسمعيلية، ويرغب فى اصطناعهم، بل إن فى سيرة البلوى نصوصاً صريحة فى شدة ابن طولون على العلويين والطالبيين. من ذلك قتله علويا اسمه بغا الكبير ثار عليه[1]. وتنكيله بابن الصوفى وهو طالبى بعث عليه ثورة كبيرة بالصعيد[2]. ويروى اليعقوبى أن ابن طولون أخرج الطالبيين من مصر إلى المدينة، ونكل

---

(١) السيرة ص ٦٢. (٢) السيرة ٦٢ — ٦٦.

بواحد منهم لأنه تخلف عن الخروج[1] كما يذكر الكندى أنه لما غضب أحمد بن طولون على أخيه موسى أمر هذا وكان بطرسوس بلبس البياض إعلاناً منه بميله إلى الشيعة[2] .

هذا عن دعوى عطف ابن طولون على الإسمعيلية . أما إسمعيلية البلوى ، فالأمر فيها أصبح واضحاً بعد أن بين السيد الزنجانى — وهو الحجة الثبت فى تاريخ التشيع — أن الأصول القديمة لم تشر إلى دعوته الإسمعيلية ، وأن صاحب الفهرست قد خلط بين الداعين إلى للمذهب الإسماعيلى والداعين إلى غيره من مذاهب الشيعة[3] . بقى أن يقال أن البلوى كان إمامىّ المذهب ، وهو ما ذهب إليه عالم آخر بتاريخ التشيع هو الأستاذ إيفانوف[4] . فإذا صح ذلك فلا جرم أن تشيعه لم يبعده كثيراً ولا سيما فى ذلك العصر عن هدى السنة والجماعة . ويمكن إذن أن نفهم إقدام البلوى على وضع سيرة أمير تركى سنى .

والحق أن البلوى إنما صنف سيرته لا ليرضى نزعة مذهبية خاصة ، ولكن ليرضى قبل كل شىء ميوله الأدبية ، فهو أديب بارع فوق كونه واعظا وفقيها وعالما كما وصفه ابن النديم . رأى فى سيرة أحمد بن طولون أوحد رجال العالم الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الثالث مجالا لقلمه وبيانه ، ورأى مادة البحث متوافرة له وفى متناول يده ، ورأى فى الوقت نفسه أن السيرة التى حررها ابن الداية معيبة من الوجهة الفنية ، فسمت به همة الأديب الممتاز إلى أن يكتب هذه السيرة على نحو أتمّ وأوفى وأجمل مما جاء فى سيرة ابن الداية . وقد صرح بغرضه هذا فى مقدمة السيرة حيث يقول :

« ... وأنك قرأت كتاب أحمد بن يوسف فلم يكن موقعه منك الغرض الذى إليه ذهبت ، ولا للمعنى الذى له نحوت ، وأنك تريد ما هو أكبر منه شرحا وأكمل وصفاً ، وأن أحمد بن يوسف كان يمر فى شرح قصة ثم يرجع إلى ما هو قبلها وأنه كان يخلط أخباره » إلى أن يقول : « وقلت ما هكذا أرّخ الناس الأخبار ، ولا عليه نظم الآثار . وقد امتثلت أمرك فيما أردت الخ »[5] .

* * *

(١) السيرة هامش ص ٦٣ .
(٢) الكندى فى هامش ص ٦٣ من السيرة .
(٣) السيرة ٣٦٥ — ٣٦٦ .
(٤) السيرة ص ٣٦٥ .
(٥) السيرة ص ٣١ — ٣٢ .

وثم مسألة أخرى ، وهي مدى العلاقة بين كتاب البلوى الذى نحن بصدده وملخص سيرة أحمد بن طولون لابن الداية كما هو وارد فى كتاب المغرب لابن سعيد وكما نشره المستشرق فولرز سنة ١٨٩٤ ، أن التشابه بين الكتابين قوى جداً غير أن كتاب ابن الداية موجز ، وكتاب البلوى مفصل ويحوى بعض زيادات لم ترد فى كتاب ابن الداية .

يعلل الأستاذ كرد على بك هذا التشابه العجيب بأن البلوي سطا على مطول ابن الداية (المفقود) ونقل فصوله بغير حساب . ويقول إن الطبيعة جازته على ذلك بأن قيضت له مؤلفاً آخر هو تقى الدين المقريزى فسطا على كتابه . ولعمري قد لا يكون عجيبا كل العجب أن يسطو مؤلف من القرن التاسع على مؤلف من أهل القرن الرابع ، إنما العجيب حقا أن يسطو البلوي وهو من أهل القرن الرابع على ابن الداية وهو معاصر له ، ولعل الرجلين تلاقيا وعرف كلاهما الآخر .

أما نحن فنري لذلك التشابه العجيب سببا غير الذي يراه الأستاذ كرد على بك ، وذلك أن كلا المؤرخين فيما نعتقد استمد كتابه من نفس المصدر الذي استمد منه الآخر . ذلك المصدر هو ديوان الإنشاء المصري .

لقد جعل أحمد بن طولون للرسائل ديوانا تحتم فيه الكتب بعد أن يحررها الكتّاب ويعرضوها عليه[1] وأغلب الظن أن ديوان الإنشاء كانت تحفظ فيه سوى الرسائل الرسمية محاضر مجالس ابن طولون بعد عرضها عليه كذلك .

يدل على ذلك قوله لكاتب استكتبه : « إنى جعلتك صاحب خير على ألفاظى فانظر كل ما يجرى بينى و بين من يخاطبنى من كان من الناس من صغير وكبير ، فاكتب خطابه وجوابى ، وخطابى إياه وجوابه لى ، واعرضه علىّ بالعشىّ »[2] .

وربما كانت تحفظ فى ديوان الإنشاء رقاع التقارير التى كان يرفعها إلى الأمير كتّابه وغلمانه وأصحاب أخباره . من ذلك ما حدّث به نسيم الخادم قال : « كان أصحاب الأخبار يرفعون إلى مولاى رقاعا فى أقوام تكون سببا لاصطناعهم وقتلهم »[3] . ومن ذلك ما حدّث

---

(١) السيرة ص ١١٢ .

(٢) السيرة ص ١٠٠ — ٢٠١ ، ص ١١١ — ١١٢ .

(٣) « ص ٢٢٤ .

به أحمد بن محمد الكاتب من أن أحمد بن طولون تدبر مرة جلوس مجلس جماعة من المنحرفين عن الأمير وتدوين كل ما يجرى منهم ، ففعل ما أمره ، ورفع إليه تقريراً بكل ما حدث[1] .

والدليل على أن سجلات ديوان الإنشاء المصرى هى المنهل الأول الذى نهل منه ابن الداية فى كتابيه « سيرة أحمد بن طولون » و « المكافأة » ، ونهل منه البلوى فى « سيرة أحمد بن طولون » أن الكتب المذكورة تحتوى على نصوص مراسلات رسمية جرت بين ابن طولون والموفق ، وبينه وبين ابنه العباس الثائر عليه ، وأن تلك الكتب تتشابه فى الأخبار المشتركة بينها تشابها عجيبا فى اللفظ والمعنى والأسلوب ، وأنها تتردد فيها نغمة واحدة هى نغمة الإشادة بمحامد ابن طولون ومفاخره ، والتماس المعاذير لأفعاله التى كانت تصدر عن حدة مزاج تبلغ أحيانا مبلغ القسوة والوحشية .

* * *

نكتفى ببيان المسألتين اللتين أثارتهما قراءتنا مقدمة الكتاب . ثم ننبه بعد ذلك على هنات وقعت فى متن الكتاب وحواشيه ، ولم نجد لها تصحيحا فى جدول التصحيحات الواردة فى آخر الكتاب . من ذلك « الطفرغر » فى ص ٣٣ براء مهملة مكررة . صوابها « الطغزغز » بزاى معجمة مكررة[2] . وفى ص ٨٩ « محمد بن على بن غنم الأرمنى » صوابه « .. بن يحيى الأرمنى »[3] . وقول المتن فى ص ٩٨ « وبلغ لهم كل ما أحبوه » بتعدية الفعل باللام . وقد تكررت هذه التعدية فى ص ١١٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ والفصيح تعديته بالباء كما ورد فى ص ٢٧٦ وجاء فى المتن فى ص ١٤٧ « منديل العمل » وعلق الشارح على ذلك فى هامش الصفحة بقوله « الأقرب بمنديل النمر ، والنمر ريح اللحم » وعبارة المتن هى الصحيحة ومعناها المنديل الذى كانت تصر فيه الأوراق الخاصة بالأموال وحساباتها . وقد ورد لفظ « العمل » بمعنى « كشف الحساب » فى مواضع عدة من الكتاب . من ذلك قوله فى ص ١٦٣ « قال : فأحضرنا بها عملا مفصلا ... فقال ما عندى لها عمل بتفصيل ...

(١) السيرة ص ٢٢٤ — ٢٢٩ .
(٢) انظر كتاب صورة الأرض لابن حوقل ص ١٤ .
(٣) سيرة ابن الداية ص ٢٤ والطبرى طبع أوروبا المجموعة الثالثة ص ١٤١٤ .

وأخرج من خفه عملا وناوله الأمير وقال له ... هذه نسخة ما حملَ إلى بيت المال عن هذه الضياع » ولفظ « القصيصيين » و « القصيص » الواردة فى متن ص ٢٠٦ وهامشها بالقاف المثناة صوابه بالفاء للوحدة ، و بنو الفصيص التنوخيون ورد ذكرهم فى شعر المتنبى وأخبار سيبويه المصرى وشعر أبى العلاء المعرى[١] .

وجاء فى المتن فى ص ١٧٥ « فلما توسطنا الطريق قام إلى أصحاب الأرباع فأريتهم كتاب لؤلؤ وعرفتهم أنى ذاهب إلى الأمير » وفسر لفظ « الأرباع » فى الهامش « بالمنازل » وهو تفسير لايناسب السياق . والأرباع هنا أرباع جند الشرطة أو الجيش أى أقسامهم . وقد كان جند الكوفة زمن بنى أمية مقسمين أرباعا وجند البصرة أخماسا[٢] وأصحاب الأرباع والأخماس رؤساؤها .

***

وسيرة أحمد بن طولون للبلوى نص تاريخى هام كما قدمنا ، استمد من مصادر قديمة استمداداً مباشراً . فهو من ناحية يتتبع سيرة مؤسس الدولة الطولونية من بدايتها إلى نهايتها . فيرينا ابتداء أمره وتنقله فى معارج الرقى إلى أن بلغ غاية قوته ، ثم اضمحلال أمره وأفول نجمه . وهو فى خلال ذلك يشير إلى مواطن القوة والضعف من تلك الشخصية الجبارة . فبينا يصور لنا مضاء عزيمته وقوة إرادته واستبداده واقتداره العجيب على العمل المتصل وتعهد كل صغير وكبير من شئون دولته ، إذا به يلمح إلى أن إفراطه فى ذلك كله كان السبب الأول فى فساد أمره وتصدع سلطانه ، ولا يعدم من حين لآخر أن يصور لنا ناحيته الإنسانية . فيذكر لنا أنه كان جميل الصوت محباً لسماع الغناء ، جم الإحسان والتصدق ، وأنه يرتاح للجواب المقنع والنكتة اللطيفة ، وأنه فى الجملة أحياناً كان ينسلخ من جلد المارد الجبار ويلبس إهاب الإنسان الوادع اللطيف .

والكتاب من ناحية أخرى يلقى ضوءا على حياة مصر العامة فى أخريات القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع . فيستطيع من يقرؤه أن يتبين الشىء الكثير عن نظمها الإدارية

(١) انظر الرائية التى رثى بها المتنبى محمد بن إسحق التنوخى وأخبار سيبويه ص ٤٧ وسقط الزند ص ٣٣ — ٣٤ من طبعة بولاق .

(٢) الطبرى طبع أوروبا : القسم الثانى ص ١٣١ ، ص ٢٤٠ .

من خراج ومعاون وقضاء وبريد وجاسوسية . كما يتبين أحوال الجماهير وأرباب الحرف والصناعات . وأبلغ من ذلك كله أن الكتاب يصور روح الشعب المصرى المرح الذى لم يسجبه أن ينتزعه متجبر يأخذ بمخنقه مهما يكن عادلا وخيرا . يصور الكتاب ذلك الروح من طريق كلامه على الثورة التى بعثها نفر من كبار المصريين بزعامة العباس بن أحمد بن طولون والتى أيدتها الخلافة العباسية من وراء وراء .

والكتاب من ناحية ثالثة يلقى ضوءا على الدبلوماسية الإسلامية فى الحقبة المذكورة، فهو يبين حال الخلافة العباسية لذلك العهد وانقسام الدولة الإسلامية إلى شرقية وغربية وأثر ذلك ، كما يوضح علاقة أقطار الشرق الأدنى وعمالها الأقوياء بالسلطة المركزية فى العراق .

***

والكتاب يعد تحفة أدبية رائعة يجد فيه مؤرخو النثر الفنى ومن يدرسون الألفاظ والأساليب العربية مادة غزيرة جديرة بالبحث والدرس ؟

من مواقف البطولة الإسلامية

في القتال*

إن من يطلع على تاريخ الحروب التي وقعت بين الفرس والروم في أواخر القرن السادس الميلادي وأوائل السابع ، يرى إلى أي حد كانت هذه الحروب راجعة إلى الشهوات والأهواء الشخصية ، شهوات الأكاسرة تارة والقياصرة أخرى ، وإلى أي حد كان يحدوها حب المغنم والسلب والنهب ، وإلى أي حد كان يذكي أوارها حب التشفي والانتقام ، وإلى أي حد كان يصاحبها التخريب والتدمير ، ونقض العهود والمواثيق . فالشهوة ، والغنيمة ، والانتقام ، والتخريب ، والغدر ، كن أهداف تلك الحروب التي كادت تترك ربوع للشرق والمغرب خرابا يبابا .

والعجب العاجب أن هذه التقاليد المشئومة استمرت في الغرب الذي يدين بالمسيحية السمحة طوال العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث ، ولعله لم يخل منها حتى يومنا هذا . ولنمثل لذلك بالحروب الصليبية التي ارتكب فيها الصليبيون في مدن الشام عامة وبيت المقدس خاصة من أفاعيل تقشعر لهولها الأبدان ، وبما صنعه الملكان الكاثوليكيان الأسبانيان فردنند وإيزابلا ، بمسلمي غرناطة غداة استيلائهم على عاصمتهم صلحا ، من نقض العهود المؤكدة ، والمواثيق المغلظة . وبالحروب المعروفة في التاريخ الأوربي الحديث في القرنين السادس عشر والسابع عشر بالحروب الدينية ، وأخيراً بما ارتكب في الحرب العالمية الأخيرة من تخريب وتدمير كان ختامه إلقاء القنابل الذرية على المدن اليابانية ، مما أودى بالآلاف المؤلفة من اليابانيين ، غدراً وبغياً وعدواناً .

ولنضرب صفحاً عن وصف الحرب في العصور الوسطى عند القبائل الجرمانية التي قضت على الدولة الرومانية ، وغمرت أوربا في ظلام دامس طول ألف سنة تقريبا ، وعند التتر الذين قضوا على الدولة العباسية ودكوا صرح الحضارة الإسلامية في الشرق ، فقد يعتذر

(*) مجلة الأزهر ، العدد الأول — ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥٢ .

بين هؤلاء وهؤلاء بأنهم همج ليست لهم حضارة الفرس ولا نصرانية الروم ولا مدنية أوربا وأمريكا في القرن العشرين .

ولكن كم لحوادث التاريخ وتصاريفها من أسرار يحرص العلماء ولا يزالون يحرصون على اكتناهها والوقوف عليها ! وكم لله من لطف خفي حارت في كنهه الأفهام ! ففي وسط هذه الغياهب المدلهمة والظلمات الحالكة ، تبزغ شمس الدعوة الإسلامية ، فإذا الحرب المشروعة هي المنزهة عن شهوة السلطان ، وحب المغنم ، والسمعة ، والمبرأة من عوامل الغدر والخيانة والعدوان ، وإذا بها نظام من نظم العمران ، به يكف الظلم ويقمع الطغيان ، ويستأصل الفساد . وقد عبّر شوقي عن كل ذلك في قوله مخاطبا الرسول العربي :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء

وإذا بهذه الحرب المشروعة تسمى جهاداً في سبيل الله ، أي كفاحا لإعلاء كلمته بكل ما تشتمل عليه هذه العبارة من معاني العدالة والإصلاح في الأرض وتحقيق المثل العليا . وإذا الجهاد أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله بعد الإيمان به تعالى وبعد برّ الوالدين ، وإذا المجاهد له إحدى الحسنيين إما الظفر وإما الشهادة . « ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

كانت هذه المبادئ أساسا جوهريا من أسس الدعوة الإسلامية ، اعتنقها المسلمون الأولون وعملوا بها في حروبهم ، فلا غرو أن حفلت هذه الحروب بذكر الأبطال ومواقف البطولة الصحيحة في القتال . ونحن نورد فيما يلي ، على سبيل المثال لا الحصر ، بعضا من صور هذه البطولة ، سواء أكانت بطولة آحاد أم بطولة جيوش وجماعات .

١ — أبطال :

يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر فحرض الناس على القتال ، وقال : « والذي نفسي بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » . فقال عمير بن حمام من بني مسلمة ، وفي يده تمرات يأكلهن : « بخ ! بخ ! ما بقي بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء القوم ! » ، ثم قذف بالتمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

ويروى أنه عليه السلام يوم أحد أخذ سيفاً فهزه وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه عمر بن الخطاب فقال : أنا آخذه بحقه ، فأعرض عنه . ثم هزه الثانيـة وقال : من يأخذ هـذا السيف بحقه ؟ فقام إليه الزبير بن العوام وقال : أنا آخذه بحقه ، فأعرض عنه ؛ فوجدا فى أنفسهما . ثم عرضه الثالثة وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه أبو دجانة ، فقال وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تضرب فى العدوّ حتى ينثنى ! فأخذه منه ، وأعلم نفسه بعصابة حمراء ومشى إلى الحرب ، وجعل يتبختر بين الصفين ، فقال الرسول « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن » ! ودخل أبو دجانة فى الحرب مبتدئاً بالقتال ، فأبلى وأنكى .

ومما استدل به الفقهاء على جواز المبارزة مع التغرير بالنفس ما حدث فى حرب الخندق إذ برز عمرو بن عبدود فارس قريش وتخطها الخنديذ ، فدعا إلى البراز أول يوم ، فلم يجبه أحد . ثم دعا إلى البراز فى اليوم الثانى ، فلم يجبه أحد . ثم دعا إلى البراز فى اليوم الثالث ، وجعل يعير المسلمين إحجامهم عن مبارزته . فقام على بن أبى طالب فاستأذن رسول الله فى المبارزة ، فأذن له على ضنه به ، وقال « اخرج يا على فى حفظ الله وعياذه ! » . فخرج فتجاولا وثارت عجاجة أخفتهما عن الأبصار ، ثم انجلت عنهما وعلى يمسح سيفه بثوب عمرو وهو قتيل .

٢ — العفو عند المقدرة :

لما نقضت قريش هدنة الحديبية التى كانت بينها وبين الرسول ، عزم الرسول على غزوها وفتح مكة ، وذلك فى رمضان سنة ٨ فخرج من المدينة فى عشرة آلاف وبغتَ قريشاً على غير استعداد ، فلم يسع سادانها وكبراءها إلا أن يبادروا إلى أخذ الأمان لأنفسهم ولبلدهم ، وقد أعطاهم الرسول هذا الأمان بعد أن أسلموا ونهى الجيش عن أن يقاتل إلا من قاتله ، وقال فى تأمين أهل مكة : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » ودخل الرسول وجيشه مكة من أقطارها فلم يقع قتال يذكر ، واجتمعت قريش إليه عند الكعبة معلنة إسلامها ومبايعتها ، فخطبهم عليه السلام فقال « يامعشر قريش ماذا ترون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : « خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ! » فقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ! » هكذا عامل الرسول هذه القبيلة التي كذبته ، وآذته ، وأخرجته وأصحابه ، وناوأته أكثر من عشرين سنة ! فضرب بذلك أروع مثل للحلم والعفو عند المقدرة .

٣ — طالب الشهادة فلم يعطها

كان زيد أخو عمر بن الخطاب ممن قتل في وقعة اليمامة ، إحدى وقائع حرب الردة ، وذلك سنة ١١ فلما رجع الناس قال عمر لابنه عبد الله ، وكان معهم : « ألا هلكت قبل زيد ؟ هلك زيد وأنت حي ! ألا واريت وجهك عني ؟ فقال عبد الله : « سأل زيد الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق إلي فلم أعطها ! » .

٤ — لا نامت أعين الجبناء :

لا شك أن خالد بن الوليد أعظم قائد في الإسلام ومن أعظم قواد العالم على الإطلاق . ولقد سماه الرسول سيفا من سيوف الله ، وكفى بذلك شرفا له وتنويها بقدره . ظهرت عبقريته في وقائع مؤتة والردة وفتوح العراق والشام . ولكن بطولته تظهر فوق ذلك في تواضعه ، فعندما عزله الخليفة عمر بن الخطاب عن التقدم على جيوش الشام لمصلحة ارتآها ، نزل على أمر الخليفة ، وعمل راضيا تحت إمرة أبي عبيدة . وهي تتجلى بوجه أخص في العبرة التي استخلصها من تجاربه وعبر عنها في ألفاظ قلائل قالها عندما حضرته الوفاة ، قال : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية . وهأنذا أموت كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء » .

٥ — قائد محبوب :

كان للمثنى بن حارثة الشيباني يقاتل العجم بالعراق على شاطئ الفرات ، فاشتبك مع الفرس في وقعة كبيرة تعرف بوقعة البويب وذلك سنة ١٣ هـ . وكان قد انضم إليه قبيل الوقعة جمع من نصارى تغلب حمية لصلة العروبة . وإلى القارئ ما تصف به الرواية هذا القائد وجيشه في ذلك اليوم : « وأقبل الفرس يقودهم قائدهم مهران في ثلاثة صفوف ومع كل صف

فول ولم نجبل ، فقال المثنى للمسلمين : « إن الذى تسمعون فشل ، فالزموا الصمت ! »
وطوّف المثنى فى صفوفه يعهد إليهم ، وهو على فرسه الشموس وكان لايركبه إلا لقتال ،
فوقف على الرايات يحرضهم ويهزم بأحسن ما فيهم ، ولكلهم يقول : « إنى لأرجو ألا
يؤتى العرب من قبلكم اليوم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء إلا وهو يسرنى لعامتكم »
فيجيبونه بمثل ذلك . وأنصفهم من نفسه فى القول والفعل ، وخلط الناس فى المحبوب
والمكروه ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا فعلا . وقال : « إنى مكبر ثلاثا
فتهيأوا ، ثم احملوا فى الرابعة ! » فلما كبر أول تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم ، وركدت
خيلهم وحربهم مليا وزأى المثنى خللا فى صفوف بنى عجل ، فجعل يمد لحيته لما يرى منهم ،
وأرسل إليهم يقول : « الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم ! فقالوا :
نعم ! واعتدلوا . فضحك فرحا » .

فلما طال القتال واشتد ، قال المثنى لأنس بن هلال النمرى : « إنك امرؤ عربى ، وإن
لم تكن على ديننا ، فإذا حملت على مهران فاحمل معى ! فأجابه ، فحمل المثنى على قلب
الجيش الفارسى فأزاله ثم أباده ، وقتل مهران ، قتله غلام من تغلب نصرانى . فلما رأت ذلك
مجنبات المسلمين حملوا على مجنبات الفرس ، وجعل المثنى والمسلمون فى القلب يدعون لهم
بالنصر ويرسل إليهم من يذمرهم ويقول لهم : « عاداتكم فى أمثالهم ! انصروا الله ينصركم ! »
حتى هزموا الفرس .

ومات أناس من الجرحى ، منهم مسعود اخو المثنى فصلى عليهم المثنى ، وقال : « والله
إنه ليهون وجدى عليهم أن شهدوا البويب وأقدموا وصبروا لم يجزعوا ولم ينكلوا » .

٦ — العفو عند المقدرة أيضًا :

من أفظع حوادث الحروب وأشنعها ما وقع من الصليبيين فى البيت المقدس غداة استيلائهم
عليه فى سنة ٤٩٢ هـ . أجمعت على ذلك جميع المصادر الإسلامية والصليبية على السواء .
فلنورد للقارئ مجملا لما حدث عند ما استرد صلاح الدين الأيوبى تلك المدينة من الصليبيين
فى سنة ٥٨٣ هـ .

فبعد أن دحر صلاح الدين جيش الصليبيين فى وقعة حطين سار إلى عسقلان فافتتحها وأخذ يتأهب للزحف منها إلى بيت المقدس . وكان حريصاً على أن يجنب تلك المدينة ويلات الحرب والحصار ، فاستدعى وفداً من الصليبيين الذين كانوا بها وطلب إليهم تسليم تلك المدينة التى يقدسها الصليبيون والمسلمون ولكنهم صرحوا له بأنهم لن يسلموها طوعاً أبداً . عند ذلك أقسم لهم أنه لن يأخذها إلا بالسيف .

وتقدم صلاح الدين إلى المدينة وأخذ فى مهاجمتها ، ونقب أسوارها ، وأوشكت جنوده أن تقتحمها . فلما رأى الصليبيون ذلك أخذوا الأمير بليان لمفاوضة صلاح الدين — فطلب هذا الأمير أن يمنح السلطان بيت المقدس عفوه الذى منحه مدنا صليبية أخرى . فلم يجبه السلطان إلى ما طلب مُسْتَمْسِكاً بيمينه التى أقسمها . عند ذلك قال له بليان : إن فى المدينة ستين ألف مقاتل سيخرجون إليه بعد أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم ويدمروا كل ما يستطيعون تدميره ، ثم يقاتلونه حتى يقتلوا عن آخرهم . ولقد راع هذا التهديد صلاح الدين ، فاستشار من معه من الفقهاء فأفتوه بأن ما حدث من قتال حول المدينة كاف فى إبرار قسمه ، وأن فى وسعه أن يعتبر كل من فى المدينة من الصليبيين أسرى حرب ، له أن يفرض عليهم الفداء .

وقد أخذ صلاح الدين بهذا الرأى وتم الاتفاق على أن يكون الفداء عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل ديناراً واحداً ؛ وأن تكون المدة التى يؤدى فيها الفداء ويتم الجلاء أربعين يوما . فمن وجد فى المدينة بعدها كان ملكا مشتركا للسلطان .

وفتحت المدينة أبوابها للسلطان وجيشه وذلك فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكانت الليلة ليلة المعراج الشهيرة ، وهى مصادفة عجيبة ، وأقام صلاح الدين على الأبواب أمناء يتقاضون مال الفداء .

فخرج الأمير بليان ومعه سبعة آلاف فقير بعد أن أدى عنهم ثلاثين ألف دينار ، ثم تتابع خروج الصليبيين على الرسم المقرر ، ثم يأتى البطرك الكبير يجر من أموال الكنائس وتحفها وجواهرها ما لا يقدر بمال ، فلم يعرض صلاح الدين لشىء مما معه على الرغم من اعتراض أصحابه ، وأبى أن ينقض عهده ولم يأخذ منه غير الدنانير العشرة المقررة . وانقضت

الأربعون يوما ولا يزال فى المدينة ألوف كثيرة من فقراء الصليبيين لا يملكون فداء . يقول المؤرخ الصليبى « أرنول » — ولعله كان حاضراً ذلك اليوم المشهود — : « فتقدم العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين وقال : سيدى ! لقد أعنتك بحمد الله على فتح هذه البلاد وهذه المدينة وإنى أستوهبك ألفاً من أولئك الأرقاء . فأجابه السلطان إلى طلبه وعند ذلك أعتقهم العادل من فوره . ثم جاء بليان والبطرك وطلبا مثل الذى طلب العادل فوهبهم صلاح الدين ألف رقيق أطلقوا فى الحال . وأخيراً يلتفت صلاح الدين إلى أصحابه ويقول : « لقد أدى أخى صدقته ، وكذلك صنع بليان والبطرك ، وقد بقى أن أؤدى أنا صدقتى » . ثم إنه أمر رجالا من حرسه أن ينطلقوا فينادوا فى جميع شوارع المدينة أن كل عاجز عن دفع الفداء له أن يخرج وأنه حر لوجه الله تعالى . يقول أرنول : « وقد استغرق خروج هؤلاء نهاراً كاملا من لدن شروق الشمس إلى أن خيم الظلام » .

ثم يمضى المؤرخ المسيحى المذكور فيقول متحدثا عن أدب صلاح الدين ونبله ورقة قلبه : « إن نساء من نساء فرسان الصليبيين كن قد لجأن إلى بيت المقدس بعد أن قتل أو أسر أزواجهن وعائلوهن فى الحرب ؛ فاجتمعن بعد أن أدين الفداء وحضرن عند صلاح الدين باكيات معولات يشكون إليه سوء حالهن ، فما كان منه إلا أن أطلق لكل من لها زوج فى حبسه زوجها ، وأمر بمال من ماله الخاص لكل من لا عائل لها ، مما ألهج ألسنتهن بالشكر له والثناء عليه .

ويقول المؤرخ الإنجليزى لين بول : « لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة إلا أخذه بيت المقدس ، لكان ذلك كافيا فى عده أعظم الفاتحين فى عصره فروسية وأكبرهم قلبا ، [illegible] فى أى عصر من العصور » .

٧ — وا إسلاماه !

اجتاح التتار أقاليم الدولة العباسية الشرقية ودمروها تدميراً ، ثم دخل زعيمهم هولاكو بغداد فى سنة ٦٥٦ وقضى على الخلافة العباسية ثم اكتسحت جيوشه الشام وأصبحت على أبواب مصر . ولقد أرسل هولاكو إلى سلطان مصر إذ ذاك ، وهو الملك المظفر قطز ، كتابا ملأه تهديداً ووعيداً وطلب إليه فيه المبادرة إلى الخضوع له والاستسلام إليه . فثارت حمية

السلطان واستنفر الناس لجهاد التتار فتثاقلوا لما ثبت فى الأذهان إذ ذاك أن التتر لا يغلبون ولكن السلطان أعلن أنه سائر بنفسه للجهاد على أى حال وليصحبه من يشاء . عند ذلك نفر معه الأمراء بأجنادهم ، فسار بالجيش إلى فلسطين مقدما أمامه الأمير بيبرس ، وجرت بينه و بين التتار واقعة عظيمة عند عين جالوت ، وذلك فى رمضان سنة ٦٥٨ هـ .

يقول المقريزى فى وصف بلاء قطز و بيبرس والجيش المصرى فى ذلك اليوم العصيب :

« فلما كان يوم الجمعة خامس عشر من رمضان التقى الجمعان ؛ وفى قلوب المصريين وهم عظيم من التتر ، وذلك بعد طلوع الشمس ، وقد امتلأ الوادى وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء ، فتحيز التتر إلى الجبل ، فعند ما اصطدم العسكران اضطرب جناح السلطان وانتقض طرف منه ، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته : « وا إسلاماه ! » ، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة ، فأيده الله بنصره . وقتل كتبغا مقدم التتر ، وانهزم باقيهم ... وأبلى الأمير بيبرس أيضا بلاء حسنا بين يدى السلطان » ، « وسار العسكر فى أثر التتر إلى قرب بيسان ، فرجع التتر وصافوا مصافا ثانياً أعظم من الأول ، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم ، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالا شديداً ، فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم العسكر وهو يقول : « وا إسلاماه » ثلاث مرات « يا الله ! انصر عبدك قطز على التتار » فلما انكسر التتار الكسرة الثانية ، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم ركب ، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم .

تلك وقعة عين جالوت التى صد فيها الجيش المصرى سيل الغزو التترى الجارف ، واستنقذ بها الشام من أيدى التتار ، وزد عن مصر والمغرب الإسلامى كيدهم وجبروتهم ، وفوق ذلك فإنه فى ذلك اليوم وعلى غير علم منه وقى أوربا وحضارتها الناشئة دماراً محققا ، وذلك باعتراف مؤرخى أوربا أنفسهم .

* * *

و بعد ، فلعل القارىء يكون قد رأى من جميع النصوص المتقدمة أن الإسلام قد خفف من ويلات الحرب جهد الطاقة وأنه شرع لها منهاجا قاصداً وسن آداباً كريمة .

كتب الحسبة

وفائدتها فى وضع المعجمين الوسيط والكبير (*)

معنى الحسبة والاحتساب فى اللغة العد والحساب . ويجىء الاحتساب بمعنى الإنكار لشىء ، ومنه قول الكميت :

بأى كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عارا على وتحسب

أما فى الشرع فقد عرف الإمام الماوردى الحسبة فى كتاب « الأحكام السلطانية بقوله (هى أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله) » واستدل على وجوبها بقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وأورد حجة الإسلام الغزالى فى كتاب « الإحياء لعلوم الدين » أدلة أخرى على وجوبها مستمدة من القرآن الكريم والآثار والأخبار . وعلى هذا الأساس اعتبر الفقهاء الحسبة وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو فرض على القائم بأمور الجماعة الإسلامية يتولاه بنفسه أو ينتدب له من يراه أهلا له ، وهو المسمى عندهم المحتسب . ويوجز ابن خلدون فى مقدمته عمل المحتسب فيقول : « ويتخذ الأعوان على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة ، مثل المنع من المضايقة فى الطرقات ، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى الحمل ، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها ، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الإبلاغ فى ضربهم للصبيان والمتعلمين » . ويفرق ابن خلدون بين اختصاص المحتسب واختصاص القاضى فيقول : « ولا يتوقف حكمه (أى المحتسب) على تنازع أو استعداء ، بل له النظر فى الحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه ، وليس له إمضاء الحكم فى الدعاوى مطلقا ، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعايش وغيرها وفى المكاييل والموازين . وله أيضا حمل المماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس

(*) بحث ألقى فى المؤتمر السنوى لمجمع فؤاد الأول للغة العربية فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ .

فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم » ثم يمضى فيقول « وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها وسهولة أغراضها فتدفع إلى صاحب هـذه الوظيفة ليقوم بها . فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء » ويلحظ ابن خلدون التطور الذى طرأ على نظام الحسبة مما اقتضى فصلها عن القضاء فيقول « وقد كانت فى كثير من الدول الإسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب ، والأمويين بالأندلس ، داخلة فى عموم ولاية القاضى ، يولى فيها باختياره ، ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة ، وصار نظره عاماً فى أمور السياسة ، اندرجت (أى الحسبة) فى وظائف الملك وأفردت بالولاية » .

وهـذه الإشارة الأخيرة من ابن خلدون طريفة وهامة وتحتاج إلى شىء من البيان والتوضيح . فمنذ ظهر منصب « أمير الأمراء » فى بغداد فى سنة ٢٩٦ على يد مؤنس الخادم أصبح صاحب هـذا اللقب أو ما يماثله من الألقاب عام النظر فى السياسة وشئون الحكم الفعلى ، و بقى للخلفاء الاسم والسلطة الروحية فحسب إذا صح هذا التعبير . وقد صادف هذا الانقسام قيام حال خطيرة فى الأمصار الإسلامية الكبرى من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، مثل غزنة ، و بغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وفاس ، ومراكش ، ومدن الأندلس إذ غدت هـذه المدن العظام مراكز صناعية وتجارية كبيرة ، حافلة بالأسواق ، زاخرة بطوائف التجار ، وأهل الحرف والصناعات ، كما غدت بيئات اجتماعية مختلطه تتزاحم فيها الأهواء ، والبدع ، والنحل ، والميول السياسية المتعارضة ، والمذاهب الدينية المختلفة .

كانت هذه الحال وحدها تقتضى من ولاة الأمور فى الدولة أو الدول الإسلامية سهرا ويقظة حتى لا يضطرب حبل الأمن وتعم الفوضى . فكيف وقد كان معظم أهل الحرف والصناعات ذوى ميول سياسية ، ونزعات مذهبية ، وكان كثير من أهل المذاهب الدينية متعصبين لمذهبهم مستعدين فى سبيل نصرته لحمل السلاح و إراقة الدماء؟ . لقد كانت بغداد ميدانا لفتن دامية متصلة تارة بين الحنابلة وخصومهم وأخرى بين الشيعة وأهل السنة . كما كانت الشام مجالا لنشاط الباطنية المعطلة لأحكام الدين الإسلامى . وكانت القاهرة عرضة لمثل تلك الفتن بعد أن قضى صلاح الدين الأيوبى على الدولة الفاطمية ، فقد كان هوى كثير من أهل الحرف والصناعة مع الدولة الفاطمية الذاهبة . ومثل ذلك يقال عن مدن المغرب والأندلس ، حيث كان كثير من ذوى الحرف والصناعات من أهل الذمة ، وكانوا

فى كثير من الأحيان ضالعين مع الممالك النصرانية التى كانت تناصب للمسلمين العداء فى شمال إفريقية والأندلس .

لكى يواجه ذوو السلطان هذه الحال على تقول ابن خلدون فصلوا الحسبة عن القضاء ، وصيروها وظيفة ملكية ، و بسطوا يد المحتسب على كل آت بمنكر فى المعاملات والصناعات والتجارات ، وكل نزاع إلى الفتنة والفساد فى الأرض و إقلاق راحة الناس ، وبانفصال الحسبة عن القضاء وصيرورتها أداة رقابة وضبط وتنفيذ سريع اتضحت شخصية المحتسب . ويحدثنا المقريزى عن المحتسب فى القاهرة فيقول « ولا يكون إلا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين ، وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر (الفسطاط) وجميع أعمال الدولة كنواب الحكم وله حق الجلوس بجامعى القاهرة ومصر يوما بعد يوم و يطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش ... وينظرون المكاييل والموازين ، وللمحتسب النظر فى دار العيار ، ويختم عليه ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر ، ولا يحال بينه و بين مصلحة إذا رآها ، والولاة تشد معه إذا احتاج إلى ذلك . وجاريه ثلاثون ديناراً فى كل شهر » .

ويحدثنا صاحب « نفح الطيب » عن المحتسب بالأندلس فيقول « أما خطة الاحتساب فإنها عندهم موضوعة فى أهل العلم والفطن ، وكأن صاحبها قاض والعادة فيه أن يمشى بنفسه راكباً على الأسواق ، وأعوانه معه ، وميزانه الذى يزن به الخبز فى يد أحد الأعوان لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان ، الربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم وكذلك اللحم ، وفى ذلك مصلحة فقد يرسل للمبتاع الصبى الصغير أو الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق فى معرفة الأوزان وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب فى الورقة ولا يكاد تخفى خيانته ، فإن المحتسب يدس عليه صبيا أو جارية يبتاع أحدهما منه ثم يختبر المحتسب الوزن فإن وجد نقصاً قاس منه ذلك حاله مع الناس ، فلا تسأل عما يلقى وإن كثر ذلك منه ولم يتب بعد الضرب والتجريس نفى من البلد » .

* * *

وقد سايرت حركة التأليف والكتابة فى الحسبة هذا التطور مسايرة تامة . فمنذ ما كانت

الحسبة تابعة للقضاء كان المؤلفون من الفقهاء يكتبون عنها على أنها باب من أبواب الفقه فيذكرون شروطها وأحكامها وآدابها ضمن تآليفهم الفقهية . وأجمع ما وصل إلينا من ذلك الفصل الذى عقده لأحكام الحسبة الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ثم الفصل الطويل الذى كتبه فى كتاب الإحياء الإمام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ .

وكلام الماوردى فى الحسبة كلام فقيه متمكن عليم بمختلف المذاهب الإسلامية لعهده يريد أن يرسم صورة للحسبة كما ينبغى أن تكون من حيث المطابقة لأحكام الشرع مع الوضوح والدقة والإيجاز . أما كلام الإمام الغزالى فكلام عالم متصوف يريد أن يرسم صورة مثالية لما ينبغى أن يكون عليه العالم الإسلامى على الإطلاق . وكلامه على الحسبة يجرى هذا المجرى ، فهو غواص على حكمة التشريع ، كثير الاستشهاد بالقرآن والسنن والأخبار وما يقتضيه الذوق السليم ويغمر كل ما يكتب فيض من روحه القوى وإيمانه العميق .

فلما اندرجت الحسبة فى الوظائف السلطانية كما يقول ابن خلدون ، وحدث ما ألمنا إليه من تعقد الأمور فى الأمصار الإسلامية الكبرى ، اتجه التأليف فى الحسبة اتجاها عمليا يرمى إلى ضبط الحال بتعريف من يتولى الحسبة أسرار الحرف والصناعات وما قد يأتيه أربابها من أمور الغش والخديعة والتدليس وأكل أموال الناس بالباطل .

وقد وصل إلينا من التآليف الموضوعة فى الحسبة والتى نحا أصحابها فيها هذا المنحى الواقعى كتب تزيد على العشرة عدا ، أكثرها من مشرق العالم الإسلامى ومن مصر والشام خاصة وأقلها من المغرب والأندلس . وأهم المجموعة الشرقية كتب أربعة :

١ — « كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » لعبد الرحمن بن نصر النبراوى الشيزرى المتوفى سنة ٥٨٩ . والراجح أنه وضع هذا الكتاب بطلب من صلاح الدين الأيوبى للاستعانة به فى الاحتساب على أرباب المهن والصناعات وأهل الذمة الذين كان هواهم مع الفاطميين كما تقدم القول . والكتاب يقع فى أربعين بابا وقد نشر فى مصر حديثاً نشرا حسناً . وهذا الكتاب يعتبر فى الحقيقة أصلا للمجموعة الشرقية بنى عليه كل من كتب بعد فى الحسبة فى الناحية العملية .

٢ — فمحمد بن محمد بن أحمد القرشى المصرى المعروف بابن الأخوة والمتوفى سنة ٧٢٩

قد وضع كتابه « معالم القربة فى أحكام الحسبة » وهو يضمن كتابه هذا أبواب كتاب الشيزرى مع زيادة ثلاثين باباً وإضافات فقهية وملحوظات شخصية للمؤلف لها طرافتها التاريخية كما سيأتى .

٣ — ثم يأتى محمد بن أحمد بن بسام المصرى وهو من أهل القرن الثامن الهجرى فيضع كتاباً فى الحسبة يسميه كذلك « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ويضمنه أبواب الكتابين السابقين ويزيد عليها ثمانية وأربعين باباً وبذلك تتم عدة أبواب كتابه ثمانية عشر باباً ومائة باب استوفى فيها الحسبة على ما يقرب من جميع الحرف والصناعات الموجودة لعهده ومختلف الطوائف والهيئات التى تقضى مصلحة الدولة مراقبتها عن طريق الاحتساب عليها .

٤ — والكتاب الرابع من المجموعة الشرقية هو كتاب « المختار فى كشف الأسرار » لكاتب من كتاب الدولة الأرتقية اسمه عبد الرحمن بن أبى بكر الدمشقى ويعرف بالجوبرى وقد وضعه كما يقول فى المقدمة بطلب من السلطان مسعود بناء على ثلاثين فصلا كلها فى التعريف بطرق الغش والتدليس فى الصناعات المختلفة وما يقع من طوائف معينة من الناس من الشعوذة والاحتيال .

أما المجموعة المغربية فتشتمل على كتابين اثنين :

١ — كتاب آداب الحسبة لابن عبد الله محمد بن أبى محمد السقطى المالقى الأندلسى المتوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى وكتابه يشتمل على ثمانية أبواب فى الحسبة ضمنها أموراً عاينها بنفسه أثناء ولايته الحسبة بمدينة مالقة .

٢ — والكتاب الثانى عبارة عن رسالة وجيزة لمحمد بن أحمد بن عبدون التجيبى الإشبيلى المتوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى ؛ ضمنها ما يراه من وجوه الإصلاح لأحوال مدينة إشبيلية وذلك عن طريق الحسبة على موظفى الحكومة وأرباب الحرف والصناعات . وهو فى رسالته هذه يندد بغش الصناع وأهل الحرف وفساد ذمم بعض الطوائف وانحلال أخلاقها .

***

للكتب المذكورة مزية عظيمة فى دراسة المجتمع الإسلامى كما تصوره حياة المدن الإسلامية الكبرى فى العصور الإسلامية المتأخرة ، أى من قبيل سقوط بغداد إلى انبعاث النهضة الحديثة فى أخريات القرن الثامن عشر . فهى من الناحية الاجتماعية تصور ما انتاب العالم الإسلامى من أدواء وعلل وفقر مدقع ، مما أدى إلى التفنن فى الغش والتكسب بالمهن الخسيسة والشعوذة والاحتيال حتى صار ذلك صناعة ذات أصول وقواعد وحتى أصبح مبدأ لكثير من الناس قولهم « الحيلة عليهم ولا الحاجة إليهم » . ثم إن هذه الكتب تشتمل على نقد للمجتمع لداع مثل قول ابن الأخوة فى تعليل ترك الناس دراسة الطب وإقبالهم على دراسة الفقه فيقول « والطب من فروض الكفاية ولا قائم به (اليوم) من المسلمين وكم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل الذمة . ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام (الطب) ولا نرى أحداً يشتغل به . ويتهافتون على علم الفقه ولا سيما الخلافيات والجدليات ، والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع . فليت شعرى كيف يرخص الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة ، وإهمال ما لا قائم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر التوصل به إلى تولى القضاء والحكومة ، والتقدم به على الأقران ، والتسلط على الأعداء ؟ هيهات قد اندرس علم الدين : فالله المستعان ، وإليه الملاذ ، بأن يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ويضحك الشيطان » .

ويقول ابن الأخوة أيضاً فى ذم طائفة الموكلين بالخصومة أو المحامين من أهل زمانه « وأما الوكلاء . . . فلا خير فيهم ولا مصلحة للناس بهم فى هذا الزمان فإن أكثرهم رقيق الدين يأخذ من الخصمين شيئاً ثم يتمسكون فيه بسبب الشرع فيوقفون القضية فيضيع الحق ويخرج من بين يدى طالبه وصاحبه . فإذا حضر الخصمان فإن الحق يظهر سريعاً من كلامهما إذا لم يكن لهما وكيل . فكان ترك الوكلاء فى هذا الزمان أولى من نصبهم إلا أن يكون هناك امرأة لم تكن من ذوات البروز فتوكل ، أو صبى فحينئذ ينصب الحاكم عنه وكيلا » .

ويقول الشيزرى فى أمر التحوط من الباطنية « ويتقدم المحتسب إلى جيران كل مسجد

بالمواظبة على صلاة الجماعة عند الأذان لإظهار معالم الدين و إشهار شعار الإسلام ، سيما فى هذا الزمان لكثرة البدع واختلاف الأهواء ، وتنوع الباطنية ، وما قد صرحوا به من تعطيل الشريعة و إبطال أحكام الإسلام ، فيجب على كل مسلم إظهار أركان الإسلام و إشهار الشريعة فى مقابلة ذلك لتقوى عقائد العامة » .

إن الكتب المذكورة تصور لنا فى الجملة الحياة اليومية فى المدن الإسلامية الكبيرة فتصف الأسواق وحركة التعامل وما قد يقع من منكر يسارع المحتسب إلى إزالته ، كما تصف مختلف الصناعات والحرف وصفاً دقيقاً .

* * *

ومهما يكن لها من قيمة تاريخية ، فإن قيمتها اللغوية هى الجديرة بالتنويه فى هذا المقام . إن كتب الحسبة العملية التى وصلت إلينا تحوى عشرات بل مئات من الألفاظ والمصطلحات الفنية التى جرى استعمالها منذ أربعمائة عام أو تزيد . ولأورد بعض هذه المصطلحات على سبيل المثال : يقول الشيزرى فى باب الحسبة على البياطرة « وقد ذكر بعض الحكماء فى كتاب البيطرة أن علل الدواب ثلاثمائة وعشرون علة منها الخناق ، والخنان الرطب ، والخناق اليابس ، والجنون ، وفساد الدماغ ، والصداع ، والحمر ، والنفخة ، والورم ، والمرة المائجة ، والدبية والخنام ، ثم يمضى فيعد أكثر من أربعين مصطلحاً لأربعين علة من علل الدواب » .

ويقول فى باب الحسبة على الأطباء « وينبغى للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال ، وهى كليات الأضراس ، ومكاوى الطحال ، وكليات العلق ، وزراقات القولنج ، وملزم البواسير ، ومخرط المناخير ، ومنجل النواصير ، وقالب التشمير ، ورصاص التثقيل ومفتاح الرحم ، وبوار النساء ومكمدة الحشا ، وقدح الشوصة ، وغير ذلك مما يحتاج إليه فى صناعة الطب غير آلة الكحالين والجرائحيين مما يأتى ذكره فى موضعه » .

ومن المصطلحات التى التقطتها من كتب الحسبة المذكورة والتى نستعمل نحن بعضها فى حياتنا اليومية : الزنجار بمعنى صداء النحاس ، والقبان ، لآلة الوزن المعروفة ، والقرمة التى يقصب عليها اللحم والقطان (بمعنى المنجد) ودقيق العلامة أو الدرمك لدقيق لب الحنطة ، والمحروم

الواقعة المزيلة ، والسمك النائت ، والسمك الطرى ، والبيض المذر والسمك المذر بمعنى الفاسد ، والزبكين بمعنى الشيلى ، وأرش العيب بمعنى ثمنا يطرح من الثمن لظهور عيب فى السلعة (وهو من أرش الجراح فى الفقه بمعنى ديتها) والطنجير القدر الكبيرة المتخذة من النحاس ، وهى تقابل لفظ (القزان) عندنا .

* * *

أما بعد فقد قام المستشرق الهولندى دوزى فى النصف الأخير من القرن الماضى بجهد مشكور ، إذ جمع طائفة كبيرة من الألفاظ والمصطلحات العربية التى لم ترد فى المعاجم العربية ونشرها ، ولكن كم ترك الأول للآخر ! إن من حق الألفاظ والمصطلحات التى ذكرت وأمثالها على مجمعنا ، أن تجمع وتفسر ، ثم تضمن المعجمين الكبير والوسيط . بذلك نكون قد وسعنا معاجمنا ، وزدنا فى مادة لغتنا ، ورددنا إلى هذه الألفاظ والمصطلحات اعتبارها .

ثلاثة حوادث من التاريخ الإسلامى

ساعدت على نمو العربية وانتشارها[1]

ألقى حضرة الأستاذ أحمد أمين فى افتتاح مؤتمر هـذا العام بحثا قيما موضوعه تضخم المعاجم العربية ، وقد عرض حضرته أسباب هذا التضخم سبباً سبباً ، وكان البحث منصبا على نقد هذه المعاجم وما وقع فيه واضعوها من أوهام وأغلاط أدت إلى التضخم المذكور . أما البحث الذى أتشرف بإلقائه اليوم فمنصب على ناحية من نواحى نمو اللغة العربية إبان ازدهار الدول الإسلامية القديمة . والنمو غير التضخم ، فالتضخم علة تلحق الكائن الحى فتصيبه وتمله وقد تودى بحياته . أما النمو فدليل صحته ، وقوته ، وحيويته ، وقابليته البقاء . واللغة لاشك كائن حى ، وإذا كان الواجب يقتضى أن نتعرف علل لغتنا كالتضخم الذى تكلم عليه الأستاذ الجليل ، فما أحرانا أن نتعرف ظواهر قوتها ونمائها وحيويتها فنكون قد جمعنا بين الحسنيين : بين التخلص من أسباب العلل ، والأخذ بأسباب القوة والنمو والحيوية والمضى بالانتفاع بها فى إنهاضها و إقالتها من عثارها .

ولقد نظرت فى حوادث التاريخ الإسلامى فوجدت أن ثلاثة منها كانت ذات تأثير عميق بعيد المدى فى نمو اللغة العربية وانتشارها العظيم : أول هذه الحوادث تعريب الدواوين على عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) والثانى أمر الخليفة عمر ابن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) بتدوين الحديث النبوى ، والثالث أمر الخليفة المأمون العباسى (١٩٨ — ٢١٨ هـ) بنقل كتب الفلسفة من اليونانية إلى العربية . وسأتكلم على هذه الأحداث الثلاثة واحداً واحداً مبينا الباعث عليه ، وكيف تم ، وأثره فى نمو اللغة العربية وانتشارها . ثم أختم كلامى بالمقارنة بين ما حصل منذ أكثر من ألف سنة وما هو حاصل من حيث نهضة اللغة العربية فى العصر الحاضر .

***

---

(١) ألقى هذا البحث فى المؤتمر السنوى لمجمع فؤاد الأول للغة العربية فى يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

إن نظام الديوان نظام مستحدث فى الدولة الإسلامية ، ظهر على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب عندما توالت الفتوح وتدفقت الأموال من الأقطار المفتوحة . فاقتضت الحال اتخاذ نظام لتقييد أسماء المقاتلة وقبائلهم ومبالغ أعطياتهم ، فاستشار عمر ذوى الرأى على عادته فى كل أمر حازب وحدث مهم . فأشاروا عليه بوضع الديوان .

ولفظ « الديوان » كما تقول دائرة المعارف الإسلامية قد يكون إيرانى الأصل وذا صلة بكلمة « دبير » الفارسية ومعناها « الكاتب » . ثم أطلق فى الفتوح العربية على السجلات التى تشتمل على حساب الأموال ، ثم أطلق فى الدولة العباسية على كل إدارة من إدارات الدولة كديوان الزمام وديوان الخاتم وهلم جرا .

ولقد كوّن عمر لجنة لتدوين أسماء الجند وبيان أنسابهم وأعطياتهم على نظام اتفق عليه وبينه الماوردى فى كتاب « الأحكام السلطانية » فكان من ذلك الديوان المعروف بديوان الجيش . وهو أول ديوان وضع فى الدولة الإسلامية ، وكان يحرر بالعربية من أول أمره . ثم تلاه ديوان آخر هو ديوان المال والجباية . وكان مقر دواوين الأموال هذه فى عواصم الأقطار المفتوحة . وكانت تسجل فيها أسماء القرى ومساحاتها ومقادير ارتفاعها وتوزيع ذلك على أهلها على هيئة خراج أو جزية ، وكان هذا الديوان يكتب فى كل قطر بلغة أهله ، وكانت فى الغالب لغة الدولة التى كانت لها السيادة عليه قبل الفتح الإسلامى ، فكان ديوان العراق وفارس يكتب بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وديوان مصر بالرومية والقبطية . وكان يتولى شئون هـذه الدواوين عمال من أهل الإقليم ، فكان عمال ديوان العراق من موالى الفرس ، وعمال ديوان الشام من الروم ، وعمال ديوان مصر من الروم والقبط .

وقد ظلت دواوين المال والجباية تكتب فى الأقطار المفتوحة باللغات الأجنبية المذكورة ويتولاها عمال من موالى الفرس والروم والقبط حتى كان زمن عبدالملك بن مروان . وكانت العربية قد انتشرت بين الأعاجم وحذقها قوم منهم إلى جانب لغاتهم الأصلية . ثم إن الدولة الأموية قد أصبحت راجحة النفوذ فى الميزان الدولى ، هذا إلى عصبيتها الشديدة لكل ما هو عربى ، فلم يكن من الطبيعى أن تظل دواوينها تكتب بلغات غير العربية ، واتجهت سياسة عبد الملك إلى تعريب إدارة الدولة ، وبدأ بالعملة فضربها عربية بعد أن كانت رومية وفارسية . قال البلاذرى بإسناده « إن عبد الملك أول من ضرب الذهب بعد عام الجماعة

أى سنة ٧٤ . وضرب الحجاج الدراهم آخر سنة ٧٥ ثم أمر بضربها فى جميع النواحى سنة ٧٦ هـ » ثم اتجهت عزيمة عبد الملك وعامله الحجاج إلى تعريب الدواوين :

يروى البلاذرى نقلا عن المدائنى عن أشياخه فى بيان السبب الذى من أجله نقل ديوان العراق فيقول « قالوا لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالفارسية ، فلما ولى الحجاج العراق استكتب زادان فروخ بن نيرى ، وكان معه صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم يخط بين يديه بالفارسية والعربية . . . . فوصل زادان فروخ صالحاً بالحجاج وخف على قلبه ، فقال له ذات يوم : إنك سببى إلى الأمير وأراه قد استخفنى ، ولا آمن أن يقدمنى عليك وأن تسقط . فقال لا تظن ذلك ! هو أحوج إلىّ منه إليك لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى . فقال والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته ، قال فحول منه شطراً حتى أرى ، ففعل ، فقال له تمارض ! فتمارض ، فبعث إليه الحجاج طبيبه ، فلم ير به علة . وبلغ زادان فروخ ذلك فأمره أن يظهر : ثم أن زادان فروخ قتل فى أيام عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندى . . . فاستكتب الحجاج صالحاً مكانه فأعلمه الذى كان جرى بينه وبين زادان فروخ فى نقل الديوان ، فعزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية ، وقلد ذلك صالحاً . فقال له مرادان شاه بن زادان فروخ ، كيف تصنع بدهوية وشيشوية ؟ قال أكتب عشر ونصف عشر . قال كيف تصنع بويد ؟ قال أكتبه « وأيضاً » والويد النيف والزيادة تزاد . فقال قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ! وبذلت له الفرس مائة ألف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك ، فأبى ونقله . فكان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد يقول : لله در صالح ! ما أعظم منته على الكتاب . ويقال إن الحجاج أجل صالحاً أجلا حتى قلب الديوان » .

هذا عن نقل ديوان العراق وفارس . أما ديوان الشام فيروى البلاذرى أيضاً سبب نقله فيقول « قالوا ولم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولى عبد الملك بن مروان . فلما كانت سنة ٨١ أمر بنقله ، وذلك أن رجلا من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماء فبال فى الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه ، وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان ، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ، ففعل ذلك ، وولاه الأردن . فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأتى

به عبد الملك فدعا بسرجون كاتبه ، فعرض عليه ذلك ، فغمه ، وخرج من عنده كئيباً ، فلقيه قوم من كتاب الروم ، فقال : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة ؛ فقد قطعها الله عنكم !

قال : وكانت وظيفة الأردن التي قطعها له معونة مائة ألف وثمانين ألف دينار » .

أما ديوان مصر فيقول الكندي في كتاب « الولاة والقضاة » في أمر قرة « وبويع الوليد بن عبد الملك ... فأقر أخاه عبد الله على صلاة مصر وخراجها وأمره بالدواوين فنسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف عبد الله بن أشناس عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزاري من أهل حمص »(١) .

ومهما يكن ما تروي به المصادر من أسباب مباشرة لتعريب الدواوين ، فالذي لا شك فيه أن عبد الملك وابنه الوليد وعاملهما الحجاج كانوا شديدي العصبية لكل ما هو عربي وأن الدولة قد اتجهت إلى تعريب إدارتها كما قدمنا ، استكمالاً لمظاهر سيادتها وتوفيراً لكرامتها .

ولقد ترتب على هذا الحادث التاريخي الهام عدة أمور خطيرة : —

فالعربية الفصحى أفادت ألفاظاً جديدة كثيرة كما يؤخذ من ترجمة دهوية وشيشوية ووبد ، فهي مثال لما حصل بالفعل على نطاق واسع وظهرت في العربية ألفاظ كثيرة إما معربة أو منقولة عن أصولها الأعجمية المستعملة في الحساب والمساحة والزراعة والتجارة والصناعة مما لم يكن للعرب عهد به من قبل .

ثم إن الأعاجم ، مسلمين وغير مسلمين ، أقبلوا على تعلم العربية بعامل المصلحة الذاتية ، وذلك للانتظام في أعمال الكتابة والخراج وما يتصل بهما ، ولسهولة التقاضي في المنازعات التي كان ينظر فيها قضاة من العرب بطبيعة الحال . وبذلك لم يكد ينصرم القرن الأول الهجري حتى كانت العربية قد عمت أهل فارس والعراق والشام ومصر وغلبت الفارسية والرومية والقبطية على أمرها فأخذت هذه اللغات تتضاءل وتضمحل في الأقطار المذكورة حتى صارت إلى الزوال أو ما يقرب من الزوال .

---

(١) وإتماماً لهذا العرض التاريخي أقول إن السيد حسن حسني عبد الوهاب العلامة التونسي وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية أخبرني أن ديوان المغرب نقل من الكلمة اللاتينية إلى العربية في حوالي الوقت الذي عربت فيه دواوين المشرق وأنهم عثروا في بعض نواحي المغرب على دينار عربي من عهد الأمير موسى ابن نصير .

وبانتشار العربية بين الأعاجم واضمحلال اللغات الأجنبية ثم ذهابها ظهرت فى الأقطار المفتوحة لهجات عربية شعبية محلية تبين لنا المصرية منها مجموعات البردى التى كشفت فى مصر والتى تصاحب تاريخ مصر الإسلامى من أول الفتح العربى إلى القرن السادس.

تشتمل هذه الوثائق النفيسة على رسائل صادرة عن ولاة مصر مثل قرة بن شريك وغيره وبعض المثقفين من العرب ومكتوبة بلغة عربية صحيحة فصيحة، كما تشتمل على عدد عظيم من وثائق المبايعات والمداينات، وعقود الزواج والتمليك والشئون اليومية. وهذه مكتوبة بلغة شعبية مباينة الفصحى وفيها كثير من خصائص العامية للمصرية الحاضرة، من ذلك إبدال الضاد من الظاء فى « احفض » بدلا من « احفظ » وإسقاط الهمزة رسما ونطقا إسقاطا يكاد يكون مطردا فيقال « ويضاً » بدلا من « وأيضاً » و « حدعشر » بدلا من « أحد عشر » وعدم المبالاة بالإعراب فيقال « اثنين » حيث يجب أن يقال « اثنان » وهلم جرا. وقد نشر جانبا من هذه البرديات المحفوظة بدار الكتب المصرية الأستاذ المستشرق أودولف جروهمان النمسوى فى ثلاثة أسفار كبار طبعتها دار الكتب قبل الحرب الأخيرة كما وضع جنابه حديثا كتابا قيما فى هذا الموضوع أسماه « من عالم البرديات العربية »(١).

وأهم النتائج التى ترتبت على تعريب الدواوين من حيث مستقبل الثقافة الإسلامية أن أصبحت اللغة العربية الأداة الوحيدة للتخاطب وتبادل الآراء والأفكار فى العالم الإسلامى الذى كان يمتد إذ ذاك من حدود الهند والصين إلى سواحل المحيط الأطلسى.

* * *

هذا عن تعريب الدواوين وما ترتب عليه من الآثار؛ أما تدوين الحديث النبوى فالمعروف أنهم كانوا طوال القرن الأول يكرهون كتابة الحديث حتى لا يكون إلى جانب القرآن الكريم كتاب آخر يشغل المسلمين عن تلاوته وتدبر معانيه. بيد أن هذا التحرج لم يمنع نفرا من الصحابة والتابعين أن يكتبوا مجموعات من الأحاديث لأنفسهم لا بقصد النشر والتداول. فلما ظهرت أحاديث لا يعرفها أعلام الصحابة والتابعين قوى الاتجاه إلى تدوين الأحاديث الصحاح. يروى الخطيب البغدادى فى كتاب « تقييد العلم » عن ابن

---

(١) نشرته حديثا « جمعية الدراسات التاريخية المصرية ».

شهاب الزهرى أنه قال « لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها ولا نعرفها ما كتبت حديثا ، ولا أذنت فى كتابته » فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز أمر ابن شهاب الزهرى بجمع السنة وكتابتها . وعن إبراهيم بن سعد قال « أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترا دفترا فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترا » . ثم استفاض تأليف الكتب فى الحديث بعد ذلك حتى كانت الكتب الستة المشهورة .

والذى نخصه بالملاحظة من هذه الظاهرة العظيمة أن الأحاديث سواء كانت مروية باللفظ أو بالمعنى ، هى طبقة عالية من البلاغة ، فأفادت اللغة من تدوينها نموذجا للعبارة البليغة مكن الفصحى بعد المنزلة التى بلغتها بالقرآن الكريم أى تمكين ؛ وأن حرص المسلمين فى كل عصورهم على هذين المصدرين الأقدسين و بالغ عنايتهم بهما أقام الفصحى على أساس راسخ لا يتطرق إليه وهن ما دام فى الأرض مسلمون و إسلام .

ثم إن السنة المروية عن الرسول العربى تعد المصدر الثانى من مصادر التشريع الأسلامى ، ومن ثم وضعت كتب فى الحديث مرتبة على أبواب الفقه كموطأ الإمام مالك وصحيح البخارى ، فكان منها مادة عظيمة غذت لغة الفقه الإسلامى وعلم الحديث وابتعثت فيها تعبيرات ومصطلحات يعرفها من يطلع على الكتب المؤلفة فى هذين العلمين الجليلين .

***

ثم انتقل إلى الحادث الثالث وهو أمر المأمون بنقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية ، فأقول لما فتح العرب بلاد الشام والعراق ومصر وجدوا فى أمهات مدنها مدارس للسريان والفرس والقبط تدرس بها العلوم القديمة وخاصة علوم اليونان ، وكانت هذه العلوم قد نقلت إلى السريانية فى الشام والعراق رغبة من النساطرة واليعاقبة فى درسها بلغتهم ومبالغة منهم فى مقاطعة اللغة اليونانية ، لغة الكنيسة البيزنطية التى انفصلوا عنها من الناحية الدينية ، وكان أكثر ما يدرس فى هذه المدارس الفلسفة اليونانية وخاصة المنطق وما وراء الطبيعة والطب والنجوم والكيمياء . وقد نقلوا كذلك كتبا عدة فى الرياضيات وغيرها عن الفارسية والهندية والقبطية والنبطية .

واستمرت هذه الحال فى العصر الأموى وأخذ المسلمون يتصلون شيئاً فشيئاً بهذا الجو

العلمى الذى كان يسود بلاد الشرق الأدنى بفضل مدارس الإسكندرية وأنطاكية وقيصرية ونصيبين والرها وجنديسابور، حتى رووا أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية درس الكيمياء على راهب إسكندرى اسمه ماريانوس وأنه ألف فى الكيمياء ثلاث رسائل . فلما كان زمن العباسيين الأوائل ازداد إقبال المسلمين على دراسة هذه العلوم ، وكان الخليفة المنصور ولع خاص بالطب والنجوم فترجمت له كتب فى هذين العلمين عن السريانية . وكان للبرامكة أثر كذلك فى تشجيع النقل عن السريانية والفارسية ، فلما جاء المأمون وكان ميالا بطبعه إلى البحث الفلسفى وآراء المعتزلة كالقول بخلق القرآن وغيره من مسائلهم ، فقد سلك مسلكا جديداً بالمرة ، إذ أنشأ فى بغداد « بيت الحكمة » للدرس والبحث . والظاهر أنه أنشأ بيت الحكمة هذا على مثال مدارس السريان التى أشرت إليها ، ثم إنه أحب أن تنقل كتب الفلسفة الإغريقية عن اليونانية رأساً دون وساطة لغة أخرى كالسريانية وغيرها . ويروى ابن النديم فى « الفهرست » السبب الذى بعث المأمون على ذلك وهو أن المأمون رأى فى منامه أرسطوطاليس وسأله بعض الأسئلة ، فلما نهض من نومه طلب ترجمة كتبه ، فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من الكتب القديمة المدخرة ببلد الروم ، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق ، وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل ، وجعل يحرض الناس على قراءة تلك الكتب ، ويرغبهم فى تعلمها كما يذكر ابن العبرى فى كتابه « مختصر تاريخ الدول » .

واقتدى بالمأمون كثير من رجال الدولة وجماعة من أهل الوجاهة والثروة فى بغداد ، فتقاطر إليها المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية واللاتينية وغيرها . وأقبل الناس على الاطلاع والبحث أيما إقبال . وقد ظلت الحال على ذلك إلى أنه لم يكد ينتهى القرن الرابع حتى كان قد تم نقل أهم كتب القدماء إلى العربية .

ولقد كان أثر هذا النقل الواسع المدى عظيما بالإضافة إلى اللغة العربية فقد نقل المترجمون مئات الألفاظ الفلسفية والطبية والكيمائية والرياضية وغيرها إلى اللغة العربية ، مترجمين بعضها إلى ما يقابله فى العربية وناقلين بعضها بلفظه مما حمل علماء اللغة على أن يخصوه بتأليف

خاصة مثل كتاب « المعرب والدخيل » للجواليقي . ومهما يكن من شيء فقد أفادت اللغة العربية مادة غزيرة مكنت النحاة والمتكلمين والفلاسفة الإسلاميين من أن يتناولوا مسائل علومهم بلغة مواتية ، وألفاظ دالة على المعانى التى يريدون التعبير عنها .

* * *

أما بعد ، فإنا إذا اعتبرنا ما أداه تعريب الدواوين إلى اللغة العربية فى مجال المصطلحات الإدارية والمالية ، وتدوين الحديث فى مجال السنة والفقه ، ونقل كتب الفلسفة والطب والرياضة والكيمياء فى ميدان العلوم العقلية والطبيعية ، فإنا نجد أن اللغة العربية قد أصبحت فى القرن الرابع بحراً زاخرا ، مما اقتضى وضع معاجم تجمع مادتها وتبين معانى مفرداتها . وهذا كله بفضل ما أوتيت هذه اللغة نفسها من قوة وحيوية عجيبة ، ثم بفضل السياسة التى انتهجتها الدولة بإزائها على النحو الذى بيناه .

ثم أختم كلمتى فأقول : ما أشبه الليلة بالبارحة ! فبعد أكثر من ألف سنة عادت اللغة العربية إلى شبه الحال التى كانت عليها فى أزهى عصور الإسلام . لقد عربت الدواوين بعد أن كانت تكتب بلغات أجنبية بين تركية وفرنسية وإنجليزية ، ثم ها هى ذى حركة نقل قوية عن اللغات الأوربية فى مختلف العلوم والفنون والآداب يقوم مجمعنا على توفير المصطلحات العربية اللازمة لإنجاحها . وكما كانت العربية أداة التفاهم وتبادل الرأى والفكر فى الدولة الإسلامية القديمة ، فإنها بسبيل أن تصبح كذلك فى عالم شرقى حديث يمتد من أقاصى أندونيسيا إلى مراكش ، وهو لعمرى عالم أوسع وأشمل من العالم الإسلامى القديم . ولكن معنى هذا كله تزايد العبء الملقى على أبناء العروبة وحماة لغة الضاد ، وأخص بالذكر منهم رجال مجمعنا الموقر . إن الآمال المعقودة بهم فى جعل العربية تنهض فى المستقبل القريب نهضتها فى الماضى البعيد لآمال قوية لا يعرف اليأس إليها سبيلا . فإذا ما تحققت هذه الآمال — وهى متحققة بإذن الله — فسيكون للعربية شأن أى شأن فى نشر الثقافة العليا فى القارتين الأسيوية والأفريقية . والله ولى التوفيق .

أثر مصـــــر

فى الأحداث الإسلامية حتى آخر العصر

العبـــــاسى الأول*

لم تكن مصر فى نظر العرب عند ما أقدموا على فتحها فى سنة ١٨ هـ كغيرها من الأقطار التى فتحوها فى نهضتهم العظمى ، بل كان لها فى أخيلتهم وخواطرهم مكانة ممتازة لا تشبهها إلا مكانة قطر آخر هو الشام ، ذلك بأن القرآن الكريم ذكر مصر فى مواضع عدة ذكراً كريما تارة بالتصريح وأخرى بالإشارة والتلميح ، فمن ذلك قول القرآن مخبراً عن فرعون « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ » . وقوله مخبراً عن يوسف عليه السلام « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » . وقوله : « ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق » . وقوله : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين » . وقوله : « ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا » .

وكما اشتمل القرآن على جملة آيات فيها تنويه بقدر مصر وخطرها وثرائها ، فإن السنة ذكرت مصر ونوهت بأهلها خاصة لأسباب وردت فى قصص الكتب المقدسة . من ذلك ما يروى من أن النبى (ص) قال : « إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحما » وفسروا « رحماً » بأن هاجر أم إسماعيل عليهما السلام كانت مصرية وأنها أم ولده إسمعيل الذى هو أصل عرب الحجاز ، فكان القبط أخوال العرب الإسماعيلية إذا أخذنا بنظرية النسب العربية .

والمعروف من التاريخ المقدس أن مصر دخلها غير واحد من الأنبياء والرسل ، قدمها

(*) بحث ألقى فى الجمعية الملكية للدراسات التاريخية فى ١٠ أبريل سنة ١٩٥٠ .

إبراهيم الخليل ، ودخلها يعقوب وابنه يوسف وإخوته ، وفيها ولد ونشأ موسى عليه السلام ، ومنها خرج بنو إسرائيل ، كما دخلها عيسى وأمه مريم عليهما السلام .

فإذا ما صرنا إلى أخبار عرب الجاهلية وجدنا أن مصر كانت متجراً لم تحمل إليهم منها فيما يحمل الثياب المعروفة بالقباطى ، جمع قُبطية ، وقد ورد ذكر هذا الضرب من الثياب فى الشعر العربى القديم .

كل هذه الذكريات المستمدة من المصادر التى ذكرنا كانت تجول بخواطر العرب عند ما أقدموا على فتح مصر ، فلما تم لهم فتحها فعلا واختلطوا بأهلها ، وعاينوا نيلها العجيب ، وتربتها الخصبة ، وخيراتها الوافرة ، وآثارها الرائعة ، ووضعها الجغرافى الفريد ، ودعة أهلها وانصرافهم إلى العمل والتكسب بالزراعة والصناعة والتجارة ؛ كل ذلك جعلهم يرون أن قد صدق الخبرَ الخبرُ . فانطلقت ألسنتهم تشيد بجو مصر ، وخيرات مصر ، ونيل مصر ، وعجائب مصر ؛ وجعلوها « جنة الدنيا » و « كنانة الله فى أرضه » ، وقالوا « من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مَثَلِه فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتنور ثمارها » . (ابن عبد الحكم ص ٥) .

ومن قبيل ذلك الوصف البديع الذى يقال أن عمرو بن العاص بعث به إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يصور فيه اختلاف مناظر الأفق المصرى من لدن أن يكون مغموراً بمياه الفيضان ، إلى أن ينحسر عنه الماء ، وتحرث الأرض ، وتخضر بالعشب والنبات ، وتنضج الزروع ، وتتنوع ألوانها ، فيقول : « فبينا مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء » .

والحق أن من بين الشعوب التى اختلفت حكوماتها على مصر لم يحب مصر ويفتن بها غير المصريين القدماء والعرب ، فقد بلغ من فتنة الأولين بها أن ألهوا وعبدوا نيلها وأرضها وسماءها . أما الآخرون فنعهم دينهم من التورط فى شىء من ذلك ، فراحوا يتغنون بمحاسنها فى منثورهم ومنظومهم . وكل من هؤلاء وهؤلاء كان أطول أمداً ، وأعظم أثراً فى تاريخ مصر ، ممن دخلها فاتحاً مسيطراً ، أو متجراً مستعمراً .

من أجل ذلك لم تلبث مصر أن استحالت قطرا عربيا إسلاميا فى زمن أوجز مما يجرى

فى الحسبان عادة . ذلك بأن الصلة الاستغرافية القديمة التى ترمز إليها قصة إبراهيم الخليل وهاجَر المصرية وولد إسماعيل أبى عرب الشمال ، لها ظل من الحقيقة ، فالمصريون والعرب هما فى الحق أبناء بيئة تكاد تكون واحدة ، والعلاقات التاريخية بينهما من فجر التاريخ مشتبكة متصلة ، ثم إن مصر كانت قد تعربت إلى حد ما قبل الفتح العربى ، فجزيرة سيناء كانت تعمرها قبائل عربية انضم بعضها إلى جيش عمرو بن العاص فى زحفه إلى مصر ، وفى الجاهلية عبرت إلى مصر واستقرت على سواحل البحر الأحمر وفى شمال السودان قبائل عربية ينص ابن خلدون على بعضها كقبيلة الكنز مثلا . فبداية استعراب وادى النيل سابقة على الفتح العربى . ثم جاء الفتح وحصلت هجرات كبيرة أشهرها هجرتان ، هجرة القبائل الفاتحة مع عمرو بن العاص ، وأكثرها من عرب اليمن ، ثم هجرة قيسية عدنانية كانت فى خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٩ ، وقد استقرت فى الحوف الشرقى ، ويقابل ما نسميه الآن بمديرية الشرقية . ثم يحدث الامتزاج فيستقر العرب فى الأرض ، يزرعونها ويعملون فيها ، ويُقبل القبط على التعرب بتكلم العربية ودخول الجم الغفير منهم فى الإسلام . وبذلك تصبح مصر قطراً عربيا إسلاميا يتمتع بخصائص مكنته من أن يشترك فى الأحداث الكبرى التى وقعت فى الدولة الإسلامية عامة ، وها نحن أولاء نستقرئ هذه الأحداث ونبين مدى تأثير مصر فيها منذ الفتح حتى آخر العصر العباسى الأول ، أى إلى قرب منتصف القرن الثالث الهجرى .

ولكى نجلو الحوادث التى شاركت مصر فيها نقول إن حوادث الدولة الإسلامية من قيام الخلافة إلى آخر العصر العباسى الأول تقع فى ثلاثة ميادين كبيرة ، ميدان الفتوح الحربية ، وميدان الأحداث السياسية ، وميدان الحركة الفكرية .

الفتوح الحربية :

كان العداء مستحكما ومتصلا بين الدولة العربية الناهضة والدولة البيزنطية طوال العصر المذكور ، فكان الروم يحاولون ارتجاع ما فقدوا من أملاكهم فى آسيا وأفريقية ، وكان العرب من ناحيتهم مضطرين إلى صد هذا العدوان . ولقد وقع عبء قتال الروم فى ذلك

العهد على الشام ومصر بحكم وضعهما الجغرافى ، واضطلعت مصر بنصيبها من هذا العبء اضطلاعاً رائعا . كما كان لها أثر قوى فى مد نطاق الدولة العربية غربا وجنوباً وشمالا بمحض جهودها ومواردها . إن مصر كانت فى نظر الخلفاء باب المغرب والوسيلة إليه فعولوا عليها فى فتحه وبسط سلطانهم عليه . لذلك نجد عمرو بن العاص غداة فراغه من أمر مصر يكر على برقة فيستولى عليها سنة ٢٢ هـ ويتبع ذلك بالاستيلاء على طرابلس سنة ٢٣ هـ ثم يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى غزو إفريقية فلا يأذن له على عادته فى التمسك والتريث إزاء المشروعات الخطيرة ، ولكن عثمان بن عفان يطلق يد عبد الله بن سعد عامله الجديد على مصر فيجتاح إفريقية ، ثم يأتى عقبة بن نافع الفهرى فيؤسس مدينة القيروان ، ويكتسح شمال إفريقية ، كل ذلك بجيوش مصر وموارد مصر . نعم إن فاتحى المغرب من بعد عقبة وخاصة حسان بن النعمان وموسى بن نصير قد مكنوا الدولة العربية فى المغرب حتى سواحل المحيط بجيوش عربية غير مصرية ، ولكن مصر كانت دائما ردءاً لهم تساعدهم بأسطولها ومالها . وحتى الأندلس النائية قد اشترك جند مصرى فى تهدئة أحوالها ضمن حملة كلثوم بن عياض القشيرى ، ونزل هذا الجند المصرى كورة تدمير التى سميت « بمصر » إشارة إلى أن الجند الذى نزلها أصله من مصر .

هذا فى الغرب أما فى الجنوب فقد غزا عبد الله بن سعد بن أبى سرح بلاد الأساود سنة ٣١ ويريدون بها النوبة ، وكانت الحرب عنيفة استبسل فيها العرب والسودان ، فجنح ابن أبى سرح إلى السلم ، لما رأى من شجاعة السودان وبراعتهم فى الرماية فى الوقعة المعروفة بيوم دمقلة ، فعقد بينه وبينهم هدنة على شروط معينة .

أما فى الشمال فكان هدف الدولة الأموية الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية . وكان معاوية بن أبى سفيان حريصا على إدراك هذه الغاية ، وتوسل إلى ذلك بإنشاء بحرية عربية قوية فى سواحل الشام والاستعانة بالأسطول المصرى والاستيلاء على جزائر البحر الأبيض الشرقية . وافتتح معاوية برنامجه سنة ٢٨ بالاستيلاء على قبرص ثم كانت الوقعة البحرية المعروفة بذات الصوارى سنة ٣٤ فى أواخر عهد عثمان . قالوا إن الأمبراطور قسطنطين سار فى أسطول ضخم يريد به ارتجاع ما فقد ، إما الشام أو مصر ،

فسارع الأسطولان الشامى والمصرى إلى لقائه . وكانت الوقعة بين الفريقين على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، فانتصر المصريون انتصارا حاسما ودمر الأسطول البيزنطى وعاد الإمبراطور مفلولا فقتله بعض أتباعه بجزيرة صقلية جزاء له على تلك الهزيمة الشنعاء . وفى سنة ٤٤ أغزى معاوية الأسطول الشامى جزيرة رودس ، واشترك فى الغزو الأسطول المصرى بقيادة عقبة بن عامر الجهنى ، ففتح رودس عنوة (البلاذرى ٢٤٤) وفى سنة ٤٩ كانت الحملة العظيمة التى أعدها معاوية لغزو القسطنطينية ، وغزا فيها ابنه يزيد وعدد من الصحابة فيهم أبو أيوب الأنصارى . وقد اشترك فى هذه الحملة الأسطول المصرى بقيادة عابس بن سعيد المرادى . (الكندى ص ٣٩)

ويدخل فى هذا الصراع عمل مصر على انتزاع جزيرة إقريطش من أيدى الروم . ولذلك قصة طريفة ، فقد ورد على مصر فى أوائل القرن الثانى جماعة من مهاجرة الأندلس ممن أجلاهم الأمير الحكم لقيامهم بثورة الربض المشهورة ، فولى بعض هؤلاء المهاجرين وجهه شطر مدينة فاس التى كانت تؤسس فى ذلك الوقت فأنزلهم إدريس بن عبد الله بها وانتفع بكفايتهم فى الصناعات المختلفة . أما سائر المهاجرين فتابعوا السير شرقا حتى بلغوا مصر فى وقت اضطراب أمورها بالفتنة بين الأمين والمأمون . واستطاعوا احتلال الأسكندرية بضع عشرة سنة إلى أن قدم عبد الله بن طاهر واليا على مصر من قبل المأمون ، فحاصرهم بالإسكندرية حتى نزلوا على حكمه ، ثم إنه أعانهم بسفن ومال وسلاح فساروا إلى إقريطش سنة ٢١٢ ﻫ فاحتلوها بزعامة أبى حفص عمر بن عيسى الأندلسى .

***

الأحداث السياسية :

من ذلك نرى إلى أى حد أسهمت مصر فى حركة الفتوح الإسلامية الكبرى فقد قامت فيها بدور كان حاسما فى أمر المغرب والسودان ، وخطيرا بالإضافة إلى الحروب العربية البيزنطية . وقد جرت مصر فى ذلك على المألوف من تاريخها قديما وحديثا . ففى وسعها كما تهيأت لها الأسباب أن تصبح قوة من قوى البحر المتوسط يحسب لها فى الميزان الدولى كل حساب .

ولم يكن ممكنا أن تظل مصر وقد اتضحت مكانتها فى الفتوح الكبرى بمنأى عن

مجرى الأحداث السياسية والانقلابات العامة التى رجّت الدولة الإسلامية رجًّا عنيفاً ، والحق أننا نلحظ أثر مصر بارزاً فى أشد هذه الحوادث وأحرجها . ولنبدأ بالفتنة الكبرى التى كان أفظع أحداثها مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

لا نريد أن نخوض فى هذا المقام فى أسباب هذه الفتنة فقد اختلطت فيها العوامل الاقتصادية والاجتماعية بعصبية القبائل العربية على قريش . ولكننا نبادر إلى القول إلى أنه قد يكون عجبا من العجب أن تشترك مصر فى هذه الفتنة وأن تبوء هى بالجانب الأكبر من إثمها ، مع أنها فى ذلك الوقت كانت أرغد أقاليم الدولة الإسلامية حالا وأحسنها إدارة ونظاما . غلطة صدرت عن السياسة العليا هى فى نظرنا السبب فى انقلاب مصر على عثمان ، تلك عزلُ عثمان لعمرو بن العاص عن مصر وتوليته مكانه أحد أقربائه وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وعمرو رجل نفّاع ضرّار ، يرجى للشر كما يرجى للخير . ولم يفطن الخليفة الثالث لذلك عندما عزل عمراً عن مصر ، كما فطن له من بعد معاوية . أجل ! فقد أقام عمرو على حدود فلسطين يرقب الأحوال ويؤلب على عثمان فى الحجاز وفى مصر . ثم يتفاقم الخطب ، وينجم قرن الفتنة فى غزوة ذات الصوارى نفسها ، وتلبى مصر دعوة الداعين إلى الجهاد ، لا فيما وراء الثغور ، ولكن فى المدينة نفسها ، فتخرج من مصر عصابة مؤلفة من ٥٠٠ رجل فيهم عبد الرحمن بن عديس البلوى وكنانة بن بشر التجيبى ومحمد بن أبى بكر الصديق . ويحاولون إقناع الخليفة باعتزال الأمر فيأبى ، فيجرءون عليه ويحاصرونه فى داره ، ثم يقتحمونها عليه ويقتلون الشيخ الهرم والصحابى الجليل وهو يقرأ فى مصحفه (١٨ ذى الحجة سنة ٣٥) . ويعود المصريون إلى مصر بعد أن ولوا علىّ ابن أبى طالب الخلافة ، عادوا وهم يرتجزون :

خذها إليك واحذرن أبا حسن ... أنا نمر الأمر إمرار الرسن

ونطعن الملك بلين كالشطن ... بالسيف كى نخمد نيران الفتن

ولكن الرواية لم تتم فصولا ، لقد انصدعت بمقتل عثمان وحدة الدولة الإسلامية وانقسمت إلى معسكرين متعاديين ، معسكر علىّ وصحبه ، ومعسكر معاوية وحزبه . ولقد أخذت مصر جانب علىّ بطبيعة الحال فى هذا الصراع العنيف ، وجعلت تتقبل عماله راضية ، ولكن معاوية كان أدهى من ألا يفطن إلى أهمية مصر وضرورة حصوله

عليها ، فأخذ يشجع الأقلية المعروفة فيها بالعثمانية ، كما جعل يتخلص من عمال علىّ على مصر الواحد تلو الآخر ، بالحيلة تارة وبالاغتيال أخرى ، إلى أن ظهرت نتيجة التحكيم ولم تكن فى مصلحة على ، فأرسل معاوية سنة ٣٨ عمراً إلى مصر على رأس جيش فانتزعها من يد محمد بن أبى بكر عامل علىّ ، وكان ذلك بعد وقعة هائلة تعرف بيوم المسناة ، عدها عمرو أهول وقعة خاض غمارها على كثرة ما شهد من الوقائع من قبل . وتظهر فرقة الخوارج ، ويجمع نفر منها على اغتيال الثلاثة الذين كانوا فى نظرهم سبب كل البلاء وهم : علىّ ، ومعاوية ، وعمرو . ويقتل علىّ ، وينجو معاوية وعمرو ويستقر أمر الخلافة لمعاوية فى سنة ٤١ هـ .

ولكن مصر تمضى فى مخاصمة الأمويين ، فعندما اشتد الخلاف بين آل الزبير وبنى أمية أخذت مصر جانب عبد الله بن الزبير وبايعته بالخلافة . ولكن ما هى إلا أن انتصر مروان بن الحكم فى وقعة المرج المشهورة سنة ٦٥ حتى أسرع مروان إلى مصر وانتزعها من عامل ابن الزبير .

ودان المصريون للأمويين مكرهين ، فلما ظهرت الدعوة العباسية بث دعاتها الدعوة للعباسيين بمصر ، فاستجاب لها المصريون بوجه عام ، ذلك بأن المتأخرين من خلفاء بنى أمية جفوا العنصر العربى اليمنى الذى كان يشد ملكهم ، فانحرف عنهم اليمانيون ، وهم جمهرة عرب مصر ، وظهر أثر ذلك فى وقعة الزاب التى هزم فيها مروان بن محمد ، وفرّ على أثرها إلى مصر وجيوش العباسيين تتعقبه . ولقد أجمع المصريون على منع مروان من دخول مصر فاضطر إلى دخولها عنوة ، ولكنه كان قد تقطعت به الأسباب فأدركه العباسيون فى بوصير من أعمال الأشمونيين وقتلوه . ولو أن المصريين لم ينحرفوا عن الأمويين وقاموا فى نصرتهم قياما حسنا لتغير مجرى الحوادث فى أغلب الظن تغيراً كبيراً .

* * *

لم يكد الأمر يستقر لبنى العباس حتى دهمتهم ثورة عظيمة قام بها العلويون من بنى الحسن بن على بن أبى طالب ، فقد رفع لواء الثورة بالحجاز سنة ١٤٤ محمد بن عبد الله الحسنى العلوى الملقب بالنفس الزكية ، وثار أخوه إبراهيم بن عبد الله بالعراق . وتفاقم الأمر واشتد الخطب على الخليفة المنصور وتجرد له تجرداً تاما . وبثت الدعوة فى مصر للعلويين

فاستجاب لها المصريون . وخاف المنصور اتصال الحركة العلوية المصرية بالحركة العلوية بالحجاز ، فأمر بطم خليج أمير المؤمنين الموصل بين النيل والبحر الأحمر . ولكن حركة العلويين بالحجاز والعراق باءت بالفشل وغُلب الزعيمان العلويان على أمرهما وقتلا . عند ذلك انتهت الثورة العلوية فى مصر (سنة ١٤٥) .

ولما وقعت الحرب بين الأخوين الأمين والمأمون انقسم المصريون حزبين أحدهما مشايع للأمين والآخر للمأمون . ووقعت الحرب فعلا بين الحزبين ولم تنطفئ جذوتها فى مصر إلا عندما بلغ المصريين مقتل الأمين سنة ١٩٨ . ولكن المصريين لم يلبثوا أن ثاروا بالمأمون وخلعوه عندما بلغهم نبأ أخذه البيعة بولاية العهد للإمام على الرضا العلوى ، فلما بلغهم موت على الرضا وانخذال إبراهيم بن المهدى الذى ادعى الخلافة فى بغداد أخلدوا إلى السكون .

بقى الحدث الأخير والخطير . لقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الموالى من عجم فارس وخراسان ، والواقع أن انتصار العباسيين على الأمويين كان انتصاراً للعجم على العرب وإيذاناً بذهاب نفوذ العرب السياسى ولا شك أن ذلك كان الحافز الأول لثورات العرب طوال العصر العباسى الأول فى العراق والشام ومصر ، وإن اتخذت هذه الثورات صوراً شتى كما رأينا . ثم يأتى الخليفة المعتصم فيكيل للنفوذ العربى الضربة القاضية . وذلك بعد أن تكامل له جيش تركى قوى ، فيسقط العرب من الديوان ، ويأمر بقطع عطائهم . وكتب بذلك إلى عامله على مصر نصر بن عبد الله الملقب بكيدر ، فأنفذ كيدر أمر الخليفة . يقول الكندى : « ولما قطع العطاء خرج يحيى ابن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام وقال هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيأنا واستمع إليه نحو من خمسمائة رجل » .

ولكن كل هذه الثورات إن كانت قد تمخضت عن شىء فإنما تمخضت عن تحول خطير فى وضع مصر السياسى . لقد شعر المصريون بقوتهم وتنبه وعيهم القومى ، فأخذوا يعملون على الاستقلال بشئونهم الداخلية على أقل تقدير ، والدليل على ذلك أن أسرة عربية مصرية تعرف بآل السرى بن الحكم تولت أمور مصر بإجماع جند مصر اثنتى عشرة سنة (من ٢٠٠ إلى ٢١١) فكان ذلك تمهيداً لاستقلال مصر فعلا عن الدولة العباسية وقيام الدولة الطولونية فى سنة ٢٥٤ هـ .

الحركة الفكرية :

لا شك أن الحركة الفكرية من أجل حوادث القرون الثلاثة الأولى من حياة الدولة الإسلامية ، وإنا لنستمتع بالتراث الضخم الذى خلفه لنا ذلك العصر الزاهر فى ميدان العلوم والفنون والآداب الإسلامية ، نعم إن الحركة الفكرية ازدهرت فى الشام والعراق بحكم أنهما كانا مقر الخلافة الأموية والعباسية . ولكن ينبغى ألا نغمط مصر نصيبها من هذه الحركة ، فالحق أن الفسطاط غدت بيئة علمية تذكرنا البصرة والكوفة ، وأصبح جامع عمرو أشبه بجامعة تدرس بها علما الحديث والفقه كما تدرس الآداب العربية .

أما الحديث فقد هبط مصر عدد كبير من أجلاء الصحابة الذين أدركوا الرسول (صلعم) وشرفوا بصحبته والسماع منه ، فكانوا رواة لعدد كبير من الأحاديث روى عنهم ثم دون بعد ، من هؤلاء عمرو بن العاص وقد رووا عنه أكثر من عشرين حديثاً ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، رووا عنه أكثر من مائة حديث ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ورووا عنه ثمانية أحاديث ، وأبو أيوب الأنصارى ولهم عنه تسعة أحاديث ، وقيس بن سعد بن عبادة ، وجابر بن عبد الله الأنصارى ، ورووا عن كل منهما أحاديث غير معينة العدد ، وفَضَالة بن عبيد الأنصارى ، ولهم عنه نحو عشرين حديثا ، وعقبة بن عامر الجهنى الذى تولى إمرة مصر ولهم عنه نحو مائة حديث . ويعنى ابن عبد الحكم فى تاريخه بالنص على ما تفرد هؤلاء بروايته من الأحاديث وما شاركهم فيه غيرهم من محدثى الأقطار الأخرى ، وهو بحث على طريف . وبذلك أسهم المصريون فى جمع سنة الرسول (ص) وهى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن ، فلما ابتدأ تدوين الحديث النبوى بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز كانت الرواية المصرية ذات محل بارز فى كتب الحديث التى ظهرت ابتداء من القرن الثانى الهجرى .

والقرآن والحديث هما مادة الفقه الإسلامى الأساسية ، ولاشك أن اشتغال المصريين بهما كان مؤديا لامحالة إلى اشتغالهم بالفقه ، فإذا تذكرنا أن نظاما محكما للقضاء قد قام فى مصر الإسلامية من أول الأمر ، وأن القضاء كان لا يتولاه فى الصدر الأول إلا الراسخون فى العلم بالكتاب والسنة والقادرون على الاجتهاد والاستنباط ، فقد تبين لنا أن وسائل الدراسة الفقهية قد

تكاملت وسائلها فى مصر فى زمن مبكر لا يكاد يعدو أوائل القرن الثانى ، وذلك مستفاد من ظهور طائفة كبيرة من أئمة الفقهاء الذين رفعوا دراسة الفقه مكانا عليا . نخص منهم بالذكر « الإمام الليث بن سعد » المتوفى سنة ١٧٥ ، وكان فقيه مصر وعالمها ، ولد بقلقشندة ، وكان له اتصال بالإمام مالك ، يكاتبه فى مسائل التشريع ويحاجه ، ولقد عرض عليه الخليفة المنصور ولاية مصر فأباها . ثم « أبا محمد عبد الله بن وهب » المتوفى سنة ١٩٧ وقد شهد له الإمام مالك ، وكان يكتب إليه « إلى فقيه مصر ... » ثم « الإمام الشافعى » المتوفى سنة ٢٠٤ ولد بغزة من أرض الشام وتنقل فى الأقطار الإسلامية ، ولقى الإمام مالكا ، وأخذ عنه « الموطأ » ورحل إلى العراق غير مرة ، ودون مذهبه هناك ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٩٩ واستقر بها ، وفيها كملت مواهبه الفقهية ، وأملى على تلاميذه بجامع الفسطاط كتبه الجديدة التى يعبر عنها « بالقول الجديد » ويجمعها « كتاب الأم » ، وهو المذهب الذى أداه إليه اجتهاده فى مصر .

ثم « أبا محمد عبد الله بن عبد الحكم » المتوفى سنة ٢١٤ وقد بلغ هو وابناه محمد وعبد الرحمن صاحب « كتاب فتوح مصر » منزلة عالية فى العلم والجاه ، وكان صديقاً للشافعى وعليه نزل الشافعى حين جاء مصر فأكرم مثواه وبلغ الغاية فى إكرامه .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نشير إلى أن محمد بن جرير الطبرى ، شيخ المؤرخين والمفسرين وفد على مصر مرتين فى سنتى ٢٥٣ و ٢٥٦ وكتب عن علماء الفسطاط ، وجرت له فيها نوادر ذكرها ياقوت فى ترجمته .

ولقد كان موقف علماء مصر من مسألة القول بخلق القرآن مشرفا لهم . فقد امتنعوا عن متابعة المأمون والمعتصم والواثق فى القول بخلق القرآن ولقوا من جراء ذلك العزل والحبس والتشهير ، ولكنهم احتملوا كل ذلك فى صبر وإباء حتى انجابت الغمة بمجىء المتوكل وأبطاله امتحان الفقهاء والعلماء فى مسألة القول بخلق القرآن .

ذلك مبلغ تقدم العلوم الشرعية فى مصر حتى الثلث الأول من القرن الثالث الهجرى وهو تقدم لا شك عظيم . ومشاركة من مصر فى تحرير علوم الحديث والفقه نذكرها بمزيد الإعجاب .

أما الحركة الأدبية فلم تبلغ فى مصر مبلغ العلوم الشرعية إلا أن مصر أنجبت شعراء

بلغاء لم تصل إلينا دواوينهم كاملة للأسف أمثال مُعَلّى الطائى ، وسعيد بن عفير ثم أنها اجتذبت إليها طائفة من كبار شعراء العراق أمثال ابن قيس الرقيات وأبى نواس ، ولا ننسى أن الشاعر المبدع أبا تمام الطائى نشأ وتأدب فى جامعة الفسطاط .

* * *

ذلك مبلغ ما أسهمت به مصر فى الأحداث العامة فى الدولة الإسلامية حتى منتصف القرن الثالث ، ومنه نتبين أن مصر شاركت فى كل مناحى الحياة العامة من حيث الفتوح الحربية والحوادث السياسية ، والحركة الفكرية ، وكان ذلك مما أبرز شخصيتها وكشف عن جلالة قدرها وخطرها وهيأ لها السبيل إلى أن تصبح بعد فى العصر العباسى الثانى دولة إسلامية قوية أثرت فى التاريخ الإسلامى بل فى التاريخ العام أبلغ الآثار . وموعدنا لبيان ذلك بحث آخر ومقام آخر إن شاء الله .

القسم الثـانى

المغرب والأندلس

موسى بن نصير

١٩ — ٩٨ هـ

هو أبو عبد الرحمن موسى بن نصير فاتح المغرب والأندلس ، وناشر الإسلام واللغة العربية فيهما والممهد لقيام الحضارة الإسلامية فى هذين القطرين العظيمين .

وشخصية موسى بن نصير يحفها الغموض من كثير من نواحيها ، كما أن سيرته تناولها القصاص فأحالوها قصة للخيال منها حظ غير قليل ، ولكنا نقصر حديثنا على الثابت المستيقن من أخباره .

كان أبوه نصير من قبيلة بكر بن وائل الربعية العراقية ، أسره خالد بن الوليد فى وقعة عين التمر سنة ١٢ مع فتيان آخرين كانوا فى بيعة يتعلمون الإنجيل ، والظاهر أن نصيرا أسلم غداة الأسر ، ثم انتقل إلى الحجاز ودخل فى قبيلة لخم اليمنية ، وتزوج منها امرأة رزق منها ابنه موسى فى سنة ١٩ هـ فى خلافة عمر بن الخطاب . ثم نجد نصيرا بعدُ فى الشام على خيل معاوية ، فلما عزم معاوية على الخروج لحرب على بن أبى طالب لم يخرج معه نصير تحرجاً ، وقبل معاوية عذره ، ولم يكرهه على الخروج معه .

عاصر موسى فى صباه أحداثا جساماً ، منها مقتل الخليفة عثمان ، والحرب بين على ومعاوية ، وثورة آل الزبير . وكان فى موسى طموح وتطلع إلى المجد شديد ، فلم يجر على سنة أبيه من البعد عن السياسة ومحرجاتها ، بل خاض غمارها ، فأخذ جانب عبد الله بن الزبير ، واشترك فى وقعة المرج بالشام سنة ٦٤ ولما انتهت تلك الوقعة الكبيرة بهزيمة أنصار ابن الزبير وانتصار مروان الأموى وحزبه ، كان موسى من بين الذين أراد مروان ضرب أعناقهم من أنصار ابن الزبير ، ولكن موسى استجار بعبد العزيز بن مروان فشفع فيه لدى أبيه لما رأى من عقل موسى ولبه ، وقبل أبوه شفاعته . وأصبح موسى من ذلك

الوقت حتى آخر حياته من أشد أنصار الأمويين إخلاصا لهم ولدولتهم .

* * *

ويتولى الخلافة بعد مروان ابنه عبد الملك ، فيظهر موسى على مسرح الحوادث مرة أخرى ، ولكن فى العراق لا فى الشام ، وفى البصرة بالذات . فقد تدخل أول الأمر فى المنافسات الحزبية الناشبة إذ ذاك بالبصرة ، مما يدل على أنه أصبح شخصية ملحوظة وذات اعتبار خاص ، ثم يوليه الخليفة خراج البصرة فيتهم بأنه احتجن مالا من مال الدولة وتشتد عليه وطأة الحجاج أمير العراق بإيعاز من الخليفة ، ولا ندرى مبلغ هذه التهمة من الصحة فلعلها راجعة إلى الحزازات الحزبية الفاشية إذ ذاك فى العراق . ومهما يكن من الأمر فقد فر موسى إلى مصر واحتمى مرة أخرى بعبد العزيز بن مروان . ويخف الأمير إلى الخليفة ومعه موسى ، وتسوى المسألة بأن يحمل الأمير عن موسى نصف المال المطلوب ، ثم يعود إلى مصر ومعه صاحبه .

* * *

فى ذلك الوقت ، أى فى أواخر العقد الثامن من القرن الأول الهجرى ، اضطربت أحوال المغرب وانتقضت البربر وفسدت أمور ذلك الأقليم ، هذا إلى أن المغرب الأقصى لم يكن قد فتح بعد . فرأى عبد العزيز بن مروان ، وكان إليه أمر المغرب ، أن ليس لإصلاح هذه الحال غير موسى بن نصير فولاه عليه ولاية عامة فى سنة ٧٩ هـ على أرجح الأقوال ، وبتلك الولاية شرع موسى يخط صفحة مجده وفخاره الباقى على الزمان .

كان موسى إذ ذاك قد استحكمت سنه ، ونضجت مواهبه ، وتمت تجاربه ، فأقبل على عمله الضخم بهمة عظيمة ، وعزيمة متقدة ، مستعينا فى جميع أمره بأبنائه النجباء عبد الله وعبد العزيز ومروان ، وبرجال من البربر اصطفاهم واصطنعهم بصلة الولاء أمثال طارق بن زياد وطريف ابن مالك . فقمع فتنة البربر فى شىء من العنف والشدة ، ثم استمالهم بعد إلى الإسلام فأسلموا وتكلموا العربية ، ثم حمل بهم وبالعرب على المغرب الأقصى ففتحه ونشر فيه الإسلام واللغة العربية ، وخلط البربر بالعرب وعاملهم جميعا معاملة واحدة ، وهى سياسة حكيمة لم تكن إذ ذاك متبعة فى المشرق . وبذلك أصبح تحت يده قوة عظيمة جملته يمد عينيه إلى

ما وراء خليج الزقاق ، إلى إسبانيا . ولكنه يرى أن الفرصة فى أمر إسبانيا لم تسنح بعد ، فيترك أمرها مؤقتاً ويعود إلى مقر إمارته بالقيروان ، تاركا مولاه طارق بن زياد فى طنجة ومعه حامية قوية ليرقب الأحوال وينهى إليه ما عسى أن يكون من تطور الأمور .

***

كانت إسبانيا إذ ذاك تحت حكم القوط ، وكانت فى حال اضطراب سياسى وانحلال عام . يتنازع الملك فيها فريقان ، فريق يمثل الأسرة المالكة الشرعية وعلى رأسه رجل يقال له يليان وفريق آخر يمثله « لذريق » الذى اغتصب الملك اغتصاباً . فلجأ ممثلو الفريق الأول إلى طارق يلتمسون منه النصرة ، ويهونون عليه أمر الأندلس ، فأحالهم طارق على مولاه موسى ، فأدرك موسى أن الفرصة فى أمر إسبانيا قد أمكنت ، وكتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه فى غزو اسبانيا ، فجاءه الرد بالإذن على أن يلتزم الحيطة والاحتراس الشديد .

وعمل موسى بما أشار به الخليفة ، فاختبر السواحل الإسبانية بالسرايا ، سرية إثر سرية فجاءت نتيجة اختباره مشجعة له على الشروع فى الغزو ، فسير طارقاً على رأس جيش قوى أكثره من البربر وأقله من العرب ، فنزل طارق بالصخرة التى عرفت بعد « بجبل طارق » ثم تقدم غرباً والتقى بلذريق فى وقعة البحيرة فى رمضان سنة ٩٢ ، فيهزم لذريق ويقتل فيما يقال وينتصر طارق انتصاراً حاسماً ، ثم يزحف طارق من فوره نحو طليطلة عاصمة الدولة القوطية فيدخلها عنوة .

عند ذلك يرى موسى أن قد آن أن ينهض بنفسه لإتمام ما شرع فيه من الفتح وليتفادى ما عسى أن يحل بطارق وجيشه بعد أن أوغل فى أرض العدو . فركب البحر فى سنة ٩٣ فى أسطول كان قد أخذ فى إعداده عند تسييره طارقاً وسلك طريقاً غير الطريق التى سلكها طارق ، وفتح مدناً عظاماً ثم التقى بطارق فى طليطلة ، ثم سار ومعه طارق يفتح الأقاليم الشمالية الشرقية حتى بلغ جبال البرانس الحاجزة بين إسبانيا وفرنسا .

العجب من أمر موسى ، وهو شيخ قد أربى على السبعين ، أن يهم بأن يعبر جبال

البرانس ويصير مشرقاً فاتحاً كل ما يعترضه حتى يستولى على القسطنطينية ويأتى دار الخلافة بالشام .

ويبلغ هذا الحلم مسامع الخليفة ، فيرى فيه بطبيعة الحال إسرافاً وتغريراً ، فيستدعى الفاتحين موسى وطارقاً من فوره إلى الشام . فلا يسع موسى إلا أن يصدع بالأمر فيخرج سنة ٩٥ قاصداً الشام ، ومعه من الغنائم والسبى والأسرى ما لم يسمع بمثله فى تاريخ الفتوح

* * *

كان من حق هذا الفاتح للظفر والشيخ الكبير أن ينعم فى البقية الباقية من عمره بنعمة الراحة والدعة ، ولكن أبت عليه الأقدار ذلك . قالوا : إنه لما بلغ موسى فى طريق عودته فلسطين كان الخليفة مريضاً مرض موته ، فكتب إليه ولى العهد سليمان بن عبد الملك يطلب إليه عدم العجلة فى السير حتى يتوفى الخليفة ، فتصير إليه الأموال التى مع موسى . ولكن موسى أسرع السير وقدم على الخليفة قبل وفاته بثلاثة أيام . فلما تولى سليمان الخلافة أراد الانتقام من موسى لعصيانه أمره ، فأقبل يحاسبه حساباً عسيراً وطالبه بأموال جسام عجز موسى عن أدائها فجعل يعذبه ، ثم إن موسى استجار بيزيد بن المهلب وكان أثيراً لدى الخليفة الجديد ، وسوى الأمر بأن افتدى موسى نفسه بمال عظيم يؤديه ما عاش . وظل موسى يستعين لقومه من لخم وأحياء العرب على أداء ما التزم به حتى أدركه الموت فى وادى القرى سنة ٩٨ هـ . ولقد عدت نكبة موسى هذه من سيئات الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وكانت فى الحق كثيرة .

* * *

هذا هو الجانب الأعم والأشهر من سيرة البطل الفاتح موسى بن نصير . غير أن لهذه السيرة جانباً آخر لا يقل طرافة عما ذكرنا . فالرواية تصف موسى بالعقل والورع والتقوى والشجاعة ، وبأنه لم يهزم له جيش قط ، وتصفه ببلاغة العبارة والقدرة على قول الشعر الحسن وبالإحاطة بالمعارف السلطانية من حرب وإدارة وسياسة ، وتصفه فوق ذلك كله بأنه تابعى جليل روى الحديث عن تميم الدارى ورواه عنه هو آخرون . ولكن أمراً واحداً

هو سر نجاحه وعظمته ، ذلك حرصه على القيام بواجبه ، ففي سبيل الواجب قام بما قام به من الفتوح العظام ، وفي سبيل الواجب احتمل ما احتمل من الأذى والضُّر .

قالوا : إن يزيد بن المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى ، فقال له : « يا أبا عبد الرحمن ! في كم كنت تعتد ، أنت وأهل بيتك ، من الموالي والخدام ؟ أتكونون في ألف ؟ » فقال : نعم ! وألف ، وألف ، إلى منقطع النفس ! » قال : « فلم ألقيت بنفسك إلى التهلكة ؟ أفلا أقمت في قرار عزك ، وموضع سلطانك ؟ فقال : والله ! لو أردت ذلك ، لما نالوا من أطرافي شيئاً ! ولكني آثرت الله عز وجل ورسوله ، ولم أر الخروج عن الطاعة ! » .

أما بعد ، فقد يكون سليمان بن عبد الملك قد نال بطغيانه وجبروته من مال موسى وبدنه ، أما مجد موسى ، وعظمة موسى ، فلم يستطع سليمان بن عبد الملك أن ينال منهما منالا ؟

حـــديث

الفتية المغررين من أهل لشبونة*

كان جغرافيو الأغريق يعتقدون أن الأرض المعمورة يحيط بها بحر عظيم سموه « أقيانوس » ، وقد تابعهم جغرافيو العرب فى اعتقادهم هذا ، وأطلقوا على البحر الذى يحيط بالمعمورة أسماء مختلفة : منها البحر المحيط ، وبحر الظلمات ، والبحر الأخضر ؛ كما قسموه باعتبار الجهات الأربع إلى محيطات أربعة : شمالى وجنوبى وشرقى وغربى .

والمحيط الغربى هو الذى تسميه الجغرافيا الحديثة بالمحيط الأطلسى أو الأطلنطى .

***

لم يجرؤ من القدماء على النفوذ إلى المحيط الغربى والإيغال فيه إلا الفينيقيون أهل مدينة صور ، وإلا أعقابهم القرطجنيون أهل قرطجنة ، فهم الذين نفذوا إليه ، وركبوا ثبجه ، ولججوا فيه شمالا حتى الجزائر البريطانية ، وجنوبا حتى منعطف خليج غانة العظيم ، وللملاح القرطجنى (هنو) القدح المعلى فى كثير من هذه الأسفار البحرية العظيمة .

ولكى يحتكر الفينيقيون هذا البحر ، ويستأثروا بخيرات جزائره وسواحله الأوربية والأفريقية ، ويمنعوا الأغريق من منافستهم فيها ، ملأوا أسماع الناس واسترهبوهم بأباطيل لفقوها عن هذا البحر وأذاعوها ، فقد صوروه بحراً عظيم الأهوال عاتى الرياح ، يركبه ظلام حالك ، وتسبح فيه كائنات منكرة الأشكال ، وتعمر جزائره التنانين والأغوال والسعالى ، وتستقر فى جوفه براكين تقذف بالنار والحمم والدخان ، وأنه نهاية للمعمور ومنقطعه ، وأنه ليس فيه ولا وراءه مطمع لطامع .

ولقد عمل هذا التخويف والإرهاب عمله فى ملاحى الأغريق وطلاب الاستعمار منهم ، فتحاموا ركوب هذا البحر المخوف ، وقصروا نشاطهم التجارى والاستعمارى على البحر

(*) الثقافة : العدد ١٣٦ ، سنة ١٩٤١ .

الأبيض المتوسط . على أن هذه الأراجيف لم تمنع الخيال الإغريقي من تناول هـذا البحر والذهاب فى تصوره كل مذهب ، فلقد تغنى هوميروس بغروب الشمس فى لجة هذا المحيط ، كما قرر أفلاطون فى بعض حوارياته أنه كان فى هـذا المحيط الغربى جزيرة عظيمة تسمى « أطلنطة » ، وأنه كان بها دولة عظيمة غزت أراضى البحر الأبيض المتوسط ، ولم يثبت لها إلا أهل أثينا ، وأن هذه الدولة كانت ذات نظام جمهورى مثالى ، ثم يقول الفيلسوف : إن هذه الجزيرة انقضى أمرها بأن طغى عليها البحر فأغرقها ، ولم يبق منها إلا جزائر صغار ترى فوق سطح المحيط .

والواقع أن المحيط الأطلسى ظل لغزاً غامضاً يستثير أعجب الأخيلة وأغرب التصورات ، إلى أن تمكن العرب فى القرن الثالث الهجرى من أرض المغرب الأقصى والأندلس ، وأصبحوا فعلاً مشرفين على هـذا الخضم العظيم ، وأنشأوا فيه الأساطيل الجرارة لرد عادية أهل الشمال عن سواحلهم ؛ وعندئذ نجدهم يقدمون على ركوب البحر المحيط فى غير ما خوف ولا وجل ، ويعرفون الشىء الكثير عن سواحله وجزائره ، ويصـفون كل ذلك وصفاً لا بأس به فى جملته .

* * *

ومن أعجب ما يروى عن عرب الأندلس فى هذا الصدد حديث فتية من مدينـة لشبونة ، ومن أهل القرن الثالث الهجرى أو التاسع الميلادى ، شاقهم المجهول من أمر المحيط الغربى ، فأحبوا أن يقفوا على مداه ، ويجلوا الغامض من أسراره ، فقاموا برحلة بحرية وعادوا منها بعد أهوال رأوها ، وقصوا حديث رحلتهم على أهل بلدهم .

ولقد أورد الشريف الإدريسى خلاصة حديثهم فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، قال :

« ومن مدينة لشـبونة كان خروج المغررين فى ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه . . . ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب إليهم يعرف بدرب المغررين إلى آخر الأبد ، وذلك أنهم اجتمعوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركباً حمالا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر فى أول طاروس

الريح الشرقية (أى هبوبها ؟) ، فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير القروش (الصخور التى لا يكاد يسترها الماء) قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى ، وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ، ولا ناظر إليها ، فقصدوا الجزيرة ، فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية ، وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم ، فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها ، فأخذوا من جلودها ، وساروا مع الجنوب اثنى عشر يوما ، إلى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث ، فقصدوا إليها ليروا ما فيها ، فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم فى زوارق هناك ، فأخذوا وحملوا فى مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بها فى دار ، فرأوا بها رجالا شقراً زعراً شعور رؤوسهم ، شعورهم سبطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب . فاعتقلوا فيها فى بيت ثلاثة أيام ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى ، فسألهم عن حالهم وفيم جاءوا ، وأين بلدهم . فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك . فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه ، فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ويقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان : خبر القوم أن أبى أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى . ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جرى الريح الغربية ؛ فعمر بهم زورق وعصبت أعينهم ، وجرى بهم فى البحر برهة من الدهر ، قال القوم قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها حتى جيء بنا إلى البر فأخرجنا ، وكتفنا إلى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار ، وطلعت الشمس ، ونحن فى ضنك وسوء حال من شدة الكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا ، فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلونا من وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا ، فقال : إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : وا أسفى ! فسمى المكان

إلى اليوم « أسفى » وهو المرسى الذى فى أقصى المغرب » .

ويتم الإدريسى حديث هؤلاء الفتية فى موضع آخر من كتابه عند ذكر جزائر المحيط الأطلسى فيقول : « وفى هذا البحر أيضاً جزيرة الأخوين الساحرين الذين يسمى أحدهما شرهام ؛ والثانى شرام . ويقال إنهما كانا بهذه الجزيرة يقطعان على المراكب التى تمر بهما بظلمهما ، ويهلكان جميع أهلها ويأخذان أموالهم ، فمسخهما الله بظلمهما ، وبقيا حجرين على ضفة البحر قائمين ، ثم عمرت هذه الجزيرة بالناس ، وهى تقابل مرسى آسفى . . .

. . . ولهذه الجزيرة قصة غريبة أخبر عنها المغررون من أهل مدينة لشبونة بالأندلس حين أسقطوا إليها بمراكبهم » .

ويؤخذ من سياق كلام الإدريسى أن هؤلاء الفتية كتبت لهم السلامة وعادوا إلى بلدهم ، وحدثوا أهل لشبونة بما رأوا وعاينوا فى رحلتهم ؛ ولكن أهل لشبونة لم يروا فى هؤلاء الفتية بعد كل الذى سمعوه منهم إلا رجالا مغررين مخاطرين ؛ وسموا الدرب الذى فيه دورهم بدرب المغررين .

* * *

ومهما يكن رأى أهل لشبونة فى هؤلاء الفتية ورحلتهم ، فإن ما قاموا به طريف حقاً ؛ ورحلتهم هى الأولى من نوعها بعد رحلات الفينيقيين القدماء . ومعالم قصتهم صحيحة صادقة من الوجهة العلمية . فالظاهر أنهم عندما ساروا أول الأمر أحد عشر يوماً متجهين شمالا إنما أصبحوا فى محاذاة إرلندة ، فلما ساروا بعد ذلك نحو الجنوب اثنى عشر يوما وبلغوا الجزيرة التى سموها جزيرة الغنم ، إنما بلغوا الجزيرة المسماة الآن بماديرا . ويذكر العلامة دافزاك نقلا عن العالم الطبيعى برتلو أن بهذه الجزيرة كثيراً من المعز تقتات بنوع من عشب هذه الجزيرة هو السبب فى مرارة لحومها . أما جزيرة الأخوين الساحرين اللذين مسخا حجرين فهى الجزيرة التى تعرف الآن بجزيرة (لنساروت) وبطرفها الشمالى صخرتان متقابلتان هما اللتان تحدث عنهما الفتية فى حديثهم ؛ وهذه الجزيرة هى فى أغلب الظن التى جرى للفتية مع ملكها الحديث الذى قصه الإدريسى .

وكما ذابت معلومات الفينيقيين والقرطجنيين عن البحر المحيط وجزائره فى أوهام القدماء

من اليونان والرومان ، فكذلك ذابت معلومات هذه القصة فى أوهام أوربى العصور الوسطى ، وظهر ذلك واضحاً فى القرن الحادى عشر خاصة ، ولا أدل على ذلك من قصة رحلة مزعومة تضاف إلى راهب إرلندى يعرف بالقديس براندان .

كان هذا الراهب من أهل إرلندا ، وقد عاش فى القرن السادس الميلادى ، و ينسبون إليه أنه أراد أن يبلغ الجنة التى جعلها الله مباءة لصالحى القديسين ، والتى توهمها جزيرة من جزائر المحيط الأطلسى . فأعد سفينة شحنها بالزاد ، وركب فيها هو وسبعة عشر من أصحابه الرهبان ، ثم ضربوا بها فى عرض البحر ، فبلغوا جزيرة الغنم وجزيرة الطيور (لكثرة ما بها من طير الماء ، وقد وصفها الإدريسى) ، وعاينوا من العجائب والغرائب الشىء الكثير : من ذلك جزيرة جرداء طلعوا إليها ، فلما أوقدوا بها ناراً لإصلاح طعامهم اهتزت بهم ، فأسرعوا إلى الفرار منها ، فإذا هى حوت عظيم راكد على سطح الماء . ومنها أنهم عاينوا طائراً هائلا يختطف الوحوش الكبار . ثم يعود الراهب وأصحابه من رحلتهم هذه إلى إرلندة ، و يقصون على قومهم ما رأوا وعاينوا

ومع أن الراهب براندان من أهل القرن السادس الميلادى ، فإن قصة رحلته المذكورة لم تظهر إلا فى القرن الحادى عشر . وقد أبى من دونوا أخبار القديسين أن يسجلوا هذه القصة ، واعتبروها حديث خرافة ، والواقع أن قصة الراهب الأرلندى ليست إلا قصة الفتية المغررين التى ذكرناها مع ما أضيف إليها من أخبار عجيبة أخذت من أسفار السندباد البحرى المشهورة فى قصص « ألف ليلة وليلة » ، وذلك كحكاية الحوت الذى ظنه الراهب جزيرة ، وحكاية الطائر الهائل الذى هو (الرخ) فى قصص السندباد .

* * *

أما بعد ، فقد جرى فى أوربا — فى القرن الماضى — جدل شديد بين المؤرخين ، مداره أى الشعوب الثلاثة أسبق إلى ركوب المحيط الأطلسى وكشف غوامضه : الجنويون أم الفرنسيون ، أم البرتغاليون ؟ ومن العجيب أنه لم يذكر من هؤلاء المؤرخين ذاكر أن هذه الشعوب الثلاثة قد سبقت إلى ركوب هذا المحيط لكشف غوامضه بمئات السنين ، وأن السابقين إلى ذلك كانوا أولئك « الفتية المغررين » من أهل لشبونة .

زرياب المغنى*

إذا قدر للأندلس أن يكتب تاريخها الفنى والاجتماعى ، فلا شك أن أنضر صفحة فى ذلك التاريخ المجيد وأعجبها قد تكون صفحة أبى الحسن على بن نافع المغنى الملقب بـ « زرياب » . فهو رجل استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة إلى حال الحضارة . وذلك بشيئين اثنين : تحبيب الموسيقى إليها ، وتنظيم حياتها اليومية .

***

فتح المسلمون الأندلس فى العقد الأخير من القرن الأول الهجرى ، وانتشرت قبائلهم العربية والبربرية فى سهولها وحزونها ، ولكنهم ظلوا حتى أواخر القرن الثانى بداة جفاة ، كلما اجتمعت كلمتهم لم يلبثوا أن تفرق بينهم الإحن والعداوات المنبعثة عن العصبية القبلية . فكأنهم لا يزالون ضاربين فى هضاب نجد وسهول تهامة ومفاوز إفريقية وشعابها . ثم أخذت شئونهم السياسية تستقر وتتسق بفضل مجهودات المتقدمين من أمراء الدولة الأموية الأندلسية : عبد الرحمن الداخل ، وهشام ، والحكم ، وعبد الرحمن الأوسط . أما الأحوال الاجتماعية فظلت على ما كانت عليه بداوة واضطرابا .

وعلى العكس من ذلك كان الشرق الإسلامى فى ذلك الزمان ، فقد استبحر فيه العمران وبلغت المدنية الإسلامية فيه غايتها ، وتعلق فيه ذوو الدعة واليسار بأسباب الكمالى من شئون الحياة بعد أن استكفوا الضرورى والحاجى منها على حد تعبير ابن خلدون . وقد ساعفهم فى ذلك عامل الدين وعامل التاريخ معاً . فأما المعتدلون منهم فكانوا يستندون إلى أن الدين الإسلامى دين يسر يحب من المؤمن أن يكون هينا لينا موفور الحظ من الظرف والكياسة . غير فظ ولا غليظ القلب ، ولا ناس نصيبه من الدنيا . وأما المتطرفون فوجدوا فى تقاليد الفرس والروم الاجتماعية ما جعلهم يؤثرون العاجلة ويحرصون على لذة الحياة الدنيا ومتعها ، أيا كانت الطرق الموصلة إليها .

(*) الرسالة ، العدد ٧ ، سنة ١٩٣٣ .

وقد تألفت من هؤلاء وهؤلاء طبقة أرستقراطية ، مرهفة الأذواق ، رقيقة الطباع ، ترى فى الموسيقى ومجالس الأنس والطرب وحفلات السمر خير ما ينقعون به غلة تلك الأذواق المرهفة والطباع المترفة . هذا هو السبب المباشر فى تقدم صناعة الغناء فى ذلك الزمان ، وبلوغها الغاية على أيدى إبراهيم بن المهدى ، وإبراهيم الموصلى ، وابنه إسحق . وهذا هو السبب كذلك فى استفاضة مجالس الأنس والطرب لذلك العهد فى مدن الشرق الإسلامى عامة وبغداد خاصة ، وفى بلوغ هذه المجالس درجة من التأنق يمكن تصورها إذا عرفنا أنهم وضعوا لها آدابا كانوا يأخذون بها من يحضرها من الندماء ، والجلساء ، والسمار .

من ذلك أن يكون الغناء قوامها ، وأن يحتفل لها بلبس الثياب المصبغة الأنيقة ، وأن يزين المجلس بالأزهار والرياحين ، وألا يحضرها إلا من كان مهذبا خفيف الروح ، حاضر البديهة ، قادراً على قول الشعر وارتجاله ، فضلا عن تذوقه وروايته عند ما يقتضى المقام ذلك .

إلى هذا الشرق اتجه أمراء بنى أمية الأندلسيون ، وهم أبناء خلائف دمشق ورصافتها ، يستهدونه فنانين ومعلمين يهذبون ما غلظ من طباع العرب والبربر والمولدين ، وينظمونها جميعاً فى نسق واحد . وقد أهدى الشرق إلى الغرب غير واحد من المغنين أمثال علون ، وزرقون . ولكن زريابا كان أعظم هؤلاء جميعاً وأبعدهم أثراً .

* * *

كان أبو الحسن على بن نافع مولى الخليفة المهدى العباسى ، ولسمرة لونه ورقة شمائله لقبوه بزرياب ، تشبيها له بطائر أسود غرد يعرف عندهم بهذا الاسم . وقد تكاملت لزرياب كل أسباب النبوغ والتفوق موهوبها ومكسوبها ؛ فكان شديد الذكاء ، لطيف الحس ، عارفاً بالنجوم والأقاليم ، شاعراً فصيح الشعر . غير أنه كان إلى الغناء أميل وبه أشغف . وقد درسه علما فى كتب الأقدمين من حكماء اليونان ، وعملا على أستاذه إسحق الموصلى زعيم المغنين فى ذلك الوقت ، ولشدة افتتان زرياب بالموسيقى كان تفكيره فيها لا يكاد ينقطع حتى أنه ليلهم « النوبة والصوت » وهو نائم فيهب من نومه مسرعا ، ويقيد ما وقع له أو يلقيه على جاريتيه غزلان وهنيدة ، ثم يعود إلى مضجعه عجلا ، ومن ثم قيل

إنه كان يأخذ ألحانه عن الجن كما قيل فى إبراهيم الموصلى نفسه . قالوا وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغانى بألحانها . ولم يأل زرياب جهداً فى أن يأخذ نفسه بالأدب الرفيع والسلوك العالى المصطلح عليه فى البيئة التى كان يعيش فيها ببغداد ، بيئة البلاط وقصور الأمراء ورؤساء الدولة العباسية .

***

ويذكرون أن السبب فى هجرة زرياب من المشرق إلى المغرب ، أنه غنى يوماً فى حضرة هارون الرشيد ، فأخذ الخليفة بصناعته وظرفه وطلب إلى إسحق أن يعنى به حتى يفرغ لسماعه . ولكن إسحق لم يلبث أن تحركت فى نفسه عوامل الغيرة والحسد والحقد على تلميذه ، فخلا به وخيره بين الموت والحياة ، بين أن يقيم ببغداد فيعرض حياته للهلاك ومهجته للتلف ، وبين أن يذهب فى أرض الله العريضة فينجو بحياته ، ووعده إذا هو اختار ثانى الأمرين أن يعينه على الرحيل بما شاء من المال وغير المال ، فاختار زرياب الرحيل عن المشرق بأسره ، ووفى له إسحق بما وعده به من المعونة .

وتذكره الرشيد بعد أن فرغ من شغله الذى كان منهمكا فيه ، وطلب إلى اسحق إحضاره فقال : « ومن لى به يا أمير المؤمنين ! ذلك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه ، فما يرى فى الدنيا من يعدله ، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين ، وترك استعادته ، فقدر التقصير به والتهوين لصناعته ، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عنى ، وقد صنع الله تعالى فى ذلك لأمير المؤمنين ، فإنه كان به لمم يغشاه ويفرط خبطه ، فيفزع من رآه » . يقول المقرى « فسكن الرشيد إلى قول إسحق وقال : على ما كان به ! فقد فاتنا منه سرور كثير » .

***

خرج زرياب من بغداد يؤم المغرب ، فلما كان بأفريقية اتصل بصاحبها زيادة الله الأغلبى . ولكنه لم يطب له المقام بها ، فرحل عنها إلى المغرب الأقصى ، وهنا كتب إلى الحكم بن هشام ، أمير الأندلس المعروف بحبه للموسيقى ، يستأذنه فى دخول الأندلس والصيرورة إليه ، فأذن له الأمير فى ذلك من فوره . وعبر زرياب البحر إلى عدوة الأندلس

وبينما هو متأهب الرحيل إلى قرطبة إذ سمع بوفاة الحكم ، فهم أن يعود أدراجه إلى المغرب لولا أن كتب إليه الأمير الجديد ، عبد الرحمن الأوسط ، يستقدمه ويعده أن ينيله كل ما تصبو إليه نفسه من مال وجاه ، فقدم عليه زرياب . ويروون أن عبد الرحمن احتفل لقدمه أعظم احتفال إذ خرج بنفسه من قرطبة لتلقيه . وما هو إلا أن سمع غناءه وحديثه حتى شغف به ، فغمره بفضله وإنعامه ، وأجرى عليه من الرواتب والأرزاق الشيء الكثير ، حتى كان يركب بين يديه مائة مملوك . وقدمه الأمير على سائر المغنين ، وبلغ من شدة شغفه به أن جعل فى قصره باباً خاصا يستدعيه منه كلما أحب سماع غنائه الرائع ، وحديثه العذب الطريف .

وقد لقى زرياب الجميل بالجميل ، وجزى على المعروف بالمعروف ، ولكنه قصد إلى ذلك من طريق غير مباشر ، قصد إليه من طريق النصح والإخلاص للأندلس التى أصبحت له وطناً ، ولأهل الأندلس الذين أصبحوا قومه ومعشره . فعكف على رفع مستوى الموسيقى الأندلسية ، وعلى النهوض بالمجتمع الأندلسي حتى يدانى المجتمع الشرقى ببغداد . وقد وفق فيما قصد إليه كل التوفيق .

* * *

يمكن القول بأن زريابا نهض بالموسيقى الشرقية نهضة جديدة مطبوعة بطابعه ، وذلك بما أدخله على العود من إصلاح وتحسين ، وبما استن من طرق جديدة فى إلقاء الغناء وتعليمه . فقد اتخذ لنفسه وهو بالمشرق عوداً جعله على الثلث من وزن العود القديم ، وصنع أوتاره من حرير لم يغسل بماء ساخن فأكسبها أنوثة ورخاوة ، واتخذ بمها ومثلثها من مصران شبل أسد : « فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها » . فلما كان بالأندلس زاد أوتار العود الأربعة المقابلة للطبائع الأربع وترا خامسا يقوم مقام النفس من الجسد ، فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة كما يروى المقرى . واتخذ مضراب العود من قوادم النسر بدلا من مرهف الخشب ، « وذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه » . أما من حيث إلقاء الغناء ، فقد رسم زرياب أن يبدأ فى الإلقاء بالنشيد بأى نقر كان ، ثم يؤتى فى أثره بالبسيط ، ويختم

بالحركات والأهزاج . أما مذهبه فى تعليم الغناء فيقول فيه المقرى : « وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور للحروف بالمسورة ، وأن يشد صوته جداً إذا كان قوى الصوت ، فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة ، فإن ذلك مما يقوى الصوت فلا يجد متسعاً فى الجوف عند الخروج على الفم ، فإن كان ألص الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع ، يبيتها فى فه ليالى حتى ينفرج فكاه . وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته : يا حجام ! أو يصيح آه ! ويمد بها صوته ، فإن سمع صوته بها صافياً ، نديا ، قويا ، مؤديا ، لا تعتريه غنة ، ولا حبسة ، ولا ضيق نفس ، عرف أن سوف ينجب ، وأشار بتعليمه ، وإن وجده خلاف ذلك أبعده » . هذه العبارة تشير فى صراحة إلى أن زريابا إنشأ بالأندلس فى أوائل القرن الثالث الهجرى ما يصح أن نسميه بلغة الوقت الحاضر معهداً لتعليم الموسيقى .

ولم يكن زرياب أقل ابتكاراً فى شئون الحياة اليومية منه فى مجال الموسيقى والفن ، وهذا محل العجب من سيرته . فقد ابتكر لأهل الأندلس ألواناً من الطعام استطابوها ونسبوا بعضها إليه ، وعلمهم أن يشربوا من آنية الزجاج الرقيق بدلا من آنية المعدن . وهو أول من اجتنى لهم البقلة الشهية المعروفة بالهليون وكانوا لا يعرفونها من قبل ، وعلمهم أن يبسطوا سفر الأديم فوق الموائد الخشبية فذلك أنظف لها وآنق لمنظرها ، وعلمهم أن يلائموا بين ما يلبسون وبين فصول السنة الأربعة ، فيتدرجوا من الخفيف الأبيض صيفاً إلى الثقيل الملون شتاء ، ولفتهم إلى أنواع من الطيب والعطر لم يلبثوا أن أقبلوا عليها وفضلوها على ما كانوا يتعطرون به من قبل ، كما علمهم كيف ينظمون شعورهم ، تصفيفاً ، وتدويراً ، وإرسالا .

* * *

لا ندرى بالدقة متى توفى زرياب . والغالب أن وفاته كانت فى إمارة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) وكما رزق زرياب الحظوة عند أهل الأندلس فى حياته فقد رزقها ذكراه عندهم بعد مماته . ذلك بأن مذهبه فى الغناء وما رسم لهم من أسلوب للمعيشة ظل باقياً متوارثا فيهم حتى آخر أيامهم . فلما انتهى أمر الأندلس وخرج من

تبقى من أهلها إلى بلدان إفريقية الشمالية انتقل إليها بانتقالهم مقدار غير قليل من صناعة زرياب وآدابه . يقول ابن خلدون عند ذكره زريابا « فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف وطما منها بإشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب حضارتها إلى بلاد العدوة بإفريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها » .

ويقول المقرى « وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك فى كثير من ضروب الظرف ، وفنون الآداب ، ولطف المعاشرة ، وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يجده أحد من أهل صناعته حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته ، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوماً به » .

* * *

أما بعد ، فقد كان أهل رومية القديمة على عهد نيرون يلقبون سرياً من سراتهم اسمه بطرونيوس برب الظرف وسلامة الذوق ، لأنه كان عندهم مضرب المثل فى ذلك .

أما أهل الأندلس فقد وصفوا زريابا بأنه « معلم الناس المروءة » والمروءة عندهم كل الإنسانية ، وهو لا شك أجمل أوصافه ، وأحقها بأن يحفظه عليه التاريخ ويذكره به ؟

حكيم الأندلس

عباس بن فرناس(*)

مما يوصف به العقل اليونانى القديم أنه عقل لطيف ، نفاذ ، بحاث ، شكاك ، غواص على حقائق الأشياء ، حريص على الوصول إلى أسرار هذا الوجود ونواميسه التى يقوم عليها نظامه ، معني بفهم قوى الطبيعة وتسخيرها لمصلحة الإنسان .

بهذه الخصائص العقلية بلغ الأغريق القدماء ما بلغوا من تقدم فى أنواع المعرفة على اختلافها ، وأصبحوا المثل الأعلى فى البحث العلمى الصحيح .

ومن الشخصيات العلمية الإسلامية التى يصح أن توصف بما يوصف به الأقدمون من علماء الأغريق من حيث الشغف بالبحث العلمى ، والمخاطرة فى سبيل ذلك إلى أبعد حدود المخاطرة ، رجل أندلسى من أهل القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى ، اسمه عباس بن فرناس ، ويلقب بحكيم الأندلس .

وقد فسر اللغويون الحكمة بأنها عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وسموا من يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيماً ، ولكن الخوارزمى فى كتابه « مفاتيح العلوم » يقول عند كلامه على الكيمياء : « والمحققون لهذه الصناعة يسمونها الحكمة على الإطلاق » . ولعل وصف عباس بن فرناس بالحكمة إنما جاء من اشتغاله بالكيمياء كما سترى ، فلقب بالحكيم كما لقب من قبله خالد بن يزيد بن معاوية بحكيم بنى أمية ، وذلك لبصره بالكيمياء خاصة .

* * *

كان أبو القاسم عباس بن فرناس من مولدى الأندلس ، أى إسبانى الأصل ، وقيل بل كان من أصل بربرى ، أى أفريقى الأصل . وكان من موالى بنى أمية ، وكان أهله من

(*) الثقافة : العدد ١٣٤ يوليه سنة ١٩٤١

كورة تاكرنا الأندلسية . ثم انتقل إلى قرطبة ، وسكن منها الربض الغربى . والظاهر أن ذلك كان فى أوائل القرن الثالث ؛ وقد عاصر ثلاثة من أمراء الأندلس : الحكم الربضى ، وابنه عبد الرحمن الأوسط ، وحفيده محمد بن عبد الرحمن (١٨٠ — ٢٧٣ هـ) واتصل بهم جميعاً وحسنت مكانته عندهم .

وفى هذا العصر اشتد إقبال المسلمين على علوم اليونان إلى درجة لم تعهد من قبل ولا من بعد ، فنقلت إلى اللغة العربية أمهات كتب الأغريق والسكندريين فى الفلسفة والطب والرياضيات والطبيعيات . وناصر الخلفاء والملوك وأعيان المسلمين هذه الحركة العظيمة أيما مناصرة ، وكان الخليفة المأمون زعيم أنصارها بالمشرق ، كما كان الأمير محمد بن عبد الرحمن زعيمهم بالأندلس .

وإذا فقد نشأ أبو القاسم عباس بن فرناس فى جو مشبع بالروح الأغريقى ، وكان على حظ من صفاء الذهن ، ودقة الملاحظة ، وحب البحث العلمى ، والتوفر عليه دون سواه ، فلم يلبث أن هضم ما وصل إلى بلده من تآليف الأغريق على كثرته ، واستطاع فى قليل من الزمن أن يرد ما هضم اختراعات وابتداعات تشرف عالم العصر الحديث فضلا عن العصر الوسيط .

ويعد المؤرخون لعباس بن فرناس أموراً فى العلم كان أولا فيها ، وأموراً لم يسبق إليها فى الأندلس على أقل تقدير . من ذلك أنه أول من فهم كتاب العروض للخليل بن أحمد وحل رموزه ، وعنه أخذه الناس فى الأندلس . قالوا : « أدخل بعض التجار كتاب « المثال » فى العروض للخليل ، فصار إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، ولم يبن عليه ولا على أصحابه ولا فهموه ، وصار الكتاب مطروحاً فى داخل القصر يتلهى به الجوارى ، حتى إن بعضاً ليقول لبعض : صير الله عقلك كعقل هذا الذى ملأ كتابه من مفاعيلن ، مفاعيلن ؛ وبلغ خبره ابن فرناس ، فكتب إلى الأمير يسأله إخراج الكتاب إليه ، ففعل . ونظر فيه بحذقه فانفتح عليه وأدرك علم العروض منه ، وقال بفضل نظره إن هذا الكتاب يدل على أن ما قبله يفسره . فأرسل الأمير عبد الرحمن إلى المشرق يطلب تمامه فجىء إليه بكتاب « الفرش » فاستكمل به عباس نظره وفتحه على الناس ، وكان أول من

أخذ عنه علم العروض فى الأندلس . ووصله الأمير عبد الرحمن على ذلك بثلاثمائة دينار وكساه .

وقالوا إنه أول من فك الموسيقى بالأندلس . ولا شك أن المراد بذلك أنه اهتدى إلى حل رموز كتاب يونانى قديم فى الموسيقى ، على نحو ما صنع بكتاب العروض الآنف الذكر .

* * *

على أن مكانة عباس بن فرناس العلمية إنما تقوم على تمكنه من علوم الحكمة الرياضية والطبيعية . والحكمة الرياضية تشمل عندهم علم العدد ، والهندسة ، والهيئة ؛ ومن أدلة براعته فى هذه العلوم أنه صنع فى بيته كهيئة السماء ، ركبها على منهاج الحكمة ، ومثل فيها أفلاكها ، وأقام فيها آلات تخيل إلى الناظر فيها أنها نجوم وغيوم ، و بروق ورعود ، وأراها كثيراً من عيون الناس مفتخراً عليهم بحكمته ؛ فذاع ذكرها فى الناس وكثر حديثهم عنها ، من بين مطر له مثن عليه ، أو مزدر لعمله مستهزئ به .

وطلب إليه الأمير عبد الرحمن عمل آلة لرصد حركات الكواكب والنجوم تسمى عندهم «ذات الحلق» . ويقول أستاذنا العلامة المرحوم كرلونالينو : إن هذه الآلة مذكورة فى كتاب المجسطى لبطليموس وفى كتاب ألفه برقلوس اليونانى أحد علماء القرن الخامس الميلادى ، وإنها تشتمل على سبع حلقات معدنية متحركة متداخلة ، ويقاس بها ما يقاس بالأسطرلاب المسطح ، وأنها تسمى بالفرنسية sphére armillaire . وقد عملها عباس بن فرناس ورفعها للأمير عبد الرحمن ، و بعث معها بهذه الأبيات :

قد تم ما حملتنى من آلة أعيا الفلاسفة الجهابذ دونى
لو كان بطليموس ألهم صنعه لم يشتغل بجداول القانون
فإذا رأته الشمس فى آفاقها بعثت إليه بنورها الموزون
ومنازل القمر التى حجبت معاً دون العيون بكل طالع حين
يبدون فيه بالنهار ، كما بدت بالليل فى ظلماتهن الجون

وكلفه الأمير محمد عمل آلة لمعرفة الأوقات ، فعمل له آلة تعرف بها الأوقات بالليل والنهار بغير رسم ولا مثال ، وتسمى « المنقالة » ، ورفعها إليه وقد نقش عليها هذه الأبيات على لسان حال تلك الآلة :

ألا إننى للدين خير أداة إذا غاب عنكم وقت كل صلاة
ولم تر شمس بالنهار ولم تبن كواكب ليل حالك الظلمات
بيمن إمام المسلمين محمد تجلت بى الأوقات للصلوات

وكما اشتغل عباس بن فرناس بعلوم الحكمة الرياضية فكذلك اشتغل بعلوم الحكمة الطبيعية . فهو أول من استخرج الزجاج من الحجر بالأندلس . واشتغل بالكيمياء ، وكان على حد تعبيرهم صاحب « نيرانجيات » . والنيرانجيات لفظ فارسى الأصل ، وفسروها بأن الغرض منها تمزيج القوى التى فى جواهر العالم الأرضى لتحدث عنها قوة يصدر عنها فعل غريب .

ولكن لا شك فى أن أكبر مظهر لحكمة ابن فرناس وجراءته العلمية أنه حاول تطيير جثمانه فكان — إذا صح ذلك — أول طيار نعلمه فى التاريخ . قالوا إنه كسا نفسه بريش قشاعم النسور على سَرَق الحرير ، ومد لنفسه جناحين على وزن وتقدير قدره فتهيأ له أن استطار فى الجو من ناحية الرصافة بقرطبة ، واستقل فى الهواء ومكث فيه حتى وقع فى مكان مطاره على مسافة بعيدة . وقد تأذى بذلك مؤخره لأنه لم يحسن الاحتيال لوقوعه ، ولم يقدر أن الطائر إنما يقع على زمكانه أى ذنبه ، فسها عن ذلك ولم يتخذ لنفسه ذنباً . وقد أفزع من رأى طيرانه من أهل الصحراء ، فكثر حديثهم عما عاينوا منه ؛ من ذلك قول مؤمن ابن سعيد ، وكان مغرى بهجو ابن فرناس :

يَطُم على العنقاء فى طيرانها إذا ما كسا جثمانه ريش قشعم

* * *

كثرت أعاجيب ابن فرناس ، وتعددت ابتداعاته جرى له ما يجرى لكل مبتدع يفجأ الناس بما لم يألفوا ، فكان الخاصة يغمزونه ويرمونه بالحمق والسخف ؛ من ذلك قول مؤمن بن سعيد فى هيئة السماء التى أحدثها عباس فى داره :

قعدت تحت سماء لابن فرناس فخلت أن رحى دارت على راسى
سماء أنوك بسواها وحففها بجيسة ذات أنياب وأضراس
لها نجوم تنبى أن خالقها إذا نظرت إليها أحمق الناس

يمسى ويصبح من شغل بصنعتها   نجىّ همّ وتفكير ووسواس
كان الجدير بأن يرقى إليه بها   راق فيدحو بها منه على الراس

وقد كان ابن فرناس كتب إليه مهازلا :

دن لسانى يا خلق خالقها   واستشعر الخوف من صواعقها

فرد عليه ابن سعيد بأبيات من نفس الوزن والروى أفحش فيها .

أما العامة فكان سخطها أشد وأذاها أبلغ . فقد رمته بالزندقة والسحر والكيمياء ، وطعنت فى دينه ؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل كتب بعضهم وثيقة بزندقته ورفعها إلى قاضى الجماعة بقرطبة ، وشهد عليه بعضهم بأنه سمعه يقول مفاعيلن ، مفاعيلن ؛ كما شهد آخر بأنه رأى الدم يفور من قناة داره ليلة كذا ، إلى دعاوى من هذا القبيل . وكان القاضى رجلا حصيف العقل ، فنظر فيما اتهم به ابن فرناس نظرة تحقيق وتعقل ، واستشار فقهاء قرطبة فى الأمر ، فلم يجد بعد كل ذلك سبيلا إلى عقابه ، وأفلت ابن فرناس بجريعة الذقن كما يقولون .

ولعمرى إن العامة لمعذورة إذا هى نفرت من رجل عجيب جاء قبل أوانه بألف سنة من الزمان .

قاض فاضل (*)

هو أحمد بن بقى بن مخلد قاضى الجماعة بقرطبة على عهد أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ). كان أبوه بقى بن مخلد عالماً فاضلا ورعاً زاهداً. وهو أحد الذين عرض عليهم القضاء فأبوا قبوله تحرجاً، وذلك أن أمير الأندلس المنذر بن محمد (٢٧٣ — ٢٧٥) أراد أن يوليه القضاء فأبى. فذهب إلى استكراهه فاعتذر اعتذاراً لطيفاً وقبل الأمير عذره وقد نشأ ابنه أحمد نشأة حسنة جميلة، وعرف منذ حداثة سنه بالفضل، ووسم بحب الخير. وكان أمير الأندلس عبد الله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠) يشاوره ويأخذ برأيه مع أن سنه إذ ذاك لم تكن تزيد على خمس وعشرين سنة. فلما تولى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الخلافة ولاه صلاة الجماعة بقرطبة، ثم ولاه بعد ذلك قضاء الجماعة بها وأقره على الصلاة، وذلك فى سنة ٣١٤ هـ.

* * *

وكان منصب قاضى الجماعة بقرطبة أحد المناصب الثلاثة التى تعتبر أركان الحكم فى الأندلس على عهد بنى أمية، وهى إمارة الثغر الأعلى بسرقسطة وإمارة الأسطول بالمرية وقضاء الجماعة بقرطبة. وربما كان قاضى الجماعة يأتى لمنزلته الدينية ومكانته الاجتماعية بعد الحاجب الذى كان عندهم بمنزلة رئيس الوزراء عندنا؛ وكثيراً ما كانوا يلقبون قاضى الجماعة بالوزير القاضى تفخيما لشأنه وتعظيما لقدره. وكان اختصاصه عندهم يشمل النظر فى المواريث والوصايا والتحجير والأحباس وأموال اليتامى وقضايا الطلاق، وقد تجمع له فوق ذلك إمامة الصلاة العامة، وهى صلاة الجمعة والعيدين وصلاة الاستسقاء، كما كان الإشراف على الحسبة داخلا فى اختصاصه. من أجل ذلك كانوا لا يسندون قضاء الجماعة إلا إلى كل من عرف بغزارة العلم والبراعة فى الفقه، ووصف بالفضل والورع ونزاهة الضمير. ولعله لم يتول قضاء الجماعة بقرطبة رجل أجمع لتلك الخصال من أحمد بن بقى، حتى ليمكن

(*) الثقافة: العدد ٢٦١ سنة ١٩٤٣.

اعتباره المثل الصالح للقاضي الشرعي في عصر ازدهار الدولة الإسلامية بالأندلس .

* * *

كان ذا معيشة سهلة ساذجة ، « إذا طرقه ضيف ليلا لم يدع له شيئاً من الطير ، وقال الليل أمان لها ، ويقتصر على العسل والسمن والبيض وما شاكل ذلك فيقرب به إلى الضيف » .

وكان متواضعاً ، سئل مرة عن نسبه وولائه فقال ولاؤنا لامرأة من أهل جيّان . وكان ولى عهد الدولة الحكم المستنصر يعجب من صدقه في ذلك ويقول : لو شاء لادعى أشرف الأنساب ثم لا يجد في ذلك مكذبا .

وكان رءوف القلب ، رفيق العقوبة إذا عاقب . جاءته مرة امرأة تخاصم زوجها فجعلت تستطيل على زوجها بلسانها وتؤذيه بصلفها ، فنظر إليها ابن بقى وقال لها : أقصرى ! وإلا عاقبتك ! فانكسرت المرأة شيئاً ثم عاودت الصلف ، فقال لها القاضي مرة أخرى : أقصرى ! وإلا عاقبتك ! فانكسرت شيئاً ثم عاودت الصلف . عند ذلك عطف عليها أحمد بن بقى فجعل يقول لها : أنت ظالمة ! أنت ظالمة ! أنت ظالمة ! ثم قال : ألم أخوفك من قبل هذا ؟ ولم تزد عقوبته للمرأة على ذلك .

وكان كثيراً ما يدرأ الحدود الشرعية بالشبهات يتعمدها سياسة منه للعامة ورفقاً منه بها . قالوا أتاه المحتسب مرة برجل به رائحة الشراب ، فقال القاضي لكاتبه : استنكهه ! ففعل ، فقال : نعم ! عليه رائحة الشراب . فظهر بوجهه الكراهية لذلك ، ثم قال لآخر ممن كان حاضراً مجلسه : استنكهه أنت ! ففعل ، فقال : أجد رائحة ولا أدرى إن كانت رائحة مسكر أم لا ؟ فتهلل وجه القاضي وأمر بتخلية سبيله .

* * *

ومع أنه كان رءوف القلب رفيق العقوبة يرى الرفق والتجاوز في كثير من المواطن أبلغ من العنف والمؤاخذة ، فإنه كان في صميم واجبه القضائي مثال الدقة والدأب والاستقصاء . كان لا يوقع شهادته في وثيقة حتى يقرأها من أولها إلى آخرها . من ذلك أن صديقاً له أرسل إليه مرة بوثيقة كتبها على رجل بمال ليشهده عليها . وقد ذكر في الوثيقة سبباً يجعلها واهنة . فلما قرأها ابن بقى وتبين له ما فيها من الوهن كره ألا يوقع عليها فيسخط

صديقه ، وكره أن ينبه المشهود عليه إلى وهنها . فأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال للمشهود عليه : أتشهدنى على أن لفلان عندك كذا وكذا مثقالا إلى أجل كذا وكذا ؟ قال نعم ! فعقد شهادته على هذا اللفظ بعينه لا غير .

وكان جم العناية بأمر الوثائق خاصة ، شديد التعقب عليها . وكانت الوثائق يحررها رجل اسمه محمد بن إبراهيم بن الحباب كثير الزهو والاعتداد بعمله ، فغاظه تعقب القاضى عليه وقال : من أين يتعاطى ابن بقى أنه أعلم بالوثائق منى ؟ وبلغ قوله القاضى . فانتهز فرصة عرضه عليه وثائق ، واستفرغ جهده فى التعقب عليها حتى أخذ مواضع أبانها له وأمره بتغييرها ، فغيرها وأتاه بها . فانتقد عليه فيها مرة أخرى . فأرسل إليه ابن الحباب يقول : إنى أقر لك أنك أعلم بها منى وأشهد بذلك ، فدعنى من كثرة هذا البحث والكشف وإلا حلفت ألا أكتب وثيقة ! فتركه ابن بقى بعد ذلك وسامحه .

* * *

وكان من عادة ابن بقى فيما يتخاصم عنده فيه أن ينفذ الظاهر البين ، ويستعمل الأناة والتؤدة فيما التبس عليه منه ، حتى تظهر له الحقيقة أو يصير المتخاصمان إلى التصالح والتراضى . وربما جر ذلك التمكث والتمهل فى القضايا المشتبهة إلى تأخير الأحكام زمناً طويلا قد يضجر الخصوم . وقد عيب عليه ذلك فى حضرة الخليفة الناصر وبما عرف به من لين الجانب ، فقال : أعوذ بالله من لين يؤدى إلى ضعف ، ومن شدة تبلغ إلى عنف ؛ ثم جعل يذكر فساد الزمان واحتيال الفجار ، وما يحدث من الأمور المشتبهة التى لا تتبين له حقيقتها ولا يكشف له وجهها ، ثم قال : قد اشتبه على عمر بن الخطاب رضى الله خصومة قوم طال نظره فيها ، فكره أن يحكم مع الاشتباه فأمرهم بابتداء الخصومة من أولها .

ومما يصدق مذهبه هذا فى التوقف عند الشبهات أنه رفعت إليه خصومة وقعت بين الحاجب محمد بن موسى — والحاجب عندهم كما قدمنا بمنزلة رئيس الوزراء عندنا — وبين رجل اسمه يحيى بن إسحق . وكانت شهادة الشهود فى مصلحة الحاجب . ولكن القاضي اصطنع الأناة ولم يعجل الحكم لشبهة وقعت فى نفسه . فأرسل إليه الحاجب يقول : « قد عرفت محبتى لك ، وشحى بجميع أسبابك ، وقد دار عندك على يحيى بن إسحق

ما قد علمت من المخاصمة ، وقد شهدت عليه عندك البينة العدول ، وتأبيت عن الحكم عليه » .

فقال القاضي للرسول : « تبلغ الحاجب عني السلام وتقول له : إن محبتنا كانت لله ولوجهه ، ويحيى بن إسحق وغيره في الحق سواء ، وقد دخل علي ارتياب ، ولا والله ما أحكم على يحيى ابن إسحق بشيء حتى يتضح عندي أمره بنور كانضاح الشمس في الدنيا ، فإنه لا يجيرني أحد من يحيى بن إسحق إن جافاني الخصومة بين يدي الله » . فأدى الرسول هذه المقالة للحاجب وهو ساكت لا يقول شيئاً . وجعل بعض من حضر من الوزراء يقع في القاضي ويبدي ويعيد في ذلك . فتحول الحاجب إليه أخيراً وقال له : « يا أخي ! القاضي والله رجل صالح ، ولا نزال بخير ما كان هو وشبهه بين أظهرنا .

والله ما زاده فعله عندي إلا محبة واعتقاداً » .

* * *

قالوا : وكان أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر يثق به ويجله ويعرف حقه ولم يعزله عن القضاء حتى توفي سنة ٣٢٤ عن أربع وستين سنة .

بين خليفة وقاض (*)

أما الخليفة فهو أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله الذى استوى على عرش الأندلس خمسين سنة (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) تعد بحق أزهى عصور الأندلس ، ومن أمجد العصور الإسلامية على الإطلاق . تولى والأندلس على أسوأ حال : شمل ممزق ، وفتن ضاربة بأطنابها ، وعدو يتحفز لينقضّ عليها من فوقها ومن أسفل منها . فما زال بالفتن حتى قطع دابرها ، وبالأعداء يجاهدهم تارة بنفسه ، وأخرى بأبرع قواده ، حتى خضد شوكتهم ، وكسر شرتهم ، وأنزلهم على حكمه .

ولما رأى التياث أمر الخلافة العباسية بالمشرق ، واستفحال أمر العبيديين بالمغرب ، استقر فى نفسه أنه أحق بلقب الخلافة من العباسيين والعبيديين جميعاً ، لأنه أجمع منهم لشروطها فأعلن خلافته فى سنة ٣١٦ هـ وبايعه الشعب بالخلافة طائعاً راضياً . ثم إنه رفع العلم والحضارة بالأندلس مناراً عالياً . وعنى بالبنيان والعمارة فشيد مدينة الزهراء التى كانت تضرب بروعتها الأمثال . وطار صيته فى الخافقين وازدلفت إليه ملوك أوربا ، وقدمت عليه وفودهم طالبة موادعته ومودته ، فكان بحق أوحد ملوك العالم فى عصره .

* * *

وأما القاضى ، فهو أبو الحكم منذر بن سعيد البَلُّوطى ، أصله من فحص البلوط فى شمالى قرطبة ، ولد فى العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى ، ونشأ وتفقه بالأندلس على عبيد الله ابن يحيى بن يحيى الليثى وأمثاله ، ثم رحل إلى المشرق حاجا وطالباً للرواية ، على عادة كثير من علماء الأندلس فى ذلك الزمان ، واجتمع فى رحلته بجمهرة من علماء المشرق ، وظهر فضله هناك . وممن سمع عليهم بمكة : محمد بن المنذر النيسابورى ، سمع عليه كتابه المؤلف فى اختلاف العلماء ، المسمى « بالأشراف » ، كما روى بمصر كتاب « العين » للخليل عن أبى العباس بن ولاد ، والشعر القديم عن أبى جعفر بن النحاس . ثم عاد إلى وطنه ، وقد

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الثالث والعشرون ٢٥ مايو سنة ١٩٥٢ .

استحكمت سنه وكلت تجاربه وتمت ثقافته ، وأصبح معدوداً فى كبار فقهاء الأندلس وثقاتها فى العلم ، وقد صنف كتباً فى علوم الفقه والكلام والتفسير ، وكان يغلب عليه التفقه بمذهب داود الظاهرى ، ويأخذ به نفسه وذويه ، فلما تولى القضاء كما سيجىء ، كان لا يقضى إلا بمذهب مالك ، لأنه المذهب الذى كان عليه العمل بالأندلس ، على أنه كان مع ذلك واسع الأفق فى مسائل الفقه ، ميالا إلى الاجتهاد ، غير ملتزم التقليد ، يشير إلى ذلك قوله :

عذيرىَ من قوم إذا ما سألتهم دليلا أجابوا : هكذا قال مالك

فإن زدت قالوا : قال سحنون مثله وقد كان لا تخفى عليه المسالك

فإن قلتُ : قال الله ، ضجوا وأعولوا علىّ وقالوا : أنت خصم مماحك

وكما كان منذر فقيهاً متبحراً فى الفقه ، كان خطيباً مفوّهاً وواعظاً جهير الصوت بليغ العبارة . قريب الدمعة ، حسن الترتيل ، قوى التأثير فى سامعيه ، وكان فوق ذلك شاعراً ، وشعره من قبيل شعر العلماء ، وقد أورد المقرى فى كتابه نفح الطيب ، مساجلات شعرية جرت بينه وبين أبى على القالى وغيره من الأدباء . وكانت فيه مع جده وورعه ، دعابة ربما انخدع بها من لا يعرف باطنه ، فإذا أراد النيل من دينه تكشف له عن أسد ورد لا يرام حماه .

* * *

والظاهر أن منذر بن سعيد كان يحيا فى قرطبة حتى سنة ٣٣٩ حياة فقيه يدرس العلم ويصنف الكتب ويساجل العلماء والأدباء ، دون أن يلى للسلطان عملا ، مع فضله وتقدم سنه . لذلك لم يكن الناصر يعرفه شخصياً على نحو ما يعرف السلطان كبار رجال دولته . اللهم إلا أن يدعى فى زمرة الفقهاء إلى الحفلات الرسمية ، التى كثيراً ما كانت تعقد فى البلاط على عهد الناصر . ثم عرضت ظروف نبهت الخليفة إلى مكانة منذر وفضله وخطره ، ورفعته فى طرفة عين إلى مكان الصدارة من رجال الدولة . ففى عام ٣٣٩ قدم قرطبة وفد عاهل القسطنطينية ، يحمل إلى الناصر تحفاً وهدايا ، ويرغب فى توثيق أواصر الود والصداقة بين الناصر والعاهل البيزنطى . وقد أراد الخليفة أن يستقبل هذا الوفد فى بعض مجالس الزهراء أفخم استقبال وأعظمه . وقد أتى المقرى فى كتاب « نفح الطيب » على وصف

ذلك الحفل بالتفصيل . قال : « وتقدم الناصر إلى الأمير الحكم ابنه وولى عهده بإعداد من يقوم من الخطباء ويقدمه أمام إنشاد الشعراء ، فتقدّم الحكم إلى أبي علي القالي البغدادي ، ضيف الخليفة وأمير الكلام ، وبحر اللغة ، أن يقوم ، فقام وحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع وبهت ، فما وصل إلا قطع ، ووقف ساكتاً مفكراً ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد ، وكان ممن حضر في زمرة الفقهاء ، قام بدرجة من مرقاة أبي علي ووصل افتتاحه بكلام عجيب ، بهر العقول جزالة ، وملأ الأسماع جلالة . وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدهم تعجباً منه . وأقبل على ابنه الحكم فسأله عنه ، ولم يكن يثبت معرفته ، فقال له : هذا منذر بن سعيد البلوطي ، فقال والله لقد أحسن ما شاء . وأراد الخليفة مكافأته والانتفاع بمواهبه ، فولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بمدينة الزهراء . ثم حدث بعد قليل من الزمن أن توفي قاضي الجماعة بقرطبة ، فولى الخليفة منذرا قضاء الجماعة بقرطبة ، وأقره على الصلاة بالزهراء .

* * *

وهكذا نشأت الصلة بين الخليفة الناصر لدين الله وبين القاضي منذر بن سعيد . نشأت من مناسبة عارضة أعجب فيها الخليفة بالقاضي والقاضي بالخليفة . غير أنه سرعان ما وقعت الوحشة بين الخليفة وقاضيه ، وذلك لاختلاف وجهة نظر كلّ إلى الأمور .

أما الخليفة فكان ينظر إليها نظرة ملك عظيم ربما جانبه الصواب في تصرفاته على غير قصد منه ، ولكنه يحب مع ذلك أن يعرف له حقه من التبجيل والتكريم ، أما القاضي فكان يرى أن واجبه يحتم عليه أن يجرى في تصرفاته على أساس العدالة المطلقة ، مهما علا مكان المتقاضي إليه ولو كان الخليفة نفسه .

قالوا إن الناصر احتاج إلى شراء دار في قرطبة لإحدى نسائه ، فوقع استحسانه على دار واسعة ذات مستغلات وافرة ، وكانت لأيتام في حَجْر القاضي . فأرسل الخليفة من قوّمها بقدر ما طابت نفسه ، وأرسل ناساً أمرهم بمداخلة وصي الأيتام في بيعها عليهم ، فذكر أنه لا يجوز البيع إلا بأمر القاضي منذر ، فأرسل الخليفة إلى القاضي في بيع هذه الدار فقال لرسوله : البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه : منها الحاجة ، ومنها الوهي الشديد ، ومنها

الغبطة ، فأما الحاجة فلا حاجة بهذه الأيتام إلى البيع ، وأما الوهى فليس فيها ، وأما الغبطة فهذا مكانها . فإن أعطاهم أمير المؤمنين ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع و إلا فلا . فنقل جوابه إلى الخليفة ، فأظهر الزهد فى شراء الدار طمعاً فى أن يغير القاضى رأيه . ولكن القاضى لم يغير رأيه ، ثم إنه خاف أن تنبعث من الخليفة عزيمة تلحق بالأيتام ضرراً ، فأمر وصى الأيتام بنقض الدار و بيع أنقاضها ، ففعل ، فكانت قيمة الأنقاض أكثر مما قومت به السلطان . عند ذلك أرسل الخليفة إلى القاضى منذر يسأله عما دعاه إلى نقض الدار ؟ قال أخذت فيها بقوله تعالى « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » مقوموها لم يقوموها إلا بكذا ، وقد قبض فى أنقاضها أكثر من ذلك . و بقيت القاعة والحمام ، ونظر الله للأيتام ، فلم يسع الخليفة إلا أن يقر القاضى على ما عمله ، وقال : « نحن أولى من انقاد إلى الحق ، فجزاك الله عنا وعن أمانتك خيراً » .

* * *

وهكذا أذن الخليفة لحادث أن يمر بسلام ، و إن كان أبقى فى نفسه شيئاً من الموجدة على القاضى الذى تحداه على هذا النحو الذى لم يعهده . ثم سرعان ما وقع حادث آخر كان أشد من الحادث الأول وأدهى . لقد كان الناصر بطبعه ميالا إلى العمارة ، مشغوفاً بتشييد البنيان يرى أن ذلك من أبهة الملك والدليل الباقى على فخامة الدولة ، وينسبون إليه أنه القائل :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها   من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم   ملك محته حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه   أضحى يدل على عظيم الشأن

ولقد أقبل على عمارة الزهراء أيما إقبال ، وأنفق من أموال الدولة فى تشييدها وزخرفتها ما أنفق ، وهى لا تعدو فى حقيقة أمرها أن تكون مجموعة من القصور الفاخرة مخصصة لمنزله وسكنى خدمه وحشمه وحرمه ، وكان ربما أشرف بنفسه على شئون البناء والزخرفة حتى شغله ذلك ذات مرة عن شهود صلاة الجمعة ثلاث جمع متواليات . فاشتد ذلك على خطيب المسجد الجامع بالزهراء و إمام الصلاة فيه ، ورأى خروجاً من تبعة التقصير فيما أوجب

الله على العلماء من تنبيه الغافل وتذكير الناسى ، أن يلقى على الخليفة درساً قد يكون ثقيلا على نفسه ، ولكن فيه شفاء له من علة الإسراف ، ورد إلى طريق الصواب . ورأى أن يكون ذلك على ملأ من الناس وفى المسجد الجامع بالزهراء نفسها . وعلم أن الخليفة سيشهد صلاة الجمعة بعد طول انقطاعة عن شهودها ، فأعد خطبة قوية ضمنها كل ما كانت تجيش به نفسه من المعانى . فلما كان يوم الجمعة وحضر وقت الصلاة اعتلى للنبر ، والخليفة حاضر والمسجد غاص بالمصلين ، فابتدأ فى أول خطبته بقوله تعالى « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » إلى قوله « قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين » ثم مضى فى ذم تشييد البنيان ، والاستغراق فى زخرفته ، والإسراف فى الإنفاق عليه ، بكل كلام جزل ، وقول فصل ، تلا قوله تعالى « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين » وراح يخوف من الموت ويحذر من فجاءته ويدعو إلى الزهد فى هذه الدار الفانية ، ويحض على الإعراض عنها ، ونهى النفس عن اتباع الهوى ، فأسهب فى ذلك كله وأضاف إليه من آى القرآن ما يطابقه ، وجلب من الحديث والأثر ما يشا كله ، حتى اذكر من حضر من الناس وخشعوا ورقوا و بكوا وضجوا ودعوا ... وأخذ الخليفة من ذلك بأوفر حظ ، وقد علم أنه المقصود به ، فبكى وندم على تفريطه .

غير أن الخليفة وجد على منذر لغلظ ما قرعه به فشكا ذلك لولده وولى عهده الحكم بعد انتهاء الصلاة وانصراف الخطيب ، وقال : والله لقد تعمدنى منذر بخطبته ، وما عنى بها غيرى فأسرف على ، وأفرط فى تقريعى وتأنيبى ولم يحسن السياسة فى وعظى ، فزعزع قلبى ، وكاد بعصاه يقرعنى ، ثم استشاط غيظاً عليه ، فأقسم أن لا يصلى خلفه صلاة الجمعة خاصة ، فجعل يلتزم صلاتها خلف صاحب الصلاة بقرطبة ويجانب الصلاة بالزهراء .

هذه كل العقوبة التى نال بها الخليفة الخطيب الذى تجاوز الحد فى وعظه وإرشاده . ولقد قال له الحكم : فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك واتخاذ غيره مكانه ؟ ولكن الخليفة زجره وقال له « أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه ، يعزل لأرضاء نفس نا كبة عن الرشد ، سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون . . . بل يصلى بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله ، فما أظننا نعتاض منه أبداً » .

ثم إن الجفوة تأكدت واشتدت بين الخليفة والقاضى ، وود ولى العهد لو أزالها أو خفف من حدتها ، فقيل إنه اعتذر إلى الخليفة عما قال منذر وقال يا أمير المؤمنين : إنه رجل صالح وما أراد إلا خيراً ، ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية ، لعذرك ، ويريد بالبنية هنا القبة التى بناها الناصر بالزهراء واتخذ قراميدها من فضة . وبعضها مغشى بالذهب ، وجعل سقفها نوعين : صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة ، يستلب الأبصار شعاعها . فلما قال له الحكم ذلك ، أمر ففرشت بفرش الديباج . وجلس فيها لأهل مملكته . ثم قال لقرابته ووزرائه : أرأيتم أم سمعتم ملكا كان قبلى صنع مثل ما صنعت ؟ فقالوا لا والله يا أمير المؤمنين ! ، وإنك لأوحد فى شأنك ! فبينما هم على ذلك ، إذ دخل منذر بن سعيد واجماً ناكساً رأسه ، فلما أخذ مجلسه قال له ما قال لقرابته ، فأقبلت دموع القاضى تنحدر على لحيته وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادتك هذا التمكن ، مع ما آتاك الله تعالى وفضلك به على المسلمين ، حتى ينزلك منازل الكافرين ! فاقشعر الخليفة من قوله ، وقال له انظر ما تقول ! كيف أنزلنى منازلهم ؟ قال : نعم ! أليس الله تعالى يقول « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون » : الآيات . فوجم الخليفة ، ونكس رأسه ملياً وجعلت دموعه تنحدر على لحيته ، ثم أقبل على منذر وقال له : « جزاك الله عنا وعن الدين خيراً فالذى قلت هو الحق » ثم قام من مجلسه وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها .

وهكذا أقر الخليفة للقاضى بأنه على الحق فيما قال . وزال ما كان فى نفسه من الموجدة عليه .

ولكن بقى أن يرضى القاضى عن الخليفة . ولم يكن ذلك بعيداً . فقد قحطت الأندلس فى آخر مدة الناصر (سنة ٣٥٠ هـ) فأمر منذراً بالخروج للاستسقاء ، فخرج ، واجتمع له الناس فى مصلى الربض ، وصعد الخليفة فى أعلى مصانعه المرتفعة ليشارك الناس فى الخروج إلى الله . وأبطأ القاضى حتى اجتمع الناس ، ثم خرج نحوهم ماشياً متضرعاً مخبتاً ، وقام ليخطب . فلما رأى خشوع الجمع وإخباتهم رقت نفسه وغلبته عيناه ، فبكى حيناً ، ثم

افتتح خطبته فقال : « يا أيها الناس : سلام عليكم ! » ثم سكت ووقف شبه الحصر ، ولم يكن من عادته ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض ، لا يدرون ما عراه ، ثم اندفع فى خطبته ، فهز القلوب ، وأبكى العيون ، وكان الخليفة أشد الحضور وجلا وخشوعا ، وأغزرهم بكاء وأحرهم دعاء ، فلما رأى القاضى منه ذلك تهلل وجهه وقال : « قد أذن الله بالسقيا . إذا خشع جبار الأرض ، فقد رحم جبار السماء » قالوا وكان كما قال ، فلم ينصرف الناس إلا عن السقيا .

وتوفى الخليفة الناصر فى سنة ٣٥٠ أما القاضى منذر فكانت وفاته فى سنة ٣٥٥ فى خلافة الحكم المستنصر . وقد ظل حتى وفاته على قضاء الجماعة بقرطبة والخطابة والصلاة بجامع الزهراء ، كما رسم الناصر .

وإن الإنسان لا يدرى بأى هاتين الشخصيتين هو أشد إعجاباً ؛ أبالخليفة فى نبله ، وسعة احتماله ، و إذعانه للحق عند وضوحه ، أم بالقاضى فى عدالته ، وصراحته ، وشجاعته وشدة إخلاصه لدينه وواجبه . ألا حيا الله تلك النفوس الكبار فعلى مثلها تصلح الدول وتستقيم أمور الناس ؟

١ - الناحيـــة التاريخية

من شعر ابن هانئ الأندلسى (*)

لقد وجد كثير من كبار الشعراء على مختلف العصور فى الحوادث العامة المعاصرة لهم أو السابقة عليهم مادة لقرائحهم ، ومسرحاً لخيالهم ، فاتخذوا منها موضوعات بنوا عليها قصائدهم ومسرحياتهم . فعل ذلك هوميروس فى إلياذته ، وشكسبير فى مسرحياته ، والمتنبى فى سيفياته ، وشوقى فى اجتماعياته وسياسياته . فهل للمؤرخ أن يعد شعر هؤلاء الشعراء مصدراً من مصادر التعريف بهذه الحوادث ؟ وإذا جاز له ذلك ، فإلى أى مدى يكون اعتماده على الشعر فى تاريخ الحوداث المذكورة وتصويرها ؟ إن الأمر ليس سهلا كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، فالشاعر ينظر إلى الأشياء بعين الخيال دائماً ، وهو بحكم فنه الرفيع ذاتى فى تناوله الحوادث ، فهو يزنها ويحكم لها أو عليها تبعاً لما تبعث فى نفسه من عاطفة وتثير من إحساس . أما المؤرخ فبحكم صناعته واقعى النظر إلى الحوادث ، يصورها كما هى فى الواقع ، أو كما يعتقد أنه حالها فى الواقع على أقل تقدير ؛ وينبغى أن يضبط عاطفته جهد طاقته ، فلا يجعل لها على قلمه سلطاناً ، وأن يتقيد بالواقع كل التقيد ، يسبح فى محيطه مهما يكن كثيفاً ؛ فإن حلق فوقه فلكى يتمكن من رؤيته والإحاطة به لا أكثر ولا أقل .

وإذاً فبين الشاعر المؤرخ والمؤرخ المختص تباين شديد على ما يظهر . ولكن يظهر أن التباين بينهما ليس تاماً ، فهناك أساس مشترك بينهما ، هو الواقع والحقيقة ؛ كلا الشاعر والمؤرخ فى مردّ أمره يرجع إلى الواقع ويغترف من بحره . وليس الاختلاف بينهما إلا اختلافاً بين أسلوبيهما فى التعبير عن الحقيقة والواقع . فالمؤرخ يقصد إلى الحوادث قصداً مباشراً ، ويعنى بمادتها وجسمها ، إذا صح هذا التعبير ، فهو يوقتها ويعللها ، ويرد بعضها إلى بعض ، جاعلا الصدق فى كل ذلك شعاره ومبدأه ، متحاشياً الخلط فى القياس أو الاستنباط . أما الشاعر فلا يقصد إلى الحوادث قصداً مباشراً ، وإنما يتناولها من بعيد جداً ، يتناولها مصفاة مقطرة متبلورة ، إن صح هذا التعبير . يتناولها من حيث تأثيرها فى نفسه ؛ ومبلغ

(*) الثقافة العدد ٦٠ سنة ١٩٤٠ .

تأثر نفس الشاعر بحادث ما واهتياجه له رهن بمقدار تأثر البيئة التى يعيش فيها بهذا الحادث واهتياجها له . فالشاعر يسجل أثر الحوادث فى المحيط الذى يعيش فيه . والشاعر الحق هو الذى يعد ترجماناً صادقاً لإحساسات البيئة التى وجد فيها . ولنمثل لذلك بشعر أبى الطيب المتنبى فالمتنبى يمجد سيف الدولة فى قصائده السيفيات ؛ ولعله فى قرارة نفسه يعتقد أن سيف الدولة من حيث رقعة ملكه وسعة موارده ، لا يزيد على أن يكون أميراً إقطاعياً من أمراء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ، وقد يكون أقل شأناً وخطراً من أمراء بنى بويه شرقاً ، وخلفاء الأندلس غرباً . وهو لا شك يعلم أن فى سيف الدولة عيوباً لا تشق رؤيتها على مثله؛ ولكنه مع ذلك يغض النظر عن عيوبه ويضفى على سيف الدولة حللا منشرة من مدائحه . ذلك بأنه إنما أراد أن يصور رأى الناس لعهده فى هذا البطل وفى وقائعه مع الروم دفاعاً عن الثغور الإسلامية ؛ فى حين أن هذا البطل وهذه الوقائع ليست فى نظر المؤرخ المدقق شيئاً كبيراً بالقياس إلى أبطال المسلمين الذين جاهدوا الروم قبل سيف الدولة وبعده ، ولا إلى الوقائع العظيمة التى جرت بينهم وبين قياصرة بيزنطة . وناحية أخرى من شعر المتنبى ، ذلك أنه يمدح الأفراد ويهمل الجماعات أو يذمها أبرح الذم ، يمدح سيف الدولة ويهمل أهل الشام ، ويمدح كافورا الإخشيدى ويذم المصريين ، حتى ليكاد يلحقهم بالسوام المهملة . ولقد كنا نقرأ كل ذلك فنهز رءوسنا ونقول شاعر يريد الافتتان والإغراب . ولكن الحقيقة أن المتنبى لم يرد افتناناً ولا إغراباً ، وإنما هو من حيث يريد أو لا يريد ، يصور ما لحق نفوس المسلمين عامة وأهل الشرق الأدنى خاصة من ضعف وفتور ، انتهى بأن طمع فيهم الروم أولا والصليبيون أخيراً ، فغزوهم فى عقر دارهم ، وتغلبوا على حوزتهم حقبة طويلة من الزمان . فهل يقال بعد ذلك إن شعر المتنبى لا يجدى على المؤرخ لأنه شاعر كثير الذهاب مع الخيال ؟ كلا ثم كلا ! فالمتنبى بأسلوبه الشعرى الخاص قد سد نقصاً فى كتب التاريخ ، ولا غنى لحديث عن ديوانه عند ما يؤرخ الشرق الأدنى فى القرن الرابع الهجرى .

وما يقال عن المتنبى يمكن أن يقال عن كل شاعر آخر كبير تصدى لتسجيل الحوادث الهامة فى شعره . على أنه ليس كل شاعر يستطيع أن يتناول الحوادث على نحو ما تناولها المتنبى أو شكسبير ، فالقدرة على تصفية الحوادث وتقطيرها وبلورتها لم توهب إلا لعباقرة الشعراء وفحولهم فحسب .

ونحن نعتقد أن من هؤلاء أبا القاسم بن هانئ الأندلسي . وقبل أن نفصل القول فى ذلك نعرف القارئ بهذا الشاعر تعريفاً موجزاً .

* * *

هو أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدى الأندلسى ، يقال إنه من ولد المهلب بن أبى صفرة القائد الأموى المشهور ، ولقب بالأندلسى للتفرقة بينه و بين ابن هانىء الحكمى الذى هو أبو نواس . كان أبوه هانىء من قرية من قرى المهدية بأفريقية ، وكان شاعراً أديباً ، ثم انتقل إلى الأندلس ونزل البيرة وقيل قرطبة ، وولد له ابنه محمد صاحب الترجمة بأحد هذين البلدين سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢٦ على خلاف فى ذلك ، وإن كان التاريخ الأول هو الأرجح عندنا . ونشأ محمد بقرطبة وتعلم بهـا وحذق علوم عصره وخاصة اللغة والأدب والفلسفة ، ثم انتقل إلى إشبيلية ونزلها واتصل بصاحبها واختص به ؛ غير أنه سرعان ما نبت به إشبيلية والأندلس عامة ؛ ذلك بأن ابن هانىء عرف بحرية الفكر ، واتهم بمذهب الفلاسفة ، ورمى بالغلو فى التشيع ، هذا إلى استهتار ، وفساد فى السيرة ، واعوجاج فى الطريقة . وكانت الأندلس أيامئذ حديثة عهد بخلافة سنية جديدة ، أقامها الناصر ليعفى بها على الخلافة العباسية المضمحلة ، ويتحدى بها الخلافة الفاطمية الشيعية التى ظهرت فى شمال إفريقية ؛ وكانت الدولة الأندلسية فوق ذلك واقعة تحت نفوذ فقهاء المالكية ؛ فكانت الفلسفة والمشتغلون بها محل مقت الخاصة والعامة على السواء . ولقد بلغ من ذلك أن أحرقت كتب الفيلسوف الأندلسى ابن مسرة علناً فى شوارع قرطبة . من أجل ذلك اعتزم ابن هانىء الهجرة إلى عدوة المغرب حيث الدولة الفاطمية الجديدة ، وهى دولة قامت على دعاية باطنية واسعة النطاق ، تتسع لكل مفكر أياً كان اعتقاده ونوع تفكيره .

كانت إجازة ابن هانىء إلى عدوة المغرب فى السنة السابعة والعشرين من حياته ، أى فى سنة ٣٤٧ على تقدير من يقول إنه ولد سنة ٣٢٠ ، أو سنة ٣٥٣ على رأى من يجعل مولده سنة ٣٢٦ هـ ، وعلى كلا الأمرين لقى ابن هانىء جوهراً الصقلى ، إما فى حملته الحربية الأولى على المغرب الأقصى ، أو رحلته الثانية إليه بقصد تمهيد أموره قبل أن يسيره المعز إلى مصر لفتحها ؛ وقد مدح ابن هانىء جوهراً لأول التقائه به بقصيدة لم يجزه عليها القائد

الكبير إلا بمبلغ زهيد من المال لم يرض الشاعر ؛ وسأل عن رجل بالمغرب يكون أكرم منه ، فدل على جعفر بن على بن حمدون صاحب كورة الزاب بأفريقية ، فشد رحاله إليه ونزل عليه وعلى أخيه يحيى بن على ، ومدحهما بغرر قصائده : فكافآه على ذلك بالأموال السنية ؛ وعلا صيته ، وأخمل شعراء المغرب لعهده على الإطلاق ثم نمى خبره إلى الخليفة للمعز لدين الله الفاطمى ، فاستهداه من جعفر فسيره إليه مع تحف وهدايا كان أبو القاسم أنفسها فى نظر الخليفة . وربما كان بدء اتصال ابن هانىء بالمعز حوالى سنة ٣٥٤ ، وانقطع ابن هانىء من ذلك الوقت حتى وفاته لمدح للمعز وكبار رجال دولته ، وجعل يشيد بمجد الدولة الفاطمية ويهجو أعداءها . فلما أزمع المعز الانتقال إلى مصر سنة ٣٦١ بعد فتح جوهر لها خرج ابن هانىء لتشييعه ، قالوا ثم استأذنه فى العود إلى المغرب ليأخذ عياله ويلحق به ، فأذن له فى ذلك . وعاد ابن هانىء وتجهز ثم تبع الخليفة ، فلما كان ببرقة استضافه رجل من أهلها ، فنزل عليه فى رفاق ؛ فيقال إنهم عربدوا عليه فى مجلس أنس فقتلوه ، وقيل فى موته غير ذلك . ومهما يكن من شىء فقد كانت وفاته فى سنة ٣٦٢ بالغاً من العمر اثنتين وأربعين سنة أو ستاً وثلاثين سنة تبعاً لسنة ميلاده كما تقدم . ويأبى الدكتور زاهد على المندى الذى نشر ديوان ابن هانىء من سنوات إلا أن يجعل لأمويى الأندلس يداً فى موته ، مع أن كل الروايات الواردة فى موته لا تشير إلى شىء من ذلك ، ويتناسى الدكتور فساد سيرة الشاعر التى كانت السبب الأول فى موته غير الطبيعى

ولقد أجمع نقاد الشعر ورواته على أن ابن هانىء أعظم شعراء المغرب على الإطلاق ، وأنه عندهم نظير معاصره المتنبى عند أهل المشرق . ولما بلغت وفاته المعز أسف لذلك كثيراً ، وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق ، فلم يقدر لنا ذلك .

* * *

ومع أن كل الشواهد تدل على أن ابن هانىء كان مبكر الشاعرية ، ومن الشعراء المكثرين ، وأن قريحته كانت وقادة ، وطبعه سخياً بالشعر ، فإن ما وصل إلينا من شعره ليس بالشىء الكثير . فلم يصلنا إلا شعر السنوات التسع الأخيرة من حياته ، إذ أخذنا بقول من يجعل حياته ستاً وثلاثين سنة فقط ، أو شعر الخمس عشرة سنة الأخيرة ، إذا قلنا

بالرأى الذى يجعلها اثنتين وأربعين سنة . وعلى كلا الأمرين لم يصلنا شىء ألبتة من شعره الذى قاله وهو فى الأندلس ، مع أن الأندلس وطنه الأول ، فيها ولد ، وفيها نشأ ، وفيها تعلم ، وفيها ترعرع ، وفيها ظهر ذكره . وبأشبيلية استمتع بصحبة ملكها وعاملها لبنى أمية ؟ فأين غرامياته ، ووجدانياته ، وإخوانياته ؟ بل أين مدائحه فى صاحب أشبيلية الذى رعاه مارعاه ثم هيأ له سبيل الهجرة إلى المغرب ؟ لا شىء من ذلك ألبته . ويفسر الدكتور زاهد على المندى ذلك النقص فى ديوان ابن هانئ تفسيراً عجيباً ، فيحمله على أن الشاعر لم يشتهر فى وطنه ، بل اشتهر فى المغرب ، وأن هذا حال أكثر الفضلاء « لأن الرجل فى وطنه لا يكون معروفاً ، فاذا اغترب عرف فضله ، وقديماً قالوا ليس لنبى كرامة فى وطنه » (مقدمة الديوان ص٢٠) ولكن ابن هانىء عرف بالأندلس فعلا ، وقال الشعر فى ذلك الطور من حياته ؛ وأكبر الظن أنه اصطحب نسخة أشعاره الأندلسية ، فأين ذهب ذلك ؟ ثم إنه لم يصلنا كل شعره الذى قاله بعد هجرته إلى المغرب . ونستشهد على ذلك بحادث واحد : فى سنة ٣٦٠ خلع جعفر بن على وأخوه يحيى وعشيرتهما ثوب التشيع ونكثا بيعة المعز ، وخرجا من المغرب بعد أهوال ، ولحقا بالحكم المستنصر الأموى بالأندلس ، فاهتزت الأندلس لمقدمهما وتقبلتهما بأعظم القبول . فإذا عرفنا أن هذين الأميرين لهما من الأيادى على ابن هانىء مالهما فهل يعقل أن يمر هذا الحادث دون أن يترك فى نفس ابن هانىء أثراً يظهر فى شعره إن قليلاً وإن كثيراً ؟ ومع ذلك فليس فى ديوانه شىء عن ذلك الحادث الخطير من الناحية العامة ، ومن ناحية ابن هانىء خاصة ! إن السبب الصحيح فى ضياع الجانب الأندلسى من شعر ابن هانىء ، والشعر الذى قاله فى حادث ابنى على هو أن جامع ديوانه أراد ألاّ يثبت من شعر الشاعر إلا ما قاله فى الدولة الفاطمية فقط . وإذاً فنحن بإزاء ديوان شعر شيعى لشاعر شيعى إسمعيلى ألم فيما وصل إلينا من شعره بكثير من حوادث عصره وصورها فى شعره . فلننظر إلى ما تناوله من تلك الحوادث لنرى كيف ألم به ، وكيف صوره .

٢ - الناحيــة التاريخية

من شعر ابن هانىء الأندلسى(*)

نصور القارىء العصر الذى عاش فيه ابن هانىء الأندلسى ، فنقول : ولد شاعرنا نحو سنة ٣٢٠ هـ وتوفى سنة ٣٦٢ هـ ؛ فقد عاش إذاً فى صميم القرن الرابع الهجرى ، وهو عصر حافل بالأحداث الجسام التى وقعت فى العالم الإسلامى ، كما كان عصر تبدل واضح فى علاقة الشرق الإسلامى بالغرب الأوربى المسيحى . وحسبنا فى هذا المقام أن نقول فى وصف العالم الإسلامى لذلك العهد إنه كانت تتقسمه ثلاث دول متقاطعة ، وتتوزعه ثلاث خلافات متنافسة إلى حد بعيد : أولاها الدولة العباسية بالمشرق ، وكانت أحوالها قد صارت إلى اضمحلال وفساد لغلبة الترك والديلم على خلفائها واستبدادهم بالأمر دونهم ، مما أضعف السلطة المركزية ببغداد ، وأضاع هيبة الخلافة ، وذهب برونقها ، وجر إلى تجزؤ الدولة إلى دويلات عدة كان بأسها بينها شديداً . ثم الدولة الأموية بالأندلس ، وكانت حالها إذ ذاك على النقيض من حال الدولة العباسية . كانت فى عصرها الذهبى ، عصر عاهليها العظيمين : عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر ؛ وقد قامت فيها خلافة سنية ابتدعها الناصر عند ما رأى ما آلت إليه الخلافة العباسية من الاضمحلال والفساد . ثم الدولة الفاطمية التى قامت بأفريقية فى أخريات القرن الثالث الهجرى ، وسرعان ما عم نفوذها شمال أفريقية كله تقريباً ، ووقع الصدام بينها وبين الدولة العباسية فى مصر والشام والحجاز ، وبينها وبين الدولة الأموية الأندلسية فى المغرب الأقصى .

وكان القرن الرابع الهجرى زمن تبدل فى العلاقة بين الشرق الإسلامى والغرب الأوربى المسيحى ، ففيه نبتت وقويت فكرة الحرب الصليبية فى أوربا عامة وعند أباطرة الروم خاصة . وكان السبب فى ذلك ضعف الدولة العباسية ، حتى لقد أقدم الروم على غزو الشام ، وطمعوا فى امتلاكها والزحف منها إلى نفس الحجاز . على أن عدوان الروم فى الشرق على البلاد الإسلامية كان يعاصره عدوان مثله فى الغرب من النواطم على بقية ملك الروم فى جزيرة صقلية .

(*) الثقافة : العدد ٦١ سنة ١٩٤٠

عاش ابن هانىء فى ذلك العصر ، وانغمس فى البيئة الفاطمية السياسية كل انغماس ، وصور فى شعره نواحى الحياة السياسية الفاطمية ، وعلاقة الدولة العبيدية بالعباسيين والأمويين والروم ؛ وهو فى أثناء ذلك كله يورد البيت أو البيتين يضمنهما شيئاً من تعاليم الشيعة الإسمعيلية لذلك العهد .

* * *

يصور ابن هانئ للمعز الفاطمى خليفة مهيباً ، حكيماً ، يضع الندى فى موضعه ، والسيف فى موضعه ، نافذ الأمر فى أقطار المغرب .

ملك أناخ على الزمان بكلكل   فأذل صعباً فى القياد جموحا
يمضى المنايا والعطايا وادعاً   تعبت له عزماته وأريحا
قل للجبابرة الملوك تغنموا   سلماً ، كفى الحرب العوان لقوحا
بعيونكم رهج الجنود قوافلا   بالأمس تنتعل الدم المسفوحا

وهو يلقى ضوءاً على النظام الذى جرت عليه الدولة الفاطمية فى عهدها الأفريقى ، وهو النظام الإقطاعى الذى عم الشرق والغرب فى العصور الوسطى ؛ وذلك واضح فى قصائده التى امتدح بها رجالات الدولة الفاطمية ، فيقول فى جعفر بن على صاحب الزاب :

سد الإمام بك الثغور وقبله   هزَمَ النبىُّ بقومكَ الأحزابا
أنتم ذوو التيجان من يمن إذا   عد الشريف أرومة ونصابا
إن تمتثل منها الملوك قصوركم   فلطالما كانوا لها حجابا

ويقول فى أخيه يحيى بن على :

وسيد سادات إذا ما رأيته   عرفت يمانىَّ النِّجار متوّجا
تألّق فى أوضاحه وحجوله   فلم تر عينى منظراً كان أبهجا
نحا للغرب الأقصى بسطوة بأسه   فغادره رهواً وقد كان مرتجا

ويقول فى أبى الفرج الشيبانى ، ذاكراً بلاءه فى التمكين للدولة الفاطمية شرقاً وغرباً :

تشوّق للشرق الأقصى إليك وما   تمكنت فى الشرق من بأثورة عجب
وكم تخلف فى أندلس من بعد   سارت بذكرك فى الأسماع والكتب

قد كنت تملؤه خيلاً مضمَّرة ... يحملن كل عتيد البأس والغضب
كن كيف شئت بأرض المشرقين تكن ... بها الشهاب الذى يعلو على الشهب
فأنت مَن أقطع الأقطاع واصطنع الـ ... معروف فيها ولم تظلم ولم تحب

ويقول فى نظام الجيش الذى دخل به جوهر مصر :

وقد رتبت فيه الملوك مراتباً ... فمن بين متبوع وآخر يتبع
تسير على أقدارها فى مجاجة ... ويقدمها منه العزيز الممنع

فهذا وصف عمال لهم أحساب وأنساب ، و بأس وسطوة ، وليسوا مجرد عمال إداريين بالمعنى المألوف .

ويصف بحرية الدولة الفاطمية ، فيقول فى الأسطول وفى استعماله النار الإغريقية فى حرب الروم خاصة :

لك البر والبحـــر العظيم عبابه ... فسيان أغمار تخاض وبيد
أما والجوارى المنشآت التى سرت ... لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما ترجى القباب على المها ... ولكنَّ من ضمت عليه أسود
أطاع لها أن الملائك خلفها ... كما وقفت خلف الصفوف ردود
وأن الرياح الذاريات كتائب ... وأن النجوم الطالعات سعود
مواخر فى طامى العباب كأنها ... لعزمك بأس أو لكفك جود
من القادحات النار تضرم للصلى ... فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج ... كما شب من نار الجحيم وقود
فأفواههن الحاميات صواعق ... وأنفاسهن الزافرات حديد
يشب لآل الجاثليق سعيرها ... وما هى من آل الطريد بعيد

يعنى بآل الطريد بنى أمية الأندلسيين .

ويقول فى ضخامة الجيش الذى فتح به جوهر مصر :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع ... وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثـله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

تسير الجبال الجامدات لسيره . وتسجد من أدنى الحفيف وتركع
إذا حل فى أرض بناها مدائناً وإن سار عن أرض ثوت وهى بلقع

ويجلو لنا ابن هانىء ناحية هامة من تاريخ للمغرب لعهده ، فيذكر لنا وجود للمذهب الخارجى فى المغرب الأقصى وإفريقية فى ذلك الزمن ، وأن الخوارج كانوا يعملون لحساب الدولة الأموية ، ويبين جد الخليفة المعز وعماله فى قتال هذا المذهب المناقض للتشيع من جهة والشايع لدولة معادية من جهة أخرى ؛ فيقول فى أخذ جعفر بن على قلعة حصينة كانت بأيدى الخوارج بإقليم الزاب .

حرورية ما كبر الله خاطب عليها ولا حيّا بها ملكاً وفـــد
وكانت شجا للملك ستين حجة وما طيب وصل لم يكن قبله صد
وعادت بهم حرب الأزارق لاقحاً وإن لم يكن فيها للمهلب والأزد

ويقول فى حرب أبى الفرج الشيبانى مع خوارج المغرب الأقصى :

كل السيوف اللواتى جردت كذب وهو المجرد السيف الحقيقىّ
لم يجهلوا ما ألاقى فى التشيع من تحريض شارية أو بأس شارىّ
وما يذلل من أهل العناد لهم وما يدارى من الدين الأباضى
من يصطلى حر نار أنت موقدها وهى الحرور على الشعب الحرورى

هذا من حيث أحوال الدولة الفاطمية الداخلية ، فأما من حيث علاقاتها الخارجية ، فالشاعر يبدىء القول ويعيده فى بيان العداوة بين الفواطم والأمويين وهو متأثر فى ذلك بعوامل بعضها شخصى كما يؤخذ من قوله يصف فراره من بنى أمية إلى إفريقية ؟

ولو علقته من أميـــة أحبل لجب سنام من بنى الشعر تامك
ولما التقت أسيافها ورماحها شراعاً وقد سدت علىّ المسالك
أجزت عليهم عابراً وتركتها كأن المنايا تحت جنبى أرائك
وما نقموا إلا قـــديم تشيعى فنجى لبيباً شده المتـــدارك

وبعضها عام راجع إلى ما كان بين الأمويين والفاطميين من العداوة فيقول :

وأميـــة تحفى السؤال وما لمن أودى به الطوفان يذكر نوحا ؟

جهلوا فهم يتوهمونك بارزاً والتاج مؤتلقاً عليـــك لموحا

لبسوا معايبهم وزرّه قميـــصهم كاللابسات على الحداد مسوحا

وقد يحمله فرط تعصبه للفواطم على أن يصف الأمويين بالجبن وعدم البصر بالحرب :

وما عرفت كر الجياد أميـــة ولا حملت بز القنا وهو شابك

ولا جردوا نصلاً تخاف شباته ولـكنّ فولاذاً غــدا وهو آنك

ولم تدم في حرب دروع أميـــة ولـكنهم فيها الإماء العوارك

٣ - الناحية التاريخيـــة

من شعر ابن هانئ الأندلسي (*)

ومن العجيب أن ادعاء ابن هانئ جبن أمويي الأندلس على بطلانه ، يكرره داعية فاطمي آخر ، هو الرحالة أبو القاسم بن حوقل للغربي المعاصر لابن هانئ ؛ فيقول في كتابه « صورة أقاليم الأرض » . « ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده ، مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم و بعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ، ومراس الأنجاد والأبطال ، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جباياتها ، ومواقع نعمها ولذاتها » . والشاعر والجغرافي كلاهما يرميان إلى غرض واحد ، هو حمل المعز على غزو الأندلس ؛ ولكن المعز كان أبعد منهما نظراً ، فلم يتورط في حرب جدية مع الأندلس » بل صرف قوته إلى المشرق ، على ما هو معروف .

وليست حملة الشاعر على الأمويين بأقل من حملته على العباسيين ؛ وهو متأثر في ذلك بالفكرة السياسية الشيعية القائلة بأن الخلافة حق لأبناء علي بن أبي طالب دون غيرهم فيقول مخاطبا بني العباس :

أبناء نثـــلة مالـكم ولمعشر ... هم دوحـــة الله الذي يختار ؟

ردوا إليهم حقهم وتنكبوا ... وتحملوا فقـــــد استحم بوار

ولهيهمو زمر المثاني كلما ... أنساكم المثـــنى والمزمار

ويعرض باستخزاء الخلفاء العباسيين وغلبة الأعاجم عليهم .

قـــد مشت بيض الظبي من جفونها ... وكانت بنى تألف سوى الهام تسأم

وقـــد غضبت للدين باسط كفه ... اليمن في الآفاق كالمتظلـــم

والعرب العرباء ذلت خـــدودها ... والفـــــرة البيضاء في الزمن العمي

(*) الثقافة : العدد ٦٢ سنة ١٩٤٠ م

وللملك فى بغـــداد أن رد حكمه إلى عضـــد فى غير كف ومعصم
إلى شلو ميت فى ثياب خليفـــة وبضــــع لحام فى إهاب مورم
فإن يكن العبــــد اللئيم نجاره فما هو من أهل العراق بألأم
سوام رتاع بين جهل وحيرة وملك مضاع بين ترك وديلم

ولما غلب عاهل الروم نقفور فوقاس الثانى على الثغور الإسلامية ، وأوغل فى الجزيرة ونازل أنطاكية ، واستولى أسطوله على قبرس ، وعجز سيف الدولة الحمدانى عن مدافعته لاشتغاله بحرب الطامعين فى ملكه من جهة مصر والعراق ، كان لذلك أثر عميق فى نفوس المسلمين عامة ، لم يخفف منه إلا ضغط جيوش المعز الفاطمى على قوى الروم بصقلية . وفى سنة ٣٥١ استولت تلك الجيوش على قلعة طبرمين من أيدى الروم ورمطة فى سنة ٣٥٣ ؛ وفى عام ٣٥٥ عقد صلح بين المعز و بين الامبراطور نقفور فوقاس ، وقد تجاوبت أقطار العالم الإسلامى بأصداء هذه الهزائم وتلك الانتصارات ؛ وقد سجل ابن هانىء فى شعره تلك الأصداء ، فيقول فى وصف إلحاح الروم على مدن الشام ، وعجز المشارقة عن مدافعتهم :

ما لى رأيت الدين قل نصـيره بالمشرقين وذل حتى حرفا ؟
هم صيروا خدماً تسوس أمورهم يا للزمان الســوء كيف تصرفا !
عبدانُ عبـدانٍ وتبع تبع فالفاضـل المفضول والوجه القفا
يا ويلكم أفما لكم من صارخ إلا بثغر ضاع أو دين عفا ؟
فمدينة من بعد أخرى تستبي وطريقـة فى إثر أخرى تقتفى
حتى لقد رجفت ديار ربيعة وتزلزلت أرض العراق تخوفا
فالشام قد أودى وأودى أهله إلا قليلاً والحجاز على شفا
أيسرُ قوماً أن مكة غودرت بمجر جيش الروم قاعاً صفصفا ؟
أو أن ملحود النبى ورمسه بمدارج الأقدام ينسف منسفا ؟
فتربصوا فالله منجز وعده لقد آن للظلماء أن تتكشفا
هذا المعز ابن النبى المصطفى سيذب عن حرم النبى المصطفى

ويقول فى مدح المعز وفى الفتح الذى تم له على الروم ، ويصف كيف تلقى المعز نبأ ذلك الفتح :

يوم عريض فى الفخار طويل ما تنقضى غرر له وحجول
مسحت ثغور الشام أدمعها به ولقد تبل الترب وهى همول
وجلا ظلام الدين والدنيا به ملك لما قال الكرام فعول
لله عينا من رأى إخباته لما أتاه بريدها الأجفيل
وسجوده حتى التقى عفر الثرى وجبينه والنظم والأكليل
لو أبصرتك الروم يومئذ درت أن الإله بما تشاء كفيل
أنت الذى ترث البلاد لديهم فالأرض فأل والسجود دليل

* * *

وقد يكون أهم من كل ما تقدم ، تلك الناحية من شعر ابن هانئ التى تصف عقائد التشيع الإسمعيلى فى العهد الأفريقى من حياة الدولة الفاطمية[1] . وابن هانئ شديد الحمية للتشيع ، فهو عنده المذهب الحق ، فيقول فى مدح أبى الفرج الشيبانى :

ركن لعمرك من أركان دولتهم وعروة من عرى الدين الحنيفى
كل السيوف الهوانى جردت كذب وهو المجرد للسيف الحقيقى

وعنده أن الأدب الحق والخلق الحق هو الأدب الشيعى والخلق الشيعى :

لله من علوى الرأى منتسب إلى العلى وإلى الأصل مرئ
شيعى أملاك بكر إن هم انتسبوا ولست تلقى أديبا غير شيعى

ويتعرض ابن هانئ لنظرية الإمامة عند الإسمعيلية . فيقول بضرورتها :

إذا كان أمن يشمل الأرض كلها فلا بد فيها من دليل مقدم
إذا كان تفريق اللغات لعلة فلا بد فيها من وسيط مترجم
وآية هذا أن دحا الله أرضه ولكنها لم ترس من غير معلم

---

(١) راجع مقدمة الدكتور زاهد على لديوان ابن هانئ ص ٥٢ — ٥٨ .

وإمامة الإمام لا تثبت بالاجتهاد ، ولكن بالنص ممن قبله :

وما ذاك أخذاً بالفراسة وحدها ولا أنه فيها من الظن مضطر
ولكن موجوداً من الأثر الذي تلقاه عن حبر ضنين به حبر

والإمام مظهر نور الله :

وما كنه هذا النور نور جبينه ولكنّ نور الله فيه مشارك

والإمام موئل علم التأويل ، وهو العلم الذي تعرف به معاني القرآن الحقيقية :

قد كاد ينذر بالوعيـــد لطول ما أصغى إليك ويعلم التأويلا

وعلم التأويل مقصور على الإمام مكتوم عن العامة :

إذا كانت الألباب يقصر شأوها فظلم لسر الله إن لم يكتم

والإمام معصوم من الخطأ :

من كان سيما القدس فوق جبينه فأنا الضمين بأنه لا يجهل

وابن هانئ يعبر في رأي الدكتور زاهد علي عن معنى التوحيد عند الإسمعيلية بقوله مخاطباً الخليفة المعز :

ما شئت لا ما شاءت الأقـــدار فاحكم فأنت الواحد القهار

يقول الدكتور إن الإسمعيلية تنزه الخالق عن الصفات مطلقا ، وتوقعها على المبدع الأول وهو الأمر والكلمة . ولما كان الإمام قائماً مقام الأمر والكلمة في هذا العالم ، فجميع صفات الباري واقعة عليه ، فلا عجب أن أطلق الشاعر « الواحد القهار » على المعز . ولكن يظهر أن قول الشاعر : « ما شئت لا ما شاءت الأقدار » يضعف هذا التفسير ، لذلك عاد الدكتور فعقب على تفسيره للذكور بقوله إن الشعراء كثيراً ما يبالغون فيما يقولون . . . وقد قيل : « أحسن الشعر أكذبه » فليكن إذاً هذا القول الأخير هو وحده الذي يعتذر به عن إسراف الشاعر وغلوه .

* * *

نتبين من كل ما تقدم أن ابن هانىء عرض فى شعره لأم حوادث العالم الإسلامى فى عصره : صور النظم الأساسية للدولة الفاطمية ، وبين من الوجهة الشيعية علاقة هذه الدولة بالدول المعاصرة لها ، ثم ألم بطائفة هامة من عقائد الشيعة الإسمعيلية . وكأنى به ، يقول : إن السر العظيم فى قوة الدولة الفاطمية وسرعة تكونها ، إنما هو فى سياستها الحكيمة التى جرت عليها : سياسة العدل والإحسان والنظام فى الداخل ، والانتصار لقضية الإسلام العامة بإزاء أعدائه فى الخارج ، وإن فواطم إفريقية كانوا بنائين ولم يكونوا هدامين كالقرامطة والحشيشية والملاحدة الذين ينتمون إلى المذهب الإسمعيلى . وليت شعرى هل يستطيع أكثر المؤرخين تعمقاً لفهم الحوادث ، أن يصل إلى أعمق وأصدق مما وصل

بنو فِراس بن غَنْم (*)

يروى أنه لما تواترت الأخبار على الإمام على بن أبى طالب باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد بعد وقعة صفين ، قام على المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه عن الجهاد ومخالفتهم له فى الرأى ، فخطب الناس خطبة قوية جاءت فيها هذه العبارة : « أما والله لوددت أن لى بكم ألف فارس من بنى فراس بن غنم » وهذا العدد الذى تمناه الإمام على قليل جداً بالنسبة إلى جيشه الذى بلغ فى وقعة صفين خمسين ألف مقاتل على أقل تقدير . فمن بنو فراس هؤلاء الذين يعدل الرجل الواحد منهم خمسين رجلا من أصحاب الإمام ؟

قال ابن أبى الحديد فى شرحه على كتاب « نهج البلاغة » . « قال القطب الراوندى : بنو فراس بن غنم هم الروم » . ويخطئ ابن أبى الحديد بحق هذ التفسير ويقول : الصحيح أنهم بنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، حى مشهور بالشجاعة ، منهم علقمة بن فراس وهو جذل الطعان ، ومنهم ربيعة بن مُكَدَّم حامى الظعن حياً وميتاً ، ولم يحم الحريم وهو ميت أحد غيره . عرض له فرسان من بنى سُلَيم ومعه ظعائن من أهله يحميهم وحده ، فطاعنهم ، فرماه أحدهم بسهم أصاب قلبه ، فنصب رمحه فى الأرض واعتمد عليه وهو ثابت فى سرجه لم يزل ولم يمل ، وأشار إلى الظعائن بالرواح ، فسرن حتى بلغن بيوت الحى ، وبنو سليم قيام إزاءه لا يقدمون عليه ويظنونه حياً ، حتى قال قائل منهم إنى لا أراه إلا ميتاً ولو كان حياً لتحرك ؛ إنه والله لمائل راتب على هيئة واحدة لا يرفع يده ولا يحرك رأسه ، فلم يقدم أحد على الدنو منه حتى رموا فرسه بسهم فشب من تحته ، فوقع وهو ميت وفاتتهم الظعائن .

* * *

ومما يجرى مجرى الموازنة بين بنى فراس وأشباههم ، ما يروى من أن للمنصور بن

(*) الثقافة ، عدد ٣١٢ سنة ١٩٤٤ .

عامر الأندلسى كان فى غزاة له فوقف على نشز من الأرض فرأى جيوشه قد ملأت السهل والجبل ، فأعجبه ذلك ، والتفت إلى مقدم العسكر ، ويعرف بابن المصحفى ، وجرى بينهما هذا الحوار :

المنصور — لا يعجزنا أن يكون فى هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والبسالة ؟

ابن المصحفى — يطرق ساكتاً .

المنصور — وما سكوتك ؟ أليس فى هذه الجيوش ألف مقاتل ؟

ابن المصحفى — لا !

المنصور (متعجباً) — أليس فيهم خمسمائة رجل من الأبطال المعدودين ؟

المصحفى — لا !

المنصور (مغضباً) — أفيهم مائة رجل من الأبطال ؟

ابن المصحفى — لا !

المنصور — أفيهم خمسون من الأبطال ؟

ابن المصحفى — لا !

عند ذلك استشاط المنصور غضباً وأمر بمقدم العسكر فأخرج على أقبح صفة .

فلما توسطوا بلاد العدو وتصاف الجمعان ، برز علج من صفوف الأعداء شاك فى سلاحه يكر ويفر وهو ينادى : هل من مبارز ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين ، فتجاولا ساعة فقتله العلج . فصاح المشركون وذل المسلمون ، وكادت تكون كسرة . فقيل للمنصور ، مالها غير ابن المصحفى ! فبعث إليه ، فحضر . فقال له المنصور : ألا ترى ما يصنع هذا العلج الكلب منذ اليوم ؟ قال : بعينى جميع ما جرى ! قال فما الحيلة فيه ؟ قال وما الذى تريد ؟ قال أن تكفى المسلمين شره ، قال : نعم ، الآن !

ثم قصد ابن المصحفى إلى رجال يعرفهم ، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد نشزت أوراكها هزالا ، وهو يحمل قربة ماء بين يديه على الفرس . فقال له ابن المصحفى : ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم ؟ قال : قد رأيته ! فماذا ترى فيه ؟ قال : أو مد رأسه الآن ! قال نعم !

فحمل الرجل القربة إلى رحله ، ولبس لأمة حربه ، وبرز إليه ، فتجاولا ساعة ، فلم ير الناس إلا المسلم خارجا يركض ولا يدرون ما هنالك ، وإذا الرجل يحمل رأس العلج ، فألقى الرأس بين يدى المنصور .

عند ذلك قال ابن المصحفى للمنصور : أخبرتك أنه ليس فى عسكرك من مثله ألف ، ولا خمسمائة ، ولا خمسون ، ولا عشرون ، ولا عشرة . فرده المنصور إلى منزلته وأكرمه .

***

وبعد ، فيقال إن عدة المسلمين فى جميع أنحاء العالم تبلغ اليوم زهاء ثلثمائة مليون من الأنفس . ترى كم فيهم من يشبه بنى فراس ، ويشبه هـذا الفارس الأندلسى المغوار ؟ لسنا نجيب عن هذا السؤال الدقيق . ولـكنا ، ونحن فى مستهل عام هجرى جديد ، نبتهل إلى المولى عز وجل أن يكثر فيهم أمثالهم ، أو أن يجعلهم جميعاً على شاكلة بنى فراس ، وما ذلك عليه سبحانه بعزيز .

قرطبة الإســـــلامية

تقع بين الجبل المنسوب إليها وهو جبل قرطبة من ناحية الشمال ، وبين الوادى الكبير من ناحية الجنوب . وتحتل بقعة خصبة غنية بالمراعى والكروم وشجر الزيتون وغير ذلك مما يجود فى هذه المنطقة من الزروع والثمار .

وهى مدينة عادية قديمة ، لا ندرى أوليتها على التحقيق ، غير أنها ورد ذكرها فى الحرب البونية الثانية . ونبه اسمها على عهد الروم والبيزنطيين ، ثم اضمحل شأنها زمن القوط الذين اتخذوا طليطلة قاعدة لملكهم .

فتحها عنوة مغيث الرومى ، أحد رجال طارق بن زياد ، وذلك عقب وقعة البحيرة التى كانت فى سنة ٩٢ هـ . واتخذها الوالى العربى السمح بن مالك الخولانى قاعدة لأمارة الأندلس وانتقل إليها من إشبيلية سنة ١٠٠ هـ ومما يدل على سوء حال المدينة عند فتح العرب لها ما كتب به السمح إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز « يستشيره ويعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربيها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بجمله وامتناعه من الخوض فى الشتاء عامة ، فإن رأى أمير المؤمنين بنيان سور المدينة فعلت ، فإن قبلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد ، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم . فيقال إن عمر أمر ببنيان القنطرة بصخر السور ، وأن يبنى السور باللبن ، إذ لا يجد له صخراً ، فوضع يداً فبنى القنطرة فى سنة إحدى ومائة » (أخبار مجموعة ص ٢٤) .

هكذا ابتدأ العهد العربى الإسلامى من حياة قرطبة وهو أزهى عهودها على الإطلاق . بلغت فيه قرطبة من النمو والازدهار ما عفى على تاريخها القديم والحديث ، فقد تتابع أمراء العرب وملوك بنى أمية وخلفاؤهم على عمارتها وتوسعتها وتجميلها ، حتى أصبحت فى القرن الرابع الهجرى أعظم مدن المغرب الإسلامى قاطبة ، ومن أمهات العواصم الإسلامية ، وكانت تعدل فى اتساعها أحد جانبى بغداد .

اتخذها السمح بن مالك كما قدمنا قاعدة و بنى جسرها ورم سورها ، وابتنى عبد الرحمن الداخل قصرها ومسجدها الجامع ، كما ابتنى فى شمالها قصر الرصافة لنزله خاصة وزاد عبد الرحمن الأوسط فى مسجدها الجامع ، وجر إلى قرطبة الماء العذب من الجبل الشمالى فى أنابيب الرصاص ، وزاد عبد الرحمن الناصر فى المسجد وابتنى الزهراء غربى قرطبة ، وزاد الحكم المستنصر فى المسجد الجامع وجمله وفخمه ، وأتم بناء الزهراء ؛ فلما كان زمن المنصور بن أبى عامر زاد فى مساحة المسجد الجامع و بنى الزاهرة والعامرية شرقى قرطبة ، كما عقد جسراً آخر على الوادى الكبير . وبذلك بلغت قرطبة فى القرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى غاية اتساعها وعمرانها . و يفصل المقرى فى كتابه « نفح الطيب » الكلام على هذا العمران وذلك الاتساع فيقول « أحصيت دور قرطبة التى بها وأرباضها ، أيام ابن أبى عامر فكانت مائتى ألف وسبعين داراً . وهذه دور الرعية . وأما دور الأكابر والوزراء والكتاب والأجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلاثمائة دار سوى مصارى (أى غرف) الكراء ، والحمامات ، والخانات وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأر بعمائة وخمسة وخمسون حانوتاً » . وينقل المقرى كذلك « إن عدة مساجد قرطبة عند تناهيها فى مدة ابن أبى عامر ألف وستمائة مسجد ، والحمامات تسعمائة حمام » ويقول « إنها تحدق بها البساتين ، والزيتون ، والقرى ، والحصون والمياه ، والعيون ، من كل جانب ، وبها المحرث العظيم الذى ليس له فى بلاد[1] الأندلس نظير ، ولا أعظم منه بركة » .

أما الشريف الإدريسى الذى تثقف فى قرطبة فى أوائل القرن السادس ، فيقول فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » « وهى فى ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضاً ، بين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات . . . ومدينتها الوسطى هى التى فيها باب القنطرة وفيها المسجد الجامع الذى ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولا وعرضاً » . ويستفاد من كلام الشريف الإدريسى أن مركز قرطبة « مدينتها الوسطى » هى ما يعرف « بالقصبة » أو « المدينة » وهى التى فيها المسجد الجامع وقصر الأمارة ، ثم امتدت غرباً فبنى الناصر مدينة الزهراء ،

(١) هو محرث الكنبانية الممتد جنوبى قرطبة على الضفة اليسرى للوادى الكبير .

واتصلت العمارة بينها وبين « المدينة » فنشأ ما يعرف بالجانب الغربي ، كما امتدت من ناحية الشرق فبنى ابن أبي عامر مدينة الزاهرة واتصلت العمارة بين المدينة المتوسطة وبينها ونشأ ما عرف بالجانب الشرقي ، فهذه هي المدن الخمس التي كانت تتألف منها قرطبة الإسلامية ، والتي يشير إليها الإدريسي في عبارته المتقدمة .

* * *

لقد جمع الشاعر ما امتازت به قرطبة الإسلامية من المعالم في قوله :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة وهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم أعظم شيء وهو رابعها

ولم يعد هذا الشاعر الحقيقة التاريخية في سرد معالم قرطبة على النحو المذكور فلنتبع هذا الترتيب في الكلام على هذه المعالم .

١ — أما القنطرة فقديمة ، بناها الروم على نهر الوادي الكبير ، ثم تهدمت قبيل الفتح العربي للأندلس ، فبناها السمح بن مالك كما تقدم القول . ثم تهدمت أجزاء منها بعد ذلك . فرمها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل وأنفق في ذلك أموالا عظيمة ، وأشرف على بنائها بنفسه ، وقد شاهدها الشريف الإدريسي في القرن السادس الهجري ووصفها في كتابه بالضخامة والمتانة وبأن أقواسها سبع عشرة وبأن تحتها في قاع النهر أرحاء يديرها انصباب ماء النهر ، ولا تزال هذه القنطرة قائمة إلى اليوم على الهيئة التي وصفها الإدريسي ، وكانت تلك القنطرة واسطة الاتصال بين قرطبة والأرباض الجنوبية ومن ثم عناية ولاة الأمور الأمويين بأمرها .

أما المسجد الجامع فهو أعظم معالم قرطبة وأشهرها « وليس له مثيل في مساجد المسلمين بنية وتنميقاً وطولا وعرضاً » كما يقول الإدريسي . وكان قبل الفتح العربي للأندلس كنيسة يقال لها كنيسة القديس قنسنت . ويحكي مؤرخو العرب في تحويل هذه الكنيسة إلى مسجد نفس القصة التي يحكونها في تحويل كنيسة القديس يوحنا إلى الجامع الأموي المشهور بدمشق . فيقولون إن الفاتحين استولوا أول الأمر على نصف الكنيسة وحولوه إلى مسجد جامع لهم ، فلما جاء عبد الرحمن الداخل ورأى ضيق المسجد بالمصلين ساوم نصارى قرطبة في النصف الآخر الذي بأيديهم ، واشتراه منهم بثمن ارتضوه ، وفوق ذلك أجاز لهم إعادة

الكنائس الأخرى التي هدمت وقت الفتح . ثم بنى عبد الرحمن الداخل المسجد من جديد من أخماس الغنائم ، وذلك سنة ١٧٠ هـ . ولقد تتابع ملوك بني أمية وخلفاؤهم على المسجد بالزيادة في مساحته ، وتنميقه وزخرفته فزاد فيه عبد الرحمن الأوسط زيادة كبيرة من الناحية القبلية المواجهة للنهر ، و بنى الأمير محمد مقصورته ، ومد الأمير عبد الله بين القصر و بينه ساباطا مسقوفا يمر منه من القصر إلى المسجد . وابتنى الناصر المئذنة ذات الدرجين المعروفة بالصومعة و بالمنارة . على أن أبدع أجزاء المسجد وأروعها الزيادة التي زادها الخليفة الحكم المستنصر في المسجد من الجهة القبلية ، لاسيما المحراب والمنبر والمقصورة ، وقد استعان الحكم في زخرفة هـذا الجزء بصانع يوناني ماهر في الزخرفة بالفسيفساء ، أرسله إليه الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس مع مقادير ضخمة من الفسيفساء ، وكان ذلك بطلب من الحكم نفسه أسوة بما صنعه جده الوليد بن عبد الملك عندما أراد تجديد الجامع الأموي بدمشق .

فلما كان زمن المنصور بن أبي عامر ، ورأى ضيق المسجد بالمصلين لتوافد البربر من المغرب زاد في المسجد من الجهة الشرقيـة زيادة بلغت ثلث مساحة المسجد كله ؛ و بذلك كمل المسجد وأصبح أكبر وأفخم مساجد العالم الإسلامي ، وكان طوله ١٨٠ متراً وعرضه ١٣٠ متراً وكان ثلث مساحته صحناً مكشوفاً ، و بقية المسجد مسقوفة و يشتمل على أكثر من ألف سارية تجعل المسجد أشبه بغابة من النخيل — وقد أورد ابن عذاري في تاريخه تفصيلات طريفة عن الزيادة التي زادها ابن أبي عامر كما أورد إحصاء لما كان المسجد يشتمل عليه من عدد السواري والثريات والمصابيح ، وما كان مرتباً له من مقادير الزيت والشمع والبخور ، وعدد أئمته ، ومقرئيه ، ومؤذنيه ، وسدنته ، وخدامه ، وهو شيء كثير (جـ ٢ ص ٣٠٨)

ومع أن المسجد قد حول إلى كنيسة بعد استيلاء الأسبان على قرطبة ، فإنه برغم ذلك و برغم القدم ، لا يزال حافظا لروعته وجلاله القديمين .

* * *

والـكلام على « الزهراء » يقتضي أولا التعريف بقصر الإمارة بقرطبة .

لقد كان حكام قرطبة من القوط ينزلون قصراً يقع غربي كنيسة القديس فنسنت ، فلما صارت قرطبة قاعدة لإمارة الأندلس عقب الفتح العربي ، اتخذ أمراء العرب هذا القصر

مقراً لهم ، فلما جاء عبد الرحمن الداخل جدد بناءه فى سنة ١٦٨ وانتقل إليه من قصر الرصافة ، وأصبح القصر من ذلك الحين مقراً لأمراء بنى أمية يديرون منه شئون الأندلس كلها ، كما كان جانب منه مدفناً لمن يتوفى منهم . وقد تأنق الأمويون فى بناء مجالس هذا القصر وتنسيق مبانيه ومن هذه المجالس فيما يروى المؤرخون « الكامل ، والروضة ، والبديع ، والمشرق ، والتاج . . . الخ » وكان يحيط بكل القصر سور مانع فيه أبواب كبار منها باب الجامع الذى كان مقابلا للمسجد الجامع .

فلما كان زمن عبد الرحمن الناصر ورأى أن القصر أصبح واغلا فى مدينة يتكاثر سكانها وتتزايد مساحتها أحب أن ينتحى لنفسه وحرمه ودواوينه وخدمه وحشمه وحرسه ، مكاناً خارج قرطبة يختط فيه مدينة خاصة على نحو ما صنع المنصور العباسى عند ما اختط المدينة المدورة ببغداد ، فشرع فى سنة ٣٢٥ ﻫ فى بناء مدينة الزهراء ، وقد سماها باسم جارية كانت حظية لديه ونقش صورتها على بابها فيما يروى ، ثم انتقل الناصر إلى مدينته الجديدة فى سنة ٣٤٧ وقد توفى الناصر ولم يكن قد تم بناؤها . فأتمها من بعده ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦) فكأن بناءها استغرق نحو أربعين عاماً .

وتقع مدينة الزهراء غربى قرطبة بخمسة كيلومترات فى منحدر من الأرض بين جبل العروس من جهة الشمال والوادى الكبير من جهة الجنوب وكانت على شكل مستطيل عظيم طوله ١٥٠٠ متر وعرضه ٧٥٠ متراً ، وقد أفاض المؤرخون ، لا سيما المقرى ، فى وصف مدينة الزهراء وما اشتملت عليه من قصور وروضات وبساتين ، وما كانت تضم من حرم وخدم وحشم وحرس ، وما أنفق عليها من أموال جسام أثار إنفاقها اعتراض المعترضين ونقد الناقدين من علماء قرطبة . ووصفها الشريف الإدريسى ، وقد دب إليها الخراب فقال « وهى فى ذاتها مدينة عظيمة ، مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازى على الجزء الأوسط ، وسطح الثلث الأوسط يوازى على الثلث الأسفل ، وكل ثلث منها له سور ، فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط بساتين وروضات ، والجزء الثالث فيه الديار والجامع » ثم يقول « وهى الآن خراب وفى حال الذهاب » .

ويرجع اضمحلال الزهراء ثم خرابها التى تشير إليه عبارة الإدريسى إلى أمرين :

(١) اتخاذ المنصور بن أبي عامر، عند ما استبد بأمر الأندلس، مدينة اختطها شرق قرطبة في بعض منعطفات الوادي الكبير وسماها «الزاهرة» فكان ذلك مما أخل «الزهراء» وأدى إلى اضمحلال أمرها، (٢) ثم الفتن الكبيرة التي كانت قرطبة مسرحها من مطلع القرن الخامس والتي أطاحت بالدولة الأموية وأدت إلى تخريب الزاهرة والزهراء واضمحلال قرطبة والأندلس بوجه عام.

ولقد دلت أعمال الحفر والتنقيب التي أجراها علماء الآثار الإسبان في مطلع القرن الحالي في موقع الزهراء، على أن ما ذكره مؤرخو العرب من فخامة الزهراء وروعة بنائها لم يكن مبالغاً فيه.

* * *

لقد بلغ عدد سكان قرطبة في أزهى عهودها، أي في القرن الرابع الهجري، نحو نصف مليون نسمة على تقدير المستشرق الكبير دوزي وكانوا يتألفون من عناصر شتى من العرب والمولدين والبربر والصقالبة، وظهر في أيام الفتن التي وقعت في أواخر الدولة الأموية عنصر السودان، وكان إلى جانب هؤلاء جميعاً جاليتان من النصارى واليهود لها شأن في الحياة الاقتصادية والعامة بقرطبة. ولم تكن هذه العناصر مؤتلفة بل كانت مختلفة الأهواء. وأظهر ما كان هذا الاختلاف في الفتن والاضطرابات السياسية. ثم إن أهل قرطبة على وجه العموم كانوا طبقتين عامة وخاصة. أما العامة فكانوا السواد الأعظم من السكان وكانوا يتألفون غالباً من أرباب الحرف والصناعات. وكان فيهم نزوع عجيب إلى الشغب، وميل شديد إلى الفتنة ويقل المقري عن ابن سعيد قوله فيهم «إلا أن عامتها أكثر الناس فضولا، وأشدهم تشنيعاً، ويضرب بهم المثل بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم، حتى أن السيد أبا يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها، كيف وجدت أهل قرطبة؟ فقال مثل الجمل: إن خففت عنه الحمل صاح، وإن أثقلته به صاح، ما ندري أين رضاهم فنقصده، ولا أين سخطهم فنجتنبه، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شراً من عامة العراق!!».

وعلى العكس من العامة كانت الخاصة أو الطبقة الأرستقراطية من أهل قرطبة، وكانت تتألف من أعيان الدولة ورجال القصر من عرب وبربر وصقالبة، يسكنون ضحيات بديعة

تحيط بها الحدائق والبساتين إما فى أطراف المدينة أو فى أرباضها ، كما تتألف من كبار التجار ذوى الثراء الواسع والمتجر العريض ، ومن العلماء والفقهاء والأدباء ومن لهم ميل إلى العلوم والمعارف ، ويصف المؤرخون هذه الطبقة بأجل الصفات وينعتونهم بأحسن النعوت ، يوم المسلمون بقول الإدريسى « وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أظهر من أن تستر ، وإليهم الانتهاء فى السناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزى فى الملابس والمراكب ؛ وعلو الهمة فى المجالس والمراتب ، وجميل التخصص فى المطاعم والمشارب ، مع جميل الخلائق ، وحميد الطرائق اهـ »

* * *

لا شك أن قرطبة الإسلامية كانت مجالا لحياة عامة قوية نشطة كالتى نجدها فى بغداد والقاهرة والقسطنطينية فى العصر الوسيط ، ففى مجال التجارة كانت أسواقها حافلة بشتى العروض الصادرة والواردة ، يقوم على تصريفها طائفة من التجار المياسير الذين لهم اتصال تجارى وثيق بالممالك المطيفة بالبحر الأبيض المتوسط . وفى مجال الدبلوماسية والعلاقات الدولية كانت قرطبة كثيراً ما تتبادل السفارات والوفادات مع أكبر الممالك الأوربية ، لا سيما القسطنطينية ورومية وجرمانيا ، فضلا عن الممالك الإسبانية المسيحية الشمالية . وكثيراً ما كان قدوم وفود هذه الممالك فرصة طيبة لأن تعقد لهم حفلات استقبال فخمة فى قصر قرطبة أو فى مدينة الزهراء . وقد ألم المقرى بوصف بعض هذه الحفلات فى شىء من التفصيل . كما أنه قلما كان يمر عام دون أن تشهد قرطبة عرض الجيوش الأندلسية عند تحركها للغزو ، أو عند عودها مظفرة منصورة .

ومن حيث مظهر الحياة الدينية كان لأهل قرطبة فى مسجدهم الأعظم مناظر فخمة متنوعة طوال العام ، ففى كل يوم جمعة كان الأمير أو الخليفة فى الغالب يؤدى فيه فريضة الجمعة ، ويؤديها معه عدا رجال الدولة وأعيان الناس ، ثلاثة آلاف من لابسى القلانس ، وكان هؤلاء المقلنسون هم الذين لهم حق الفتيا فى الأحكام والشرائع فى القرى التى تقع خارج قرطبة ، كل فى قريته . فكانوا يأتون يوم الجمعة إلى قرطبة للصلاة مع الخليفة ، والتسليم عليه ، ومطالعته بأحوال بلدهم . ولكن المسجد كان أحفل ما يكون ، وأبهى ما يكون ،

في ليالي شهر رمضان والعيدين ، إذ يلتمع بقصاده وعماره ، ويغمره فيض من سنا ثرياته ، وشموعه ، ومصابيحه ، وتتعطر أرجاؤه بشذا ما كان يطلق فيه من البخور والطيوب .

* * *

بيد أن ناحية هامة من هذه الحيوية العجيبة ، وذلك النشاط الجم ، نلحظها في بيئة العلماء ، والفلاسفة ، والأدباء ، بيئة العلم الذي هو أعظم شيء وهو رابع معالم قرطبة كما رتبها الشاعر في بيتيه المذكورين في مطلع هذا المقال . لقد استحال المسجد الجامع جامعة تزخر بالطلاب الذين وفدوا إليها للأخذ عن أئمة اللغة والبيان والفلسفة والأدب . وازدانت قرطبة بنخبة من الطراز الأول من العلماء والمفكرين خلدها التاريخ في صحائفه ، أمثال ابن عبد ربه وأبي على القالي ، وابن زيدون ، وابن حزم ، وابن رشد ، وابن ميمون ، وكانت الراهبة الشاعرة السكسونية « هروزفيتا » شديدة الأعجاب بقرطبة ، وكانت تسميها « جوهرة الدنيا » كما ذكر العلامة دوزي .

وكان لأهل قرطبة ولع شديد بالكتب وغرام باقتناء النادر منها حتى عدت قرطبة أكثر بلدان الأندلس كتباً وحتى كانت الكتب من أروج متاجرها . ولقد سن لهم هذه السنة الحميدة ملوك بني أمية وخلفاؤها لاسيما الحكم المستنصر الذي جمع في مكتبته الآلاف المؤلفة من الكتب المصنفة في مختلف العلوم والفنون والآداب . وينقل المقرى في كتابه نفح الطيب « أنه جرت مناظرة بين يدي يعقوب المنصور الموحدي ، وكانت بين الفقيه أبي الوليد بن رشد والوزير أبي بكر بن زهر ، وكان الأول قرطبياً والثاني إشبيلياً ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة ما أدرى ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم بأشبيلية ، فأريد بيع كتبه ، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها . وإن مات مطرب بقرطبة ، فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية » . ونقل المراكشي عن ابن فياض أنه « كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي ، هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها ! » .

* * *

ظلت قرطبة عاصمة الأندلس وأم مدائن المغرب الإسلامي ثلاثمائة سنة (١٠٠ هـ - ٤٠٠ هـ)

ثم فقدت زعامتها السياسية بزوال الدولة الأموية فى سنة ٤٢٢ هـ . وتتابعت عليها الفتن والمحن السياسية فى أخريات العهد الأموى وزمن الطوائف والمرابطين والموحدين وإن ظلت متماسكة محتفظة بمكانتها الأدبية ، وإلى تلك الحال يشير الإدريسى بقوله « ومدينة قرطبة فى حين تأليفنا لهذا الكتاب طحنتها رحى الفتنة ، وغيرها حلول المصائب والأحداث ، مع اتصال الشدائد على أهلها ، فلم يبق بها منهم الآن إلا الخلق اليسير » .

كان ذلك إيذاناً بالنهاية ، ففى ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ استولى عليها الأسبان وبذلك طويت صحيفتها من حيث هى مدينة إسلامية جليلة القدر اضطلعت بالزعامة السياسية للمغرب الإسلامى أتم اضطلاع ، وأدت رسالتها الثقافية للمشرق وللمغرب عامة أحسن الأداء .

لفتـــة نحو الأندلس (*)

هناك فى القسم الجنوبى من إسبانيا ثلاث مدن عظام هن « قرطبة » وإشبيلية ، وغرناطة . فإذا ما عرجت على جبل طارق سفينة رائحة أو غادية ، وكان يعقبها بعد يومين أو ثلاثة سفينة أخرى تقصد قصدها ، فكثيراً ما يغتم المتشوفون المتطلعون من أهل السفينة الأولى فرصة ما بين الميعادين فيزورون « المثلث » ، وما المثلث هنا إلا خطوط موهومة ثلاثة تصل بين المدائن الثلاث .

ولقد أسعدنى الحظ فزرت ذلك المثلث منذ عام وبعض عام زيارة باحث ومستفيد ، لا زيارة راكب مجتاز .

وأنا امرؤ عاش بالذاكرة والذكرى والخيال فى تلك المدائن منذ أعوام طوال ، ولكنى لم أظفر بالعيش فيها حقاً إلا تلك المرة ، وذلك ما أرجو وآمل أن يكون بداية عهدى بها لا آخره .

* * *

طوفت فى أنحاء قرطبة ، وأشبيلية ، وغرناطة ، وشهدت معالمها ، وقت فى دمنها وآثارها ، واتصلت بأهلها بقدر ما يسمح الخاطر المشغول والوقت المحدود ، فخلصت من كل ذلك إلى أن هذا الثالوث لايزال أبلغ مايعبر عن مقاطع التاريخ الأندلسى الثلاثة : الخلافة ، والطوائف ، وغرناطة .

أما قرطبة فإنها بنهرها المتحدر الوئيد ، وجسرها العجيب ، ومسجدها الفخم ، وزهرائها الدارسة ، وأزقتها الصاعدة الهابطة العربية الأسماء ، وأهلها الذين يغلب عليهم حسن السمت وتمام الوقار ، تصور لعين الباحث المتأمل سذاجة عصر الخلافة وقوته ، وفخامته وروعته . كما ترمز باجتماع المسجد والقصر إلى اجتماع الدين والسياسة فى النظام السياسى الإسلامى ، وهو اجتماع كان مدار الدولة الإسلامية نشوءاً ، واكتمالاً ، وهرماً ، وزوالا .

* * *

(*) « مجلتى » العدد ٤٨ سنة ١٩٣٧ .

زالت الخلافة ، وانفرط عقد الدولة ، وعاد أمر الأندلس جاهلية كما بدأ . سيف ودرع ، وشعر وسجع ، وطاس وكاس ، وجارية وغلام . تلك معالم الحياة العامة على عهد الطوائف ، عهد ابن عباد ، وابن جهور ، وابن حجاج ، وعهد ابن زيدون ، وابن عبدون ، وابن عمار ، وعهد سيف ، وولادة ، واعتماد ، وقمر . فإن شئت أن تتمثل ذلك العصر ، وتنشق عبيره ، وتحس نشوته ، فجل جولة فى طرق إشبيلية ، وقف وقفة بفناء قصرها ، واغش أنديتها فى أى وقت شئت من نهار أو ليل ، فستجدها على طول العمر وتقادم العهد ، لا تزال أمرح البلدان ، وأجملها ، وأطربها ، وآنقها . فهى بلد الرياض الضاحكة ، والقصور الناعمة ، والبيوت الشرقية الوادعة ، و بلد الرقصة الفلنكية الرشيقة ، واصطراع الإنسان والثيران الذى يجيل القلوب فى الصدور ، ثم هى بلد ذوات الحسن والخفر من النساء .

* * *

ولكن وا أسفاه ! فما برحت لذة هذه الدنيا إلى ألم ، ونعيمها إلى بؤس ، وفرحها إلى حزن . وما برح ثمر الخلاف مرا مريرا ، وعاقبة التفرق ويلا وثبورا . لقد أسلم الإسلام بالأندلس الروح إلا ذماء استبقته غرناطة إلى أجل مسمى .

فى غرناطة تجمع ما كان متفرقا فى طول الجزيرة وعرضها ، من حرص على الخلاف ، وتهافت على الترف .

أما الخلاف فلا يزال أثره ملحوظا فى حى البيازين ، بأزقته الضيقة ، و بيوته العابسة ، وأهله المعروفين بحدة الطبع وشكاسة الخلق . وأما الترف فحسبك دليلا عليه قصر الحمراء بأسواره وأبراجه ، وردهاته وأبهائه ، وغرفه ومقاصيره ، وسقفه المرفوعة ، وعمده المنصوبة . وتزاويقه المونقة ، وتهاويله الرائعة ، ومياهه الجارية ، ورياضه الناضرة . فهو صنع قوم تعجلوا فى الدنيا جنة الآخرة ، فالتوى عليهم القصد ، وانعكس الغرض .

خلاف وترف ! ألا لقد حق قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

مسجد قرطبة ، وقصر إشبيلية ، وحمراء غرناطة ! كم فيك من عظات وعبر ! ولكن أين من يتعظ ويعتبر ؟ أما أنا فأشهد لقد رأيت ، وفكرت ، واعتبرت . . . ولكن من أنا ؟

فلما قضيت حق القلب والفكر من المدائن الثلاث ، آذنتها بالرحيل ، وأنا على مثل حال الشريف الرضي حين قال :

ولقد وقفت على ديارهم　　وطلولها بيد البلى نهب
فبكيت حتى ضج من لغب　　نضوى ولج بعذلى الركب
وتلفتت عيني فذ خفيت　　عنى الطلول تلفت القلب

وانطلق القطار بي وبأصحابي نحو مدريد ، فودعت حر الجنوب واستقبلت برد الشمال .

دير الاسكوريال ومكتبته(*)

الاسكوريال اسم يطلق على بناء ضخم فخم يضم ديرا وكنيسة، وقصرا ومدفنا كانا لملوك الأسبان. وهو يبعد عن مدريد بنحو أربعين كيلو متراً، ويقوم على رابية موحشة قاحلة من ربى جبل وادى الرملة، ويقال إن مساحة الأرض التى يشغلها البناء تبلغ بضعة أفدنة، وأن للبناء خمسة عشر مدخلا وبه سبعة أبراج وما لا يقل عن اثنى عشر ألفاً بين نافذة وباب.

شيده عاهل الأسبان فيليب الثانى وفاء لنذر نذره والحرب قائمة بينه وبين فرنسا، وقضى فى تشييده وإحكامه إحدى وعشرين سنة وأنفق فى ذلك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فجاء من أضخم وأعظم ما بنى الإنسان وهو من قبيل المنشآت الشخصية المائلة التى لا يتيسر القيام بها إلا فى أزمان الاستبداد والجبروت فهو يشبه من هذه الناحية هيكل بعلبك وكثيراً من مبانى المصريين القدماء.

زرت الاسكوريال لثمان سنين خلت، وقضيت أياما معدودات باحثا منقبا فى مكتبته القيمة، وكنت أقسم الأيام المذكورة قسمين فأجعل للاسكوريال النهار ولمدريد الليل، ذلك بأن نهار الاسكوريال وإن يكن متاعا للنفس أى متاع، فإن ليله لا يطاق وحشة وسكونا، ورهبة، وشدة برد وبخاصة إذا كان الزمن شتاء.

***

والكنيسة أفخم أقسام الاسكوريال، فهى وحدها تستغرق أكثر من خمس الأرض التى تقوم عليها جملة البناء، وبها الشىء الكثير من روائع الفن على هيئة قباب، وتماثيل وصور أبدعتها ريشة أعظم مصورى الأسبان أمثال الجريكو وقلسكويز. ويقع أسفل الكنيسة مما يلى المحراب مدفن الأسرة التى ملكت الأسبان عصراً طويلا، وهو مدفن رهيب هابط فى الأرض ينتظم نواويس ضخاماً من الرمر قبها رفات الملوك الغابرين مرتبة ترتيب مجيئهم إلى هذه الدنيا وخروجهم منها، وأحدثها وآخرها ناووس كان أعد لجثمان الملك الذى خلع منذ سنوات.

(*) مجلة الرابطة العربية سنة ١٩٣٦

وفوق الرواق الرئيسى للمكتبة تقع مكتبة الأسكوريال الشهيرة ، وهى قسمان ، قسم أوربى عام يشتمل على مجموعة الملك الذى أنشأ الأسكوريال وماضم إليها من مكاتب الأديرة والكنائس ، والمدن ، والمكاتب الخاصة . وهذا مأذون بزيارته للأجانب ، وقد زرته فى صحبة بعض رهبان الدير .

والقسم الآخر عربى مخطوط ولا يؤذن لأجنبى أن يدخله ، وكل من أراد الاطلاع على بعض كتبه فينبغى أن يطلب ما يريد الاطلاع عليه إلى الراهب المختص بذلك القسم فيحضر له ما أراد فى الغرفة الخاصة بالمطالعة . ورهبان الدير يحتفلون عادة بالزوار ولا يقصرون فى إحضار الكتب التى يريدونها .

يحتوى القسم العربى المذكور على نحو ألفى كتاب عربى مخطوط بعضها فى غاية النفاسة ومعدوم النظير ، أذكر من ذلك على سبيل المثال قطعة من قاموس عربى يونانى ألف فى القرن السابع الهجرى ، وكتاب الأنساب لابن الكلبى ، ونسخة من ديوان أبى تمام برواية أبى على القالى ومرتبة ترتيبا يختلف عن ترتيب النسخة المطبوعة .

وهذه المجموعة العربية هى البقية الباقية من مجموعة أكبر منها ترجع على أرجح الأقوال إلى أصلين :

(١) بقايا المكاتب الأندلسية القديمة التى سلمت مما أصاب آثار مسلمى الأندلس من الضياع والتلف فى حروبهم مع الأسبان . وقد جمع شتات هذه البقايا فيما يقال فيليب الثانى وخلفاؤه من بعده وأودعوها ناحية من الأسكوريال .

(٢) مكتبة الأشراف الحسنيين من سلاطين مراكش (٩٥١ — ١٠٦٩ هـ) وذلك أنه فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى وقعت فتنة بين مولاى زيدان سلطان مراكش ١٠١٢ — ١٠٣٨) وبين أخيه أبى فارس الثائر عليه ، واضطر مولاى زيدان إلى التحول عن مراكش — فاستأجر سفينة فرنسية تحمله هو وأهل بيته وكتبه من بعض ثغور المغرب الأقصى إلى أكادير ، فلما حصل بأكادير ، وقع خلاف بينه وبين ربان السفينة على مبلغ الأجرة المستحقة ، فما كان من الربان إلى أن انسل بالكتب تحت جنح الليل يوم مرسيليا .

فلما كان ببعض الطريق عرضت له سفينة أسبانية غصبته الكتب وانطلقت بها إلى أسبانيا وكان خاتمة مطاف تلك الكتب أن أودعت هي أيضاً دير الأسكوريال . »

كانت مكتبة الأسكوريال أول الأمر من أعظم مكاتب أوربا كثرة كتب ونفاسة قيمة ، ولكن شبت النار في مباني الأسكوريال كلها في عام ١٦٧١ م فاحترق من المكتبة نحو ثلاثة أرباعها وسلم الربع فقط ولا تزال آثار الحريق ماثلة فيما سلم حتى اليوم .

وأول من درس محتويات القسم العربي ووضع لها فهرساً باللاتينية راهب مارونى اسمه ميخائيل الغزيرى ، وذلك في منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٩ — ١٧٥٣) وقد ظل ذلك الفهرس الدليل المعتمد للمكتبة إلى أن شرع في أواخر القرن التاسع عشر المستشرق الفرنسى هرتويغ درنبورغ في وضع فهرس جديد بالفرنسية . وقد ظهر الجزء الأول من الفهرس المذكور في عام ١٨٨٤ وظهر الثانى في عام ١٩٠٥ ثم توفى هذا المستشرق قبل تمام عمله . غير أن الجزء الثالث من فهرسه ظهر أخيراً في عام ١٩٢٧ بإشراف مستشرق فرنسى آخر هو الأستاذ ليفي بروفنسال .

وقد أخبرنى قيم المكتبة الأب ملخور أنطونا أنه هو وزملاءه يعدون فهرساً علمياً مطولا للقسم العربى من مكتبة الأسكوريال ، ولكن أرجح أنه لم ينشر منه شىء حتى الآن .

تلك مكتبة الأسكوريال التى يقال إن حكومة مدريد نقلتها من الدير إلى مكان آخر حريز خوفاً عليها من أخطار الحرب القائمة بينها وبين الخارجين عليها فى هذه الأيام .

بلاد عربية تحتضر فيها العروبة (*)

لست أقصد أيها القارئ الكريم بتلك البلاد إلا المغرب الإسلامي الذي يمتد من حدود مصر شرقاً إلى أمواه المحيط الأطلسي غرباً ، ومن سواحل بحر الروم شمالاً إلى سواحل السودان جنوباً ، والذي تنزله من الخلائق من لا يحصيهم سوى خالقهم ورازقهم .

* * *

كان المغرب ولا يزال ميداناً عظيماً من ميادين الصراع الأزلي الأبدي العنيف بين الشرق والغرب ، فيه تصاولت وتطاحنت قرطجنة الشرقية السامية ورومية الغربية الآرية ، فكتب الفوز للثانية على الأولى . وعبر المغرب قروناً عدة وهو قطر روماني حائل اللون لم ترسخ فيه المدنية الرومانية ولا تقررت فيه أصولها . فلما نهض الشرق نهضته الكبرى في ظل الإسلام والعروبة ، وطما سيل الفتوح العربية وعب عبابه ، وغلب الغرب تجاهه على أمره ، عاد المغرب أرضاً شرقية ولكن في صورة جديدة قوامها العروبة والإسلام ، غير أن النزاع القديم بين الشرق والغرب لم ينقطع ، ففي أخريات العصور الوسطى تهاوت جموع الصليبيين على المغرب فلم تثبت لهم به قدم وباءوا بخسران مبين . ثم تجدد الصراع في العصر الحديث ، فكتب الفوز مرة أخرى للغرب على الشرق ، وأصبح المغرب بجملته مستعمرات أوربية ، ووقف الأمر عند ذلك حتى اليوم .

وفي أثناء تلك المحاولات والمساجلات نبغ بالمغرب رجال أصبحوا مضرب الأمثال في البطولة والشجاعة والتضحية ، منهم في الزمن القديم هملكار ، وأسدروبال ، وهنيبال ، ومنهم في العصر الوسيط عقبة ، والكاهنة ، وكسيلة ، وحسان ، وموسى بن نصير ، ويوسف ابن تاشفين ، وعبد المؤمن بن علي وسلالته العظيمة من أمراء الموحدين ، ومنهم في العصر الحديث الأمير عبد القادر الجزائري ، والسيد السنوسي الكبير ، والأمير عبد الكريم

(*) مجلة الرابطة العربية ، في ١٤ أبريل سنه ١٩٣٧ والعجيب أن الأحداث الجارية الآن في تونس ومراكش تدل على أن مضي ستة عشر عاماً لم يغير شيئاً من الحال التي يصفها هذا المقال !

الخطابي بطل الريف وقريع أسبانيا وفرنسا ، والذي لا تزال وقائعه مع هاتين الدولتين ممتوداً غبارها بأرجاء المغرب الأقصى ، وصداها يدوى فى الإسماع .

وينبغى أن ننبه إلى أن المغرب أصبح غداة الفتح العربى أرضاً عربية ، وإن شئت الدقة فى القول فقل إن أجزاءه الشرقية استحالت أرضاً عربية ، فى حين أن أجزاءه الغربية أصبحت وقد استعربت ، وقديماً قسم القدماء عرب الجزيرة نفسها قسمين عاربة ومستعربة فلم يقدح ذلك فى عروبة من استعرب ولا وجد فيه غضاضة على نفسه .

لقد صار المغرب عربيا بأمرين : بهجرة العرب إليه واستعراب البربر أنفسهم . أما الهجرة فابتدأت بالجموع التى تدفقت على المغرب من الجزيرة فى القرنين الأول والثانى الهجريين وانتهت بهجرة العرب الهلالية فى القرن الرابع ، وأما الاستعراب فتم باعتناق البربر الإسلام وتكلمهم العربية وارتباطهم بالفاتحين برباط الصهر والزواج بحيث لم يبتدىء القرن الرابع حتى كانت قد استعربت قبائل البربر الكبرى أمثال كتامة وزناتة وصنهاجة ، وأصبح جميع سكان المغرب من عرب وبربر يداً واحدة على كل من داهم بلادهم إبان الحروب الصليبية والزمن الحديث كما سبقت الإشارة . وبتمام هذه الوحدة الرائعة أمكن ازدهار المدنية الإسلامية فى ربوع المغرب ، وعدت القيروان وتونس وفاس ومراكش مواطن الثقافة الإسلامية العربية وغدا جامع الزيتونة وجامع القرويين من مدارس الإسلام الجامعة ، ونبغ بالمغرب من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة عدد عظيم يشار إلى نفر منهم بالبنان . وتعدى أثر هذه الثقافة الإسلامية العربية إلى صقلية فكان لقاحاً هيأ إيطاليا للنهضة الأدبية العظيمة التى ظهرت بها فى القرن الخامس عشر الميلادى .

ذلك القطر العربى أخذ نجم حياته المستقلة النشطة القوية المثمرة فى الأفول منذ وضع الترك العثمانيون أيديهم عليه فى القرن السادس عشر مع استثناء المغرب الأقصى . فلما عجز الترك أنفسهم عن الدفاع عن أطرافهم فى القرن التاسع عشر تداعت بل تعاوت ذئاب الاستعمار الأوربى على المغرب . فالتقمت اسبانيا لقيمات من المغرب الأقصى ، وتحاملت فرنسا على الجزائر وتونس ومراكش فازدردتها ازدراداً . ثم انقضت إيطاليا على طرابلس بغياً وعدواناً فاستولت عليها بعد أن أبلى أهلها عذراً .

ولا يظنن القارىء أن الاستعمار الأوربي دخل المغرب وهو يريد أن يسوسه على أساس الاحتفاظ بتقاليده وعاداته وإنماء موارده وترقية مرافقه والنهوض به ليظهر أهله واكتساب ودهم وصداقتهم ثم الجلاء عن بلادهم فيكون بذلك قد أسدى إلى الإنسانية يداً عظيمة ومنة باقية على الزمن . كلا ثم كلا ! إن خطته التي جرى هي محو شخصية تلك البلاد وإفناؤها في الدول المستعمرة بهدم مقوماتها الجوهرية من لغة ، ودين ، وعزة قومية . وللاستعمار في الوصول إلى تلك الغاية طرق شتى : منها أنه يعمل على عزل المغرب عن سائر العالم العربي بتصعيب أسباب الاتصال بين المغرب والأقطار العربية الأخرى ، وتشديد المراقبة على العربي الذي يدخل المغرب فلا يسمح له بالاتصال بالأهلين إلا بقدر معلوم ، وطريقة أخرى أبلغ في الوصول إلى الغرض الاستعماري المنشود هي القطع بين حاضر المغرب وماضيه وذلك بإضعاف اللغة العربية ونشر لغة المستعمرين ، والحد من الثقافة الإسلامية والتمكين للثقافة الأجنبية ، ومن ثم ذلك التهالك الذي نلاحظه على ترجمة الكتب العربية القديمة الخاصة بتاريخ المغرب وأدبه وفقهه إلى لغة المستعمرين وخاصة الفرنسية وذلك ليقرأ أهل المغرب تاريخهم وماضيهم باللغة الفرنسية دون العربية . وطريقة ثالثة هي تحبيب التجنس الأجنبي إلى نفوس المغاربة وإثارة النعرة الجنسية البربرية في نفوس البربر ، وما نبأ الظهير الذي صدر في مراكش بوجوب اتباع العرف البربري في دور القضاء ببعيد .

أما العمل على إماتة العزة القومية فحسبنا التدليل عليه بأمرين أو ثلاثة . فمنذ سنوات ست احتفلت فرنسا في نفس المغرب بمرور مائة سنة على فتحها الجزائر وخمسين سنة على فتحها تونس ، ومن عهد قريب نقلت رفات المارشال ليوتي قاهر المغرب الأقصى إلى مراكش ودفنته بها باحتفال مشهود . هذا ولا تفتأ إيطاليا منذ استولت على طرابلس ترنو ببصرها غرباً وشرقاً وتعرض بأنها وارثة الرومان القدماء في البحر الأبيض المتوسط فينبغي أن يؤول إليها ميراث الرومان في هذا البحر كاملا غير منقوص .

الحق أن العروبة والإسلام ماتا في الأندلس بالسيف ، أما في المغرب فإنهما يقضيان صبراً ، إلا أن يتوجه أهل المغرب إلى الله بقلوبهم وعزائمهم ، ويتداركهم الله بنصره ورحمته « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » ؟

فهرست الصور

فهرس الموضوعات

القسم الأول : عصر الدولة العباسية

القسم الثاني : المغرب والأندلس


Bibliotheca Alexandrina
0296871